2020

30.12.2019

طارق علي

مآزق لينين

"الإرهاب والحرب والإمبراطورية والحب والثورة"

ترجمة أمير زكي



طارق علي

مآزق لينين

الإرهاب والحرب والإمبراطورية والحب والثورة

ترجمة

أمير زكي



مــآزق لينـين

*

The Dilemmas of Lenin © Tariq Ali 2017

مآزق لينين
سيرة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨
رقم الإيداع : ١٤٠٦٥/ ٢٠١٨
الترقيم الدولي: ٩٧٨_٩٧٧_٨٠٣_٠٧٣_٠
الغــلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ _ دجلة _ المعادي _ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ _ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



فهرسة أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

علي، طارق

مآزق لينين: سيرة/ تأليف طارق علي، ترجمة : أمير زكي، ـ ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨

٤٢٢ ص، ٢٣ سم

تدمك: ٠ ـ ٠٧٣ ـ ٨٠٣ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

١ – سيرة

أ ـ العنوان

ب ـ زكي، أمير (مترجمًا)

رقم الإيداع: ١٤٠٦٥ الطبعة الأولى ٢٠١٨

إلى هؤلاء الذي سيجيئون من بعدنا:

وحده الماضي هو الذي يمكن أن يفتح أبواب المستقبل.

شكر وتقدير

كُتِب هذا الكتاب حتى يضع لينين في سياق تاريخي ملائم. طالما كان من الممتع جدًا إعادة قراءة أعماله الرئيسية والكتابات المتعلقة بها. يقرأ المرء تلك الأعمال بشكل مختلف الآن عما كان عليه الوضع في القرن السابق، ولكنها تستعيد قوتها. عادة ما أؤلف الكتب بعد نقاش مكثف مع الجمهور في المحاضرات واللقاءات العامة. ولكن في هذه المرة لم يكن هناك من رفيق لديّ سوى الكتب. ومن ضمن هذه الكتب (المذكورة في قسم "المزيد من القراءات")، عليَّ أن أبرِز الأعمال الهامة للراحل جون إريكسون، المؤرخ العسكري الممتاز، فدراساته عن الجيش الأحمر وهياكل قياداته منذ عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٩١ لا نظير لها في أي لغة.

وفي النقاش المختصر عن موضوعات بعينها، ينبغي أن أشكر بيري أندرسون، وروبين بلاكبيرن، وسوزان واتكنز، زملائي في مجلة "نيو ليفت ريفيو"، وسباستيان بودجين، المحرر في دار نشر فيرسو بباريس، والذي أرسل لي، كالمعتاد، نصوص شديدة الإفادة لأبحثها. ومن أجل قراءة المسودة واقتراح تغييرات وإيضاحات مفيدة، أنا ممتن لديفيد فرنباخ، رفيقي لأكثر من خمسين عامًا، وليو هوليس، محرري في فرسو بلندن، الذي كان جده، كريستوفر هوليس، كاتب سيرة ذاتية مبكر للينين، والذي كان بالتأكيد سيرفض جل أطروحاتي هنا. ومارك مارتين بفيرسو ببروكلين، وروان ولسون وبوب بامرا بفيرسو بلندن، الذين كفلوا عملية نشر سلسة.

وأيضًا جزيل الشكر لبن مابي في فرسو ببروكلين، وللإعداد للمسودة الأولى من ثبت أسماء الأعلام.

ط.ع

٢٨ أكتوبر ٢٠١٦

مقدمة

عن لينين

"هنا أقف، لا أستطيع فعل شيء آخر."

مارتن لوثر

لماذا لينين؟ أولًا، لأنه في هذا العام ٢٠١٧ تحل مئوية آخر ثورة عظمى في أوروبا. وعلى خلاف سابقاتها، غيَّرت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ سياسات العالم، وخلال هذه العملية، أعادت تشكيل القرن العشرين بهجوم مجابهٍ للرأسمالية وإمبراطورياتها، وعَجَّلَت من نهاية الاستعمار. ثانيًا، الأيدولوجيا المهيمنة اليوم وبنى السلطة التي تدافع عنها معادية بشدة للنضالات الاجتماعية والتحررية التي اتسم بها القرن الماضي، وهكذا فاستعادة الذاكرة التاريخية والسياسية بقدر الإمكان تصير فعل مقاومة. في هذه الأزمنة السيئة، حتى مظاهر مقاومة الرأسمالية المتاحة محدودة، فهي غير سياسية وغير تاريخية. ليس الغرض من النضال المعاصر أن يكرر الماضي أو يحاكيه، ولكن ينبغي أن يستوعب الدروس التي يقدمها، السلبية منها والإيجابية. ومن المستحيل تحقيق ذلك بينما نتجاهل موضوع هذه الدراسة. لوقت طويل خلال القرن الماضي، غالبًا ما تجاهل لينين هؤلاء الذين احتفوا به، لقد قدسوه، ولكن نادرًا ما قرأوا أعماله، وفي أغلب الأحيان، وفي كل جوانب العالم، أسيء تفسير لينين، وأسيء استخدام أعماله لأسباب

ذرائعية، استخدمها من وقفوا في صفه؛ أي الأحزاب والفصائل الكبيرة والصغيرة التي زعمت أنها تسير على خطاه.

الطائفة التي تعبد لينين، والتي ازدراها لينين حتى في شكلها المبدئي، كان لها تأثير كارثي على أفكاره. حنطت نصوصه، التي لم يكن المقصود منها على الإطلاق أن تكون تعاليم، ولم تُكتَب من أجل ذلك، وأدى هذا إلى صعوبة فهم تكوينه السياسي. لا بد أن توضع هذه الظاهرة عند تقاطع عمليتين تاريخيتين. كان لينين نتاج كل من التاريخ الروسي وحركة العمال الأوروبية. كلاهما طرح أسئلة الطبقة والحزب، الفاعلية والأدوات. أما المركّب الذي طوره لينين فكان مزيجًا من تيارين مختلفين كلية، يمكن أن نقول عليهما، بشكل عام، أنهما الأناركية والماركسية. لعب لينين دورًا محوريًا في انتصار الأخيرة.

هذا هو سبب أنني قبل أن أناقش بعض المشكلات المحددة التي واجهت لينين والبلاشفة، سأشرح بالتفصيل تاريخ هذين التيارين وما قبلهما. بدون هذا البحث لن يسهل فهم المآزق التي واجهها لينين.

يحتاج الأمر إلى خيال واسع لإساءة قراءة لينين وتروتسكي، ولتقديمهما باعتبارهما ليبراليين متنكرين. وبغض النظر عما يظنه المرء فيهما، فوضوح كتاباتهما لا يتيح مساحة كبيرة لإساءة التفسير السياسي. وكما ذكّرنا بيري آندرسون مؤخرًا، كان قَدَر جرامشي، ثالث مفكر رئيسي أنتجه التقليد الشيوعي للأممية الثالثة، مختلفًا بعض الشيء، وذلك لأسباب بعينها متعلقة بسجن الفاشين الإيطاليين له.[1]

1 في مقدمة جديدة للكتاب الذي يضم مقالته "نقائض أنطونيو جرامشي"، يفصل آندرسون محاولات كل من أعداء الشيوعيين وما بعد الشيوعيين المشينة لتحنيط جرامشي، وحتى تقديمه على أنه ديمقراطي ليبرالي، من ضمن الأمور الأخرى.

لنتحدث عن أهم الأمور أولًا؛ بدون لينين لم تكن لتحدث ثورة اشتراكية عام ١٩١٧، يمكننا أن نكون واثقين من ذلك، والدراسات الحديثة المتعلقة بأحداث هذه الفترة تعزز هذا الرأي. ببساطة، لم يكن الفصيل، ثم الحزب، الذي أنشأه عام ١٩٠٣، وبعد عناء، أهلًا لمهمة إشعال ثورة خلال الشهور الحاسمة التي توسطت فبراير وأكتوبر عام ١٩١٧، وهي أكثر الحقب تحررًا في التاريخ الروسي. الغالبية العظمى من قيادات الحزب، قبل عودة لينين، كانت مستعدة لقبول التسويات في العديد من القضايا الرئيسية. الدرس الذي نتعلمه هنا هو أنه حتى الحزب السياسي –خاصة الذي تدرب وتعلم لتحقيق غرض واحد وهو إشعال الثورة– يمكن أن يتعثر ويزل ويسقط في اللحظات الحرجة.

هذا هو الطريق الذي كان يسير فيه البلاشفة، كحزب، سواء من جهة الإستراتيجية أو التكتيك، قبل أبريل عام ١٩١٧. لا يمكن لأي حزب أن يكون على صواب طوال الوقت، وكذلك لا يمكن لزعيم سياسي أن يكون كذلك، حتى لو كان زعيمًا ذا قوة إرادة ومميزات استثنائية. ولكن في هذه الحالة، فهم لينين أنه لو لم يستحوذ على اللحظة، ستنتصر الرجعية مجددًا. لقد حابته الأحداث. جرَّ وراءه قيادة حزب متحفظ من خلال الفوز بدعم قاعدة البلاشفة، والأهم منهم، الجنود الذين اغتربوا كلية عن الحرب. بالنسبة للجنود، كانت الشعارات القادمة من المحرضين البلاشفة على الجبهة تعبيرًا عما كانوا يفكرون فيه ويهمسون به لبعضهم في الخنادق، أو وهُم يشاركون في الهروب الجماعي من الجندية. قَدَّم التاريخ للينين هدية في شكل الحرب العالمية الأولى، تمسك بالهدية بكلتي يديه، واستخدمها لتنظيم العصيان. الثورات هي ما تصنع التاريخ. أما الليبراليون من كل الأنواع فنجدهم على الجانب الآخر، مع بعض الاستثناءات النادرة.[٢]

---

2 دومينيكو لوسوردو، الليبرالية: تاريخ مضاد، لندن ونيويورك، ٢٠١١ (Domenico Losurdo's *Liberalism: A Counter*-History) ممتلئ بالأمثلة الفلسفة الليبرالية في نطاق الممارسة. إحداها

كانت الحرب العالمية هي مأزق لينين الأول. كان الشخص الذي يعجب به كثيرًا واعتبره مرشده هو الاشتراكي الألماني كارل كاوتسكي، وكان استسلام الأخير لحمى الحرب في ألمانيا هو ما هز لينين. آمن بأن فهم ماركس بمثابة المصل الكافي ضد أغلب أمراض المثقفين، خاصة المرض الخاص بالحماسة للحروب الإمبريالية. حل المشكلة بقطيعة معلنة غاضبة مع الحزب الاشتراكي الألماني، متفقًا مع تعريف روزا لوكسمبرج له بأنه "جثة عفنة". ولكن للأسف اتضح أن هذه ليست المسألة، فالجثة كانت بمثابة ثقل كبير على العمال الألمان حتى اليوم.

المأزق الثاني التي كان عليه أن يواجهه تعلق بطريق الثورة. بعد فبراير عام ١٩١٧ لم يعد هذا سؤالًا مجردًا. اختار لينين الثورة الاشتراكية، مما أدى لفوضى بداخل حزبه. في أحد الأوقات اعتبر البلاشفة القدامى "محافظين" غارقين في مستنقع المركزية، ولم يحظ بدعمهم إلا بعدما أدركوا أن عمال بتروجراد كانوا متقدمين عنهم سياسيًا.

هناك جدالات طويلة تدور حول دور الأفراد في التاريخ. منظور القرن الثامن عشر الذي يرى أن التاريخ يصنعه أفراد واعون واجه تحديات قوية في القرن التالي، وذلك من قِبَل العديد من المؤرخين الماركسيين البارزين، كان بالنسبة لهم لا يوجد نقاش جاد للتاريخ بدون تحليل الظروف الاجتماعية والاقتصادية. صاغ ماركس وإنجلز المنظور الذي يرى أن القوى الاجتماعية والمادية تخلق الظروف التي يتغير فيها الأفراد ويتصرفون بطريقة سيكون من المستحيل أن يتصرفوا بها في أحوال مختلفة، وتم الاعتراف بهذا المنظور في جل القرن العشرين بشكل عام. ينطبق هذا على أفراد من مختلف

كان مفيدًا بشكل خاص. يشير إلى أن اعتراف الولايات المتحدة بهايتي بعد الحرب الأهلية الأمريكية كان نفعيًا تمامًا. الولايات المتحدة، ولنكولن، لم يكونا قد تخليا بعد عن فكرة "استثمار جزيرة تحظى بسلطة سوداء، العبيد القدامى فيها، هؤلاء الذين انتقلوا من الجمهورية، ظلوا يستلهمون مبدأ التفوق والنقاء الأبيض" (ص ١٥٣).

الأنماط: نابليون وبسمارك، إلى جانب لينين وماو تسي تونج وهو تشي منه وفيديل كاسترو.

إذا تأخرت الثورة الإنجليزية كان أوليفر كروموبل وعائلته سيعبرون المحيط الأطلنطي ويستقرون في معقل المعارضين بإنجلترا الجديدة. وإذا لم تحدث الثورة الفرنسية، كان بونابرت سيغادر فرنسا كما كان يخطط، ويسعى للحصول على عمل في الجيش الإمبراطوري الروسي. وكما كتب كروبوتكين في تاريخه الكلاسيكي عن الثورة الفرنسية، وهو الكتاب الذي صار جزءاً من التراث العام للحركة الثورة الروسية، السياق هو ما يحدد كل شيء:

"هذا هو سبب أن الثورة الفرنسية، مثل الثورة الإنجليزية في القرن السابق لها، حدثت في لحظة وعت فيها الطبقات المتوسطة، التي انغمست في مصادر الفلسفة القائمة، بحقوقها، وتصورت أسلوبًا جديدًا للتنظيم السياسي. بمعرفتهم القوية، وتطلعهم لتأييد هذه المهمة، شعروا أنهم قادرون تمامًا على الاستيلاء على الحكم، بانتزاعه من أرستقراطية القصر، التي تقود المملكة إلى الدمار، بعدم كفائتها وطيشها وفجورها. ولكن الطبقات المتوسطة والمتعلمة لم تكن تستطيع القيام بشيء وحدها، إذا لم يتبع ذلك سلسلة مكتملة من الظروف، ولم تتحرك جموع الفلاحين. ومن خلال سلسلة من الانتفاضات المتوالية، التي استمرت لأربع سنوات، مع وجود السخط بين الطبقات الوسطى، صار من الممكن مواجهة الملك والبلاط، وخلخلة المؤسسات القديمة وتغيير الدستور السياسي للمملكة".

بدون الحرب العالمية الأولى وفبراير عام ١٩١٧، لكان لينين مات في المنفى، مثل العديد من الثوريين الروس الذي كان قدرهم أن يفوتهم سقوط الأوتوقراطية. كان من الممكن بسهولة أن يصير تروتسكي روائيًا روسيًا بداخل التقليد الكلاسيكي. ولكن حتى إذا حابت الظروف الانتفاضات الثورية، نادرًا ما تكون هناك تنظيمات قادرة على الاستفادة منها. يمتلئ

تاريخ عالمنا بمظاهر العصيان والانتفاضات والثورات الفاشلة. لماذا هُزِم سبارتاكوس؟ لماذا انتصر توسان لوفرتور؟ كل إجابة متضمنة في تاريخ العصور التي عاشوا فيها. كذلك كان الحال مع لينين.

كان المستشار الحديدي لألمانيا الناشئة حديثًا هو الذي أصر على التقليل من شأن دوره، مجادلًا الموقف المحافظ الذكي في خطاب للرايخستاج في شمال ألمانيا عام ١٨٦٩:

"أيها السادة، لا يمكن أن نتجاهل تاريخ الماضي ولا أن نصنع المستقبل. أود أن أحذركم من الخطأ الذي يدفع الناس لتقديم عقارب ساعاتهم، معتقدين أنهم بذلك يسرعون من الزمن. تأثيري على الأحداث التي استفدت منها عادة ما يكون مبالغًا فيه، ولكن لن يراود أي شخص أن يطالبني بأنه ينبغي عليَّ أن أصنع التاريخ. لا يمكنني القيام بذلك، حتى إلى جانبكم، على الرغم من أننا معًا يمكننا أن نقاوم العالم كله. لا يمكننا أن نصنع التاريخ: علينا أن ننتظر حتى يُصنع. لن نجعل الثمار تنضج بشكل أسرع إذا وضعناها تحت ضياء المصابيح؛ وإذا قطفنا الثمار قبل نضجها لن نكون فعلنا شيئًا سوى منعها من النمو وإفسادها".

ورثة بسمارك، أو لنكن أكثر دقة، نيران المدفعية الألمانية أنضجت ثمرة روسيا قبل أوانها. كان لينين واثقًا من أنه في اللحظة التي ستتشابك فيها ثمار شجرتي ألمانيا وروسيا ستكون بقية أنحاء القارة، باستثناء بريطانيا، قد تجاوزت مرحلة النضج وجاهزة للثورة. وبغض النظر عن أي شيء آخر، لم يتردد عن صناعة التاريخ، وأن يقلص تجربة عقد من الزمان إلى يوم واحد. لم تتكشف الأحداث بالضبط كما كان يتوقع بالنسبة لبقية أنحاء أوروبا، ولكن ذلك لأسباب طارئة أكثر منها ظروفًا موضوعية.

هذا الكتاب يضع الأحداث في سياقها، وبدون هذه العملية لن تُفهم الثورة الروسية.

على سبيل المثال، انتهت المرحلة الإرهابية للقرن التاسع عشر، التي التزم بها قطاع كبير من الإنتلجنسيا الليبرالية، عندما صوتت زعامة "إرادة الشعب" بشكل غير معلن على تنفيذ العنصر الوحيد على الأجندة: إعدام ألكسندر الثاني بدون تأجيل. نُفِّذ الإعدام بنجاح بقيادة صوفيا بيروفسكايا: وفي أثناء عمليات القمع التالية، سُحقَت المجموعات الصغيرة التي تبقت. ولا ينبغي التقليل من شأن تأثير تلك الأحداث على كل الأحزاب السياسية الروسية التي ظهرت في العقد الأول من القرن العشرين.

تفكير المؤرخين والأيدولوجيين الليبراليين المتفائل ساعد على دعم وجهة النظر التي تقول إنه بدون "الانحراف" البلشفي، لسار تيار الديمقراطية الروسية بسلاسة واعتمد على المنبع الأوروبي الغربي؟ ولكن أي ديمقراطية هي التي جرت بسلاسة؟ لم يحدث هذا عام ١٩٩١ بشكل يتجاوز عام ١٩١٧. في الواقع، إذا وضعنا في اعتبارنا علاقات القوى والحرب المستمرة، الاحتمالية الأرجح كانت صعود سلطة دكتاتورية عسكرية قاسية تمارس سلطتها من خلال مذابح البوجروم[أ] والقمع واسع النطاق، إلى جانب دعم الحلف (الروسي الفرنسي) المُشَكَّل لإبقاء روسيا في الحرب.

أنتجت ثورة فبراير حكومة ضعيفة لم تستطع التعامل مع الأزمة والتزمت بالحرب. كانت هناك قوتان فقط يمكنهما أن تملأ الفراغ: البلاشفة، بعدما تلقوا درسًا ومراجعة قوية من لينين، والجنرالات كورنيلوف ودينيكين وكولتشاك ورنجل، وجماعة رنجل، الذين قادوا البيض خلال الحرب الأهلية التي تلت الثورة.

عندما لا يكون هناك حزب سياسي أو شخص هُزم أو قُطعت رأسه، فالذي ينتصر هو الرجعية لا الإصلاح. ظل هذا النمط مستمرًا بداية من كافينياك ولويس نابليون، إلى جرونر، ونوسكه وموسوليني وهتلر، من سوهارتو إلى بينوشيه، وفي أعمال كل رئيس أمريكي تقريبًا.

لماذا كانت روسيا ستتخذ مسارًا مختلفًا إذا لم تحدث ثورة، أو إذا هُزِم الجيش الأحمر في الحرب الأهلية؟[3] عادة ما يقلل المؤرخون الليبراليون والمحافظون من شأن أحداث أكتوبر عام ١٩١٧ ويعتبرونها "انقلابًا". لم يكن هذا هو الحال. ولكن صحيح أن البروليتاريا الحضرية، التي اعتمدت عليها الثورة، كانت أقلية من السكان، الذين كان أغلبهم من الفلاحين الذين كانوا منتشرين في الأراضي الريفية البعيدة الكبيرة في البلاد، وهم من دعموا قرارات البلاشفة المتعلقة بملكية الأراضي بعد أكتوبر مباشرة. بدون هذا الدعم المتنامي وسط الفلاحين الفقراء، لم يكن البلاشفة لينتصروا في الحرب الأهلية. مقولة لينين التي ترى أن الأغلبية الإستراتيجية المطلوبة للنجاح لا بد أن تحظي بتفوق حاسم من جهة القوة وذلك في مكان حاسم وزمان حاسم لها معنى مقيد نسبيًا في روسيا.

فقط بعدما حصل البلاشفة على الأغلبية في السوفييتات حددوا وقت العصيان. يمكن انتقاد لينين لأنه اعتمد فقط على العمال، ولكنه هنا كان يتبع تعليمات المؤسسين الكبيرين للحركة، ماركس وإنجلز. كان هذا أيضًا هو السبب الذي جعله يحلّ الجمعية التأسيسية في نوفمبر عام ١٩١٧. هنا جادل البلاشفة أن السوفييتات كانت شكلًا أرقى من الديمقراطية، وأنهم لن يضيعوا الوقت في الجدال مع الاشتراكيين الثوريين في حجرة سيطرت عليها الثورة. ولكن التصويت للبلاشفة في هذه الانتخابات دل على دعم هائل في المدن. ومن مجموع ٣٧,٥ مليون صوت، صوّت ١٦ مليون (معظمهم من المناطق الريفية) الاشتراكيين الثوريين، و١٠ مليون (معظمهم من المناطق

---

3 للاطلاع على آرائي عن الحقبة الستالينية التي اعقبت الثورة، انظر:
طارق علي، الميراث الستاليني: تأثيره على سياسات القرن العشرين، لندن وبولدر، ١٩٨٤.
وطارق علي، الخوف من المرايا، لندن ونيويورك، ٢٠١٦. (رواية أعيد نشرها حديثًا).
The Stalinist Legacy: Its Impact on Twentieth-Century Politics, London and Boulder, 1984, and Tariq Ali, *Fear of Mirrors,* London and New York, 2016.

الحضرية) للبلاشفة و١,٣ مليون (٥٧٠،٠٠٠ منهم كانوا من القوقاز) للمناشفة.

تشتمل الحقب الثورية دائمًا على تباين هائل للوعي السياسي لا يمكن أن يسجله أي استفتاء بدقة. حقيقة أن المعاقل العسكرية في بتروجراد وموسكو انضمت سريعًا إلى البلاشفة كانت مرتبطة بتسارع الكوارث على الجبهة. ببساطة لم يرغب الفلاحون الذين كانوا يرتدون الزي العسكري، الذين حولتهم الحرب إلى الراديكالية السياسية، في الاستمرار في القتال من أجل نظام لا يهتم بهم، وبعائلاتهم وحياتهم، أو الظروف التي حاربوا فيها. كان شعار لينين المختصر الذي يجسد برنامج البلاشفة الانتقالي –"الأرض والسلام والخبز"–شعارًا رائعًا (حتى أن العديد من أعدائه كانوا مجبرين على الاعتراف بذلك). خلف كل كلمة كانت هناك مجموعة من الأفكار تشكل الإستراتيجية البلشفية.

لا يوجد حزب ثوري طليعي يمكنه الانتصار وحده، هذا هو السبب في أن مدمني كلمة "انقلاب" لا يفهمون كثيرًا معنى الثورة. وسواء كنا سنشهدها ثانية (وهذه مسألة أخرى تحتاج إلى نقاش آخر)، فالثورة البروليتارية كما تخيلها ماركس ولينين هي "يقظة" هائلة للملايين المُستَغَلّين، الذين يؤمنون بقدرتهم على تحرير أنفسهم.

الانشقاقات في الدولة، والانقسامات في الطبقة الحاكمة، والتردد لدى الطبقات الوسطى مَهَّد الطريق لسلطة مزدوجة، أدت في روسيا إلى إنشاء مؤسسات جديدة، أما في الصين وفيتنام وكوبا، اعتمدت على الجيوش الثورية ذات التكوينات الطبقية المتنوعة التي تمسكت بالمعركة ضد أجهزة الدولة المتتالية.

في الحالة الروسية، عرض لينين ذلك بوضوح معتاد قبل عدة أسابيع من الثورة الروسية:

"حتى يكون العصيان ناجحًا، لا ينبغي أن يعتمد على مؤامرة أو على حزب، ولكن على طبقة تقدمية. هذه هي النقطة الأولى. ينبغي أن يعتمد العصيان على اندفاعة ثورية للناس، هذه هي النقطة الثانية. ينبغي أن يعتمد التمرد على نقطة تحول في تاريخ الثورة المتنامية حين يكون نشاط الصفوف التقدمية من الناس في ذروته، وحين يكون تردد صفوف العدو وصفوف الضعفاء، والأصدقاء غير المؤمنين كلية وغير المقررين في الثورة في أوجه. هذه هي النقطة الثالثة. تلك الشروط الثلاثة المتعلقة بطرح سؤال العصيان تميز الماركسية عن البلانكية.[ii] وفي اللحظة التي ستتحقق فيها تلك الشروط، حين ترفض معاملة العصيان كفن سيكون خيانة للماركسية والثورة".

بعد الهزيمة في أيام يوليو، عندما حاولت الجماهير أن تقود الحزب في موقف غير ناضج، حُظرت الصحافة البلشفية، وسُجن بعض زعمائها ونُفيّ لينين إلى فنلندا. من هناك أرسل أكثر الرسائل السياسية إلحاحًا في التاريخ الثوري، يدعو ويشرح ويجادل بأن يوليو تراجع مؤقت، وأن الجماهير ستثور مجددًا ولا بد أن يعد الحزب نفسه لذلك. أشار بدقة إلى أن ماركس هو من "أوجز دروس كل الثورات المتعلقة بانتفاضات مسلحة في كلمات دانتون، المعلم الأعظم للسياسات الثورية المعروفة حتى الآن: de l'audace, de l'audace, et toujours de l'audace" (الجرأة، الجرأة، ودائمًا الجرأة). وبحس أكثر استفزازية، سيهيّج النقاد المناشفة والبلاشفة بالاقتباس من نابليون: "لنشتبك أولًا، ثم نرى".

عضوان رئيسيان في اللجنة المركزية البلشفية –وهما كامينيف وزيونفييف– لم يكونا مقتنعين واعترضا بشدة على التمرد، ونشرا موعده في جريدة جوركي. في الحقيقة مسألة تخطيط البلاشفة لثورة لم تكن سرًا كبيرًا. تحدث لينين كثيرًا عن ذلك عندما وصل إلى محطة فنلندا. كان غضبه مفهومًا حين كشفت النسخة البلشفية من روزنكرانتس وجيلدنسترن[iii] في اللجنة

المركزية موعد التمرد المخطط له–عنصر المفاجأة يظل حاسمًا في كل الحروب، ومن ضمنها الصراعات الاجتماعية والسياسية– ولكن في النهاية لم يكن هذا مهمًا على الإطلاق. ظل العصيان قائمًا، ما يثبت أن الطبقة الحاكمة التي كانت في ارتباك عظيم لا حول لها في مواجهة الجماهير المتعطشة للتقدم إلى الأمام، حتى عندما كان أعضاؤها يعرفون موعد الثورة.

لِم يعتبر العصيان فنًا؟ لأن الانتفاضة المسلحة ضد الدولة الرأسمالية أو الجيوش الإمبريالية المحتلة لا بد أن يُخَطَّط لها بدقة، خاصة في مراحلها الأخيرة.[٤] لا بد أن تُقاد ميليشيات العمال والجنود المسلحين باتساق من أجل تحقيق النصر. تُرِك القرار الأخير إلى اللجنة الثورية العسكرية للسوفييت، التي كان يرأسها البلشفي الجديد ليون تروتسكي، والتي كانت تحظى بأغلبية بلشفية. والانتصار أيضًا نُقل إلى السوفييت، ثم نُقِل في جلسة بسمولني ببتروجراد.

كل انتفاضة لها سماتها الخاصة، ولكن هناك أيضًا تشابهات كبيرة بين الثورات. الثورات الثلاث العظمى في التاريخ الأوروبي مرت بمرحلتين مميزتين، كل منها اتخذت نقلة أكثر راديكالية في المرحلة الثانية والأخيرة. تطهير توماس برايد لمجلس العموم في ٦ ديسمبر عام ١٦٤٨ كان المؤشر على محاكمة وإعدام تشارلز ستيوارت، وهو الخط الفاصل الرئيسي في الثورة الإنجليزية التي جعلت التنازل مستحيلًا، الصعود اليعقوبي للسلطة في المجلس الفرنسي (أو الهبوط لو وضعنا في الاعتبار الموضع الذي جلسوا فيه) عام ١٧٩٣ لعب دورًا مشابهًا في الإسراع من العملية الثورية، مع الإعدام المعلن للويس كابيه وماري أنطوانيت في أكتوبر من العام نفسه. "أطروحات أبريل" للينين مهدت الطريق للثورة في أكتوبر عام ١٩١٧.

---

4 هذا كان صحيحًا في بتروجراد عام ١٩١٧ كما كان صحيحًا في بكين عام ١٩٤٩، وكذلك في هافانا عام ١٩٦٠، وهانوي في أغسطس عام ١٩٤٥ وسايجون عام ١٩٧٥.

الاختلاف بين تلك الثورات يتمثل في التالي: بينما دفعت الأحداث كرومويل وروسبيير إلى الأمام، في روسيا كان لينين هو من استخدم الأحداث عن وعي —في حالته، كان الحدث هو تفسخ الأوتوقراطية الروسية كنتيجة للحرب العالمية الأولى—حتى يدفع العمال والجنود في بتروجراد وموسكو نحو عصيان ناجح. عندما استعان لينين بأفكار كرومويل وروبسبير، لم تكن هذه الاستعانة لأسباب أيدولوجية—البيوريتان كانت تقودهم "كلمة الله"، واليعاقبة كانت تقودهم الفضيلة الميتافيزيقية— ولكن لأن الاثنين كانا أستاذين في الإستراتيجية. كلا منهما كان زعيمًا لثورة برجوازية، وكلا منهما كان لديه خلافاته مع الطبقات الثرية؛ والأهم أن كلا منهما كان عليه أن يثوّر طبقة الفلاحين والحرفيين، والعوام، والطبقات الدنيا من أجل أن يتقدموا للأمام. ومثلهما، استوعب لينين أنه لكي يؤمِّن ما يمكن الوصول إليه عليه أن يستهدف ما لا يمكن الوصول إليه، أن يقتحم الفردوس، وأن يتسلق قمة جبل لم يطرقه أحد من قبل.[5]

واجهت كل ثورة من الثورات الثلاث الاحتياج لإنشاء جيوش جديدة تمامًا لتخوض الحروب الأهلية وتدافع عن الدولة الثورية. وكانت الترقية في تلك الجيوش تتم على أساس الكفاءة لا الطبقة. الجيش النموذجي الجديد الخاص بالثورة الإنجليزية شكله الجنرال فيرفاكس المنتمي لطبقة النبلاء؛ ولكن الجيش اشتد عوده حينما هُمشت الأرستقراطية، وحل محل عائلات إيسكس ومانشستر وولر العوام واليومن[iv] وغيرهم. كان الكولونيل

---

5 كتب برتراند راسل: "لم أقابل لينين سوى مرة واحدة: تحدثت معه لمدة ساعة في حجرته بالكرملين عام ١٩٢٠. رأيت أنه يشبه كرومويل أكثر من أي شخصية تاريخية أخرى. ومثل كرومويل، كان مجبرًا على دكتاتورية لأنه أقدر رجل سياسة في حركته الشعبية. ومثل كرومويل، مزج أرثوذوكسية ضيقة في الفكر ببراعة عظيمة ومرونة في الفعل، على الرغم من أنه لم يسمح لنفسه بأن يقدم تنازلاً لأي غرض بخلاف التأسيس المطلق للشيوعية. بدا مخلصًا كلية، ومتجردًا من الأغراض الشخصية. كنت مقتنعًا أنه لا يأبه سوى بالغايات العامة، لا سلطته الشخصية، وكنت مقتنعًا أنه يمكن أن يتنحى عن موقعه في أي لحظة، إذا ساهم ذلك في تقدم قضية الشيوعية.

برايد، الذي طهَّر وكر مجلس العموم القائم على الفساد والامتياز الطبقي، ابنًا لصانع جعة. ويمكن للمرء أن يضيف لتلك الأمثلة عودة مجموعة من المنفيين من إنجلترا الجديدة، الذين عادوا ليدعموا كل من الجبهة الحديدية[٧] والثورة. كان كروميل واضحًا فيما كان يحتاج إليه: "سأُفَضِّل قائدًا ذا معطف رخيص يعرف ما الذي يقاتله، ويحب ما يعرف، أكثر ممن تطلقون عليهم النبلاء، ولا أريد شيئًا أخر". فليتوود، أوكي، لامبرت، ويدمربول، هاريسون، ديسبوره، إيروتون، رينبوره، جوف، والي، جويس، كلهم كانوا مناسبين.[٦]

بعد عِقد أو أكثر، بُني الجيش الثوري الفرنسي على النموذج نفسه. انتُزع أقدر جنرالاته من الصفوف الدنيا أو من الشوارع، وارتقوا سريعًا ليحلوا محل العسكريين النبلاء. في عام ١٧٨٩، بعض من أشهر الضباط وأقدرهم في الجيوش الثورية، ولاحقًا الجيوش النابليونية، جاءوا من مواقع متدنية. دافو، ودوسيه، ومارمون، ومكدونالد كانوا ضباطًا صغارًا، برنادوت (الذي أعاد تشكيل الملكية السويدية لاحقًا) كان رقيبًا أول؛ أوش، وميرسو، ولوفيبر، وبشيجرو، وني، وميسينا، وموارت، وسولت، كانوا ضباطًا بغير تكليف، أوجورو كان أستاذًا في المبارزة، لان كان صباغًا، جوفيون سان سير كان ممثلًا، جوردان كان بائعًا متجولًا، بيسير كان حلاقًا، برون كان منضد بالمطابع، جوبير وجونو كانا طالبي قانون، كليبر كان معماريًا، مارييه لم يمارس الخدمة العسكرية قبل الثورة.[٧]

الأمر نفسه حدث مع الجيش الأحمر، الذي شُكّل بعد الثورة، وتحول إلى قوة حربية عن طريق ليون تروتسكي؛ واحد من الأمثلة القليلة في التاريخ على المثقف العسكري. طلبه الشهير لإنشاء "فرسان حمر"

.6 John Rees, *The Leveller Revolution,* London, 2016

7 V. Duruy, *Histoire de France,* Paris, 1893, t. II, pp. 524–5.

(بروليتاريون على الحصان) أشار إلى تشكيل جيش جديد. في الحقيقة، كانت المشكلة هي نقص الضباط المتمرسين بالتقنيات العسكرية الأساسية، عدد من الضباط القيصريين كانوا مجبرين على الخدمة تحت العين المراقبة للمفوضين السياسيين (المكافئين للمحرضين في الجيش النموذجي الجديد). واحد منهم، الذي عمل في الجيش الإمبراطوري، كان عصاميًا، وقائدًا عسكريًا عبقريًا، نُسيَت قصته لفترة طويلة، وتحتاج إلى إعادة سردها، خاصة لأن لينين وتروتسكي اعتبراه الذراع الثالثة الهامة، الضرورية للاستمرار في ممارسة السياسة بوسائل أخرى، وهو ميخائيل توخاتشيفسكي، دوره في الحرب الأهلية أظهر قدراته العسكرية المذهلة.[8]

الاختلاف بين لينين وسابقيه الثوريين يتلخص في هذا: كل من كرومويل وروبسبيير اعتنقا الثورة في اللحظة التي واجها فيها واقعها، كان من الممكن حدوث الثورة من دونهما، أما لينين فبدأ العمل على تحقيق الثورة قبل ٢٥ عامًا من ١٩١٧، وعلى مدار أربع وعشرين سنة منها عمل بشكل سري، في السجن، وفي المنفى. لقد صنع الكثير بدون أن يتخيل أنه سيشهد ثورة في حياته. في عام ١٩١٧، وهو ما زال في المنفى اعترف أمام جمهور سويسري بأنه وجيله الذي ينتمي إليه ربما لن يشهدا النجاح، كانوا يقاتلون من أجل المستقبل. كان ملتون قد قال إن الإنجليز الأوفياء للملك ليسوا رجالًا أحرارًا، لأن الملكية كانت شكل من العبودية الأخلاقية. بالنسبة للينين كان الأمر نفسه فيما يتعلق بالمؤمنين بالرأسمالية، والإمبراطوريات والأوتوقراطية، وهي عدو أعظم من الملكية الإنجليزية، ويجب مواجهتها وهزيمتها عالميًا. هو، إن لم يكن حزبه، كان مُعدًّا كلية لما هو ضروري أن يحدث، التزم برؤيته المتعلقة بأن عليك طول الوقت أن تعبر عن الأمر بما هو عليه aussprechen was ist وأن تتجنب التفكير المتأمل في الحقيقة. الواقعية الثورية العملية، التي جادل بها لينين طوال حياته

٨ للمزيد من التفاصيل، انظر الفصل ١١.

السياسية، كانت حاسمة في أوقات الانتصار والهزيمة والتغيير. هذه البصيرة هي ما تفسر العديد من القرارات التي اتخذها في حياته. لم يستوعب أبدًا عظم إسهامه كمُنَظِّر، ولكن الفيلسوف المجري جورج لوكاش استوعب ذلك. في مقالة مفعمة بالعاطفة كُتِبَت بعد عدة أسابيع على وفاة لينين عام ١٩٢٤، وصفه بأنه "*بحس تاريخي عالمي هو المُنَظِّر الوحيد المكافئ لماركس* الذي كان نتاجًا للكفاح الساعي لتحرير البروليتاريا".[٩]

لينين كان قاطعًا، ليس فقط في تأكيد نجاح الثورة في مواجهة أغلبية اللجنة المركزية، ولكن أيضًا في حماية الجمهورية الوليدة باتخاذ كل التنازلات الضرورية للألمان في معاهدة برست-ليتوفسك. مرة أخرى يمثل الأقلية في اللجنة المركزية، ومرة أخرى قاوم. اتهمه منافسوه بداخل الحزب وخارجه بالخيانة. اعترف أنه سلام "مخز"، ولكنه كان مقتنعًا أن هذا ضروري لتأمين فترة راحة للثورة. القطاع اليساري، الذي ضم بوخارين وكولونتاي، طالب بشن حرب ثورية ضد ألمانيا، أما تروتسكي فطالب بالجمود التام، الذي وصفه بأنه "لا حرب ولا سلام"، دعم لينين قبول المطالب الحدودية التي تبناها القيصر الألماني. سيكون هذا مجرد انسحاب مؤقت، لأن العمال الألمان سينقلبون على الرايخ الألماني. في كل الأحوال، كان من المستحيل أن تحارب الجيوش الألمانية والرجعية الروسية في الوقت نفسه. كانت معاهدة برست-ليتوفسك وسيلة ضرورية. كانت القيادة الألمانية العليا منزعجة جدًا بالفعل من حقيقة أن الوفد البلشفي قاده يهود معتدّون بأنفسهم، والذين أمروا وقت وصولهم بتوزيع منشورات تخريبية

---

9 György Lukács, *Lenin: A Study on the Unity of His Thought,* tr.Nicholas Jacobs, London.

جورج لوكاش: لينين: دراسة عن وحدة فكره، التوكيد من عندي. في ملحق كتبه عام ١٩٦٧، انتقد لوكاش بعض التأكيدات التي أصدرها في النص المبكر، ولكن لا نقد طال رؤيته العامة عن لينين كمفكر وضع أسس النظرية السياسية الماركسية المستقلة. بالنسبة لشخصية لينين، استعان لوكاش بمديح هاملت لهوراشيو: "ليتبارك هؤلاء الذين تمتزج بشكل طيب دمائهم وأحكامهم، لأنهم ليسوا مزمارًا في أصابع الحظ، يصدر الأصوات في الأوقات التي تعجبه".

تدعو الجنود الألمان للتمرد. مجددًا رفض التاريخ أن يخالف لينين.[10] خسرت ألمانيا الحرب، ووصلت إلى حافة الثورة، ولكنها لم تتجاوز حد التخلص من مَلَكيتها.

طوال خمس سنوات حرجة، منذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٢، ظل لينين على قمة الدولة. كانت شيوعية الحرب ضرورية للانتصار في الحرب الأهلية، ولكن لم يحدث أي إنجاز رئيسي. حُلّت الجيوش البيضاء، ولكن انهيار الزخم الثوري كان واضحًا للغاية. صاحبت الانتكاسات في المجر وبولندا وألمانيا إعادة استقرار مؤقتة للرأسمالية عام ١٩٢١. انتفاضة مارس في وسط ألمانيا في هذا العام كانت آخر جهد ومحاولة قام بها زينوفييف وبيلا كون لتحريض الجماهير الألمانية، ولكنها كانت كارثية ويائسة وغير مسؤولة. الانتفاضة التي نُفِّذَت بتصريح من الأممية الشيوعية، أساءت تقدير الموقف كلية، وخلخلت الحزب الشيوعي الألماني الذي كان ضعيفًا أصلًا. هكذا استقرت جبهات السوفييت، وتراجعت الثورة في أوروبا، أما نخبة الطبقة العاملة الروسية فإما ماتت أو أُنهكَت. انحسرت السياسات الثورية بشكل غير مسبوق.

تطلب هذا خطة جديدة. كانت النتيجة هي السياسة الاقتصادية الجديدة؛ عودة رأسمالية محدودة تراقبها الدولة. تم تصور السياسة الاقتصادية الجديدة كإجراء انتقالي من أجل إحياء الاقتصاد، ونجحت في ذلك، دعمت الإمدادات الغذائية وشبكات التوزيع. ولكن بينما كان يتم تنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة، ضربت البلاد سلسلة من الكوارث الطبيعية، ومن ضمنها الجفاف والعواصف الرملية وغزو الجراد في الأقاليم الجنوبية. ضربت المجاعة البلاد وأثرت على حياة الملايين. نمَت السوق السوداء،

---

10 أفضل رواية عن برست-ليتوفسك، يمكن أن تجدها لدى إيزاك دويتشر "دراما برست-ليتوفسك"
Isaac Deutscher, 'The Drama of Brest-Litovsk', in *The Prophet Armed*, Oxford, 1959.

وكانت قذرة كالعادة، ولكن في هذه اللحظة لم يكن يمكن تقويضها. فر العديد من العمال إلى قراهم. وتشتتت البروليتاريا. كانت الدكتاتورية الثورية في الحقيقة تعمل في الفراغ. وبشكل بطيء تحسن الموقف الاجتماعي والاقتصادي، ولكن في ذلك الوقت، صار الحزب الذي قام بالثورة أشبه بالجهاز البيروقراطي مع مرور الأيام. شعر البعض أنه لا يوجد بديل، ولكن لينين لم يكن من ضمن هؤلاء.

المأزق الأخير الذي سيواجهه كان المأزق الأصعب. أصيب بجلطة، وطُلب منه أن يرتاح جسديًا وسياسيًا وأجبر على التنحي عن الإشراف على الحياة اليومية وإرشادها في الدولة الجديدة. كان لينين مريضًا سيئًا، رفض التوقف عن قراءة الصحف، أو التفكير في السياسة، وبينما كان يحضر ما سيكون المؤتمر الحزبي الأخير له في أبريل عام ١٩٢٢، شعر بالاغتراب عن الاتجاه الذي تتخذه الدولة. تقبَّل نصيبه من المسؤولية، وبينما كان يدرك دور الأسباب المادية في وَضْع الحزب على هذا الطريق، صُدم من المدى الذي سار فيه الحزب وكان قلقًا من العامل الذاتي، أي الحزب وقيادته. كتب قائلًا: "القوى السلطوية، انحرفت بالدولة السوفييتية عن (طريقها السليم)". كتابات لينين الأخيرة كانت محاولة شجاعة لحث الحزب على تغيير مساره. فكر في الأمثلة التاريخية لهزيمة الأوطان، حين استطاع المنهزمون أن يفرضوا ثقافتهم على المنتصرين، وهزموهم روحيًا. شعر أن البيروقراطية القيصرية القديمة استطاعت أن تقهر زملاءه، الذين تبنوا بسهولة الأساليب القديمة في الحكم، إن لم يتبنوا الممارسات الثقافية، لقامعيهم السابقين. نعم، لقد كتب عن كل هذا، كما سأفصل في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب. واعتذَر قائلًا: "يبدو أنني مذنب للغاية أمام عمال روسيا". كان الأمر أقرب لكونه يعيد قراءة مقالة إنجلز "حروب الفلاحين في ألمانيا":

"أسوأ شيء يمكن أن يصيب زعيم حزب متطرف أن يصير مجبرًا على الاستيلاء على الحكم في عصر ليست الحركة فيه ناضجة لسيطرة الطبقة التي يمثلها، ولتحقيق الإجراءات التي تتضمنها السيطرة. ما يمكن أن يفعله لا يعتمد على إرادته بل على حدة صراع المصالح بين طبقتين متنوعتين، وعلى مستوى تطور الوسائل المادية للوجود، وعلاقات الإنتاج ووسائل التواصل، التي عليها يعتمد صراع مصالح الطبقات في أي عصر. مجددًا، ما عليه أن يفعله، وما يطلبه منه الحزب، لا يعتمد عليه، أو على مستوى تطور الصراع الطبقي وظروفه. هو مقيد بعقائده ومطالباته التي يقترحها التي لا تنبثق من العلاقات المتشابكة للطبقات الاجتماعية في لحظة بعينها، أو من مستوى عرضي بشكل أكثر أو أقل من العلاقات أو إنتاج ووسائل التواصل، ولكن من بصيرة نافذة بشكل أكثر أو أقل تنظر إلى النتيجة العامة للحركة الاجتماعية والسياسية. هكذا يجد نفسه بالضرورة في مأزق. ما يمكن أن يفعله يناقض كل أفعاله التي مارسها، كل مبادئه وللمصالح القائمة لحزبه، ما عليه أن يفعله لا يمكن تحقيقه. باختصار، هو مجبر على ألا يمثل حزبه أو طبقته، ولكن الطبقة التي تجعلها الظروف ناضجة ومهيأة للسيطرة. من منطلق مصالح الحركة نفسها، هو مجبر على الدفاع عن مصالح طبقة غريبة، وأن يغذي طبقته بجمل ووعود، مع تأكيد أن مصالح تلك الطبقة الغريبة هي مصالحهم. بغض النظر عمن يضع نفسه في هذا الموقف الشاذ فهو ضائع لا محالة".

بالطبع لم يُمَثّل لينين "طبقة غريبة"، ولكن بعض زملائه كانوا كذلك، وكان لينين واعيًا بذلك، بعض الملاحظات الأخرى التي طرحها إنجلز كانت عكسية. بعض كتابات لينين الأخير أخفيت عن الشعب الروسي لثلاثة وثلاثين عامًا. وهؤلاء الذي كشفوها لم يكونوا قادرين على تنفيذ توصياتها. شهد لينين ما حدث عندما واجه الحزب مهمة إدارة بلد، شعر بالعار من مستوى البيروقراطية الذي وصل إليه الحزب. قبل الثورة تعرض

لانتقادات حادة من روزا لوكسمبورج وقاسية من ليون تروتسكي بسبب مفهومه عن الحزب كمنظمة سرية ومركزية بشكل كبير. دافع عن نفسه باقتدار وبدون اللجوء إلى ماركس، على الرغم من أنه يتضح أنه كان يألف هذه الفقرة من كتاب "رأس المال":

"في كل أنواع الأعمال هناك تعاون بين أفراد عديدين، الاتصال والوحدة العملية ممثلة بالضرورة في الإرادة التي تقود، وفي الأعمال، التي مثلها مثل قائد الأوكسترا، لا تهتم بالجهود الجزئية، ولكن بالنشاط الجماعي".

في الملحق الشهير الذي كتبه لكتاب "ما العمل؟" استخدم لينين صورة الأوركسترا ليوضح كيف ينظم الحزب من جهاز مركزي:

"من أجل ألا يكتفي المركز بالنصيحة والإقناع والجدل مع الأوركسترا -هذا الذي كان عليه الوضع حتى الآن- ولكن أن يقودها بحق، نحتاج إلى معلومات تفصيلية: من يعزف على أي كمان وأين؟ أي آلة يجري التدريب عليها وأيها تم التدرب عليها؟ ومَن يعزف نغمة نشاز (عندما تبدأ الموسيقى تصرّ في الأذن)، وأين ولماذا؟ مَن سيحل محل مَن وكيف سيتصرف لتصويب التنافر؟"

ما يفترضه هذا المفهوم هو إرادة قوية، ولكن أيضًا تفاعل بين المساواة والديمقراطية والسلطة بداخل الحزب، وبالتالي في المجتمع ككل. هذا هو السبب في إيمان لينين بأن الثورة في ألمانيا ستكون جوهرية، لأنه إذا نجحت، ستساعد الجمهورية السوفيتية للتقدم بسهولة أكبر سواء اقتصاديًا أو سياسيًا. وبالنسبة لقدرة الحزب على العمل في سرية، كان هذا هام ليس في روسيا فقط، ولكن للمقاومة التي تقودها الشيوعية في فرنسا وإيطاليا والصين وفيتنام ويوغوسلافيا في الحرب العالمية الثانية أيضًا. الزعماء والأحزاب في تلك البلاد الثلاث الأخيرة أشعلوا الثورات.

في إحدى وصاياه الأخيرة، أصرَّ لينين على إنه إذا هُزِم المرء سياسيًا بسبب مزيج من أخطائه وظروفه الشخصية، على المرء أن يتعلم من الهزيمة من أجل أن يفهم لم حدثت ثم يبدأ في العمل من جديد. كانت الاشتراكية تقديرية، ولم تولد متشكلة كلية، بالتالي على الاشتراكيين أن يعترفوا بأخطائهم بوضوح، بدون ذلك لن يحققوا التقدم. لا خروتشوف ولا جورباتشوف كانا يتمتعان بالبصيرة والقدرة على البدء من جديد. إذا عاش لينين خمس سنوات أخرى، لاتجه الحزب والبلد اتجاهًا مختلفًا، ولتفككت السياسة الاقتصادية الجديدة بحرص أكبر، ولم تكن حدثت القفزة الوحشية نحو التصنيع، ولا كان لينين سيُفني كتلة البلاشفة القدامى في اللجنة المركزية والبلد كله. إلى أي مدى كان سيُنَفِّذ هذا التغيير، وما الذي ستكونه نسبة النجاح، كلها أمور ستظل محلًا للجدل.

لن تحتفل روسيا التي يحكمها بوتين بالمئوية لا في فبراير ولا أكتوبر. "هذه التواريخ ليست في تقويمنا"، هكذا قال بوتين لناشر صحفي ومحرر هندي كبير. هناك روس آخرون، ومنهم معارضون لبوتين، لم يقبلوا حتى بوجود ثورة روسية، وفقًا لهم فما حدث كان من عمل اليهود.[11] أحد القليلين الذين يظلون فوق النقد في هذه الأيام هو ستالين، يرجع ذلك بشكل كبير إلى الحرب "الوطنية العظمى"، ويرجع جزئيًا لأن العديد من القوميين الروس اليوم يحسدونه على أسلوبه في الحكم. تكفين لينين وأفكاره

11 لا أستطيع منع نفسي من تذكر مؤتمر سينمائي في موسكو في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، حضرته بصحبة فريدريك جيمسون. بعدما شاهدنا فيلمًا وثائقيًا سوفييتيًا عن أفغانستان، كان ممتلئًا بالإشارات إلى الكنيسة الأرثوذوكسية، اقترب منا طالب جامعي متحمس قدم نفسه باعتباره معجبًا للغاية بفريد، وقارئ منتظم لمجلة "نيو ليفت ريفيو". ما هو رأينا في الفيلم؟ قلت: "الكثير من الحديث عن الكنيسة، العديد من المعموديات والجنازات. صُدم الطالب. اعترض بقوله إنني لا أعرف روسيا. كانت الكنيسة عنصر حيوي، قَلْب البلاد. سألته: والبلاشفة؟ "لقد كانوا يهودًا". والمناشفة؟ "لقد كانوا يهودًا". ألا يوجد شيء في روسيا يعترف بالروسي ذي الأصل اليهودي؟ لم يفهم السؤال كلية. وعندما أدرك متأخرًا أنه لا أنا ولا جيمسون متأثرين بالفيلم، تركنا وذهب.

هو "الإنجاز" المتبقي من حقبة ستالين. لذلك حان الوقت لندفن جسد لينين، ونحيي بعض أفكاره. ربما تدرك الأجيال المستقبلية في روسيا أن لينين ما زال لديه ما يقدمه أكثر من بيوتر ستوليبين.[vi]



أقدم الشاعر فلاديمير ماياكوفسكي على الانتحار عام ١٩٣٠. في واحدة من قصائده الأخيرة، التي كتبها عام ١٩٢٩، وحملت عنوان "حوار مع الرفيق لينين"، عبّر ماياكوفسكي عن قلقه من نشاطات الحزب في أعقاب موت لينين.

حوار مع الرفيق لينين

وسط دوامة الأحداث
ومكتظًا بالأشغال العديدة
يغرق اليوم ببطء
مع هبوط ظلال الليل
هناك رجلان في الغرفة:
أنا
ولينين –
صورة فوتوغرافية
على بياض الجدار.

يرتفع شعر ذقنه لأعلى
أعلى شفتيه
حين يفتح فمه
ليتكلم.
تجاعيد جبينه المتقلصة
تكتم الأفكار
في قبضتها،

الجبين الهائل
يساويه الفكر الهائل.
تسير تحته غابة من الرايات
الأيدي المرتفعة الكثيفة كالعشب
ينتقلون بخفة
مبتهجين
أقوم من مكاني
مشتاقًا لأراه
وأحييه
وأقوله له
"أيها الرفيق لينين،
أقول لك–
(ليس نصيحة للحُكم
فالقلب يقود وحده)
العمل الشيطاني
الذي سنقوم به
سيتم،
وهو يتم بالفعل
نحن نطعم ونكسو
ونقدم النور للمحتاج

وحصص الفحم
والحديد

كاملة،
ولكن ما زالت هناك
كمية
من الطين
والقمامة المتناثرة
من حولنا.

بدونك،
هناك العديد من الأشياء
غير المُسَيطَر عليها.
كل النزاع والجدل
الذي يعيش فيه المرء.
هناك غثاء
غثاء كثير
يطارد بلادنا

خارج الحدود
وأيضًا داخلها.

حاول أن تحصيهم
وأن تراقبهم
لا مفر من ذلك

موجودون من كل الأنواع،
وهم
لزجون كالقراص،
كالكولاك،
وكموظفي الحكومة،
وفي آخر الصف
السكارى،
والطائفيين،
والمتملقين،
يختالون فخورين
كالطواويس
ترصع صدورهم
النياشين وأقلام الحبر
سنلعقهم،
ولكن لعقهم
ليس عملًا سهلًا على الإطلاق.

على الأراضي التي تغطيها الثلوج
وعلى الحقول المعشوشبة
وفي المباني ذات المداخن
ومواقع المصانع
وأنت في قلوبنا
أيها الرفيق لينين،

نبني،
ونفكر،
ونتنفس
ونعيش
ونقاتل
وسط دوامة الأحداث
ومكتظًا بالأشغال العديدة
يغرق اليوم ببطء
مع هبوط ظلال الليل
هناك رجلان في الغرفة:
أنا
ولينين –
صورة فوتوغرافية
على بياض الجدار". [١٢]

12 ترجمها إلى الإنجليزية دوريان روتنبرج، ١٩٢٩.

القسم الأول

الإرهاب واليوتوبيا

١
الإرهاب في مواجهة الاستبداد

بلاد السياط ومذابح البوجروم. روسيا القيصرية –البطريركية، والمترفة، والبربرية– التي تدعمها أيدولوجيًا الكنيسة الأرثوذكسية (بعاداتها المتأصلة للسامية) وإيمانها المفرط بعقائدها، ويدافع عنها عسكريًا مجموعة من المدعين المتصلبين، وتحيطها الحصون ذات الأشكال الهندسية، وتسيطر عليها اقتصاديًا طبقة ذات ملكيات هائلة، ونبلاء يعتمدون على طيبة الفلاحين الذين يتعرضون لقمع وحشي. طالما تجنبت روسيا القيصرية الانتفاضات الثورية التي غيرت وجه إنجلترا وهولندا وفرنسا، وكذلك الإصلاحات الهيكلية الراديكالية الفوقية التي وحدت ألمانيا من بعدهم. لهذا السبب، نادرًا ما خَلَت روسيا من المعارضة التي ظهرت أحيانًا في المناطق العليا، والسفلى، لقد خلَّق الاستبداد الروسي نقائضه.

في وقت لاحق، وعلى مدار القرن التاسع عشر الطويل، ظهرت إنتلجنسيا معارضة (كلمة إنتلجنسيا ذات أصل روسي) زودت البلد باستمرار بمفكرين ليبراليين، وشعبويين، وإرهابيين إناركيين، وسلاميين، وقوميين، واشتراكيين، وماركسيين، شكَّلوا قوة فعالة في تاريخ أوروبا. شهد هذا القرن ميلاد أوروبا الغربية واليابان وأمريكا الشمالية، وشهد صعود الرأسمالية الصناعية المتسارعة، التي نتجت عنها الإمبريالية. في

الأحوال العادية، يكون هناك تصالح مع البرجوازية الصاعدة، إذ تساعد الأخيرة في إضفاء الامتيازات على الإنتلجنسيا وفي المقابل تحصل على الضرورات المجردة للخطاب المتمدن. ولكن في روسيا كانت العملية مضطربة ومتفجرة.

كان نتاج ذلك دراميًا في الإمبراطورية القيصرية. ثلاث ثورات –يناير ١٩٠٥، فبراير ١٩١٧، وأكتوبر ١٩١٧– في العقدين الأولين من القرن العشرين. ومثلما دفعت الهزيمة في حرب القرم القيصر نحو إجراء إصلاحات، كذلك ساهمت الحرب الروسية اليابانية في عامي ١٩٠٤-١٩٠٥ في تمهيد الطريق لما وصفه لينين بأنه بروفة الثورة عام ١٩٠٥. الحرب "العظمى" بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ جعلت ما جرى في فبراير عام ١٩١٧ حتميًا. أكّد لينين على نجاح ثورة أكتوبر.



تصوير نموذجي للأقنان بعد تحريرهم. في الحقيقة ظلت ظروفهم بائسة.

كان البلاط هو ذروة النظام. مارس القيصر، سواء في موسكو أو سان بطرسبرج، سيطرته على كل جوانب الحياة تقريبًا. ساعدته في ذلك بيروقراطية مقيتة، كثيرًا ما غيَّرت من المواقع الطبقية من خلال فتح الأبواب للمستويات الدنيا من طبقة النبلاء. كان الهدف من هذا الحراك الصاعد تأكيد الاستقرار، ولكنه في بعض الأحيان أدى للعكس. كان كل شيء نسبيًا. تساءل الفلاحون، ومن بعدهم الإنتلجنسيا، هل سيكون الحاكم القادم طيبًا أم خبيثًا.

في عام ١٧٩٦ ، وهو مرتعب بشكل مفهوم بسبب عربات المساجين في باريس، اعترف ألكسندر، حفيد كاثرين والقيصر الصغير والدوق العظيم، لمعلمه الفرنسي "أنه يكره الاستبداد في أي مكان... وأنه يحب الحرية... وأنه يهتم جل الاهتمام بالثورة الفرنسية؛ ورغم أنه يدين أخطاءها البشعة، يأمل في أن تنتصر الجمهورية، وسيكون سعيدًا إذا تم ذلك". لم تغب الثورة الفرنسية أبدًا عن أذهان الحكام والمحكومين في روسيا.

بعد عدة سنوات اشترك ألكسندر في مؤامرة أدت لانقلاب في القصر، واغتيال أبيه بافل الأول، وأدت لإزالة بعض البنى الكريهة في حكمه. أمر ألكسندر بنزع المشانق من الميادين العامة، وسمح باستيراد الكتب الأجنبية وأنهى احتكار الدولة لدور النشر والمطابع. سيعيش حتى يندم على هذا القرار. لم يتغير شيء جوهري. كان الاستبداد متجذرًا، وكانت الأوتوقراطية تحتاجه حتى تستمر في العيش. ولكن لبعض الوقت، كان ألكسندر أفضل مثال على "القيصر الطيب"، بقدر ما كان يرى العديد من رعاياه.

منذ قانون عام ١٦٤٩ –الوقت التي كانت فيه إنجلترا منغمسة في ثورة برجوازية– الذي منع الفلاحين من مغادرة الأراضي بدون أوامر، رَسُخت القنانة تدريجيًا في النظام الاستبدادي. سريعًا صار ملايين الناس مقيدين

بالأراضي. هذا الشكل من الرق الروسي كان له تأثير سلبي على البلاد على عدة مستويات، منها أنه ساهم في انقطاع روسيا عن مظاهر التنمية في أوروبا الغربية، وأخَّر من الرأسمالية وعملية التحديث حتى القرن العشرين. وعندما صدر مرسوم إمبراطوري ينهي هذا القيد القانوني عام ١٨٦١ ، كان هذا تقريبًا الوقت الذي حلت فيه مئوية الثورة الفرنسية.

على خلاف العبيد الأفارقة في شمال أمريكا وجنوبها، أو الهند الغربية، عاش الأقنان الروس في قراهم، وكانوا مسؤولين عن زراعة الأرض المملوكة جماعيًا والمشاركة فيها. ولكن بطرق أخرى عديدة، لم تكن معاناتهم مختلفة كثيرًا عن معاناة العبيد في أي مكان آخر. يرى المؤرخون المعاصرون أن الأقنان الروس كانوا على خلاف العبيد، تمتعوا بـ ١٥٣ إجازة سنويًا، ولكن بخلاف عيدي الفصح والميلاد، وأعياد القديسين العديدة، فتلك الإجازات كانت متعلقة إلى حد كبير بالشتاء الروسي القارس، أكثر منها تصرفًا حميدًا من جانب مُلّاك الأراضي. على سبيل المثال، في عام ١٨٠٠ اضطربت أسعار الأقنان بسبب تقلبات السوق والكوارث الطبيعية، ولكن سعر القن لم يتجاوز أبدًا سعر كلب نقي السلال، خاصة القن القادم من فرنسا أو ألمانيا. بيعت النساء الشابات في الأسواق إلى جانب الجياد والأبقار والعربات المستعملة. كانت الإعلانات المشابهة للإعلان التالي الذي عُلّق موسكو شائعة في أنحاء البلاد: "للبيع في سوق بانتاليمون، أمام سوق اللحوم: فتاة في الثلاثين من عمرها وحصان صغير". عمل الأقنان ذوو الملابس الرسمية في بيوت العائلات الثرية بأعداد كبيرة، امتلكت عائلة شيريميتييف ٣٠٠ قنًا يعملون بالمنزل، وامتلكت عائلة ستروجانوف ٦٠٠ ، وعائلة رازوموفسكس ٩٠٠. تكرر نمط مشابه على مستويات مختلفة في البلاد. بينما تبنى أقنان المنزل ("زنوج المنزل" بحسب الوصف التاريخي الذي أطلقه مالكوم إكس على أقرانهم الأفارقة الأمريكيين) أهواء أسيادهم، تجرع العديد منهم شعورًا عميقًا من المرارة والكراهية. نُشرت مذكرات

الأقنان في الصفحات الأدبية بعد إلغاء الرابط القانوني، واحتوت على تفاصيل عديدة تتعلق بطريقة التعامل التي خضعوا لها بانتظام. كانت الانتهاكات الجنسية تجاه النساء والأطفال شائعة. عندما حل وقت الثورة، لم يعد غضب الأقنان المكبوت مختبئًا. كشف تعداد يعود إلى عام ١٨٢٥ أن وسط عدد السكان الذي بلغ ٤٩ مليون، فالأغلبية العظمى –٣٦ مليون– كانوا أقنانًا. كانت معاداة السامية وهجمات البوجروم منتشرة، ووصلت إلى ذروة اهتياجها عندما شعرت الأوتوقراطية أنها مهددة بسبب اضطرابات الأقنان.

رَصْد الأحداث البارزة في التاريخ الروسي يتضمن انتفاضتين كبيرتين للفلاحين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، تبعهما شبه عصيان قام به ضباط الجيش الراديكاليين في سان بطرسبرج في ديسمبر عام ١٨٢٥. رَسخَت تلك الأحداث الثلاثة بعمق في الذاكرة التاريخية للبلد كله، وتضاعف تأثيرها على القطاعات الراديكالية من السكان. تعلم كل قطاع من المجتمع الدرس الخاص به، كانت الانتفاضات نُذُر للطبيعة المدمرة للطبقة العاملة، أو أمثلة على إمكاناتها التحررية. أنتجت الرجعية الروسية، التي كان اقتصاد القنانة رمزًا لها، نوعًا خاصًا من الاضطرابات. لم يؤد ذلك إلى ثورة كاملة، مثلما كان الحال في إنجلترا وفرنسا، ولكنها أسست نموذجًا أثّر بشكل كبير على الجماعات الشعبوية والإرهابية الأناركية، خاصة الجماعات السرية، تلك التي نظمت ونفذت أعمالًا إرهابية ضد القياصرة والدوقات والجنرالات وكبار البيروقراطيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. كانت تلك تعبيرات مبكرة على الماركسية الروسية التي تطورت ببطء وتحولت إلى جماعة تحرير العمل، ثم بعد ذلك حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، بقطاعيه من البلاشفة (الأغلبية)، والمناشفة (الأقلية).

نَمَت انتفاضات الفلاحين من التقليد الطويل للغضب الريفي الذي بدأ بعد الانتصار النهائي على التتار في معركة كوليكوفو وميلاد الأوتوقراطية القيصرية الروسية الممتدة. ومع نمو الاستبداد الجديد في حجمه وفي مداه، صاحبته احتجاجات محدودة للفلاحين، وعادة ما اقتصرت على مجموعة من القرى الصغيرة، وبعض التتار من الطبقات الدنيا وتابعيهم من الروس الأصليين. كل الناس ذوي الأصول المغولية -التتار، والقيرجيز، والقلميق- عوملوا كجنس أدنى وسُلبوا من حقوقهم، وكان بإمكان طبقة النبلاء الروس أن يجبروهم على حياة القنانة، وبعض النبلاء مارسوا بالفعل هذا الامتياز. والأمر الرائج لدى التجار كان تجارة العبيد الشرعية، التي لم تُحظَر رسميًا سوى عام ١٨٢٨، والتي سمحت ببيع الأطفال ذوي الأصول المغولية في أنحاء الإمبراطورية، وبالطبع خارجها. ساهمت تلك الظروف في اندلاع انتفاضتين واسعتي النطاق، وأثرت الانتفاضتان تأثيرًا قويًا على الوعي السياسي للفلاحين.



١٩١٨: لينين يخصص تمثالًا يكرّم ستينكا رازين.

قاد التمردين قوزاقيان من نهر الدون، وهما ستيبان (ستينكا) رازين (١٦٦٧-١٦٧١)، وبعد قرن لاحق، إيميليان بوجاتشيف (١٧٧٣-١٧٧٥) الذي واجه كاثرين الثانية. الأساس القوزاقي للجماعتين اللتين تمردتا امتد سريعًا وتبدت كل مظاهر الغضب. هُزمت الجماعتان في النهاية. والمثير للاهتمام هو أن رازين وبوجاتشيف وُلدا في قرية زيموفيسكايا جنوب روسيا. من بين الاثنين كان رازين أكثر ميلًا للاستعراض والمغامرة، كان روبن هود قوزاقي يعذب أسراه ويسخر منهم، ووصلت مغامراته إلى بلاد الفرس المجاورة. كان بوجاتشيف أمهر سياسيًا، وادعى أنه أمير محبوب مخلوع كان شبيهًا بها. ازدهرت الحركات الجماهيرية في تلك الأيام على أمثال تلك الأساطير، ولم يقتصر هذا الأمر على روسيا. استولى بوجاتشيف على تساريتسن (التي سُميت لاحقًا ستالينجراد، واليوم تسمى فولجوجراد)، وأقام حصارًا فاشلًا على مدينة سيمبرسك (التي ولد فيها لينين)، وزعم أنه يدافع عن القيصر الطيب ضد طبقة البويار، وحظى بدعم "الكروج" القوزاقي، وهو مجلس تمثيلي وإن كان غير منتخب، للقيام بمسيرة مسلحة إلى الشمال. وأدت المسيرة إلى اندلاع موجة من انتفاضات الفلاحين في الطريق، وضاعف ذلك من حجم الجيش. بعد أربع سنوات على الطريق، وبعد خيانة كبار القوزاق الموالين للقيصر، أُسِر بوجاتشيف وقُطعت رأسه علنًا في الميدان الأحمر بموسكو. وبعد عدة أشهر قُتِل أخوه وأبواه كبيرا السن بالطريقة نفسها. كانت معاقبة الأسر لمنع الثأر في المستقبل تقليدًا قديمًا.

كانت الانتفاضات التي جرت على نهر الفولجا نموذجًا للتقاليد الثورية للفلاحين الروس، وسيظل الشعراء والمغنين الراديكاليين يمجدونها في القرون التالية. على الرغم من أن انتفاضات الفلاحين الشعبية ربطت نفسها بتاريخ المقاومة الوطني (كما كان الحال في الصين والهند)، نادرًا ما غيرت الظروف الحياتية للناس، وعلى أقصى تقدير رفعت عن عاتقهم بعض الأثقال مؤقتًا. على سبيل المثال تعهد رازين "بمحو طبقة البويار وطبقة

النبلاء"، ولكن جهوده باءت بالفشل في زمن كانت المدن الروسية فيه حصونًا للمشاعر الرجعية، والتي يسيطر عليها النبلاء وتابعوهم، وبيروقراطيو الدولة بكافة أشكالهم، وكذلك الجيش. يكتب تروتسكي: "هذا هو سبب أنه بعد كل حركة من تلك الحركات الهائلة... يجرف نهر الفولجا بقع الدم إلى بحر قزوين، وتصير أيدي القيصر وملاك الأراضي القامعة أثقل مما كانت".[1] ومرت عدة عقود بدون انتفاضات فلاحين داخلية.

كانت انتفاضة الديسمبريين عام ١٨٢٥ أول إشارة رئيسية على الغضب الحضري، ثورة عسكرية تأثر أكثر قوادها راديكالية، بافل بيستيل، باليعاقبة والثورة الفرنسية بشكل كبير، تأثر بروسو وروبسبير، وبابوف وبوناروتي. استمرت الروابط الأيدولوجية بين باريس الثورية والقطاعات الراديكالية في الإنتلجنسيا الروسية لأكثر من قرن بعد هزيمة الديسمبريين؛ كانت الإحالات إلى أعوام ١٧٨٩، و١٧٩٣، و١٨١٥ طاغية على نصوص باكونين ولينين وتروتسكي وآخرين. كان تأثير انتفاضة ديسمبر صاعقًا؛ زاد من حجم الإنتلجنسيا الراديكالية الصغيرة، ولكنها الفعالة، الموجودة في الجامعات والدوائر الأدبية. بوشكين، الذي كان لديه أصدقاء مقربين من المتآمرين الديسمبريين، كان في الأصل قد أرسل بطله المحبط من علاقة حب، "يوجين أونيجين" في روايته الشعرية التي تحمل الاسم نفسه، لينضم للديسمبريين. ولكن الظروف أجبرت بوشكين على إحراق بعض من أبياته وإخفاء بعضها. ولكن هذا الوصف للقيصر المنتقم نجا، وضُمِّن في النسخ الحديثة:

"حاكم مرتعش وخبيث
متأنق أصلع وخائن
وحدها الصدفة هي ما جعلته شهيرًا
يحكمنا منذ كل هذه السنين

1Leon Trotsky, *The Young Lenin*, tr. Max Eastman, New York, 1972.

لم نعرفه كصالح للمُلك
حين أرسل الطهاة، الذين ليسوا منا،
ليقتلع عقابنا مزدوج الرأس
حيث غرس بونابرت عمود خيمته".

سُحِق تمرد الديسمبريين بطريقة وحشية. وتبع ذلك الأحكام بالإعدام والسجن. أحُبِط بوشكين تمامًا، ولكنه كان مكتوف الأيدي. تأثر بشدة عندما تجاهلت ماريا فولكونسكايا، وهي امرأة شابة عرفها (وربما أقام معها علاقة) قبل عدة سنوات في طشقند، توسلات عائلتها النبيلة، وأصرَّت على اللحاق بزوجها الديسمبري الأمير سيرجي فولكونسكي، المسجون في سيبريا. كان بوشكين يعرف أنها لا تحب فولكونسكي، الذي كان في ضعف عمرها، ولكن هذا جعل قرارها الحزين والشجاع مذهلًا أكثر في عينيه. كان يفكر في أن هذا هو أنقى شكل من التضامن. كتب لماريا قصيدة "رسالة إلى سيبريا"، وذلك بعد أسبوع من مغادرتها، ودس القصيدة في يدي زوجة ديسمبري آخر، كانت ستغادر موسكو لتلحق بزوجها في المنفي الداخلي:

"عميقًا في مناجم سيبريا
افخري بصبرك
لن يضيع الكفاح المرير
إذ يراه الثوار قائمًا

ستسقط القيود الثقيلة
وستُهدم الجدران أمام الكلمات
وستحييك الحرية في ضوء النهار
وسيعيد لك أشقاءك السيف".[٢]

---

2 كانت هذه أول قصيدة حفظتها عن ظهر قلب حين كنت في السابعة من عمري تقريبًا. تلوتها في اجتماع مبكر في جمعية الكتاب التقدميين التي كان يقودها الشيوعيون في لاهور، في حضور العديد من الشعراء (من ضمنهم شعراء عظام)، والنقاد الأدبيين وهؤلاء الذين يسعون إلى أن يكونوا

صارت الإصلاحات حتمية بسبب الاضطرابات في الريف والمعارضة في الحضر. في عام ١٨٦١ ، ألغى القيصر ألكسندر الثاني القنانة، بينما حافظ على بنى الاستبداد الأخرى. سادت الأرياف موجة من الابتهاج، حتى هبط عليهم الجانب المظلم من القرار؛ صار الأقنان السابقون مثقلين بديون العتق تجاه أسيادهم السابقين، وذلك مقابل الأرض التي صاروا يمتلكونها بعد إنهاء القنانة، بالإضافة إلى الأراضي التي عملوا فيها على مدى قرون. ولكن لم يكن بالإمكان إجبار الفلاحين على دفع ديون العتق، بالتالي ارتفعت معنوياتهم مجددًا. أجبِر ملاك الأراضي على بيع ممتلكاتهم، وتزوجوا مع عائلات التجار واستثمروا في السكك الحديدية والمصانع حتى يحافظوا على استقرارهم المادي، هذا الذي ساهم في نمو الرأسمالية في روسيا. صارت المدن أكثر ثراء وازدهارًا. وبدأ يتساءل البعض لماذا لا يفنى المتسببون في القنانة أيضًا، ومثلما هو الحال دومًا، أدى الإصلاح لظهور مطالب أكثر راديكالية. في الريف نفسه، نصف الفلاحين لم يمتلكوا الأرض كأفراد، وإنما كجمعيات ريفية. بالتالي لم يكن لدى الفلاحين حافز كبير لرعاية الأرض، وصاروا أكثر فقرًا مع مرور الوقت. وفي الوقت نفسه، صار التمييز الاجتماعي في الريف أكثر حدة، وأدى لظهور مجموعة من الفلاحين الأثرياء (الكولاك).

لم تصاحب نهاية الرق إصلاحات سياسية مشابهة، باستثناء تحسن طفيف على المستوى القضائي، ولم يكن هناك أي شكل من التمثيل الشعبي، هذا الأمر الغريب على قوة أوروبية تقترب من القرن العشرين. كان القيصر هو الحاكم الأعظم، يعين الوزراء ويعزلهم بإرادته، ويتمتع بسلطة الحكم بالموت أو الحياة. اتسم معظم أفراد الحاشية بالنفاق المتأصل، ونَفَّذَت بيروقراطية الدولة البليدة والجامدة تعليمات القيصر، واعتبر ضباط الشرطة أنفسهم خدمًا للسلطة، لا العدالة. أين كانت المعارضة؟ وما هي إرادة الشعب؟

شعراء أو نقادًا. كان من ضمنهم فايز أحمد فايز، وسبط حسن، وسجاد زهير، وحميد أخطر، وزهير كشميري، وخديجة مسرور.

في عام ١٨٦٠، كانت الإنتلجنسيا –النخبة المتعلمة غير المتصلة بالبلاط الملكي– محدودة العدد، يتراوح عددها بين ٢٠،٠٠٠ و٢٥،٠٠٠، وسط عدد سكان يغلب عليه الفلاحون ويصل إلى عدد ٦٠ مليون نسمة. بدأت هذه الطبقة الاجتماعية في اعتبار نفسها المعارضة الوحيدة الممكنة للأوتوقراطية. تعليمها ومُثُلها ورغبتها في عمل الخير وشغفها بالتنوير والثورة الفرنسية خلقت جميعًا أساس سياساتها في العقود القادمة.آمن العديد منهم أن الطريق الصحيحة الوحيدة هي "بروباجندا الأفعال". نفذ العمليات الإرهابية أفراد أو جماعات متآمرة صغيرة، ولكنها حظت بدعم واسع. في عام ١٨٦٦، فشلت أول محاولة لاغتيال ألكسندر الثاني: كان كاراكازوف، منفذ محاولة الاغتيال، محتجزًا من قبل الشرطة عندما ظهر القيصر، كان الحوار قصيرًا ولكنه مُعَبِّر:

"لماذ أطلقت عليّ الرصاص؟"

أجاب كاراكازوف المتبجح: "لأنك وعدت الفلاحين بالحرية ثم خدعتهم".

وُلد لينين عام ١٨٧٠، بعد أربع سنوات من محاولة الاغتيال. نشأ جيله في وقت كانت روسيا القيصرية مفعمة بالأفكار الأناركية والراديكالية؛ وكانت مسألة تحرير النساء وإنهاء البطريركية (السيطرة الأبوية الكريهة على النساء الشابات) تُناقَش كثيرًا في الدوائر الفكرية، وكان يُنظر إلى الأعمال الإرهابية الموجهة ضد رموز السلطة بإعجاب وتعاطف. جل ذلك كان نتيجة للبنى السياسية الاستبدادية، التي أضفت على القطاع الروسي المنتمي للحركة الديمقراطية الاجتماعية النامية مجددًا سماته الفريدة. ولكن كانت هناك مسألة أهم من كل ذلك.

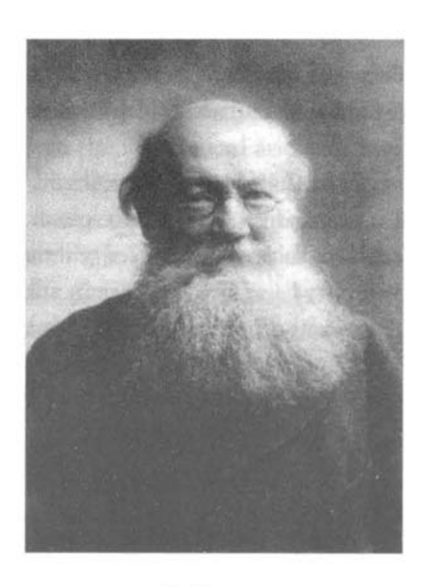
شهدت نهاية القرن التاسع عشر ازدهارًا للأناركية الراديكالية في كل القارات تقريبًا. لحوالي نصف قرن قبل الثورة الروسية عام ١٩١٧، كان النزوع المهيمن على اليسار الراديكالي في أوروبا وغيرها هو الأناركية، لا

الماركسية أو الاشتراكية. كان الأمير كروبوتكين وإريكو مالاتيستا أكثر شعبية من ماركس وإنجلز. انجذب النشطاء أكثر نحو فلسفة الفعل المباشر التي بَشَّر بها باكونين ونيتشايف؛ جذبت مبادئ كتاب "التعاليم الثورية" لنيتشايف العديد من الراديكاليين أكثر من انجذابهم لـ"المانيفستو الشيوعي". الاغتيالات الموجهة للقياصرة والأمراء والرؤساء ورؤساء الوزراء نفذها واحتفى بها أفراد وجماعات صغيرة، واعتبرها النشطاء الشباب في تلك الحقبة أكثر سحرًا وتأثيرًا من إنشاء حزب سياسي راديكالي.

سبقت "الأناركية" البدائية في روسيا الريفية كل المُنَظِّرين في داخل البلد وخارجه بوقت طويل. شاعت ردود الفعل الفردية على الوحشية المُمأسسة. لم يكن ملاك الأراضي الكبار هم المستهدفين عادة، ولكن الوسطاء بينهم وبين الفلاحين. جاء باكونين وكروبوتكين ونيتشايف بعد ذلك. أول اثنين من هذا الثلاثي تجرعا الأناركية خلال سنوات المنفى الطويلة. جاء كلاهما من طبقة النبلاء. ولد الأمير كروبوتكين قبل عقدين من إلغاء العبودية، وفي كتابه "مذكرات ثوري" يصف بشكل حي كيف فتحت علاقاته المقربة والحميمة مع الرقيق المملوكين لعائلته عينيه على الواقع الروسي، وبعد ذلك فتحت عقله على الأفكار الشعبوية الأناركية. كان كروبوتكين من نسل أمراء سمولينسك وبيت روريك الذي حكم دوقية موسكو قبل عائلة رومانوف. كان أبوه من الجنرالات المفضلين للإمبراطور نيكولاي الأول: نباهة كروبوتكين في طفولته لفتت نظر القيصر في التجمعات الملكية. أمر الإمبراطور نيكولاي الأول بأن يلتحق الأمير كروبوتكين بفيلق باج؛ أرفع أكاديمية عسكرية في الإمبراطورية.

برز كروبوتكين في الحياة العسكرية، وعُيِّن سريعًا كحارس شخصي للقيصر الجديد ألكسندر الثاني. عندما أصدر القيصر الإعلان التاريخي الذي حرر الأقنان، تحول إعجاب كروبوتكين بسيده الجديد إلى عبادة للبطل. ولكن هذا لم يستمر طويلًا. بدأت شكوكه في الظهور عندما صار من

الواضح أن أعضاء نبالة الأراضي كانوا يستغلون حرية الأقنان ليمتصوا دماءهم حتى آخر قطرة. بينما رُفع الضباب الذي كان يغشى البصيرة السياسية لكروبوتكين، بدأ يلاحظ الجوانب الكريهة في حياة البلاط: المكائد التي لا تنتهي، والصراع على السلطة، والنفاق الحقير، والعداء الكامن للسامية. تدريجيًا تحول تردده إلى عداء صريح. وصار التعاون مع الأوتوقراطية مستحيلًا. فقد الجيش الروسي قائدًا مستقبليًا موهوبًا، وأوشكت الإنتلجنسيا الراديكالية على الظفر بمجند جديد بارز.



بيتر كروبوتكين: المُنظِّر الأناركي، الذي شكل تأريخه للثورة الفرنسية جيلًا بأكمله

صار كروبوتكين مقربًا من الشعبويين، وسُجن ثم نُفي، حيث تأثر بشكل كبير بمناقشات باكونين الحادة مع ماركس، على الرغم من أن أحد من تلك الجدالات دار حول موافقة باكونين على ترجمة "رأس المال" إلى اللغة الروسية ثم فشله اللاحق في فعل ذلك. أصر على كون الكتاب "مملًا جدًا"، بينما رفض أن يعيد المُقَدَّم الذي حصل عليه لينجز الترجمة.

لم يكن كروبوتكين منجذبًا كثيرًا للجانب العنيف في الأناركية. جادل بأن الثورات الدموية كانت ضرورية في بعض الأحيان (وهنا كان يفكر في الثورات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية)، ولكنها كانت "شرًا على الدوام"؛ أثَّرت الوسائل دومًا على الغايات. وصفه لليوتوبيا الأناركية، كما نُشر في النسخة الشاملة والمحتفى بها من الموسوعة البريطانية (والتي تعود إلى عام ١٩١١)، كان راقيًا، لجأ إلى لغة مهذبة ومنفصلة كثيرًا عن

المؤامرات الإرهابية والنثر العنيف الذي كان يكتبه باكونين ونيتشايف، إلى جانب أفعال الأناركيين المحاربين دوروتي وماخنو:

"الأناركية: (عن اليونانية. ἄυ, and ἀρχη، عكس السلطوية) المصطلح يخص مبدأ أو نظرية في الحياة والسلوك يتم فيها تصور المجتمع بلا حكومة – لا يتم الوصول إلى الانسجام في هذا المجتمع من خلال الخضوع للقانون، ولا الإذعان للسلطة، ولكن من خلال الاتفاق الحر الذي تتوصل إليه جماعات متنوعة، إقليمية كانت أو مهنية، تتكون بشكل حر من أجل الإنتاج والاستهلاك، وكذلك أيضًا لإرضاء عدد لا نهائي من احتياجات وطموحات البشر المتحضرين. في مجتمع نمى على هذه الأفكار، فالاجتماع الطوعي الذي بدأ الآن بالفعل في تغطية كل مجالات النشاط الإنساني سيأخذ منحى أوسع ليحل محل الدولة بكل وظائفها. يمثل شبكة محبوكة النسج، مكونة من مجموعة لا نهائية من الجماعات والفدراليات من كل الأحجام والمستويات، المحلية والإقليمية والوطنية والعالمية، والمؤقتة والثابتة بشكل أكثر أو أقل – لكل الأغراض الممكنة: الإنتاج، والاستهلاك، والتجارة والتواصل والترتيبات الصحية، والتعليم، والحماية المشتركة، والدفاع عن الأرض، إلخ، ومن جهة أخرى، لتحقيق عدد متزايد من الاحتياجات العلمية والفنية والأدبية والاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك لن يمثل هذا المجتمع شيئًا جامدًا، على العكس ـكما يُرى في الحياة العضوية بشكل عامـ سيكون الانسجام نتيجة (متنازع عليها) للتكيف وإعادة التكيف المتغيرين دومًا لتحقيق التوازن بين حشود القوى والتأثيرات، وهذا التكيف سيكون الوصول إليه أيسر إذا لم تتمتع أي من تلك القوى بحماية الدولة".[٣]

كان حاملو لواء الأناركية الرئيسيون هم الإنتلجنسيا الصاعدة حديثًا، والذين ظهروا في الستينيات من القرن الثامن عشر، لم يعودوا مقتصرين على

---

3 هذه المساهمة كُتبت في الواقع في نسخة عام ١٩١٠، ولكنها نُشرت كاملة في نسخة ١٩١١ الأيقونية من الموسوعة.

طبقة النبلاء أو الكنيسة، ولكن صارت تغلب عليهم بشكل متزايد القطاعات الأقل امتيازًا من السكان الحضريين، الذين كانوا نتاجًا لنظام تعليمي أخرج متعلمين كان يمكن أن يصيروا مفيدين للنظام.[4] متجاهلين الطبقة العاملة الصغيرة، بدأ بعض المثقفين في الإشارة لأنفسهم على أنهم "بروليتاريا مثقفة" ورأوا أن مهمتهم هي تحرير الفلاحين من أغلال الاستبداد الأيدولوجية والاقتصادية. رازين وبوجاتشيف افتقدا المعرفة والفهم. لم يختبرا التنوير أو الثورة الفرنسية. كان يمكن للإنتلجنسيا الجديدة أن تتدبر تلك النقائص، وأن تقود الفلاحين إلى القيام بثورة يمكنها أن تتخلص من القيصر والنبلاء مع صرف النظر عن المدن التي يسيطر عليها التجار.

حركة "إلى الشعب" لم تنجح. ركزت على المناطق التقليدية لاضطرابات الفلاحين، لم تتحمس للحركة مناطق أنهار الدون ولا الدنيبر ولا الفولجا. كان هذا وقت مبكر جدًا بعد إصلاح عام ١٨٦٠. كان معظم الفلاحين يثقون في الله وفي القيصر، وعلى الرغم من جشع الرهبان الذي لا يشبع للمال والطعام والجنس، ظلت الكنيسة الأرثوذوكسية هي المرجعية الرئيسية. بالتالي كان الفلاحون عدائيين تجاه سكان المدن، والطبقة العليا، والطلاب، والراديكاليين من كل نوع. لم تكن المدينة موضع ثقة. ليس بعد.

كانت المحاولة الأولى بمثابة كارثة على الطليعة الراديكالية الشعبوية الجديدة: محاكمتان شكليتان كبيرتان، "قضية الخمسين"، و"قضية المائة وثلاث وتسعين"، أقرّت الأحكام القاسية حتى تردع الآخرين الذين قد يسيرون على الطريق نفسه. ولكن الأحكام دفعت الراديكاليين إلى اتجاه مختلف. أقرّت إحدى الجماعات أن التجربة السابقة فشلت بسبب محاولات قيادة الفلاحين والزيارات القصيرة جدًا للريف. سيعودون، ولكن هذه المرة

---

4 أبو لينين كان أحد هؤلاء المتعلمين، محافظ ولكنه ذو عقل مستقل وغير قابل للفساد. عاش في سيمبرسك، المدينة الوحيدة التي استطاع تجارها ونبلاؤها أن يصمدوا أثناء الحصار الذي فرضته جيوش الفلاحين في القرنين السادس والسابع عشر.

سيخدمون الناس: سيعلمونهم، ويشرحون لهم القواعد الصحية الأساسية، ويساعدونهم في أعمالهم اليومية، ويصيرون جزءاً من حياتهم. كان على أفكار باكونين أن تنتظر.[5]

لكن النمو السريع للدوائر الثورية في المدن، أدى إلى دَفع بروباجندا الأفعال إلى المقدمة. كان مُنَظِّرها الرئيسي هو المعلم الريفي سيرجي نيتشايف، الذي كان عمله النهاري هو تدريس اللاهوت في مدرسة إبرشية. في الليل كان يلتهم نصوص الثورة الفرنسية، ووهب نفسه للقضية الأناركية. في عام ١٨٦٦، ترك عمله وانتقل إلى سان بطرسبرج ليقابل ذوي الأفكار المشابهة. كانت المدينة ما تزال تطنُّ بسلسلة من الكتيبات السرية التي حملت عنوان "روسيا الشابة" وكانت تُوَزَّع باسم بيتر زايشنفسكي، وهو معجب آخر باليعاقبة وبماتسيني وتنظيم الكاربوناري الإيطالي، ممثلي "المؤامرة الثورية" والإرهاب. وبالإضافة إلى هذه الجماعة لا بد أن نذكر اسم بيير جوزيف برودون، الكاتب الفرنسي لكتاب "ما المِلكية؟" – الإجابة على هذا السؤال صارت أشهر من المقالة.[vii] كان برودون هو أول من اقترح فكرة الاشتراكية اللا مركزية في مقابل الدولة المركزية. كان زايشنفسكي يترجم برودون إلى الروسية عندما قُبض عليه. إسهاماته الخاصة كانت ستصدم برودون، ناهيك عن تولستوي وكروبوتكين. هيرزن، الأب الفكري للشعبوية الروسية، صرَّح أن تلك الأفكار كريهة.

في "روسيا الشابة" استعاد زايشنفسكي بطولة رازين وبوجاتشيف ودعا إلى ثورة "دموية وخالية من الرحمة" تمضي أبعد من الأهداف المحدودة لأسلافهم الفلاحين. الآن يطرح في نسخته من ثنائية الصديق/العدو، أنه

---

5 الاختلاف مع الماويين في القرن العشرين جدير بالملاحظة. في أثناء "الثورة الثقافية البروليتارية العظمى"، أرسل الحراس الحمر إلى الريف ليعرفوا كيف يعيش الفلاحون. الحدث نفسه فيه تشابه مع جوانب الأيدولوجيا الباكونينية أكثر من نموذج كميونة باريس.

حان الوقت لتفنى العائلة المالكة القيصرية ببرود وبلا رحمة، وكذلك تفني حاشيتهم والنبلاء الذين يدعمونهم:

"سنصيح (إلى فؤوسكم) ثم سنهاجم الحزب الإمبريالي بدون أن ندخر ضرباتنا، مثلما لا يدخرون ضرباتهم لنا. سندمرهم في الميادين، إذا جرؤ الجبان الرعديد على الذهاب إلى هناك. سندمرهم في منازلهم، في الشوارع الضيقة بالمدن، وفي الطرق الواسعة في العاصمة، وفي القرى. تذكروا إنه عندما يحدث ذلك، أي شخص ليس معنا فهو علينا، هو عدو، وبالتالي يمكن استخدام كل الأساليب لتدمير العدو".

كان هذا هو المناخ السياسي في الستينيات من القرن الثامن عشر في الأقبية البوهيمية والسياسية في العالم السفلي في روسيا. أيد معلم اللاهوت السابق بقوة ما تم اقتراحه. على الرغم من أنه لم يكن متزنًا كلية، كان نيتشايف واحدًا من أكثر الشخصيات الكاريزمية التي أنتجتها الأناركية الروسية، وكانت المنافسة شرسة في هذه الساحة. صار متعاونًا من باكونين، ووفقًا لجورج وودكوك (أحد أبرز مؤرخي الأناركية) ربما كان عشيقه.[6] الرابط الذي يمزج السياسي بالجنسي بالعاطفي والذي فرضه نيتشايف (الذي كان في بداية عشرينياته) على رفيقه الأكبر سنًا، اعتُبر مسؤولًا عن يسارية باكونين المتطرفة، وتأليفهما المشترك لكتاب "التعاليم". كان تحديد المؤلف متنازع عليه بسبب عنف اللغة، والعدمية المفرطة واللا أخلاقية السياسية، ولكن العمل انتشر جدًا. نيتشايف كان خياليًا بطرق عديدة، ولكنه لم يكن وحيدًا، كان نتاج الثقافة السياسية المهيمنة على هذه

---

6 George Woodcock, *Anarchism*, London, 1963, p. 159.

يكتب وودكوك بتحفظ ويحس فيه رهاب طفيف من المثلية: "الإعجاب الذي كنّه نيتشايف لباكونين يذكرنا بعلاقات كارثية أخرى بين رجال في عمرين مختلفية كلية: رامبو وفرلين، أو لورد آلفرد دوجلاس وأوسكار وايلد. يبدو أن هذا بالتأكيد يحتوي على بعض الجنسانية المثلية؛ في الحقيقة من الصعوبة الحصول على أي تفسير آخر لخضوع باكونين المؤقت، الذي كان أوتوقراطيًا عادة، تجاه هذا الشاب الخبيث".

الحقبة. احتوت "التعاليم" على فقرات متعصبة كانت مهينة للبعض، ولكن لهجتها وبلاغتها لم تكن منفصلة كثيرًا عن الكتيبات السرية الأخرى المتداولة في هذه الفترة. سُجِن العديد من النشطاء إلى قلعة بطرس وبولس سيئة السمعة في سان بطرسبرج، وعانى الآخرون في سيبريا، بعدما أطلق الأناركي كاراكازوف عدة رصاصات على القيصر، في بروفة جريئة للثورة. انبنت أسطورة نيتشايف بشكل جزئي على الزيف: زعم أنه هرب من قلعة بطرس وبولس، وأن هذا هو الذي اضطره للجوء إلى المنفى. لم يحدث هذا الهروب، ولم يكن من الممكن أن يحدث، لأن نيتشايف لم يُعتَقَل هناك. ولكن باكونين صدَّقه، وساعده على بناء سمعته بحرص. أقنع أوجاريف أن يكتب قصيدة لمديح الرجل الشاب (راجت القصيدة بشكل كبير في روسيا) بينما كتب باكونين مقالًا عن نيتشايف، وصوره فيه صراحة باعتباره نموذجًا للثوري في الستينيات من القرن الثامن عشر:

"هو واحد من هؤلاء المتعصبين الشباب، الذين لا تراودهم الشكوك، الذين لا يخشون شيئًا، والذي قرروا قطعيًا أن العديد والعديد منهم سيفنى على أيدي الحكومة، ولكنهم لا يدعون ذلك يوقفهم حتى يهبَّ الشعب الروسي. عظام هؤلاء المتعصبون الشباب، هم مؤمنون بلا إله، أبطال بلا أشعار".

على الأغلب باكونين نفسه هو من كتب كتاب "التعاليم"، معتمدًا على أفعال نيتشايف والآخرين. عَبَّر الكتاب عن مشاعر وأفكار وقوانين حظت بقوة هائلة بسبب قدرات الكاتب الأدبية والسياسية، التي لم تكن مختلفة كثيرًا عن كتابات منافسه ماركس، ولكن فيها اختلاف هام واحد؛ "البيان الشيوعي" هو خلاصة أفكار ماركس وإنجلز، بشكل جزئي جُمِع مما تعلماه ورفضاه من كتابات فشته وهيجل ومن نظريات الثورة الفرنسية وممارساتها، ولكن في الأغلب كان الكتاب نابعًا من التركيب الذي كان يفكر فيه عقل ماركس اعتمادًا على تحليل نمو الرأسمالية. تم تصوره باعتباره نصًا أمميًا. كان المانيفستو دعوة لفعل مؤجل حتى تصير الظروف مهيأة، دعوة لنقل القوة والسلطة من

طبقة اجتماعية إلى أخرى، وبينما سيتطلب ذلك ثورة، سيقود ذلك سريعًا إلى أسلوب جديد في الإنتاج والتوزيع. سيكون الانتقال نفسه سلسًا.

في الحقيقة كان "التعاليم" نصًا روسيًا، كُتب ليعبر عن الاحتياج لتجنيد نشطاء جدد. وكانت أقوى سمة فيه، كما كان الحال في جل أعمال باكونين، هو حس الإلحاح والفورية، التي كانت في ذاتها نتيجة للكراهية الملتهبة للأوتوقراطية القيصرية وواقعها الكئيب. يردد النص صدى الدعوة لهدم هذا النظام من خلال سلسلة من الأفعال الإرهابية المنظمة جيدًا، كأفعال قادة الفلاحين في الانتفاضات السابقة، والتي ستُهيِّج الجماهير. كثيرًا ما أشار باكونين إلى هذا الماضي في دعواته العديدة للتحرك: "أزمنة ستينكا رازين تقترب"، "على الأرجح لن يظهر بطل شعبوي آخر مثل ستينكا رازين؛ سيحل محله جحافل الشباب الذين بلا طبقة أو اسم... مجتمعين، وبذلك لن يمكن إيقاف زحفهم". من يستطيع تنفيذ تلك الأفعال؟ الثوري هو الموضوع الرئيسي في هذا الكتيب التحريضي، ولكي تكون هذا الشخص ينبغي حدوث قطيعة مع كل جوانب المجتمع البرجوازي؛ بكل أعرافه وتابوهاته. وكل الوسائل التي ستحقق هذه النهاية الطاهرة مسموح بها."كل شيء طاهر للطاهرين". *Omnia munda mundis*[viii]



ميخائيل باكونين – اناركي ثوري، والغريم السياسي والنظري الأهم لماركس.

كما يشير اسم الكتيب، كان "التعاليم الثورية" عبارة عن دليل إرشادي علماني للنشطاء الراديكاليين. تتعلق فقراته السبع الأولى (من ضمن ستة وعشرين فقرة) بالسيكولوجيا أكثر من الاهتمام بالاقتصاد السياسي، وهي السيكولوجيا التي عاودت الظهور في القرن العشرين بصورة كبيرة، على الرغم من أن طائفة باكونين ونيتشايف من المحاربين الأناركيين يختلفون بالعديد من الطرق الهامة عن الجماعات الإرهابية الجهادية الحالية. تلك الجماعات، التي تستعين بالإسلام لتنفيذ أفعالها المميتة في الشرق الأوسط وأفريقيا وأوروبا وغيرها، ليس لديها أهداف سياسية معلنة واضحة، وتتنقل من حاكم إلى آخر، النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد لا يطرح مشكلة بالنسبة لها طالما لا يمنعها من الوصول إلى السلطة، كثيرًا ما يستهدف أفرادها الناس العاديين، ومن ضمنهم من يعتنقون عقيدتهم. على الرغم من كل ذلك، وكما تشير الفقرات التالية، هناك تشابهات عديدة بين الجهاديين في القرن الحادي والعشرين والأناركيين في القرن التاسع عشر:

الفقرة ١. الثوري رجل ضائع؛ ليس لديه اهتمام يخصه وحده، ولا قضية تخصه وحده، ولا مشاعر، ولا عادات، ولا ممتلكات، هو حتى لا يملك اسمًا. كل شيء فيه مخصص لاهتمام وحيد، لفكرة واحدة، لشعور واحد، هو الثورة.

الفقرة ٢. في أعماق وجوده، وليس فقط بالكلمات لكن بالأفعال، يحطم كل رابط مع النظام المدني، ومع العالم المتعلم، ومع كافة القوانين والتقاليد والظروف المقبولة عامة، ومع أخلاقيات هذا العالم. سيكون عدوًا ناقمًا على هذا العالم، وإذا استمر في العيش فيه، سيكون ذلك فقط حتى يدمره بشكل أكثر تأثيرًا.

الفقرة ٣. يزدري الثوري كل العقائد. يرفض علوم العالم، ويتركها للجيل القادم، لا يعرف سوى علم واحد، علم التدمير.

الفقرة ٤. يزدري الرأي العام، يزدري أخلاقيات المجتمع القائم ويكرهها بكل مطالبها وتعبيراتها؛ بالنسبة له، كل شيء يسمح بانتصار الثورة عمل أخلاقي، وكل شيء يقف في طريقها عمل لا أخلاقي.

الفقرة ٥. الثوري رجل ضائع؛ ليس لديه شفقة على الدولة، ولا لعالم المتعلمين وذوي الامتيازات بشكل عام، هو أيضًا لا ينبغي عليه قبول الشفقة. وفي كل يوم عليه أن يعد نفسه للموت. عليه أن يعد نفسه لتحمل التعذيب.

الفقرة ٦. هو الذي يقسو على نفسه، عليه أن يقسو على الآخرين. لا بد أن يخنق كل المشاعر الطيبة تجاه الحياة الأسرية والصداقة والحب والامتنان وحتى الشرف بداخله، وذلك من خلال شعور بارد وحيد يكنُّه للقضية الثورية. بالنسبة له ليس لديه سوى لذة واحدة، عزاء واحد، مكافأة واحدة، رضا وحيد، وهو نجاح الثورة. نهارًا وليلًا عليه أن يفكر في فكرة واحدة، في غرض واحد: التدمير الخالي من الرحمة. بهذا الهدف في رأسه، وبلا كلل، وبدم بارد، ينبغي أن يعدّ نفسه دومًا لأن يموت، وأن يقتل بيديه أي أحد يقف في طريق تحقيق ذلك.

الفقرة ٧. شخصية الثوري الحقيقي لا ينبغي أن تتسم بالرومانتيكية، ولا الانفعال، ولا الحماس، ولا الإغواء. ولا مكان لديها للكراهية الخاصة أو الانتقام الشخصي. ذلك الشعور الثوري الموجود بداخله يراوده في كل يوم وكل ساعة، ولا بد أن يمتزج بحسابات باردة. دائمًا وفي أي مكان ينبغي ألا يكون ما يريد منه الميل الشخصي أن يكونه، ولكن ما تريده مطالب المصلحة العامة للثورة.

الفقرات الأخرى في "التعاليم"، كانت أكثر رعبًا في تفاصيلها، وهي تدور حول موضوعات متعددة، من ضمنها كيفية معاملة كل طبقة في المجتمع الروسي، ومستوى الكراهية الذي لا بد أن يوجه لكل طائفة من الطوائف العليا. تمثل الشخصيات الذكية في المناصب العليا أكبر تهديد على الثورة، وبالنسبة لهؤلاء ذوي القيمة العالية هناك حل وحيد: الإفناء. أما ذوي الذكاء الأقل لا بد أن يُتركوا لحالهم في هذا الوقت، لأن غباءهم وحده سيقودهم لاتخاذ قرارات تغضب الناس وتدفعهم إلى مسار الثورة. معظم شخصيات المجتمع الراقي مجرد "حيوانات"، يعيشون في خوف دائم من فقدان سلطاتهم وامتيازاتهم؛ عقابهم (الموضح في الفقرة ١٩) يكون فقط في ابتزازهم: "علينا أن نعرف أسرارهم القذرة، وبالتالي نجعلهم عبيدنا".

ينتهي الكتيب بدعوى لتدمير الدولة القديمة، وللقيام بثورة "تُفني كل تقاليد الدولة والنظام والطبقات في روسيا". تضع الفقرات الأخيرة الإجراءات المطلوبة وكيف ينبغي تحقيقها:

الفقرة ٢٥. حتى نفعل ذلك علينا أن نتقرب من الناس: علينا أن نقف في الأساس في صف هؤلاء العناصر من الناس الذين منذ تأسيس دولة موسكو لم يتوقفوا عن الاحتجاج، ليس فقط بالكلمات ولكن بالأفعال، وأن نقف في مواجهة كل شيء مرتبط بالدولة بشكل مباشر وغير مباشر، ضد النبلاء، والبيروقراطية، والكهنة، وضد عالم طوائف المهنيين، وضد الكولاك. وينبغي أن نتحالف مع عالم قطاع الطرق الشجعان، فهم وحدهم الثوريون الحقيقيون في روسيا.

الفقرة ٢٦. كل منظماتنا، كل مؤامراتنا، كل أغراضنا تعتمد على ذلك: أن نعيد تنظيم عالم قطاع الطرق ليصير قوة لا تقهر قادرة على الهدم الكلي.

في خريف عام ١٨٦٩، عاد نيتشايف إلى روسيا وشكّل جماعة سرية لنشر الأفكار وتنفيذ الأفعال في الوقت نفسه. الورقة الرسمية الموحدة للجنة المركزية، التي لم تكن شُكِّلت بعد، لمنظمة "عدالة الشعب"، كانت مزينة بفأس وخنجر ومسدس متشابكين، واستُخدمت لإرهاب الخصوم. حتى هذه اللحظة، كان نيتشايف يعتبر شخصية كاريزمية وشجاعة، وراجت قصص مغامراته (والعديد منها لم يكن حقيقيًا) في العالم السفلي بروسيا. ولكن بعد عودته إلى روسيا بوقت قصير تشاجر مع إيفانوف، وهو عضو آخر في الجماعة، لأسباب تظل غامضة. اتهم نيتشايف إيفانوف بكونه عميلًا للبوليس (ولم يكن هناك دليل على ذلك)، واتهمه، من ضمن عدة أشياء، بأنه "خالف تعليمات التنظيم" (وعلى الأرجح كان هذا يعني مخالفة تعليمات نيتشايف)، وبعدها أوقعه في كمين وقتله. أدى اكتشاف جثة إيفانوف المطعون بعد عدة أيام إلى إثارة ضجة هائلة. اتُهم نيتشايف بالقتل، وفر إلى المنفى مجددًا. قُبض على ثلاثمائة ثوري، وحوكم أربعة وسبعون من أتباع نيتشايف عام ١٨٧١، على الرغم من أن العديد منهم لم يكن يعتنق تكتيكات زعيمهم العجيبة. كان باكونين قد خاصم نيتشايف في صيف السنة السابقة لعدة أسباب. صُدم من خبر القتل، وجُرح كبرياؤه: لقد هجره "صبيه"، الذي صار يغوي النساء الليبراليات ليُسهِم في تدمير العائلة البرجوازية. نجت المؤسسة الأسرية من الهجوم، على الرغم من أن العديد من العائلات المستقلة وجدت نفسها أكثر فقرًا. استخدم نيتشايف الابتزاز بقسوة، ليموِّل القضية الأناركية، ومن هذه الجهة تحديدًا كان يحظى بدعم باكونين.

ارتعب المتعاطفون مع الحركة في روسيا. وأحدهم، فيودور دوستويفسكي، الذي عارضهم بشكل معلن وكبير، خصص رواية كاملة، "الممسوسون"[ix]، لهذه الفترة البشعة. في الرواية، يمثل فرخوفنسكي نيتشايف، بينما يمثل شاتوف إيفانوف. كان هذا التصوير القاسي مُبَررًا،

ولكنه لم ينجح في تدمير جاذبية نيتشايف، الذي ظل العديد من الناس يعتبرونه بطلًا وثوريًا شجاعًا، ولم يكن هذا بلا أساس. في عام ١٨٧٢، سرَّب ثوري بولندي، اكتُشف أنه جاسوس روسي، مكان نيتشايف إلى البوليس السويسري. وبسبب مقتل إيفانوف، لم يقبل السويسريون وضعه كمنفيّ سياسي هذه المرة، ورحَّلوه إلى روسيا باعتبارها مجرمًا.

ظل نيتشايف صلبًا أثناء محاكمته، رفض قبول سلطة المحكمة القيصرية. وعندما أُخِذ لينفذ عليه "حكم الإعدام المزيف"[x]، وهي عادة غريبة مقتصرة على روسيا القيصرية، رفض صلوات القس بازدراء. وبينما جرّوه كان يصيح متحديًا وذكر زعيمي الفلاحين رازين وبوجاتشيف، الذين شنَقا النبلاء الروس كما فعل الفرنسيون فيما بعد. صرخ نيتشايف: "قبل انقضاء ثلاثة أعوام، ستُفصل رؤوسهم في هذا المكان بأول مقصلة روسية. ليسقط القيصر، ولتحيا الحرية، وليحيا الشعب الروسي".

قرأ ألكسندر الثاني تقرير "الإعدام المزيف" وخط هذه الملاحظة في الهامش:

"نتيجة ذلك لدينا كامل الحق لمحاكمته مجددًا باعتباره مجرمًا سياسيًا. ولكني لا أعتقد أنه سيكون لذلك فائدة كبيرة. أما المسار الأكثر حكمة فهو إبقاؤه في السجن إلى الأبد". (الخط التأكيدي من وضع القيصر).

كان هذا هو الحكم الذي قضاه نيتشايف.

قضى بقية حياته منعزلًا في زنزانة رقم ٥ بقبو آلكسفسكي بقلعة بطرس وبولس في سان بطرسبرج، حيث حظى بإعجاب بعض الشرطيين والجنود والسجانين. أعجبوا بذكائه وكبريائه. استخدمهم ليرسل رسائل داعمة لعدة جماعات، من ضمنها رسالة إلى اللجنة المركزية بتنظيم إرادة الشعب، في عشية قراراهم الجماعي المصيري باغتيال ألكسندر الثاني. وكما

تكتب فيرا فيجنر بعد ذلك في مذكراتها، كانوا متحمسين ومذهولين لمعرفة أن نيتشايف ما زال حيًا. أرادوا تأجيل الهجوم المخطط له على القيصر وبدلًا من ذلك تحرير نيتشايف ولكنه اعترض على هذه الخطة، وأصر على أن يلتزموا بغرضهم الأساسي. وبعدما نفذوا العملية، أشار إلى أن هناك ثوريين مسجونين آخرين –من ضمنهم ليون ميركسي الذي حاول قتل رئيس الشرطة- يستحقون هذا الشرف أكثر منه.

في يوم ١ مارس عام ١٨٨١، نُفِّذ القرار الذي اتخذته إرادة الشعب حرفيًا من خلال انتحاري يحمل قنبلة. اُغتيل القيصر بالفعل، الذي نجا من عدة محاولات استهدفت حياته من قبل. هذا السرد الخالي من المشاعر الذي يكتبه كروبوتكين يلخص القصة:

"في فبراير عام ١٨٨١، ذكر ميليكوف أن اللجنة التنفيذية الثورية وضعت مؤامرة جديدة، ولكن لا يمكن كشف خطتها بأي قدر من البحث. بالتالي قرر ألكسندر الثاني استدعاء نوع من مجلس للمفوضين القادمين من المقاطعات للتشاور. ألكسندر الثاني الذي كانت تطغى عليه فكرة أنه سيلقى مصير لويس السادس عشر، وصف هذا الجمع باعتباره مجلسًا للأعيان، مثل المجلس الذي عقده لويس السادس عشر قبل المجلس الوطني عام ١٧٨٩. كان لا بد أن يضع خطة قبل انعقاد مجلس الأمة، ولكنه تردد مجددًا. وفقط في صباح الأول من مارس (١٣)، عام ١٨٨١، وبعد أن حذره لوريس ميليكوف، أمر أن يضع المسألة أمام المجلس في يوم الخميس القادم. كان يومها الأحد، وطلب منه ميليكوف ألا يخرج في موكب في هذا اليوم، لأن هناك خطر على حياته، ولكن ذهب رغم ذلك. كان يريد أن يقابل الدوقة الكبرى كاثرين، وأن ينقل لها الأخبار الطيبة. قيل إنه أخبرها: (أنا عازم على عقد مجلس للأعيان)، ولكن لم يعلن عن هذه التسوية المتأخرة والفاترة، وفي طريقه إلى قصر الشتاء، تم اغتياله.

من المعروف كيف حدث الاغتيال. ألقيت قنبلة تحت عربته المصفحة لإيقافها. جُرح عدة شراكسة كانوا يرافقونه. بيساكوف، الذي ألقى القنبلة، قُبض عليه في موقع الاغتيال. وبعد ذلك، وعلى الرغم من أن سائق عربة القيصر نصحه بجدية ألا يخرج، وقال له إن ما زال قادرًا على قيادة العربة المدمرة قليلًا، أصر ألكسندر على النزول. شعر أن كرامته العسكرية تدفعه إلى أن يطمئن على الشراكسة الجرحى، أن يواسيهم كما فعل مع الجرحى في الحرب التركية، عندما جرى الاقتحام المجنون لبليفنا، وانتهى بكارثة بشعة، وذلك في ذكرى تتويجه. اقترب من ريساكوف وسأله شيئًا وبينما اقترب من شاب آخر، ألق جرينفتسكي قنبلة بينه وبين ألكسندر الثاني، وكان يعلم جيدًا أن الاثنين سيموتان. ولكن الاثنين ظلا حيين لعدة ساعات.

كان ألكسندر الثاني ممددًا على الجليد، ينزف بغزارة. تركه جميع أتباعه، هربوا جميعًا. كان المتدربون العسكريون، الذين عادوا من الموكب، هم الذين رفعوا القيصر الجريح من على الجليد ووضعوه على زلاجة، وغطوا جسده المرتعش بمعطف عسكري، ورأسه العاري بقبعة عسكرية. وواحد من الإرهابيين، إميليانوف، الذي كان يلف قنبلة في ورقة تحت ذراعه، خاطر بأن يتعرض للاعتقال والشنق، ونسي نفسه لعدة لحظات، واندفع ليساعد الرجل الجريح مع المتدربين. صوفيا بيروفسكايا هي من خططت للعملية كلها، وهي التي أعطت إشارة الهجوم.

أنهى الاغتيال مأساة حياة ألكسندر الثاني. لم يفهم الشعب كيف يمكن لقيصر فعل الكثير لروسيا أن يلقى هذا المصير على أيدي الثوريين. كتب أحد الأصدقاء المقربين: «بالنسبة لي، من كانت لديّ الفرصة لأشهد أول خطوات رجعية لألكسندر الثاني، وتدهوره التدريجي، والذي لحظت أول إشارة من شخصيته المعقدة، هو الذي ولد أوتوقراطيًا، ولم يخفف طبعه العنيف سوى التعليم، الرجل الذي امتلك شهامة عسكرية، ولكنه كان

مجردًا من شجاعة السياسي، الرجل الذي امتلك مشاعر قوية وإرادة ضعيفة – بدا أن المأساة جرَت تجاه مصير محتوم أشبه بمسرحيات شكسبير. كان الفصل الأخير مكتوبًا أمامي عندما سمعته يخطب أمامنا، نحن الضباط المُرَقّين، في ١٣ يونيو عام ١٨٦٢، وبعدها مباشرة أقرّ أحكام الإعدام الأولى في بولندا)".[٧]

عاش نيتشايف حتى ديسمبر عام ١٨٨٢. كان سلوكه في السجن مثيرًا للإعجاب، كما شهد العديد من معاصريه الذين رأوه في طرقات القلعة الضيقة. اختفت قصصه القصيرة ومذكراته وكتيباته السياسية. الجنرال بوتابوف، رئيس الشرطة السرية القيصرية، كان يدرك كيف يمكن أن يكون هذا السجين مفيدًا في تفكيك شبكات الإرهاب، زاره في السجن بعد اغتيال القيصر وعرض عليه مكافآت مالية وإغراءات آخرى إذا قبل نيتشايف أن يصير مخبرًا. وقف السجين المكبل بالسلاسل على قدميه، وثبت، واستخدم ثقل ذراعه ليضرب بوتابوف على وجهه، حتى جعله ينزف الكثير من الدماء. كُبلت يداه وقدماه، وبدأ جسده يتعفن، حرفيًا. في خلال عامين مات نيتشايف، كان في الخامسة والثلاثين من عمره.

كان الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ثريًا في تصويره للعدميين والإرهابيين والثوريين. وكما كان في الحياة كذلك كان في السرد، كانت شخصية واحدة كافية لتجمع الثلاث. عند دوستويفسكي عوملوا بقسوة. لم يتردد الروائيون الروس في التطرق للسياسة. كانوا يعتبرون أنفسهم مثقفين عموميين، وهكذا كان يراهم قراءهم. في عام ١٨٦١ زاد الإصلاح من الإيقاع. في العام التالي كتب تورجينيف رواية "آباء وأبناء" وهي خلاصة السياسة في الفن، ظهرت بلا ضجيج ولكنها كانت ذات تأثير هائل. تُصَوِّر الرواية صراع أجيال بين الليبرالية والعدمية. الشخصية الرئيسية بازاروف،

7 James Harvey Robinson and Charles Beard, eds, *Readings in Modern European History*, vol. 2, Boston, 1908, pp. 362–3.

كانت تمثل بالنسبة لتورجينيف القطيعة. حتى هذه الرواية كانت شخصيات نساؤه قويات ورجاله مثيرين للشفقة بعض الشيء، ضعفاء ومنغمسين في ذواتهم (كما في بعض أعمال بوشكين). عَرَّف تورجينيف نفسه وجل أقرانه بأنهم أشبه بهاملت، غير قادرين على الفعل، هذا الذي انعكس على أعماله. كان بازاروف استثناء جزئيًا، يعرض حس شخصية لافتة، ورجل قوي، ولكن حتى هو، الذي تعرض لرعاية أبيه والتقدير الأجوف الذي نَزَعه عليه، لن يُسمَح له بالانتصار. الانتصار غير متاح للشخص الشجاع. مستسلمًا لقدره، يموت دون مقاومة، وأغضب هذا قراء تورجينيف الشباب. في المقابل، كان عمل إيفان جونتشاروف الأبرز، "أوبلوموف"، بورتريهًا ذاتيًا لطبقة اجتماعية بكاملها وكانت الرواية قاسية في تصويرها. أحب لينين هذه الرواية. النبيل الروسي العادي شخص كسول وبليد وفارغ العقل ولا سبيل خلاصه. تم الاحتفاء بنجاح الرواية من خلال دخول كلمة جديدة للقاموس الروسي: "الأوبلوموفية"، استخدمها الليبراليون والشعبويون الأناركيون والماركسيون. في رواية "الهاوية" (١٨٦٩) يسخر جونتشاروف من شخصية عدمية (وهي الكلمة التي استخدمها تورجينيف، كمرادف افتراضي للطالب الراديكالي) بدون تحفظ. لم يكن هناك أي أثر للتعاطف.

ظهور المدرسة الواقعية الاشتراكية التي ضمت كتابًا ونقادًا كانت ترجع جزئيًا إلى كونها رد فعل على هؤلاء الكتاب الليبراليين، وأغلب الظن كانت محاولة للتواصل مع الحركة المتنامية للشعبوية. أبرز ممثلي هذا الجناح الراديكالي من الإنتلجنسيا كانا الكاتب والمؤرخ والروائي ن. ج. تشرنشفسكي والناقد الأدبي اللاذع نيكولاي دوبروليبوف. كانا ابنين لقسين مبجلين، وكلاهما قضى طفولة سعيدة؛ على الرغم من أنهما أنكرا الدين والكنيسة الأرثوذكسية من أجل العلم والمادية، ظلا يحملان تعاطفًا مع المناخ الأخلاقي الذي ساد في منزليهما. كانت الصراحة الحادة لأبويهما هي ما يجذبهما. كانا يزدريان النفاق على كل المستويات: الاجتماعية والسياسية

والجنسية. وكان لنثريهما اللاذع تأثيرًا كبيرًا. في إحدى المناسبات، اقترب تورجينيف من تشرنشفسكي ليقول له ببساطة: "أنت ثعبان، أما دوبروليبوف فهو أفعى".

كُتبت رواية تشرنشفسكي اليوتوبية "ما العمل؟" في قلعة بطرس وبولس، حيث سُجن بسبب معتقداته السياسية. بطله ثوري مخلص وزاهد (ليس مختلفًا كثيرًا عن بازاروف في "آباء وأبناء"، أو نيتشايف في الواقع) يضحي بكل شيء من أجل القضية. حتى اسمه، راخميتوف، اختير بعناية. كان من نسل عائلة تترية من القرن الثالث عشر، ذات نبالة كبيرة. يصور الروائي بورتريه مكتوب من أربع صفحات لأصل العائلة وتاريخها. كان على يقين من أن قراءه غير واعين سوى بأن العديد من التتار (الذين تحولوا بعد ذلك إلى الإسلام) حاربوا إلى جانب بوجاتشيف ضد القيصر. تزوج أحد أسلافه من امرأة روسية، وكان هذا حدثًا شائعًا، ونتج عن ذلك سلالة احتفظت بالعديد من المناصب في أجهزة الدولة. الجد المتخيل لراخميتوف رافق ألكسندر الأول إلى تيلسيت.[xi] مع الوضع في الاعتبار معرفة تشرنشفسكي العميقة بالتاريخ الروسي، من المرجح أن الشخصية كانت معتمدة على شخصية واقعية. ما لم يُصرح به في الرواية هو أن اسم "راخمت" ذو أصل عربي، فهو يعني "الرحمة".

على الرغم من أن الرواية كانت تفتقد البراعة الأدبية التي كان يتمتع بها دوستويفسكي أو تورجنيف أو تولستوي، إلا أنها صارت إنجيلًا للجيل الجديد في روسيا، و"الشباب" الذين يلتحقون بالنضال ضد الأوتوقراطية. من الصعب تذكر عمل أدبي كان له تأثير مشابه على الوعي السياسي في مكان آخر، منذ نصف قرن، عقد ناقد أمريكي مقارنة مذهلة عن ذلك.[8]

---

8 "لا يوجد عمل في الأدب الحديث يمكن أن ينافس (ما العمل)، ربما باستثناء (كوخ العم توم)، في تأثيره على حياة البشر وقوته في صناعة التاريخ. بالنسبة لرواية تشرنشفسكي، دفعت الرواية الحراك العاطفي الذي أدى في النهاية لاندلاع الثورة الروسية، وذلك أكثر من كتاب (رأس المال) لماركس".

مسألة أن لينين عنون مقالته السياسية البارزة الأولى بـ "ما العمل؟" لم تكن من قبيل المصادفة. كان سيندهش إذا تنبأ له صديق بأنه في يوم ما سيحاول الناس قراءة الأصل من أجل أن يفهموا الكتاب الثاني. الرواية أيضًا كانت دعوة للعمل، وكُتبت لهذا الغرض تحديدًا. وبالحكم عليها من منطلق عصرها، فقد حققت نجاحًا هائلًا. تعامُلها المتعاطف مع النساء بشكل خاص، لوحظ بشكل واسع في بلد كانت الأبوية مسيطرة تمامًا فيه، بشكل لا يختلف كثيرًا عن السعودية المعاصرة. ولكن في مقابل البلد الأخير ووضعه المؤسف انضمت العديد من النساء إلى الجمعيات السرية وشاركن في أفعال أقرتها التنظيمات الإرهابية.[9] وكما سنرى في فصل لاحق اعترفت النسويات الثوريات صراحة بأنهن مدينات للأفكار التي احتوى عليها عمل تشرنشفسكي الأبرز، ومن ضمنها دور ووظيفة الأسرة والزواج الأحادي.

نص لينين، الذي نشر لأول مرة عام ١٩٠٢، كان محاولة لنقد الحدود التكتيكية والإستراتيجية للتنظيمات الثورية السابقة وتجاوزها. كانت القطيعة ضرورية. اللجنة التنفيذية لإرادة الشعب (نارودنايا فوليا) حظت بأكبر نجاح عام ١ مارس عام ١٨٨١، بعد اغتيال ألكسندر الثاني، ولكن كان ذلك أيضًا أكبر فشل لها. لقد استهدفت بنجاح قلب النظام، ولكنها

J. Frank, 'N. G. Chernyshevsky: A Russian Utopia', *Southern Review* 3, 1967

9 المادة ١٠٧ من الكود الإمبراطوري للقوانين المدنية لم يترك مساحة كبيرة للشك. يد الكنيسة الأرثوذكسية كانت طاغية حين يأتي الحديث عن مأسسة خضوع النساء للرجال. كانت المرأة بحاجة إلى إذن الزوج أو (الأب) لتحصل على جواز سفر أو لتعمل أو لتعيش في شقة منفصلة. كما في المملكة السعودية، كان بإمكانها أن تتملك، ولكن حقوق الميراث كانت مقيدة. كان الطلاق مهينًا ومستحيلًا في الواقع (كان زنا الزوج والانتهاكات الجسدية شائعة جدًا وكانت الكنيسة ترفض قبول الأمرين كأساس للانفصال النهائي). كان التعليم مقتصرًا على المدرسين الخصوصيين أو مدارس الإتيكيت النخبوية التي تلتحق بها النساء الثريات. كانت معظم المهن لا تقبل النساء. وكان التشريع يؤكد على أنه "ينبغي على المرأة أن تطيع زوجها كرأس للعائلة، وتعيش معه بحب وتعامله بتقدير وبأقصى احترام، وبطاعة لا متناهية، وتواضع لأنه مدبر المنزل". يمكننا أن نخمن إذا كان هذا التشريع سيسمح للنساء بحق قيادة السيارات أم لا، في حالة وجدت هذه البدعة في ذلك الوقت.

أحرقت نفسها خلال هذه العملية. كانت يد القمع ثقيلة، والأغلال المعلقة في سيبريا أثقل، وعلى الرغم من أن العديد من الإرهابيين الانتحاريين الشباب كانوا متراصين في انتظار الانضمام للتنظيم، بدأ التنظيم في التفكك. اعترف زعيم التنظيم، جيليابوف، أن التنظيم "يستهلك رأسماله"، وبينما ظهرت المجموعات الصغيرة تلقائيًا في أماكن عديدة من البلاد، تجاهلتهم أغلب الإنتلجنسيا الراديكالية. لم يكن السبب هو الخوف ببساطة (على الرغم من أنه قام بدوره)، ولكن الشعور بأن الهدف الرئيسي للبرنامج الأصلي كان خاطئًا، إذا لجأنا إلى أخف التعبيرات. كان الهدف من الإرهاب هو إيقاظ الشعب من سباته، وإشعال انتفاضة جماهيرية معتمدة على النماذج السابقة (رازين/ بوجاتشيف)، ولكن في هذه المرة في ظروف جديدة ومن أجل تدمير الأوتوقراطية ومؤسساتها نهائيًا. لم ينجح الأمر، وفي إحدى المرات، وفي مزاج نَكِد، وصف لينين الإرهابيين بأنهم ليبراليون ذوو قنابل، وأشار إلى أن كلا الطرفين يعتنقان الرأي الذي يقول بأن البروباجندا وحدها، سواء بروباجندا الأفعال أو الكلمات، ستكون كافية للمهمة المنتظرة. في أغلب الأحيان أخافت الأعمال الإرهابية الناس وبررت قمع الحكومة.

حتى ذلك الوقت، حظت اللجنة التنفيذية بدعم مالي وإعجاب من قبل العديد من المثقفين الذين شعروا أن اللجنة على المسار الصحيح. الأعضاء الرئيسيين في اللجنة كانوا في منزل جليب أوسبينسكي، وهو كاتب كبير مؤيد للشعبوية، وذلك في ١ مارس، ينتظرون أنباء العملية. شربوا نخب النجاح ثم بدأوا في كتابة خطاب مفتوح قوي لابن الرجل الميت. الفقرة الأولى كانت جريئة بشكل مناسب، على الرغم من أنها كانت تسيء تقدير قوة الكُتَّاب. أخبروا ألكسندر الثالث أن "المأساة الدموية التي حدثت على قناة كاثرين لم تكن مجرد صدفة، ولم تكن غير متوقعة. وبعد كل شيء حدث في السنوات العشر الماضية، كانت أمرًا محتمًا". أنذروه بأن نضالهم

ضد الأوتوقراطية سيستمر، لو لم يُطلَق سراح السجناء السياسيين، ولم يُعقد المجلس الوطني من خلال الانتخابات المعتمدة على التناسب وبدون أي قيد من أي نوع، من ضمنها حرية التعبير والصحافة والاجتماع والبرامج الانتخابية. كان هذا سيتيح لروسيا النمو في سلام: "نحن نعلن بجد أمام بلدنا الحبيب، وأمام العالم كله، أن حزبنا سيخضع راضيًا وبلا شروط لقرارات المجلس الوطني".

كان رد الفعل الأولي للبلاط على خبر وفاة القيصر هو الخوف. وعندما وصلت الملك الجديد الرسالة المفتوحة، أجهش في البكاء، وكان على معلمه أن يهدئه. ولكن الأوتوقراطية عادت إلى مسارها سريعًا. لاحظ وزراء القيصر ومستشاروه غياب الانتفاضات والمجالس الشعبية في أي مكان في البلاد. وأدار المستشارون المتشددون لألكسندر الثالث ظهورهم لفكرة إجراء تنازلات من أي نوع، وأسرعوا من الإصلاح المضاد. وسعت سلسلة من الإعلانات التشريعية لمنع أي شكل من حرية التعبير. كان انتهاك هذه القرارات يؤدي إلى عقوبات سريعة ووحشية، وكان الحس العام في البلاد يدعو إلى اليأس.

تنظيم "إرادة الشعب" الذي عزل نفسه، تفكك بسبب القمع، وبسبب التقلص المتسارع للدعم الشعبي. حلَّت نهاية الأعضاء الرائدين في اللجنة التنفيذية في الشهر الذي تلا اغتيال القيصر. وارتد عنهم شخص واحد. أما الآخرون فساروا إلى المشانق رافعين أياديهم:

"صوفيا بيروفسكايا، كيبالشيش، وميخائيلوف، تمسكوا جميعًا بالأفكار التي ضحوا بحياتهم من أجلها. صوفيا بيروفسكايا كانت شجاعة بشكل مدهش، وكشف كيبالشيش عن قيمته الحقيقية، وظهر كرجل عبقري، منشغل دومًا بالمشكلة التقنية في العلاقات بين الغايات والوسائل. في زنزانته أخذ يصمم مخطط لآلة طائرة، وهي آلة ندم على أنه لم يستطع

إنهاءها قبل أن يُشنق. ريساكوف فقط هو الذي قال إنه اشتراكي مسالم، وأنه شعر بالندم بسبب أنشطته الإرهابية.. في الساعة ٩,٥٠ من صباح الثالث من أبريل عام ١٨٨١، صعد ريساكوف وجيليابوف، وميخائيلوف، وكيبالشيش، وصوفيا بيروفسكايا على منصة المشنقة. وباستثناء ريساكوف تعانقوا للمرة الأخيرة. ثم شُنقوا جميعًا".[١٠]

هناك خاتمة لهذه القصة. بيتر كروبوتكين، الفيلسوف الأناركي، كان يعيش في منفى مريح في إنجلترا حين اندلعت الثورة الروسية. كان في الخامسة والسبعين من عمره في ذلك الوقت، وكان الرجل العجوز متحمسًا بشكل لا يصدق وقرر العودة. في البداية توجه إلى مأواه القديم في بتروجراد، ولكنه قرر ألا يظل هناك وبدلًا من ذلك توجه إلى موسكو. وصل بهدوء بدون صخب أو ضجيج. حاولت ابنته أن تقنعه أن يعود إلى منزل العائلة القديم في الريف، ولكن كروبوتكين أراد أن يعيش في العاصمة. ذهبت ابنته إلى السوفناركوم (مجلس مفوضي الشعب)، وقابلت ف. د. بونتش بروفيتش، أمين التنظيم وسكرتير لينين الشخصي. وصفت كل المشكلات التي قابلتها وهي تحاول إيجاد مسكن متواضع لأبيها المسن. على الرغم من الفوضى كان هناك قانون غير مكتوب بأن يحصل الثوريون العائدون من المنفى على مسكن دائم.

---

10 هكذا ينهي فرانكو فنتوري عمله الأبرز، "جذور الثورة: تاريخ الحركات الشعبوية والاشتراكية في القرن التاسع عشر بروسيا"، لندن، ١٩٦٠.

Franco Venturi, Roots of Revolution: A History of the Populist and Socialist Movements in 19th Century Russia, London, 1960.

نُشرت النسخة الإيطالية الأصلية عام ١٩٥٢. بلا شك هو أفضل كتاب عن الثورات الروسية في القرن التاسع عشر وخليفاتها. فنتوري، المعادي للفاشية والذي فر إلى فرنسا مع أبويه من إيطاليا التي يحكمها موسوليني، توجه إلى موسكو عام ١٩٣٠، حيث سُمح له بالاطلاع على كل الأرشيفات التاريخية في القرن التاسع عشر، ثم استُضيف في مكتبة لينين. وشعر كثيرًا بالأسف لأن رفاقه السوفييت مُنعوا من الاطلاع على تلك الأرشيفات حتى اجتثاث الستالينية عام ١٩٥٦.

عرض بونتش بروفيتش المشكلة أمام لينين، الذي أمر بإيجاد مسكن للرجل الهرم على الفور. هكذا زار بونتش بروفيتش كروبوتكين ليرحب به. اعتُبرت آراء كروبوتكين مفاجأة جميلة؛ دَعَم الثورة وأعلن أنها "أثبتت للجميع أن الثورة الاشتراكية ممكنة". كان معاديًا كلية للحراس البيض والقوى المعادية للسوفييت، وأثنى على البلاشفة لانتقالهم من فبراير إلى أكتوبر. بالطبع كأناركي لم يوافق على تنظيم الدولة السوفييتية أو على دور الحزب، ولكنه كان مهتمًا بقراء كتاب لينين "الدولة والثورة":

"قيل لي إن فلاديمير إيليتش كتب كتابًا ممتازًا عن الدولة، ولكني لم أقرأه بعد، ووضع فيه تنبؤًا بأن الدولة ستتلاشى في النهاية... من خلال أشعة الضوء تلك التي أُلقيت بجرأة على تعاليم ماركس، حصل فلاديمير إيليتش على عميق الاحترام... أعتبر ثورة أكتوبر محاولة لتحقيق الانتقال من الشيوعية إلى الفدرالية".

طلب لينين أن يلتقي كروبوتكين، والتقى الرجلان في السوفناركوم في بداية شهر مايو عام ١٩١٩. كان بونتش بروفيتش حاضرًا وتسجيله للقاء كان مفيدًا. كان لينين معجبًا بكروبوتكين، ليس لأناركيته، ولكن لكتابه عن تاريخ الثورة الفرنسية، الذي علَّم جيلين من الراديكاليين الروس. اعتبر لينين هذا الكتاب الذي ألفه كروبوتكين من الكلاسيكيات التي لا غنى عنها وأراد أن يعيد طباعته وأن يوضع في كل المكتبات. بدأ النقاش بتبادل للآراء عن التعاونيات، وكلا الرجلين شرح موقفه من الموضوع. اشتكى كروبوتكين من تضييق السلطات المحلية البيروقراطي على التعاونيات الحقيقية، "ربما حتى الناس الذين كانوا بالأمس ثوريين، تحولوا، كما يحدث لكل السلطات، إلى بيروقراطيين، إلى موظفين، يريدون أن يكسروا مرؤوسيهم، ويعتقدون أن السكان كلهم خاضعين لهم".

رد لينين كان مباشرًا:

"نحن ضد الوظيفة دائمًا وفي أي مكان. نحن ضد البيروقراطية، وينبغي علينا أن نقلع البيروقراطية من جذورها إذا ظلت تعشش في نظامنا. ولكنك تعلم تمام العلم أنه من الصعب جدًا أن نعيد خلق الناس، وكما كان ماركس يقول، إن أكثر القلاع تحصينًا هي جماجم البشر".

واجهه كروبوتكين بالإشارة إلى أن هذا التفسير لا يجعل الأمور أيسر على المواطنين، لأن "السلطة تسمم أي شخص يتولاها بنفسه".

رد لينين من خلال التأكيد على ذلك:

"لا يمكنك أن تقيم ثورة بقفازات بيضاء... ما زلنا نرتكب العديد والعديد من الأخطاء؛ ونحن نصحح ما يمكن تصحيحه؛ نحن نعترف بأخطائنا – التي أحيانًا ما تنتج عن الحمق الخالص... ينبغي أن تساعدنا، دعنا نعرف إذا رأيت شيئًا خاطئًا، عليك أن تتأكد أننا سنرحب بملاحظاتك وسنوليها اهتمامًا جمًّا ".

بعد خوض المزيد من النقاش عن التعاونيات، شرح لينين: "إننا بحاجة إلى جماهير مستنيرة، وعلى سبيل المثال سيكون أمرًا طيبًا لو نُشر كتابك عن الثورة الفرنسية العظيمة في طبعة ضخمة جدًا. هذا الكتاب مفيد جدًا للجميع".

شعر كروبوتكين بالإطراء ولكنه كان متشككًا.

"ولكن من سينشره؟ لا أستطيع أن أجعل دار النشر التابعة للدولة تقوم بفعل ذلك".

قاطعه لينين: "لا، لا".. لم؟ بالطبع لن تقوم دار النشر التابعة للدولة بذلك، ولكن ناشر متعاون".

قال كروبوتكين: "هذا أمر حسن، إذا وجد الكتاب مثيرًا للاهتمام وذا قيمة، أنا أوافق، ربما يكن للمرء أن يجد هذه المؤسسة المتعاونة".

أومأ لينين برأسه: "يمكن إيجادها، بالتأكيد يمكن إيجادها، أنا واثق من ذلك".

تم الاتفاق.

خلال مسار الحوار شرح لينين آراءه عن الأناركية والعامل الحاسم الذي ساعده لحل المعضلة بين الأناركية والاشتراكية.

"كان ذلك ضرورة للنضال الجماهيري"، هكذا أخبر كروبوتكين:

"نحن لسنا بحاجة إلى محاولات إرهابية فردية، وكان على الأناركيين أن يفهموا ذلك منذ وقت طويل. فقط مع الجماهير، ومن خلال الجماهير... كل الأساليب الأخرى، ومن ضمنها أساليب الأناركيين، انحدرت إلى مجاهل التاريخ –لا أحد يحتاجها، ليست مفيدة، ولا تجتذب أحدًا– إنها فقط تحطِّم الناس المنجذبين بطريقة أو بأخرى لهذا الطريق القديم المستهلك".

عندما توفى كروبوتكين بعد عدة سنوات، حظى بجنازة رسمية. وُضعت رفاته في قاعة الأعمدة في بيت النقابات. قدم عشرات الآلاف احترامهم وحضروا جنازته.

كانت آخر جنازة رسمية لغير بلشفي.

لم يؤيد كروبوتكين الجناح الإرهابي من الأناركية، ولكنه كان جزءًا من تاريخها المشترك، مثل لينين والآخرين. وعلينا الآن أن ننتقل للتاريخ الذي جرى بعد ذلك.

٢

الأخ الأكبر

عندما جَزَّت "إرادة الشعب" عنق أكبر رأس في البلاد عام ١٨٨١، كان الأطفال الثلاثة الأكبر في عائلة أوليانوف (اسم عائلة لينين) التي تعيش في سيمبرسك -آنا، وألكسندر، وفلاديمير- في عمر الخامسة عشر والثالثة عشر والحادية عشر على التوالي. كانت فترة النشأة بالنسبة لهم جميعًا. لم يُسَجَّل رد فعلهم على ما حدث في سان بطرسبرج، ولكن من المسموح أن نفترض أنهم صُدموا، إن لم يكونوا فوجئوا بشكل خاص – على الرغم من أن الصدمة لم تبلغ المدى الذي وصل إليه أبوهم المحافظ الليبرالي، الذي كان يعتبر الإرهابيين مجرمين، وارتدى زيه الرسمي واندفع ليحضر القداس المُقام على روح القيصر المتوفي في الكاتدرائية المحلية.

منذ عدة عقود سيطرت على المناخ السياسي المعارض الأشكال المتباينة من الشعبوية الأناركية، وكانت أفكارها رائجة وتُنَاقَش كثيرًا. كانت الجماعات النشطة توجد بالقرب من قازان. وكانت محاولات قتل القيصر والشخصيات البارزة الأخرى في النظام الأوتوقراطي حوادث متواترة. لم يكن ألكسندر الثاني هو أول حاكم يُعدم بهذه الطريقة. وحقيقة أن عائلة أوليانوف لم تنتم أبدًا إلى الدوائر الراديكالية لا تعني أن آذان الأطفال كانت تصِم عما يُناقَش في الشوارع أو في المدرسة. حتى أبويهم كانا يقرآن المجلات

التي احتوت بشكل بيِّن على أفكار المثقفين الشعبويين. صارت إدانة قتلة الملك طقسًا في المدارس واجتماعات الكنيسة كل يوم أحد.

كان أبو لينين محافظًا ومؤمنًا صلبًا بالكنيسة والدولة. وتحديدًا توجهت طاقاته كمفتش على المدارس نحو دعم وتوسعة المرافق التعليمية في الإقليم. كان يحظى باحترام شديد على نزاهته وإخلاصه في تعليم أطفال الفلاحين الفقراء. وفي البيت كان يتمتع بسلطة أبوية، وكان يؤمن بالروتين الصارم ويوصف بأنه شخص عادل. لا يوجد شك كبير في كونه انزعج من مقتل القيصر، على الرغم من أنه غضب كثيرًا من الإصلاح المضاد الذي سعى لسحب المكاسب التي حظى بها التعليم.

وصفت آنا أخيها ألكسندر أوليانوف بأنه كان يشبه أمه كثيرًا في الشكل والطبع: "نفس المزيج النادر من الصلابة العجيبة والهدوء، مع حساسية ولطف ونزاهة رائعين، ولكنه كان أكثر تقشفًا وصرامة، وأكثر شجاعة". أكد هذا الحكم وعززه معلمه الخاص، كلاشينكوف، الذي سيتحدث عن صوت ساشا[xii] الهادىء وسلوكه اللطيف، ولكنه أضاف إلى هذا المزيج "الدافع الداخلي" القوي، الذي كان ملحوظًا حتى في سنه الصغيرة.[١]

ولكن ماذا عن الأخ الأوسط؟ في "طفولة لينين" وهو الفصل الأول والوحيد مما كان من المفترض أن يكون سيرة موسعة عن لينين، اعتمد إيزاك دويتشر على ذكريات آنا أوليانوفا ليصف سنواته المبكرة:

"في البداية بدا أن الطفل ينمو ببطء: كان كبير الرأس وثقيل الحجم، ضخمًا وأحمر الوجه، بدأ يمشي متأخرًا، كثيرًا ما يسقط ويصدم رأسه. ولكن سريعًا استطاع أن يتعامل مع هذا البطء المبدئي وعندما بدأ يحبو صار قويًا

1 Leon Trotsky, *The Young Lenin*, New York, 1972, p. 38.

وسريع البديهة بشكل لا يصدق، وغد عظيم، مُرهِق ومحب للألعاب المزعجة. تقول أخته الكبيرة إنه لم يكن يلعب بالألعاب، كان يحطمها. في سن الخامسة كان بإمكانه أن يقرأ ويكتب. ثم علمه معلم الإبرشية في البيت لمدة أربع سنوات، حتى صار مؤهلًا للالتحاق بالمدرسة المحلية في سن التاسعة".[٢]



عائلة أوليانوف: ساشا وآنا، مستندان على كتفي أبيهما؛ لينين يجلس إلى اليمين، دميتري إلى أقصى اليسار، ماريا في حجر أمها.

---

2 Isaac Deutscher, *Lenin's Childhood*, London, 1970, p. 12.

في مقدمتها الموجزة، تكتب أرملة الكاتب، تامارا دويتشر: "بتصرف من كارليل، قال إيزاك إن مهمته ككاتب سيرة لتروتسكي هو أن يسحب شخصيته الرئيسية (من سفح جبل الكلاب الميتة، والحمولة الهائلة من الافتراءات والنسيان). في سيرة لينين، تصور إيزاك، الكاره لكل الأرثوذوكسيات، أن مهمته هي أن يسحب شخصيته الرئيسية من تحت الحمولة الهائلة للأيقونية والأرثوذوكسية الخانقة". الشيء المأساوي هو أنه بعدما بدأ في كتابة سيرة لينين بوقت قصير، أصيب دويتشر بأزمة قلبية في أغسطس عام ١٩٦٧. كان قد وصل لتوه إلى عمر الستين.

كان مدير المدرسة فيودور كرينسكي، مثل أبي الأخوة أوليانوف، ليبراليًا محافظًا ومعلمًا صارمًا وإن كان محفزًا. كان الرجلان صديقين مقربين. ابن كرينسكي، ألكسندر، كان أصغر من لينين بعقد، وسيعتلي قيادة الحكومة المؤقتة بعد فبراير عام ١٩١٧ ، ولن يحل محله سوى البلاشفة في أكتوبر.

جل طلاب المدرسة كانوا من طبقة النبلاء والطبقات العليا من بيروقراطية الدولة. شَكَّل أطفال الطبقة الوسطى فقط الثلث من مجموع الطلاب. رُفعَت المصاريف الدراسية عن أولاد أوليانوف (٣٠ روبلًا في العام) لأن أباهم كان يعمل في الهيئة التعليمية.

كان مدير المدرسة سخيًا في مدحه للينين الصغير، وصفه بأنه أفضل تلميذ عنده، ولديه من الإمكانيات ما سيجعله دارسًا "عبقريًا" للكلاسيكيات. لينين الذي كان مجتهدًا في الفصل، كان صاخبًا وحاد الطبع في الاستراحات. وفقًا لأخته الكبيرة، أرضى تقدمه الدراسي أباه وأسعده جدًا. كان هناك شيء واحد يدعو للقلق: "في تلك السنوات كان أبي يقول إلى أمي أحيانًا إن فولوديا[xiii] يحصل على كل شيء بسهولة، وربما لن يجعله هذا قادرًا على العمل". عندما حان وقت التعبير باللاتينية والروسية كان شعار المدير هو'non multa sed multum' "اكتب القليل ولكن الكثير"، أو بشكل أقل حَرفية؛ اجعل كلماتك قليلة وأفكارك واسعة. التزم لينين بهذه النصيحة طوال حياته، كان يكره السرد المنمق، واستخدام الكلمات الطنانة، المكتوبة للتشويش لا التوضيح. صارت اللغة اللاتينية شغفًا يقترب إلى حد الهوس، وكان شيشرون كاتبه المفضل. خطابة لينين أيضًا، التي ستظهر في السنوات التالية، كشفت عن تأثير مجلس الشيوخ الروماني القديم. في مذكراتها التي كتبتها بعد وفاته، كتبت أرملته، ناديا كروبسكايا، أن لينين اعترف أنه كان يدمن ثلاثة أشياء خطيرة في شبابه، اللاتينية

والشطرنج والموسيقى الكلاسيكية، وكان لا بد أن يتغلب عليهم جميعًا من أجل العمل الثوري الدائم، ولكن شغفه بالشطرنج والموسيقى لم يفارقه أبدًا.

كان ساشا مهتمًا أكثر بالبيولوجيا والكيمياء. وكثيرًا ما كان فولوديا ينضم إليه في دراسته، حيث كان ساشا يختبر المواد الكيميائية وينغمس في الكتب. كان فولوديا يدرك قيمة ساشا ومميزات شخصيته التي لم يستطع أن يضاهيها. حدة طبعه وعدم تسامحه مع مظاهر الغباء ظلت مستمرة طوال حياته، وكان يجد صعوبة في التحكم في هذا الجانب من نفسه. يكتب دويتشر:

"يتذكر ابن خاله، فيريتينيكوف، أنه في إحدى المرات، استحوذ الطبع الساخر على فولوديا، ودفع صبي ساذج وخجول إلى البكاء بسبب سخريته، ندم على ذلك، وفعل أقصى ما يستطيع ليهدئ ضحيته ويصالحها".

صار مقربًا أكثر من أخيه. في الأوقات التي كانا فيها ينغمسان في الاستذكار ويندفع أبناء خالاته الزائرون إلى غرفة الدراسة ساعين لنوال الانتباه، يقف الشقيقان ويصيحان معًا: "نرجوكم أن تسعدونا بمغادرتكم"، ولم يلبوا الطلب دومًا. ساشا كان وسيمًا للغاية، وبنات خالاته كن يستمتعن بصحبته. كان أيضًا سريع البديهة ومهذبًا، على خلاف أخيه الصغير، الذي كان سليط اللسان ووقحًا للغاية حتى في مراهقته.

كلاهما كان رابط الجأش، وكلاهما لم يكن لديه أصدقاء مقربين في المدرسة. ولم يُظهر لينين أي إشارة على التمرد في المدرسة. وحتى سن السادسة عشر كان مطيعًا فيما يتعلق بالسياسة والدين. ساشا كان أكثر اهتمامًا بالسياسة، ويزدري الدين، رفض بهدوء حضور القداسات وهذا أزعج أبيه الأرثوذكسي المتعصب. قرأ أعمال تشرنشفسكي ودوبروليبوف

وكاتب المقالات الراديكالي بيساريف. ستكتب أخته آنا لاحقًا عن الثمار المحرمة التي تذوقاها عندما كانت هي وساشا في آخر عامين بالمدرسة:

"قرأت مع ساشا جميع أعمال بيساريف من الغلاف للغلاف؛ كان لها تأثير قوي علينا. حُظرت تلك الكتب من المكتبات، ولكننا استعرناها من أحد المعارف، وهو طبيب، كان يملك النسخة الكاملة من أعماله. كانت هذه أول كتب محظورة نقرأها. انغمسنا فيها جدًا، لدرجة أننا عندما أنهينا المجلد الأخير شعرنا بحزن عميق لكوننا سنبتعد عن كاتبنا المحبوب. كنا نسير في الحديقة وتحدثت مع ساشا كثيرًا عن مصير بيساريف الذي مات غرقًا. قيل إن المخبر الذي كان يتبعه ويراقبه رآه وهو يختفي تحت الأمواج، ولكنه تعمَّد ألا يسعى لطلب المساعدة وتركه يموت، كنت منفعله للغاية... ساشا، الذي كان يسير إلى جانبي، آثر الصمت كالمعتاد، ولكن تَعَكُّر وجهه واستغراقه بيَّنا شدة عواطفه هو أيضًا".

في عام ١٨٨٣ ، بعد مرور عام على مغادرته المدرسة في سيمبرسك، تقدم ساشا إلى جامعة سان بطرسبرج، ليدرس العلوم الطبيعية. كانت آنا موجودة بالفعل بالمدينة. في العاصمة أمكن لآنا أن تتحدث بحرية، وتشترك في الحوارات التي تدور حول الدين، هذا الذي كان مستحيلًا في الوسط الراكد الذي غادرته لتوها. صارا ملحدين معًا. وفي وقت لاحق، بعدما حلَّت المأساة على الأسرة، صار من الواضح أن الاثنين ناقشا العديد من الأشياء معًا سرًا، ولكن هذا لم يجعلها تتشكك في شيء. ناقشا أبواهما وأخوتهما، والحياة في العاصمة، والغرفة التي استأجراها التي كانت تتسم بـ "الصمت والراحة ورائحة مصباح الغاز". كان يحب الدراسة الأكاديمية، ولكنه كان منفصلًا عن مجموعات الطلاب، وقال لأخته إنهم "يثرثرون كثيرًا، ولكنهم يدرسون قليلًا". وفي الأعوام الثلاثة الأولى، لم يفعل ساشا شيئًا سوى الدراسة. وفي الحقيقة لم يكن هناك الكثير ليفعله، لأنه لم يكن مدمنًا على حياة الحانات ولا المواخير. كان يدرس بجد.

في عام ١٨٨٤، العام الذي وصل فيه ساشا إلى العاصمة، كان آخر منشور شعبوي راديكالي، "ملاحظات عن البلد الأم" محظورًا، في العام التالي توقف العدد الأخير لجريدة الحزب القديم، "إرادة الشعب"، عن الظهور، اتباعًا لمثال الحزب الذي تعرض للعزل والتصفية. التعليق الوداعي للجريدة كان كئيبًا إلى أقصى حد، ولكن النظام لم يدع شيئًا للصدفة. المناخ العام كان قمعيًا، وركدت الحياة الفكرية، والتفت عباءة القمع القيصري حول المدينة. كان جواسيس الشرطة يمشطون الحانات والمقاهي بحثًا عن إرهابيين غير موجودين.

أرسل بيروقراطي كبير في الدولة وصفًا مريرًا عن البلاط والحياة في الدوائر العليا إلى زميل لم يعد مَرضِيًا عنه: "كل شيء هنا عبارة عن بلادة وحمق، روتين وإحباط. لا يمكن تحقيق شيء مفيد وسط كل هذا العفن والقذارة". كانت الإنتلجنسيا مُحبَطة أيضًا، وكما يشيع في أزمنة الهزيمة، توجهت إلى دواخلها، إلى "حياة تخصنا". تركوا قضية الفلاحين، وأرجعوا ذلك إلى أن "أزمنتنا ليست أزمنة المهام الكبرى" وازدروا الكتاب والفنانين الراديكاليين، مجادلين بأن هذا زمن "الفن الخالص"، المنفصل عن أي علاقة بالواقع.

كانت المدينة مغطاة بالثلوج في يناير عام ١٨٨٧، عندما تجمع مئات من الطلبة خارج مقبرة فولكوفو، ليحتفوا بالذكرى الخامسة والعشرين لوفاة دوبروليبوف، حاملين بورتريهات له عليها نقش يقول: "ديدرو الخاص بنا". وجدوا بوابات المقبرة مغلقة ويحرسها القوزاق الممتطين أحصنتهم، تشد أياديهم على السيوف والسياط. للحظة ظل الطلبة بلا حراك، ثم بدأوا يغنون نشيد "المارسييز" وبدأ يتقدمون ببطء. هاجم القوزاق الطلبة من على أحصنتهم ممسكين بسياطهم. وكانت هناك مواجهات. قُبض على اثنين وأربعين طالبًا ونُفيوا من سان بطرسبرج. وتشتت الآخرون في كل الاتجاهات.

شارك ساشا أوليانوف في هذه المظاهرة، وتحول إلى الراديكالية بسبب هجوم القوزاق على الطلبة السلميين وغير المسلحين. كانت الأخبار القادمة من موطنه سيئة. توفي والده، وكانت عائلته معتمدة على معاش الدولة، وكانت النقود قليلة. لم يكن مهتمًا سوى بمسؤولياته. ولكن هذا الحدث، الصغير في ذاته، كان له تأثير كبير عليه وعلى المشاركين الآخرين. عادة ما تكون التجربة الشخصية هي العامل الفعال في تغيير الوعي السياسي، أكثر بكثير من الكتب. بدأت دوائر الطلبة تناقش رد الفعل. اتفقوا على إعلان ليصل إلى "المجتمع" (الذي يعني المثقفين الليبراليين)، ولكن حتى هذا الإعلان لم يصل لأحد. كانت الشرطة، الواعية تمامًا بما يحدث، هي التي فَرَّغَت صندوق البريد في هذه الحالة. عاد العديد من الطلاب إلى "طبيعتهم"، ولكن لم يكن من بينهم ساشا وبعض الطلبة الآخرين. كان يشعر بالألم. اتفقوا على أن كتابة العرائض عملية غير مجدية. أشار آخرون إلى أن هناك بديلًا وحيدًا وهو الإرهاب. أصر ساشا على أن التفكير الحَذِر لا بد أن يسبق الفعل الثوري. رد أصدقاؤه بأن القراءة والكتابة ليسا كافيين، لأن عنف الدولة يسحقهم. كان رد الفعل الوحيد على عنف الدولة هو العنف الثوري. لم تكن الجدالات أصيلة تمامًا، إذ سيطرت نقاشات مشابهة على فترة الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر.

ولكن في تلك العقود، فهم العديد من الناس الإرهاب باعتباره ضرورة. أما في الثمانينيات لم تعد هذه هي المسألة. ما كان يخطط له ساشا ورفاقه المتآمرون كان صدى باهتًا لدوي بعيد. ستحقق القنبلة والمسدس، أو هكذا تخيلوا، ما لم تستطع تحقيقه المظاهرات أو أحاديث المقاهي. في اللحظة التي اتفقوا عليها كان رد الفعل الجاد الوحيد على الموقف هو اغتيال القيصر. ساشا، وعلى الرغم من أنه ظل غير متيقن ومتشكك من كثرة الأعضاء في المجموعة، لم يتردد والتزم بكتابة بيان يشرح فيه أسباب الفعل. تورط مجموع خمسة عشر طالبًا في المؤامرة، من ضمنهم بولنديين اثنين

(واحد منهما كان برونيسلاو بيوسودسكي، والذي صار أخوه لاحقًا ديكتاتور بولندا، وعدوًا لدودًا لأخي ساشا الأصغر). خططوا لقتل القيصر في ١ مارس عام ١٨٨٧، وهو ذكرى اغتيال أبيه.

حُكِم على العملية بالفشل منذ البداية، فعلى خلاف أسلافهم الذين تولوا عملية الاغتيال السابقة، لم يكن لدى الطلبة أي سابق خبرة بمؤامرات الاغتيال، ولم يكن لديهم خطة مفصلة جادة للفعل، ولم يكونوا على دراية بالمعارف التقنية الضرورية. مر حوالي شهر تقريبًا قبل أن يستطيع بيوسودسكي أن يُحضِر حمض النتريك من مدينة فيلنا ونجحت المجموعة في شراء مسدسين مستعملين. ما كشف حقيقة كونهم هواة بشكل أكبر هو أن أحدهم كتب رسالة بلاغية إلى أحد الرفاق في خاركوف، مدح فيها الإرهاب الثوري. احتوت الرسالة على إشارات كافية لتحذر الشرطة، التي بدأت مراقبة كاتب الرسالة، وسريعًا ما تتبعت كل أعضاء المجموعة. بشكل مأساوي تبين مبرر إحساس ساشا بالقلق من حجم المجموعة، إذ خانه طالبان كان عارض تجنيدهما، وكشفا مخطط المجموعة للشرطة. قُبض على المجموعة التي كانت تستعد لقتل القيصر في شارع نيفسكي بروسبكت. وفي الوقت نفسه، وصلت الشرطة إلى شقة ساشا، حيث كانت آنا، الجاهلة بالأمر، تمر لتزور شقيقها. قُبض على الاثنين، وقرر ساشا أن يتحمل كامل المسؤولية، وصرح أمام المحكمة:

"أنا من أوائل الناس الذين راودتهم فكرة تشكيل جماعة إرهابية، وقمت بأكثر الأدوار نشاطًا في التنظيم... والتزامي الأخلاقي والفكري في هذه المسألة كان كاملًا. لقد خصصت لها كل قدراتي، ومعارفي، وكل ما أملكه من قوة معتقداتي".

عندما وصلت الأخبار إلى سيمبرسك، طالبت أم ساشا المُحَطَّمة من جارة لها أن تعتني بالأطفال، وتوجهت فورًا إلى العاصمة. طوال شهر

توسلت، وركعت على ركبتيها، فعلت كل شيء يمكن أن يفعله إنسان لتنقذ ابنها. ساشا نفسه لم يراوده أمل كبير. عندما قابل أمه في النهاية في ٣٠ مارس، انهار وبكى، وطلب منها المغفرة، وشرح لها: "بخلاف واجب المرء تجاه عائلته، على المرء واجب تجاه وطنه... لقد أردت أن أقتل رجلًا – هذا يعني أنني ربما سأُقتَل الآن". المدعى العام، الذي كان لديه الدليل أمامه، صُدم من خطاب السجين: "أوليانوف يدعي قيامه بالعديد من الأفعال التي لا ذنب له فيها". فقدت الشرطة البيان الذي كتبه. أعاد كتابته في السجن وأعطاه لهم؛ على الفور اقتيد إلى القصر بناء على طلب القيصر. ألكسندر الثالث، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، كان يعتبر بشكل عام فظًا وشبه متعلم. قرأ البيان وخط تعليقًا: "هذه الكتابة لا تصدر حتى عن رجل مجنون، بل من شخص بالغ الحمق". وعندما ذكرت الوثيقة أن أي جهد يسعى لرفع المستوى الثقافي للشعب مستحيل. أشار أب جميع شعبه: "هذا أمر مطمئن".

لم يكن لدى ساشا أوهام كبيرة تجاه مصيره. في رسالة إلى القيصر، توسلت أمه لنوال الرحمة، وتخفيف عقوبة الإعدام، ولكن رُفض طلبها. وعلى الرغم من أنها كانت معجبة للغاية بخطاب ساشا الفصيح في المحاكمة —وكان ذلك جانبًا لم تره من قبل—بكت كثيرًا أثناء حضور المحاكمة مما كان يدفعها لمغادرتها. قدم ابنها للمحكمة محاضرة عليمة عن كيف نمت البلاد الأخرى، وكيف بنت روسيا القيصرية حاجزًا لمنع أي تطور سلمي في المجتمع. هذا هو السبب الذي دفع الإنتلجنسيا لأن تقبل التحدي. كان الإرهاب تكتيكًا استخدموه لأن النضالات المفتوحة الساعية للتغيير كانت ممنوعة عليهم:

"الإرهاب هو شكل من النضال ظهر في القرن التاسع عشر، الشكل الوحيد للدفاع عن النفس الذي يمكن أن تلجأ إليه الأقلية، القوية فقط بسبب دافعها الروحي ووعيها باستقامة طريقها، ضد شعور الأغلبية بالقوة

المادية... بالطبع الإرهاب ليس سلاح الإنتلجنسيا في النضال المنظم. إنه فقط طريق يتخذه بعض الأفراد تلقائيًا عندما يصل سخطهم إلى حد متطرف. بهذه الطريقة، الإرهاب هو تعبير عن النضال الشعبي والإرادة، ويستمر طالما لم تشبع احتياجات الأمة... ستجد دائمًا في الأمة الروسية عددًا من الأشخاص المخلصين لمُثلهم ويشعرون بعمق ببؤس بلادهم، لدرجة أنهم لا يعتبرون الموت من أجل قضيتهم تضحية".

شُنِق ألكسندر أوليانوف في ٨ مايو عام ١٨٨٧. كان في التاسعة عشرة من عمره. كانت أمه تسير إلى سجن النساء في سان بطرسبرج لتزور أخته حين توقفت لتشتري الجريدة. ومنها عرفت الخبر لأول مرة.

٣

الأخ الأصغر

طوال عِقد تلا المأساة، كان يُشار إلى لينين في الدوائر الراديكالية باعتباره الشقيق الأصغر لألكسندر أوليانوف. ومن جهة نظرة المسؤولين، كانت العائلة منبوذة، تعيش في عار شديد. كان لينين في آخر عام له بالمدرسة، وكان بحاجة إلى إذن رسمي ليحضر الامتحان، دافع كرينسكي عن حقه في الحضور، وأشار إلى السلطات بأن الصبي تلميذ نجيب، ولا توجد إشارة من أي نوع على أنه يشارك أخيه في آرائه. كِبَر سن المدير وخبرته ووفاؤه للدولة كانوا كافيين حتى لا يتم تجاهل رأيه. حضر الشقيق الأصغر الامتحان، وأبلى بلاءً حسنًا كما هو متوقع. عندما كان طفلًا كان سيجيب على أي سؤال يسأله أبواه بكلمتين: "مثل ساشا". الإعجاب والمنافسة قاما بدوريهما. اتبع بحرص نشاطات شقيقه الأكبر، وتعلم منه وقارن نفسه به. شعر بصدمة عميقة للغاية بموت أخيه. تغير كل شيء. تحول إلى الراديكالية السياسية بسبب الحدث وما تلاه. يستنتج إيزاك دويتشر:

"لم يُذكر اسم ألكسندر في أي من كتب لينين أو مقالاته أو خطبه أو حتى رسائله إلى أمه وشقيقاته. في كافة أجزاء الخمسة وخمسين مجلدًا... من النسخة الروسية لأعماله لم يُذكر اسم ألكسندر سوى مرتين عرَضًا... كان تكتمًا عجيبًا لا يمكن نسبه إلى برود المشاعر، بل على العكس، كان يخفي إحساسًا يبلغ من العمق درجة لا يمكن التصريح بها، ومن الألم ما لا يمكن تذكره".

في بعض الأحيان، عندما يكون مع أصدقائه وفي مزاج طيب، كان يذكر تأثير ساشا، وكما يستعيد فالينتينوف في كتاب "مذكرات لينين"، استطاع العدو الدائم للاشتراكية والشيوعية، ونستون تشرشل، في إحدى المناسبات أن يتجاوز الخلافات وكتب متفهمًا في مقال له عن لينين بعد وفاته بخمسة أعوام:

"كان وصل إلى العمر الذي يشعر فيه. كان عقله عبارة عن أداة مميزة. وعندما أضاء، كشف العالم كله، بتاريخه وأحزانه وحماقاته، وزيفه، وقبل كل شيء مساوئه. كشف كل الحقائق بتركيز شديد –أكثر الأشياء غير المحببة، وأكثر الأشياء الملهمة– بنسبة متساوية. كان ذهنه رحيبًا، وفي بعض المراحل رائعًا. كان قادرًا على الفهم الكلي بمستوى يندر أن يصل إليه أحد من بين البشر. إعدام شقيقه الأكبر حوّل الضوء الأبيض الواسع من خلال منشور: وكان المنشور أحمر".[1]

بعد الثورة كاتب الشاعر ماياكوفسكي شيئًا مشابهًا، وإن كان من وجهة نظر مختلفة تمامًا:

كان دنيويًا–
ولكن ليس من بين هؤلاء
الذين يدفنون أنوفهم
في خرائهم الصغير.
استوعب العالم بأكمله،
العالم كله،
بدَفعة واحدة.

صارت حياة العائلة أصعب في سيمبرسك، قاطعهم أقرانهم اجتماعيًا، أناس كانوا يعرفونهم من مدة طويلة صاروا يعبرون الشارع بدون تحية عندما

---

1 Winston Churchill, *The World Crisis: The Aftermath*, London, 1929, p. 73.

يرون أم الصبية. هذا أغضب لينين أكثر من الإيقاف المؤقت لمعاش الدولة لأرملة أبيه لأن العائلة أخرجت من حاول قتل الملك. خلق هذا بداخله كراهية عميقة وخالصة لليبراليين ونفاقهم. كيف يتغيرون بسهولة بتغير أمزجة المؤسسات الرسمية. كيف يسهل عليهم الانتقال من هذا الرأي إلى ذلك والتعبير عن الدهشة عندما تُذَكِّرهُم بما قالوه منذ عدة شهور. هذا الازدراء للحِرابي السياسية ظل بداخله طوال حياته، وامتد بسهولة ويسر ليشمل الاشتراكيين الديمقراطيين اليمينيين الذين كانوا يتصرفون بالطريقة نفسها.



لينين عام ١٨٨٧، العام الذي شُنق فيه أخوه.

بعد عدة عرائض من أمه القديرة، أعيد المعاش. قررت العائلة مغادرة سيمبرسك والتوجه إلى قازان، حيث درس لينين القانون في الجامعة. درس أبوه هناك أيضًا، عندما كان عالم الرياضيات المميز نيكولاي لوباتشيفسكي (الذي خُلد في أغنية توم ليرير)[xiv] رئيس الجامعة وازدهرت في عهده الحياة الفكرية. صار الوضع مختلفًا الآن. سادت اللامبالاة المميتة المدينة والجامعة. طاف جواسيس الشرطة في مباني الجامعات في أنحاء البلد. كان اسم أوليانوف معروفًا للجميع، وكان هذا يعني أن لينين مُراقب بحرص منذ اللحظة التي وصل فيها إلى الجامعة. أدت مشاركته الضئيلة في مظاهرة منظمة ضد الظروف القمعية إلى أول اعتقال له. سأله الشرطي الذي رافقه إلى السجن: "لم تتسبب في المشكلات أيها الشاب؟ أنت تخبط رأسك في الحائط".

إجابة لينين كانت متحمسة وتنبؤية: "الحائط فاسد، ضربة قوية واحدة وسوف يسقط". بعد أربعة شهور (من ضمنها ثلاثة أيام في السجن)، طُرد من الجامعة.

ما الذي سيفعله؟ أن ينتقم لساشا؟ لا بد أن الفكرة راودته، ولكنه نفضها. لا يعود ذلك إلى كونه صار ماركسيًا – كان ما زال بعيدًا عن ذلك. لم يكن الكتاب الذي غيره هو رأس المال، الكتاب المقدس الرسمي الذي سيدافع عنه لاحقًا، إنما كان كتاب تشرنشفسكي "ما العمل؟" في حواراته عن الكتاب مع رفاقه من الطلبة وغيرهم، توصل تدريجيًا إلى أن تضحية أخيه والطلبة الخمسة الآخرين الذين شُنقوا معه كانت بلا جدوى. كانت آخر زَفرَة لفظها الحزب الميت الآن. هذا لا يعود ببساطة إلى القمع، ولكن أيضًا لأن الإستراتيجية أثبتت أنها غير مؤثرة. لم يؤد أي فعل إرهابي —ولا حتى العملية الناجحة باستهداف القيصر— إلى انتفاضة جماهيرية. حلّت حقبة هادئة، زمن حزين وقاتم على الشباب وعلى الإنتلجنسيا الليبرالية. لم يتسلل أي شي تقدمي، ولو من بعيد، إلى الشفق الطويل لثمانينيات القرن التاسع

عشر. قُمعت جميع المجلات الراديكالية. وكانت الصحف في موسكو وسان بطرسبرج كئيبة بشكل لا يصدق. لم تُنشر أو تُسمع أصوات نقدية. كان ذلك وقت قراءة الكتب، وقد التهمها.

أبعِد لينين ليعود إلى وطنه بعد اضطرابات قازان. ولكن لأن لم يتبق أحد في سيمبرسك، وافقت السلطات على إمكانية أن يسكن في حقل أجداده لأمه في كوكوشينو، على بعد ٣٠ ميلًا من قازان. أُرسلَت أخته آنا إلى هناك بعد إطلاق سراحها من السجن في سان بطرسبرج، وانتقلت بقية الأسرة إلى هناك أيضًا. لا بد أن الذكريات التي تخص ساشا كانت طاغية. كانوا يقضون جل أصيافهم هنا، وفي إحدى المرات أشار ساشا لأخيه، والامتعاض مرسوم على وجهه، أن يلقي النظر على الصبية اليهود المُستعبدين الذين يُقادون في الشوارع إلى أماكن مجهولة، حيث سيغيرون عقيدتهم عنوة إلى العقيدة الأرثوذوكسية. كانوا جميعًا يفكرون في ساشا، ولكنهم لم يتحدثوا عنه كثيرًا.

همست الخالات في أذن أمه بأنه تحت أي ظرف لا بد من تثبيط همة فلاديمير بجد حتى لا يسير على خطى أخيه. كان هناك بعض الأمل. ولكن ليس من المعروف بالضبط متى عثر على أول نسخة من "رأس المال". ظهرت أول ترجمة روسية عام ١٨٧٢. كان ساشا يقرأها في إجازة صيف عام ١٨٨٦، ولكن لينين في ذلك الوقت كان غارقًا في قراءة تورجنيف، وربما لم يلحظ العنوان. تم تداول حوالي عشر نسخ أو أكثر في قازان خلال الفترة القصيرة التي قضاها في الجامعة. أثناء الحرب العالمية الأولى، زعم كارل راديك لاحقًا أن لينين أخبره أنه انضم إلى مجموعة "إرادة الشعب" في قازان حيث عرف عن ماركس من طالب آخر. متأثرًا بالحمى الماركسية في ذلك الوقت، صار هذا الطالب، مندلشتام، محافظًا ليبراليًا وانضم إلى الديمقراطيين الدستوريين (الكاديت). يبدو كل هذا صحيحًا. عندما سألوا

أخته آنا، أكثر المصادر ثقة في حياته المبكرة، عن هذه الحقبة، ردت قائلة: "لم يكن هناك الكثير لقوله. كان يقرأ ويدرس ويجادل".

حصلت العائلة على الإذن بالعودة إلى قازان، وجدد لينين اتصاله مع بعض الأصدقاء. ولأنه كان يخشى توريط عائلته بأي طريقة، لم يدعُ أحد من أصدقائه إلى المنزل. يمكن أن نفترض أيضًا أن لا أحد منهم كان يرغب في زيارته، بسبب مراقبة الشرطة المنتظمة لعائلة أوليانوف. كانت شيتفريجوفا، العضوة المخضرمة بإرادة الشعب، تعيش في قازان في ذلك الوقت. قابلها لينين في عدة مناسبات، وسألها عن تفاصيل المنظمة وماضيها. لعبت قراءة ماركس دورًا هائلًا في نشأته الفكرية، ولكنها لم تتحول إلى بديل مباشر عن صلته بإرادة الشعب. لم يتحدث أبدًا عن ساشا، وكان متحفظًا حينما حاول المعجبون بساشا أن يتواصلوا معه، ولم يكتب عنه أبدًا. كان الأشخاص الوحيدون الذين تحدث معهم عن ساشا ببعض التفاصيل هم شقيقاته، وزوجته ناديا كروبسكايا، ورفيقته المقربة وعشيقته إينيسا أرماند . تركت المأساة ندبة عميقة بداخله، لم تتلاش أبدًا. وفي إشارة تقدير، قرأ بتلهف معظم الكتب الموجودة على أرفف ساشا. وبينما تجاهل تشرنشفسكي بينما كان ساشا حيًا، قرأ الآن "ما العمل؟"، وصار يشعر بحمية شديدة عندما كان يُنقَد (وكثيرًا ما كان يحدث ذلك، لأنه لا يُحسب عملًا أدبيًا). فالينتينوف، الذي كان بلشفيًا شابًا، والذي صار مقربًا من لينين أثناء منفاه السويسري، استعاد رد فعل لينين المتفجر عندما انتقد الكتاب:

"رواية تشرنشفسكي أعجبت أخي وفتنته. فتنتني أيضًا. حرثتني مجددًا بالكامل... من غير المفيد أن تقرأها عندما لا يكون لبن أمك قد جف من على شفتيك. كانت رواية تشرنشفسكي معقدة جدًا، ممتلئة بالأفكار والآراء، أصعب من أن تُفهم وتُقدَّر في سن مبكرة. أنا نفسي حاولت أن

أقرأها في الرابعة عشر... كانت قراءة سطحية وبلا قيمة ولم تقدني إلى شيء. ولكن بعد ذلك، بعد إعدام أخي، ولمعرفة أن رواية تشرنشفسكي كانت واحدة من الأعمال المفضلة له، بدأت ما صار قراءة حقيقية، وانغمست في الكتاب، ليس لعدة أيام، ولكن لعدة أسابيع. في هذا الوقت فقط بدأت أفهمه بعمقه التام. إنه عمل يزودك بطاقة تكفيك طوال حياتك... هذه هي ميزته العظمى، إنه لا يظهر لك فحسب أن أي تفكير صحيح وأي شخص أمين ومخلص لا بد أن يكون ثوريًا، ولكن الأهم من ذلك يوضح لك ما الذي يجب أن يكون عليه الثوري، أي قواعد عليه أن يتبعها، كيف يحقق هدفه وأي وسائل وأساليب عليه أن يستخدمها ليحققه... قبل أن أقرأ ماركس وإنجلز وبليخانوف، تشرنشفسكي وحده هيمن بتأثيره عليَّ، وكل شيء بدأ بـ (ما العمل؟)"[2]

كان الطريق الذي اتخذه من "إرادة الشعب" إلى الاشتراكية الديمقراطية" بطيئًا. وحتى عندما تحول نهائيًا، حافظ على الدوام على شعور دافئ تجاه الإرهابيين القدامى. كان يعرف أماكن سكنهم في أماكن مختلفة في البلاد، وكان يدخر لنفسه بعض الوقت ليذهب ويلتقيهم بقدر الإمكان. الشيء الأهم، هو أن أفكاره عن كيفية عمل الحزب الثوري في ظروف سرية كانت مدينة في بعض جوانبها إلى التقاليد الثورية ما قبل الماركسية في روسيا القيصرية.

إذا كان "إرادة الشعب" تعافى وأعاد تجميع نفسه، ربما كان لينين سيواجه معضلة حقيقية. ولكن كان من الواضح بالفعل أنه من المستحيل عودة الحزب. دل على ذلك الإخفاق التام لمؤامرة عام ١٨٨٧ التي حاول

---

2 Nikolay Valentinov,*Encounters with Lenin*, New York, 1968.
أفضل سيرة شخصية-سياسية عن لينين، تحديدًا لأنها تفتقد حس التوقير. فالنتينوف كان اسمًا مستعارًا لن. ف. فولسكي، وكان من عائلة أرستقراطية بارزة. كانت ممتلكات العائلة تقع في مدينة كان رئيس شرطتها هو شقيق جورجي بليخانوف. يستعيد فولسكي كيف كان الشرطي المتوتر بليخانوف يتصرف حين يُسأل بتهذيب كيف توجه أخيه إلى المنفى.

تنفيذها ساشا ورفاقه. رسَّخ العام التالي من فكرة الانهيار. ليف تيخيميروف، المُنَظِّر والإستراتيجي الرئيسي في "إرادة الشعب"، الذي كان يجادل قبل عدة سنوات من أجل الاستيلاء على السلطة والثورة الاجتماعية الفورية، غيَّر توجهه بشكل دراماتيكي. في مارس عام ١٨٨٨، أعلن تضامنه مع الأوتوقراطية، ونشر كتيبًا انتشر بشكل واسع كان بعنوان: "لم توقفت عن أن أكون ثوريًا". اتبع عدة آلاف من نشطاء "إرادة الشعب" خطاه وغيروا توجههم. الأبيات الأخيرة للشاعر الأناركي نادسون ضمت بيتًا موجهًا إلى جيله، يقول فيه: "لا، أنا لم أعد أؤمن بمُثُلكم".

ارتفع معدل الانتحار بين الشباب بشكل مخيف. وفسر تشيخوف الأسباب كالتالي:

"من جهة كان هناك الشوق الشغوف للحياة والحقيقة، حلم بالنشاط، رحب كالسهوب... من جهة أخرى، فراغ لا نهائي، مناخ قاسي، شعب متقشف رمادي، بتاريخه البارد المرعب الثقيل، ووحشيته، وبيروقراطيته، وفقره، وجهله... الحياة الروسية تثقل على الروسي كحجر يزن ألف طن".

إلا أن عِقْد الهزيمة نفسه أدى لظهور أول تيار اشتراكي ديمقراطي منظم في روسيا (من المفترض أن هذا كان مرادفًا للماركسية في تلك الأعوام المبكرة): تحرير العمل، الذي كان مؤسسوه –جورجي بليخانوف، وفيرا زاسوليتش، ودويتش–ضمّ مَن كانوا قبل ذلك شعبويين راديكاليين. كانت زاسوليتش قد حاولت اغتيال الجنرال تيبَر، رئيس الشرطة في سان بطرسبرج، وأخفقت. بالعودة إلى عام ١٨٨٠، كتبت اللجنة التنفيذية لإرادة الشعب (التي صارت فرعًا حديثًا من جماعة الأرض والحرية) إلى ماركس قائلة: "أيها المواطن! الطبقة الفكرية والنقدية في روسيا استقبلت بحماس نشر أعمالك البحثية. إنها تُعَرِّف علميًا أفضل المبادئ في الحياة

الروسية". كان من الواضح أنهما أعجبوا بالإدانة الأخلاقية للاستغلال، بدون أن يستوعبوا بشكل كامل الطرح الرئيسي في "رأس المال".

بُني جسر متداع يصل شاطىء الشعبويين بالاشتراكية الديمقراطية. في عام ١٨٩٣ ، انضم لينين، الذي وصل لتوه إلى العاصمة، إلى جماعات تحرير العمل في سان بطرسبرج، التي نشط فيها بالفعل بيتر ستروف، وتوجان بارانسكي، وبوتريسوف. هكذا امتزجت حياته بحياة الحزب، الذي كان يُعرف باعتباره الحزب الذي يتولى قضية العمال الصناعيين، الذين كانوا يعملون في ظروف بشعة في المصانع التي تنامت على أطراف المدينة.

جماعة دراسية مختلفة وصغيرة بنفس القدر، قادها ماركسي محلي، كان يعمل تحت الاسم المستعار، جوليوس مارتوف، واقتصر تكوينها على الطلاب، كانت تنعقد بالفعل في المدينة. كان مارتوف مقتنعًا أن ركود الإنتلجنسيا مؤقت، وأن نضال العمال ضد رأس المال سيسيطر قريبًا على المدن الكبرى، ويؤدي إلى الزخم الشعبوي، ويحظى بدعم كل من العمال والمفكرين للقضية. كان قلقه الأساسي هو إذا كانوا سيستطيعون تنظيم حزب العمال في ذلك الوقت:

"سواء نجح المرء في تحقيق هذه المهمة قبل حدوث هذه الثورة التي ينحو إليها الظرف الحالي في روسيا، أو لم ينجح، فالأمر سيان. لو لم ينجح، إذًا فعلينا أن نشارك في الثورة جنبًا إلى جنب الأحزاب التقدمية الأخرى، وإن تم ذلك، سيثبت الحزب الاشتراكي الديمقراطي أنه قادر على الحفاظ على ثمار الانتصار في أيدي الطبقة العاملة".

أن تفعل ماذا؟ لم تكن الجدالات المتعلقة بطبيعة الثورة التي سعى أتباع كل هذه الجماعات لتحقيقها قد بدأت بعد. إحدى التفسيرات للأرثوذوكسية الماركسية اقترحت انتفاضة ديمقراطية برجوازية للتخلص من الأوتوقراطية وبدء مرحلة جديدة في التاريخ الروسي، تخلق المساحة

المطلوبة للانتقال إلى الاشتراكية. النموذج الذي تم تصوره بمعنى واسع كان نموذج الثورة الفرنسية.

مارتوف، الذي مل قليلًا من أحاديث المقاهي، قرر الانتقال مؤقتًا إلى فيلنا ليختبر نظرياته على العمال اليهود في المدينة. وبعدما حفزته نتائج التجربة، عاد مارتوف إلى سان بطرسبرج ومعه ما ينقله، وكتيب كتبه مع أركادي كريمر، وهو ناشط بفيلنا وهو كتيب "عن التحريض". اقترح هذا النص طريقة لتجاوز ثنائية المثقفين/ العمال بالتأكيد على وحدة النظرية والممارسة، وكان له تأثير قوى للغاية على لينين. فهم أن الممارسة عنصر أساسي في الوعي الثوري. جمهور العمال سيتحول إلى الراديكالية من خلال تجاربه الجمعية، ولكن ماذا عن النظرية؟

في عام ١٨٩٥ اندمجت جماعتان من الاشتراكيين الديمقراطيين ليشكلا اتحاد سان بطرسبرج للنضال من أجل تحرير الطبقة العاملة. جرت مظاهر نمو مشابهة في موسكو وكييف. المعدل المتزايد لنضالات العمال في أنحاء البلد أدى إلى أن يطرح بعض المشاركين أنه عليهم أن ينضموا لتلك المعارك، سيكتشف العمال من خلال التجارب أن السلطات دائمًا ما تأخذ صف رؤساء العمل، هذا الذي سيدفعهم إلى الفهم الماركسي للنظام ككل. اعترض بعض الاشتراكيين الديمقراطيين، وذهبوا إلى أن العمال لا يحتاجون أي شخص آخر ليرشدهم. فقوتهم الصناعية كافية لدفعهم للأمام. الفكرة نفسها لم تكن جديدة. الجماعات الشعبوية نظمت دوائر للعمال في المصانع لمساعدتهم على التنظيم والمواجهة من أجل تحسين الحياة اليومية. اقترح آلان كوسكوفا (وهو اشتراكي ديمقراطي من فترة مبكرة في موسكو) أن الحزب السياسي المنفصل غير ضروري وأن جهود الماركسيين الروس لا بد أن تكون مقتصرة على مساعدة العمال في المصانع أثناء المشاركة في الحركة الدستورية الليبرالية التي تدعمها البرجوازية الروسية.

كل من لينين ومارتوف، الشخصيتان المهيمنتان على الاشتراكيين الديمقراطيين الناشئين، واجها بقوة تلك الأفكار. قدرات لينين النظرية ومهاراته في تفكيك وهدم الحجج التي اعتبرها خاطئة أسست سلطته. في جماعة احتشدت كلها بالمثقفين، من الصعب أن يحدث العكس. في كتاب "مَن هم (أصدقاء الشعب) وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين؟" (١٨٩٤)، فسَّر العمليات التي تجري في روسيا، وأصر بقوة على تطورها الرأسمالي. لم يجادل بأن الرأسمالية الروسية أنهت عملها لدرجة أن كل المتبقي هو الثورة الاشتراكية.[٣] الفكرة الأساسية في حجته، كما شرحها لأحد زملائه، هو أن "تفسخ منتجينا الصغار (الفلاحين والحرفيين) يبدو أنه سيكون الحقيقة الأساسية والمبدئية التي تشرح رأسماليتنا الحضرية وواسعة النطاق، مبددًا الأسطورة التي تقول إن اقتصاد الفلاحين يمثل بنية خاصة بشكل ما".

بعد ذلك بوقت قصير، قرر أن يسافر إلى الخارج وأن يستشير رموزًا عديدة في المنفى، إلى جانب نشطاء في الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. ربما أراد أيضًا أن يخرج من البلد ليفكر، وليتعافى من مآسي عائلته. توفت أخته الأصغر أولجا، التي كان مرتبطًا كثيرًا بها، بسبب حمى التيفويد في سن التاسعة عشر، بعد ذلك، وضع لينين كل شيء جانبًا، وقضى صيف عام ١٨٩١ مع أمه في سامارا. في أوروبا عام ١٨٩٥، قابل كبار الماركسية الروسية: بليخانوف وآكسلرود في سويسرا، وبول لافارج (زوج ابنة ماركس) في باريس وفلهلم ليبكنشت في برلين. اللقاءات مع الروس كانت ودية. كان لينين طالبًا مجتهدًا وكان يستمع إلى بليخانوف بسرور في هذا

---

3 أكثر دراسة كاشفة وتفصيلية عن تطور أفكار لينين، والمدى الذي اختلفت فيه أو لم تختلف عن أفكار ماركس، هي دراسة نيل هاردينج "تفكير لينين السياسي" المجلد الأول.
Neil Harding, Lenin's Political Thought, vol. 1, London, 1977.
كل من المجلدين الأول والثاني متاحان الآن في كتاب واحد.

الوقت، الذي كان مسرورًا بدوره لينال الإعجاب من هذا الشاب وأعجب بحيويته.

موجات الاضطراب لعام ١٨٩٦ـ١٨٩٧ دعمت وجهة نظر لينين التي ترى أنه لا يمكن تأجيل مسألة إنشاء حزب عمال اشتراكي ديمقراطي روسي برمتها إلى المستقبل. من أجل الإعداد لهذه المهمة، كان على الاشتراكيين الديمقراطيين أن يقبلوا تقديم مجموعة متماسكة من الأفكار والمخططات التنظيمية. كان للشرطة القيصرية أفكار أخرى. قبضت على مارتوف ولينين عام ١٨٩٧ وحُكم عليهما بالنفي لثلاث سنوات في سيبريا. جرى المؤتمر الأول لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في مينسك عام ١٨٩٨. أضاف لينين ملحقًا مختصرًا لكتيبه "مهام الاشتراكيين الديمقراطيين الروس"، وكان يشغله مصير شقيقه، الذي خانه مجندين ضعيفي النفس. أصر لينين على أنه في روسيا، على الاشتراكيين الديمقراطيين أن يعملوا في سرية، وأن يختلقوا هويات زائفة، ويعتمدوا على أشكال أخرى من الخداع من أجل الدفاع عن المنظمة:

"بدون دعم وتنمية الالتزام الثوري، والمنظمة والنشاط السري، سيكون النضال ضد الحكومة مستحيلًا. والنشاط السري يتطلب قبل كل شيء تخصص الجماعات والأفراد في جوانب مختلفة من العمل، أما وظيفة التنسيق فتُكَلَّف بها جماعة مركزية برابطة النضال، بأقل عدد ممكن من الأعضاء".

نظريًا، ستعتمد الثورة المقبلة على القوة المتنامية للبروليتاريا، التي تساعدها الخطوة المتسارعة للنمو الرأسمالي، وبالتالي الديمقراطية ذات الطابع البرجوازي. مهمتها الأساسية ستكون الإلغاء الكامل لملكيات الأراضي التي تعتمد عليها الأوتوقراطية. سيتيح هذا المساحة لنمو رأسمالي غير مقيد، سيزيد من حجم وثقل البروليتاريا، وبالتالي ستقابل العدو وجهًا لوجه. ولكن هذا العدو ليس أفرادًا بعينهم، مهما كان سلوكهم بغيضًا، ولكن الطبقة الرأسمالية بكاملها. كانت الثورة الديمقراطية أساسية من أجل إنشاء

بنى قانونية وبنى أخرى تسمح بحرية الاجتماع والصحافة التي سمحت للعمال ومنظماتهم بمساحة سياسية لإدراك قوتها.

في عام ١٩٠٠، وبعد وقت قصير من انقضاء مدتهما في سيبريا، اتفق الزميلان على ضرورة أن يذهب لينين وآ. ن. بوتريسوف إلى الخارج لعقد قمة مع بليخانوف وآكسلرود وزاسوليتش لمناقشة الخطط المستقبلية للحركة وإطلاق جريدة ماركسية –إسكرا (الشرارة)– في المنفى للترويج لآرائهم. سيظل مارتوف في روسيا في ذلك الوقت، من أجل تنظيم الجماعات الاشتراكية الديمقراطية. مضت المناقشات مع الحرس القديم في سويسرا بشكل طيب مبدئيًا. دعمهم لينين سياسيًا ضد بعض المعارضين لهم من الشباب في المنفى، الذين كانت أفكارهم عن برنامج الحزب متعارضة مع بليخانوف وآكسلرود. وكما سيكتشف لينين، لم يكن بليخانوف يتسامح مع المعارضة في المسائل النظرية والتنظيمية وصار سيء الطبع أكثر فأكثر مع مرور الوقت.

بعد وقت قريب من لقاء "أبو الماركسية الروسية"، كتب لينين نصًا غير معتاد وهو "كيف تكاد الشرارة أن تنطفئ". كان نصًا غير معتاد بمعنى أنه يُقرأ باعتباره يوميات، وهو شكل لم يكن يحبه عادة. كان متحمسًا ومتوترًا بعض الشيء من فكرة إقناع كبار الماركسية الروسية بدعم "إسكرا" ولم يكن هذا مفاجئًا، ولكن مع استماعه إليهم بدوره، تبخر توتره. أول توقف كان في زيورخ، حين التقى بول آكسلرود الجذاب: "كأن الحوار بين صديقين لم يلتقيا من وقت طويل، تحدثنا في كل شيء وعن كل شيء، بدون ترتيب محدد". في جنيف حذره منفي آخر بأن يلتزم الحرص – لوجود انقسام في الاتحاد بين المنفيين بالخارج، بليخانوف بشكل خاص كان في حالة بارانويا. وصف لينين اللقاء بأنه كارثي:

"نقاشي معه أظهر حقًا أنه كان متشككًا ولا يشعر بالثقة، و... حاولت التزام الحذر وتجنبت كل النقاط (الحرجة)، ولكن القيد المستمر

الذي كان عليَّ أن أضعه على نفسي لم يؤثر سوى على مزاجي. من وقت لآخر، ظهرت (الخلافات) في شكل إجابات سريعة من جانب بليخانوف على أي ملاحظة كان يمكن على الأقل أن تهدئ أو تلطف المشاعر التي استُثيرت (بسبب الشقاق). كان هناك أيضًا (خلاف) على أسئلة متعلقة بتكتيكات المجلة، وأظهر بليخانوف طوال الوقت عدم تسامح تام، وعدم قدرة أو رغبة في فهم حجج الآخرين، وباستخدام المصطلح الصحيح، عدم إخلاص في ذلك".

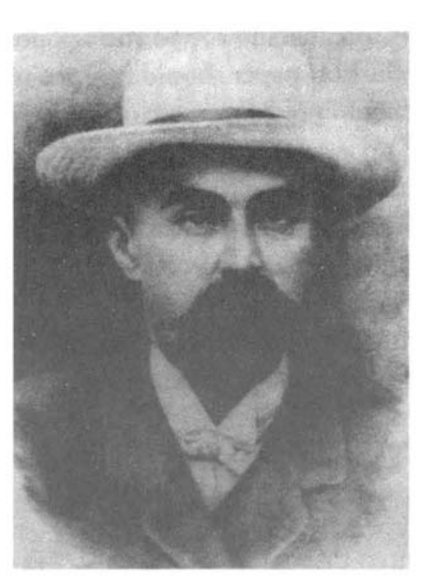
اللقاء بين الجيلين "الأكبر" و"الأصغر" وصل إلى نقطة أزمة حينما اتهم بليخانوف لينين ورفاقه في سان بطرسبرج بأنهم متساهلون جدًا مع أعدائهم. عندما اقترح لينين أنه ينبغي أن تُفتح صفحة جديدة للجدل والنقاش، لم يستطع الرجل الأكبر أن يتحكم في غضبه

"ورفض الإنصات لحججنا. أظهر الكراهية تجاه (أعضاء الاتحاد بالخارج) وصل ذلك إلى حد السب (متشككًا في كونهم جواسيس، واتهمهم بأنهم نصابين ومحتالين، مؤكدًا أنه لن يتردد في إطلاق الرصاص على هؤلاء الخونة إلخ...) صار من الواضح أن كلانا غير راضٍ عن طبيعة البيان".



اول لقاء لجماعة تحرير العمل، ١٨٧٩.

بعد عدة أيام من التهدئة، والاتفاق على شكل من النسخة الأولية، اجتمعت جماعة تحرير العمل كلها باستثناء مارتوف -كان من الثلاثة الكبار مع لينين وبوتريسوف (آرسينيف)- في مؤتمر. كان العنصر الأول في الأجندة هو الموقف الواجب اتخاذه تجاه العصبة اليهودية، وهي تنظيم اشتراكي ديمقراطي للعمال اليهود، كانت تألف بشكل أكبر المخاوف والاحتياجات اليومية للعمال اليهود وعائلاتهم عن أي تنظيم أخر على الأراضي القيصرية.



جورجي بليخانوف: من المعاداة للسامية المبكرة إلى الشوفينية القومية اثناء الحرب العالمية الأولى.

وفي هذه المرة دخل بليخانوف في نوبة غضب معادية للسامية أذهلت لينين للغاية:

"أظهر بليخانوف عدم تسامح عظيم (تجاه العصبة) وأعلن صراحة أنها منظمة من الانتهازيين الذي يستغلون الروس، وليسوا تنظيمًا اشتراكيًا ديمقراطيًا. قال إن هدفنا هو طرد هذه العصبة من الحزب، لأن اليهود شوفينيين وقوميين، وأن الحزب الروسي لا بد أن يكون روسيًا وأن لا يترك نفسه "أسيرًا" لـ "جنس الأفاعي"، وهكذا. لم يكن لأي من اعتراضاتنا على تلك التصريحات غير المهذبة نتيجة على الإطلاق، وتمسك بليخانوف بأفكاره حتى النهاية، وقال إننا ببساطة لا نعرف ما يكفي عن اليهود، وأننا لم نمر بتجربة حقيقية تعاملنا فيها مع اليهود".

اتفقنا على تأجيل النقاش عن هذا الموضوع إلى المؤتمر التالي، ولكن في المسائل الأخرى أيضًا كان موقف بليخانوف صادمًا للينين "لكونه بغيضًا

بشكل خاص"، وأظهر "بوضوح تام أنه لا توجد علاقات طبيعية بينه وبيننا". فكرة البدء في جريدة جديدة كان أصلها لينين ومارتوف في سان بطرسبرج في واحد من لقاءات تنظيمهما الجديد.

لأنه كان ينبغي أن تنشر في الخارج، اقتُرح أن عليهم أن يضموا الناس المخضرمين. رفض بليخانوف أن يقبل مجموعة من الشباب التافهين القادمين حديثًا من روسيا لتحرير الجريدة. شعرت كبرياؤه، التي قادته دومًا إلى اتجاهات متطرفة، بالإهانة. رفض أن يكتب "إعلانًا" أو أن يشارك في تحريره، ولكنه استمر في الهجوم "وكثيرًا ما يطلق ملاحظات سامة وخبيثة"، وصف لينين بأنه "وصولي" وهكذا. انتصر بليخانوف في المعركة للحفاظ على سيطرته، ترك خلفه بقايا المرارة والازدراء. أوجز لينين الموقف كالتالي:

"في الوقت الذي وجدنا أنفسنا فيه وحدنا، بعدما غادرنا حمى المناقشة، انتقلنا إلى طوفان من التعبيرات الغاضبة. سيطرت علينا مشاعرنا المكبوتة، تحول الجو المشحون إلى عاصفة. خطونا ذهابًا وإيابًا في قريتنا الصغيرة ليلًا، كانت الظلمة حالكة، وكان هناك دوي رعد، ووميض البرق المستمر كان يضج في الهواء. سرنا، مفعمين بالسخط. أذكر أن آرسينيف بدأ بالقول إن علاقته ببليخانوف انقطعت تمامًا، ولن تعود أبدًا. سوف يحتفظ بعلاقته العملية معه، أما علاقته الشخصية فانتهت. سلوك بليخانوف كان مهينًا إلى درجة أن المرء لا يتشكك في كونه يحمل أفكارًا (غير نظيفة تجاهنا) (مثل أنه يعتبرنا وصوليين). لقد سحقنا تحت قدميه.. إلخ. دَعَمْت هذه الاتهامات كلية. تلاشى (افتتاني) ببليخانوف وكأن ذلك حدث بفعل السحر، شعرت بالإهانة والمرارة إلى حد غير مسبوق. لم يحدث أبدًا في حياتي أنني نظرت لأي شخص آخر بهذا الاحترام والتبجيل المخلصين، ولم أقف أمام أي شخص بهذا (التواضع) الجم، ولم يحدث أبدًا أن (رُكِلت) بهذه الوحشية. هذا ما كان عليه الأمر، لقد تعرضت للركل حقًا. لقد خفنا كالأطفال الصغار، نخشى الكبار الذين يهددون بأن يتركوننا

وحدنا، وعندما خفنا (وكان ذلك مثيرًا للعار) أهملنا بسرعة عجيبة. أدركنا الآن بوضوح أن بليخانوف وضعنا ببساطة في شرك هذا الصباح، عندما رفض أن يشارك في التحرير، كانت حركة شطرنج مقصودة، شرك (لليمام) البريء... ولأن الرجل الذي رغبنا في التعاون معه عن قرب، وأن ننشئ معه علاقات حميمة، لجأ إلى حركات الشطرنج في التعامل مع رفاقه، لم يعد هناك شك في أن هذا الرجل خبيث، نعم، خبيث، ويلجأ إلى دوافع الغرور والكبرياء التافهة- رجل غير مخلص. هذا الاكتشاف -وكان في الحقيقة اكتشافًا- أصابنا كالصاعقة؛ لأنه حتى هذه اللحظة كان كلانا يكنّ الإعجاب لبليخانوف، وكما نفعل مع الأشخاص الذين نحبهم، كنا نسامحه على كل شيء، وأغلقنا أعيننا على كل تصرفاته السيئة، حاولنا بجد أن نقنع أنفسنا أن تلك التصرفات لم تحدث حقًا، وأنها أشياء تافهة لا تضايق سوى الناس الذين ليس لديهم اعتبار كبير بالمبادئ. إلا أننا تعلمنا بشكل عملي أن التصرفات (التافهة) قادرة على التنفير من أكثر أصدقائنا إخلاصًا، وأن لا يمكن لتقدير ثباته النظري أن يجعلنا ننسى صفاته المنفرة. لم يعرف سخطنا حدودًا. دُمر مثلنا الأعلى؛ وضعناه بشماتة تحت أقدامنا كإله غير متوج. لم يكن هناك نهاية للاتهامات التي ألقيناها عليه. قررنا أن الأمور لا يمكن أن تمضي على هذا النحو. لا نرغب في ذلك، ولا نريد ذلك، لن نستطيع أن نعمل معًا بهذه الشروط، وداعًا أيتها المجلة!

تودد الرفاق الشباب إلى رفيقهم الأكبر بدافع الحب العظيم الذي يكنونه له -وفجأة يُقحِم على هذا الحب مناخ من المكائد، ويجبرهم على أن لا يشعروا بأنهم أخوة صغار، ولكن حمقى يقادون من أياديهم، بيادق يحركها حسب إرادته، بل وأسوأ من ذلك كأسماك مرتبكة لا بد أن تخاف وتُسحَق! تَلَقَّى الشباب المسحورون درسًا مريرًا من موضوع حبهم، تعلموا أن ينظروا لكل الناس (بلا مشاعر)، وأن يحتفظوا بحجر في مقلاعهم. نطقنا بالعديد من الكلمات ذات الطبيعة المريرة في تلك الليلة. مفاجأة الكارثة

جعلتنا نضخِّمها بشكل تلقائي، ولكن في الأساس كانت الكلمات المريرة التي نطقنا بها حقيقية. ولأن الحب كان يعمينا، تصرفنا في الحقيقة كعبيد، ومن المهين أن تكون عبدًا. شعورنا بأننا دُفِعنا لارتكاب أخطاء تضاعف مئات المرات بسبب حقيقة أنه بنفسه من فتح أعيننا على ذلنا".

مع حدوث كل ذلك على حدود سويسرا الصغيرة، في الوطن كان هناك بعض منافسي بليخانوف يطرحون أفكارًا كانت تقود إلى تصالح جدي مع الأوتوقراطية. من ضمن ذلك "النقابية"، وهي عبادة عمياء للوعي الطبقي القائم، وعدم قدرة على التفكير في المستقبل. التيارات الاقتصادية لتلك "الماركسيات الشرعية"وقعت جميعًا في مستنقع الحاضرية، مجادلة بأن "ما هو موجود ربما لا يكون دائمًا، ولكن علينا أن نصاحبه حتى حدوث التغيير. وبعدها سنصاحب التغيير".

كان النجم الهادي لجل الاشتراكيات الديمقراطية هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. رآه الاشتراكيون الأوروبيون، ومن ضمنهم لينين، على أنه حزب نموذجي. ولكنه أصر على أنه يستطيع أن يتحمل الكماليات، مثل الأقلية المُراجِعة المتضمنة والمُحددة للغاية في كل صفوفه، لأن الظروف في ألمانيا كانت على العكس من الظروف في روسيا. منذ عام ١٨٩٠ كانت الجماعة قادرة على العمل بشكل شرعي. كان لديها برنامج ماركسي واضح، وصحافة متطورة للغاية، ومناهج مؤسسة جيدًا لحل النزاعات، وزعماء ذوو سلطة حقيقية. كان التفاوت بيِّنا. لم يكن يمكن استنساخ النموذج الألماني، الأقرب للمثالية في الدول الديمقراطية، في روسيا القيصرية.

كان هذا هو السياق الذي كتب فيه لينين أعماله "السياسية" الرئيسية التي نُشرَت عام ١٩٠٢. عنون كتابه "ما العمل؟" كإشارة تقدير للشعبوية الراديكالية القديمة. قراءة النص يمكن أن تكون مربكة، لأنها سلسلة من

الجدالات التي تستهدف جماعات انتهت منذ زمن طويل. ولكنها مربكة بالقدر نفسه لهؤلاء الذين يفتحون صفحاتها على أمل إيجاد وصفات لبناء حزب سري متآمر. لم تكن هذه هي النسخة الماركسية من تعاليم نيتشايف. وربما يُصدم القارئ عندما يجد دفاعًا عن "الحلم" في وسط النص، حيث انتقد لينين بحدة غير القادرين على التفكير فيما وراء الظروف الجامدة لحياة المصانع. وفجأة يظهر وجه بيساريف المألوف، ويقتبس لينين من مقالته "أخطاء التفكير غير الناضج":

"يكتب بيساريف عن الفجوة بين الأحلام والواقع: (هناك العديد والعديد من الفجوات... ربما يسبق حلمي المسار الطبيعي للأحداث، أو ربما ينحرف في تحليقه في اتجاه ربما لا يسير عليه أي مسار طبيعي للأحداث. في الحالة الأولى لن يؤدي حلمي إلى أي أذى، ربما سيدعم ويزيد طاقة العاملين... لا يوجد شيء في هذه الأحلام سيشوه أو يعيق قوة العمل. على العكس، إذا كان الإنسان مجردًا بالكامل من قدرته على الحلم بتلك الطريقة، إذا لم يستطع من آن لآخر أن يتوقع ويتصور عقليًا، في صورة كاملة وتامة، المنتج الذي تبدأ يديه في تشكيله، بالتالي لا أستطيع تخيل أي حافز سيدفع الرجل ليؤدي هذا العمل الممتد والشاق ويكمله في مجالات الفن والعلم والمحاولة العملية... الفجوة بين الأحلام والواقع لن تؤدي للأذى إذا آمن الشخص الحالم بالفعل بحلمه، إذا كان يلاحظ الحياة بانتباه، ويقارن ملاحظاته بالقلاع التي تُبنى في الهواء، وإذا تحدثنا بشكل عام، أن يعمل بوعي على تحقيق أخيلته. إذا كان هناك نوع من الاتصال بين أحلامه والحياة فهذا أمر طيب). للأسف هذا النوع من الأحلام لا يوجد منه الكثير في حركتنا".

في وقت مبكر مثل عام ١٩٠٧، أوضح لينين أن الوصايا التي أوجزها لا تنطبق على الأوضاع في العالم ولا هي ضرورية للأبد في روسيا:

"فيما يتعلق بالمحتوى الأساسي للكتيب، من الضروري أن نلفت انتباه القارئ الحديث إلى التالي؛ الخطأ الأساسي الذي ارتكبه الذين ينتقدون الآن (ما العمل؟) هو أن تفصل الكتيب عن اتصاله بموقف تاريخي محدد عن حقبة محددة، مضت الآن منذ زمن طويل، من نمو حزبنا".

كان هذا صحيحًا. لا ماركس ولا لينين عمموا أبدًا التجارب المحلية الخاصة. ما فهموه، أفضل من أقرانهم، هو أن أسس المجتمع البرجوازي ليست جامدة. بالنسبة للينين كان هذا الفهم أساسيًا لإعلان أن القرن العشرين سيكون عصر الحروب والثورات.

لا تنبع الأهمية الكلية لـ "ما العمل" من التفنيدات المفصلة للتيارات السياسية الأخرى، ولكن من التأكيد على أولولية السياسة وضرورة الحزب الثوري الذي يصدر مجموعة قوية من المنشورات، إلى جانب التخطيط الحريص للعلاقة بين النظرية والممارسة التي سيصفها لوكاش الشاب لاحقًا (١٩٢٤) بشكل شامل على أنها "واقعية الثورة".

من أين جاءت تلك النظرية؟ هنا لا يوجد شك على الإطلاق. لم تظهر النظريات الماركسية والاشتراكية بشكل تلقائي من العمل الفكري للعديد من الناس، و"من منطلق النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي عمل عليها الممثلين المتعلمين للطبقات المالكة – الإنتلجنسيا. ينتمي مؤسسا الاشتراكية الحديثة، ماركس وإنجلز، في وضعهما الاجتماعي/ إلى الإنتلجنسيا البرجوازية". وكما ذكرت مبكرًا، ينطبق الأمر نفسه على التيارات الشعبوية الأناركية التي سيطرت على القرن التاسع عشر: كروبوتكين وباكونين وتولستوي.

كان نشاط اتحاد العمال نتاجًا لوعي تلقائي للعمال الصناعيين الجدد، ولكنه وحده لم يكن كافيًا وعادة ما انتهى بأن سيطر عليه منافسه الرأسمالي. لم يكن ليصل إلى الاشتراكية تلقائيًا. كانت السياسة والأحزاب ضرورية:

"هؤلاء الذين يتحفظون عن الاهتمام بذلك... هم في الحقيقة يتركون الليبراليين الذين يتحكمون في مجرى الأمور، بحيث يضعون أياديهم على التعليم السياسي للعمال، ويتنازلون عن الهيمنة في النضال السياسي لعناصر هي، في التحليل الأخير، زعماء الديمقراطية البرجوازية".

سريعًا صار من الواضح للينين أن البرجوازية الروسية لن تلعب دورًا بطوليًا، حتى ولو بشكل غير مباشر مثلما فعل التجار في لندن أو الإنتلجنسيا البرجوازية الفرنسية. الأخيرة فقدت بصيرتها سريعًا وأصبحت مدافعة أساسية عن النظام، انتقدها ماركس لخطاياها في عام ١٨٤٨ وبعدها. وصف لينين أخلافهم الروس باعتبارهم "منافقين وأشرار وخبثاء وقساة" و"الخنزير الليبرالي الذي يعتبر نفسه متعلمًا، ولكنه في الحقيقة قذر وبغيض ومتكبر ومغرور".

الأسلوب الجدلي للنقاشات في روسيا الذي عادة ما ينسب إلى اليسار كان له أصول ضاربة في القدم. عادة ما كانت جدالات القرن السابع عشر بداخل الكنيسة حادة. في كتابه الكلاسيكي "تاريخ الأدب الروسي"، يخبرنا د. س. ميرسكي أن إيفان الرهيب كان "كاتب كتيبات عبقري"، قلمه الذي يقطر "قدحًا ساخرًا" كان يقوم بدوره بانتظام ضد طبقة البويار والكنيسة:

"كان أفضلها رسالة إلى رئيس دير سان سيريل، حيث صب كل سموم تهكمه القاسي على الحياة غير المتقشفة للبويار، والرهبان المشلوحين، وهؤلاء المنفيين بسبب أوامره. يعتبر تصويره لحياتهم المترفة في قلعة الزهد عملًا بارزًا يتسم بالسخرية اللاذعة ".[٤]

ينال لينين تقديرًا أكبر عندما يحلل التغيرات في السياسة البرجوازية، التي تابعها عن قرب دومًا سواء في الوطن أو خارجه. على سبيل المثال حلل بتفصيل كبير إصلاحات ستوليبين عام ١٩٠٦ (التي تحتفي بها الأكاديمية

---

4 D. S. Mirsky, *A History of Russian Literature*, New York, 1964, p. 21.

الروسية هذه الأيام باعتبارها البديل عن الثورة)، مشيرًا إلى أنها كُتِب عليها الفشل لا بسبب الشكل غير الذكي من منظور المحافظين الليبراليين، ولكن لأن التعاون الذي قدمته للقطاعات الأغنى من الفلاحين كان في الحقيقة مستحيلًا بسبب المستوى المتطرف من الاستقطاب السياسي في روسيا. هذه النقطة تحديدًا استعصت على هايك في إشاراته المعجبة لأطروحات ستوليبين في كتابه "الطريق إلى القنانة"، الذي اعترف بنفسه أنها كانت رد فعل على ثورة عام ١٩٠٥، وكان هدفها "قطع الأصوات القادمة من الأسفل، وتخفيف مخاوف نبلاء الأراضي المتعلقة بالاستيلاء على أراضيهم".

تغيرت أفكار لينين عن الأسئلة العملية للإستراتيجية والتكتيك في الأعوام التالية، وبينما وافق على فكرة الإضراب الاقتصادي والسياسي الجماهيري، عارض بقوة الفكرة التي ترى أن الإضراب وحده سيحّول الأمور إلى ثورة اجتماعية وسياسية، مثلما كان يرى بليخانوف وآكسلرود من قبله. ساعدت الحرب التالية على توضيح أفكاره بشكل أكبر. ولكن كان هناك شيء واحد واضح. الإرهاب، كتكتيك سياسي لا يمكن أن يُستعاد. ببساطة هو لم ينجح. لم يكن بديلًا كافيًا للفعل الجماهيري. ركز على الأفراد بينما ترك النظام على حاله، وهذا هو سبب أنه توقف طويلًا عن إثارة اهتمام جماعة الإنتلجنسيا أو جذبها. وفُتح طريق مختلف من خلال الاشتراكية الديمقراطية الثورية.

i Pogrom والكلمة تعني بالروسية "التدمير" والمقصود الهجمات الموجهة لليهود في روسيا، والتي تزايدت مع نهاية القرن التاسع وبداية العشرين، والتي كانت مقبولة من قبل السلطات الروسية.

ii Blanquism مذهب اشتراكي دعا له الفرنسي لويس أوجوست بلانكي (١٨٠٥-١٨٨١)، وفيه تقوم بالثورة مجموعة صغيرة من المتآمرين المنظمين.

iii Rosencrantz and Guildenstern شخصيتان شكسبيريتان من مسرحية "هاملت"، كانا يتجسسان على هاملت لصالح عمه الملك كلوديوس، وعهد إليهما الملك بقتل هاملت.

iv وهم الفلاحون الذي يملكون أراضيهم.

v Ironside قوات عسكرية أنشأها أوليفر كرومويل أثناء الثورة.

vi بيوتر ستولبين Pyotr Stolypin (١٨٦٢ – ١٩١١) رئيس الوزراء في روسيا القيصرية (من عام ١٩٠٦ حتى عام ١٩١١)، تبنى بعض الإجراءات الإصلاحية، وحاول مواجهة الحركات الثوررية، تعرض للاغتيال في ١٤ سبتمبر عام ١٩١١.

vii "الملكية سرقة"، هذه هي الإجابة التي يقصدها طارق علي.

viii الجملة من العهد الجديد من الكتاب المقدس، رسالة بولس الرسول إلى تيطس (١:١٥): كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهرًا.

ix لها عنوان آخر، الشياطين، وتُرجمَت إلى العربية بهذا العنوان.

x أو الإعدام الشكلي، وفيه تقوم السلطات بكل الإجراءات التي توحي للمُدان بأنه سيُعدمَ ولكنه لا يُعدَم.

xi تيلسيت في بروسيا الشرقية، حيث عُقدت معاهدة تحالف بين ألكسندر الأول ونابليون بونابرت، بعد هزيمة الجيش الروسي على يد الجيش الفرنسي في معركة فريدلاند عام ١٨٠٧.

xii ساشا، تصغير لاسم ألكسندر في الروسية.

xiii فولوديا، تصغير لاسم فلاديمير في الروسية.

xiv Tom Lehrer مغن أمريكي مشهور بأغانيه عن الرياضيات، وله أغنية عن نيكولاي لوباتشيفسكي Nikolai Lobachevsky المعروف بإنجازه في الهندسة الزائدية.

القسم الثاني

الأممية والاشتراكية والإمبراطوريات والحرب

٤
ميلاد الأممية

أدت أممية رأس المال إلى أممية العمال. أراد عمال العالم أن يتحدوا لأنهم يواجهون عدوًا مشتركًا، كان رد الفعل العكسي هذا سابقًا لماركس ولينين. العامل الذي لا يملك شيئًا، والذي ليس لديه شيء ليفقده سوى أغلاله كان موجودًا بالتأكيد، ولكنه لم يتحرك ولم يستطع أن يتحرك تلقائيًا إلى أبعد من التضامن البدائي. كانت الأحزاب السياسية ضرورية من أجل ذلك، وكذلك التنظيمات الأممية. أدرك ماركس ذلك سريعًا جدًا وساعد على تنظيم هذا التجمع. كانت هذه أممية البروباجندا والتحريض. وضعت الاشتراكية الديمقراطية الألمانية أسس الأممية الثانية، التي وَحَّدَت أحزاب العمال الأوروبية تحت مظلة واحدة. نجح هذا حتى خُرقت تلك المظلة بحلول الحرب العالمية الأولى. اختارت معظم الأحزاب أن تحارب تحت رايات حكوماتها الرأسمالية. أساءوا تقدير الانتفاضات الشوفينية واعتبروها شيئًا راسخًا، وفي اللحظة التي كشفت فيها الحرب عن حقيقتها، انقسمت الأحزاب إلى تيارين وأحيانًا ثلاثة. كانت هذه نقطة تحول هائلة للينين، الذي أدان الحرب من يومها الأول، واعتبر إعلان زيمرفالد[١] ضدها ضعيفًا جدًا. ترجع أصول الانشقاقات الأوروبية إلى الثورة الفرنسية.

منذ عام ١٧٨٩ حتى عام ١٨١٥، انغمست أوروبا القارية بشكل عميق في حروبها وثوراتها. الإمبراطوريتان الأمريكيتان العظيمتان اللتان

أنشأتهما بريطانيا وإسبانيا ضاعتا أو كانتا في طريقهما إلى الضياع بسبب قومية المستوطنين الثورية. كانت تلك الهزائم واقعية بما يكفي من الجهة الاقتصادية، ولكن كان هناك أيضًا ما يدعو للعزاء. هؤلاء الذين حكموا المستعمرات السابقة كانوا في أغلبهم أوروبيين بيض. هيمنت الطائفتان الكبريان في الديانة الأوروبية على شمال أمريكا (البروتستانتية) وجنوبها (الكاثوليكية). تجذرت اللغات الأوروبية الأربع الرئيسية –الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية– في العالم الجديد. وصل الألمان متأخرين قليلًا. بخلاف الأمور الأخرى حافظ كل هذا على الروابط الواصلة بالقارة الأم، بدون أن يضطر المستوطنون أن يقبلوا الهيمنة. كنت الإمبراطوريات الأوروبية تعامل بعضها كمتنافسة. لم يؤمنوا بالوحدة ضد الأعداء المشتركين. كان الجنرال واشنطن ممتنًا للغاية للمساعدة التي تلقاها من فرنسا، وقوبلت دعوة ملك أسبانيا فرديناند للمساعدة ضد الجنرالين ميراندا وبوليفار برفض وحشي من البريطانيين. كانت الأممية الإمبريالية متناقضة.

أصرَّت بريطانيا على إيجاد بدائل استعمارية في أماكن أخرى من العالم. خلال الحروب النابليونية، مدَّت سيطرتها ببطء في الهند، حيث استولت على إقليم البنغال بعد معركة بلاسي عام ١٧٥٧. لم يكن الجشع الرأسمالي وحده، المدعوم بالامتيازات التقنية في الأسلحة، هو الذي أدى إلى تنامي المستعمرات. كانت الهند والمناطق الأخرى في آسيا في أوضاع ضاغطة. انهارت الإمبراطوريات القديمة. نهاية الإمبراطورية المغولية المركزية جعلت الهند معرضة لمغامرات جديدة. كانت سلالة تشينج ما تزال تبلي بلاء حسنًا في نهاية القرن الثامن عشر، ولكن الأوروبيين واليابانيين كانوا مستعدين للانقضاض عليها في العقود التالية، ومبدئيًا كانت بريطانيا في المقدمة. أضعفت القارة الفوضى التي تبدت في الغزوات وظهور أمراء الحرب والتقسيم والمجاعات. بدا أن آسيا غير قادرة على تجديد نفسها. أطلقت

أوروبا العولمة الأولى. وجدت الشركات التجارية من هولندا وإنجلترا فرصًا سهلة وأنشأت قواعد لها عُسكرَت سريعًا ومهدت لاستعمار واسع النطاق. الاستيلاء على مستعمرات "يملكها" آخرون لم يمثل أي مشكلة للبريطانيين على أي مستوى.

فرنسا أيضًا بدأت مبكرًا، بممتلكاتها الإمبريالية في الهند الغربية وشمال أفريقيا. استولت بلجيكا على الكونغو وبدأت أسوأ إبادة جماعية في التاريخ الإمبريالي. القوى الصناعية الرأسمالية محدثة النعمة –الولايات المتحدة وألمانيا واليابان– كان عليها أن تحارب للحصول على نصيبها في الإمبراطورية. كانت النتيجة النهائية للتنمية غير المتكافئة والتوسع التنافسي للرأسمالية الصناعية هما الحربين العالميتين الوحشيتين في القرن العشرين.

مع وصول الثورة الصناعية إلى ذروتها في بريطانيا، وانتشارها سريعًا في بقية القارة والولايات المتحدة، وُلدت أيضًا الطبقة العاملة، وخُلِّد تصويرها في الأوصاف الكئيبة لتشارلز ديكنز وإيميل زولا وآبتون سنكلير وإنجلز، والمثقفين الميثاقيين في بريطانيا: أوكونور وهارني وجونز.

كان النداء الذي صاغه ماركس وإنجلز عام ١٨٤٨ واضحًا بما يكفي: يا عمال العالم اتحدوا، ليس لديكم شيء تخسروه سوى أغلالكم ولديكم العالم لتربحوه. هل هذا صحيح؟ هل يمكن أن تهزم الوحدة الطبقية الإمبريالية المتزاوجة مع كل من الملكيات والجمهوريات في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الذي يليه؟ هل يمكن لـ "عمال العالم" (أي هؤلاء الموجودون في أوروبا وأمريكا الشمالية) أن ينشؤوا منظماتهم الأممية الخاصة لمواجهة الحروب التي قررها حكامهم؟ كانت الإشارات المبكرة إيجابية، وعندما نزل لينين الميدان لاحقًا، كان مقتنعًا أنه لا يوجد طريق آخر للمضي قدمًا، ولا حتى على المدى المتوسط. تلقت الأممية دفعة هائلة بسبب التمردات الراديكالية التي جرت في الأساس

في فرنسا، ولكنها جرت أيضًا في أمريكا الشمالية وأوروبا الشرقية. ظلت فرنسا ورشة ثقافية للعالم، ولكن كما أشار ماركس في مقالاته عن النمو في هذا البلد، "النضال ضد الرأسمال في شكله الحديث عالي النمو –في نقطته المحورية، نضال العمال المأجورين الصناعيين ضد البرجوازية الصناعية– هو في فرنسا ظاهرة جزئية".[١]

على الرغم من هزيمة ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، وانقلاب لويس بونابرت، إلا أنها مع ذلك أعادت إشعال الأمل. حُظرت النقابات والجمعيات السياسية والصحف الراديكالية، ولكن ظل التصنيع في البلاد متسارعًا، وزاد من ثقل الطبقة العاملة في المجتمع الفرنسي. حكمت الدكتاتورية الإمبريالية البلاد مستخدمة مزيجًا من القمع وبعض الإصلاحات. غرق المتظاهرون في الدماء، ولكن كانت هناك محاولات لتحقيق تصالح مع العمال برفع مستوى معيشتهم. أنشأ الملك مجالس صناعية، ودعمت الدولة منظمات رفاه، وسمحت أيضًا بإنشاء مجتمعات للربح المشترك، وأبقت على سعر الخبز منخفضًا، وبمساعدة بارون هوسمان، أنشئت أبنية رائعة للأشغال العامة في عدد من المدن، هذا الذي قلل من معدل البطالة. وفي حالة باريس، أقام عمارة مهيبة وآمنة: لم يعد من السهل إقامة المتاريس.[٢] أدت الأزمة الاقتصادية في عامي ١٨٥٨ـ١٩٥٨ إلى توقف تلك المبادرات. أدت الحرب الفرنسية البروسية، التي جرت بعد اثني عشر عامًا، إلى نهاية نظام نابليون الثالث، الذي اتخذه البروسيون أسيرًا في معركة سيدان، وسُمح له أن يقضي منفاه في بريطانيا.

---

1 Karl Marx, *Surveys from Exile*, ed. David Fernbach, London and New York, 2010.

2 هذا، وبإيجاز شديد، كان بذرة الكينيزية التي ستصير أساس البرامج الاجتماعية الاقتصادية التي دافعت عنها التيارات المراجعة في الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، والتي لم يتم التخلي عنها سوى في التسعينيات من القرن العشرين، مع الانتكاس إلى الرأسمالية ذات المخالب.

في إنجلترا، تم احتواء مظاهر التمرد الميثاقية المطالبة بديمقراطية راديكالية في عام ١٨٤٨، ولكن لم يتلاش المتبقي منها. آرنست جونز، أكثر زعمائها ومروجيها موهبة، والذي صار صديقًا مقربًا من ماركس، وهب حياته الناضجة كلها لقضية الاشتراكية والتضامن الأممي، وهي بذور كان قد وضعها توم بين[ii] في القرن السابق وحافظت عليها المجتمعات والدوائر السرية التي استلهمت روح الثورة الفرنسية. كان لكتابات وليام جودوين وزوجته الأكثر موهبة، ماري وولستونكرافت، تأثيرًا هائلًا على الجيل الأصغر، ومن ضمن ذلك تأثيرهما على الشعر والراديكالية الشديدة التي اتسم بها زوج ابنتهما، برسي بيش شيلي. كان إرنست وجونز، مثل باكونين وكروبوتكين، ينتمي إلى الأرستقراطية. أصيب أبوه، وهو ضابط شجاع في سلاح الفرسان حارب تحت قيادة ولنجتون في شبه الجزيرة الأسبانية، في إحدى المعارك ونُقل ليخدم دوق كمبرلاند (الذي صار لاحقًا ملك هانوفر)، كان أيضًا الأب الروحي لإرنست. وُلد جونز وتعلم في ألمانيا، في مدرسة لونبرج المخصصة للعائلات الأرستقراطية. في سن الثامنة عشر وصل إلى إنجلترا، حيث درس القانون، وصار محاميًا، وتزوج من وريثة تنتمي لعائلة إيرل دربي، وقُدِّم للملكة فكتوريا. كان أذكى كثيرًا من أن يتعايش مع المجتمع الراقي، كان يقرأ بنهم، وفي عام ١٨٤٦، وبالصدفة البحتة، صار مالك جريدة ميثاقية بعنوان "النجم الشمالي". جعله هذا ميثاقيًا طوال حياته؛ أنفق معظم الثروة التي ورثها على القضية حتى فقد كل أمواله. مثل الآخرين سُجن عام ١٨٤٨، وقضى عامين في قيود العزلة في زنزانة صغيرة، ممنوعًا من قراءة الكتب، ومحرومًا من القلم والورقة، وخاضعًا للعقوبة الإنجليزية الفريدة التي تمنعه من الحديث أو الابتسام. أدى السجن، الذي مات فيه ميثاقيان اثنان آخران أثناء حبس جونز، لتدمير صحته، ولم يتعاف أبدًا. في مستشفى السجن، عُرض عليه الإفراج الفوري إذا هجر السياسة لبقية حياته، ورفض ذلك بازدراء. في

جولة دعائية شاقة في أهم مدن الطبقة العاملة في البلاد، حاول جونز وحده إحياء الميثاقية، ولكن فاتت اللحظة. استسلم معظم زعماء الميثاقية المعروفين، عادة ما تم ذلك بشكل هادئ، ولكنهم في بعض الأحيان تنكروا لماضيهم. مات جونز في عيد ميلاده الخمسين، في يناير عام ١٨٦٩ في مانشستر، حيث حضر جنازته بضعة آلاف من العمال.

ابتلعت أوروبا موجة من الرجعية، أدت لأن يتجه ماركس إلى المكتبة. مزجت خطب جونز الاشتراكية بالأممية. كان قد اقترح إنشاء مؤسسة تشكل بذرة لقوة مزدوجة: برلمان مخصص للعمال (الطبقة العاملة) سيعمل كأداة في يد العمال والفقراء ضد مجلس العموم، الذي سيقتصر تمثيله ودفاعه عن الطابقة الحاكمة. كيف سيعمل هذا البرلمان العمالي؟ عن هذا السؤال يجيب جونز بأنه ستكون هناك جلسة دائمة، ستُوجِّه نضالات اتحاد العمال، وتناقش التكتيكات والإستراتيجيات، وتمول الإضرابات وتطور مجتمعات تعاونية بما يدخره العمال. ماركس، الذي كان مكتئبًا من رؤاه ورؤى جماعته المباشرة، تحمس للفكرة، وانتُخب على الفور كمندوب فخري في الجلسة الافتتاحية عام ١٨٤٥. شرح خطاب جونز أسباب تشكيل البرلمان العمالي (الذي توقف بعد عدة أسابيع) وأكد على أهدافه الأممية:



ارنست جونز: المثقف الميثاقي البارز، والصديق المقرب من ماركس

"مجرد اجتماع مثل هذا البرلمان يشير إلى عهد جديد في تاريخ العالم. أخبار هذه الحقيقة العظيمة سترفع من آمال الطبقات العاملة في أنحاء أوروبا وأمريكا... إذا أثبت برلمان العمال أنه صادق تجاه الفكرة التي استدعته إلى الوجود، سيكون على أحد المؤرخين المستقبليين أن يسجلوا أن ذلك حدث عام ١٨٥٤؛ برلمانان في إنجلترا، برلمان في لندن، وبرلمان في مانشستر، برلمان للأغنياء وبرلمان للفقراء".[٣]

جونز الذي كان طليقًا في اللغتين الألمانية والفرنسية، كان يقرأ بانتظام الصحافة الراديكالية باللغتين، وكان داعمًا مخلصًا للانتفاضة البولندية ضد روسيا القيصرية في عامي ١٨٦٢-١٨٦٣، إلى جانب كونه معارضًا صلبًا للويس بونابرت. كان يزدري روسيا القيصرية، لنفس أسباب صديقه ماركس، الذي كان يعتبرها المعقل العظيم للرجعية الأوروبية". كل من الرجلين دعم آبراهام لينكولن. وعلى الرغم من تداعي صحته، كان جونز محرضًا لا يكل، ولعب دورًا هامًا في إقناع عمال لانكشاير بأنه على الرغم من توقف ثلاثة أخماس المغازل والأنوال في لانكشاير، هذا الذي ترك عشرات الآلاف من العمال عاطلين، إلا أن الاضطراب الذي سببه لعملية نقل القطن من الولايات المتحدة التي تمزقها الحرب الأهلية كان عادلًا. لم تكن العبودية مقبولة، وكان لا بد من دعم جيوش الاتحاد. إذا انتصروا سريعًا، ستُفتَح المصانع سريعًا. لم تكن هذه قناعة جونز وحده، بل دعمه بقوة عدد من زعماء اتحاد العمال والنشطاء. حذرت لقاءات جماهيرية هائلة في مانشستر ولندن الحكومة من التدخل الذي كانت تفكر فيه لصالح مُلاك العبيد، وكان هذا يرجع بشكل كبير لأسباب اقتصادية. كانت الحرب

---

3 John Saville, *Ernest Jones, Chartist,* London, 1952.

مع الوضع في الاعتبار أنه في هذه الفترة كان مثل هذا البرلمان فكرة يوتوبية، ولكن بعد أكثر من نصف قرن لاحق، أشار ظهور السوفييتات (الجمعيات التمثيلية للعمال) بعد ثورة ١٩٠٥ في روسيا، ثم مجددًا في عام ١٩١٧، إلى أن جونز كان سابقًا لعصره. نناقش السوفييتات ببعض التفصيل في الفصل الثالث.

الأهلية الأمريكية متكافئة بشكل كبير في ذلك الوقت، وقدّر لنكولن كثيرًا دعم الطبقة العاملة في بريطانيا. أجاب على كل خطابات العمال البريطانيين، وتأثر بشكل خاص بخطاب من مانشستر، ورد عليه قائلًا: "أعرف معاناة عمال مانشستر التي يمرون بها في هذه الأزمة وآسف لها بشدة.. في هذه الظروف، يعتبر تصرفهم مثالًا نبيلًا على البطولة المسيحية، التي لم تتجاوزها أي دولة في أي عصر". بالطبع شاركت الكنائس الميثودية في الحملة، ولكن المتبقين من الميثاقيين والاشتراكيين هم من كانوا في المقدمة.

في الحقبة نفسها، استقبل عمال لندن وحرفيوها الزعيم القومي الثوري الإيطالي جاريبالدي استقبالًا حافلًا، عندما وصل لاجئًا في أبريل عام ١٨٦٤. رفضت الحكومة أن تدعه يبقى، هذا الذي أدى إلى سلسلة من المعارك الغاضبة بين المتظاهرين المحتجين والشرطة.

ولكن ما أدى لتشكيل الأممية الأولى هو الهزيمة الوحشية التي ألحقها القيصر بالطموحات البولندية للحرية والاستقلال القوميين. كانت الانتفاضة البولندية عام ١٨٦٣ هي الثالثة والأكبر من نوعها. تعاطف العمال الفرنسيون والبريطانيون مع الجانب البولندي وطالبت سلسلة من اللقاءات العامة الهائلة بتدخل حكومة بالمرستون، هذا الذي رفضت القيام به: كانت مستعمراتها تزيد في كل شهر، وأي فعل فيه تضامن مع أهالي بولندا سيُساء فهمه في الهند. السبب الرسمي الذي قُدم هو أنه لا يمكن التفكير في فعل أي شيء بدون دعم فرنسي. ولأن فرنسا كانت دولة بوليسية، وكل الجمعيات السياسية محظورة فيها، كان من المستحيل الضغط على الحكومة. كان العمال الفرنسيون والراديكاليون مفعمين بالغضب من الأحداث في بولندا، حيث احتاج الأمر من جيوش القيصر عامًا كاملًا حتى تهزم البولنديين.

ولكن أجريت الاتصالات بين أعضاء اتحادات العمال الفرنسيين والإنجليز، ووضع أساس إنشاء جمعية عمال أممية، والتي تأسست في لقاء عام

للعمال الإنجليز والفرنسيين في قاعة سان مارتن في لندن في ٢٨ سبتمبر عام ١٨٦٤. دعا العمال ماركس ليكتب الخطاب الافتتاحي ودستور المنظمة، هذا الذي قام به بعد عدة نقاشات معهم. كان جورج أودجر صانع أحذية ومؤسس مجلس العمال بلندن، وصار أول رئيس للمجلس العام للأممية؛ ووليام كريمر، النجار، كان أيضًا في المجلس العام، وكذلك جورج هويل، البناء وسكرتير مجلس العمال في لندن. هنري تولين، النقاش، صار الممثل الرئيسي للأممية في باريس. في هذا اللقاء العام، قرر أودجر أن يطرح سؤال العمال المهاجرين مع زملائه الفرنسيين، وأشار إلى المشكلات المتضمنة في "استيراد عمال منخفضي الأجر لكسر الإضرابات واقترح (تواصلًا مستمرًا ومنظمًا مع الطبقات الصناعية في كل البلاد) كحل لهذه المشكلة".[٤]

أدرك ماركس بوضوح شديد أن هؤلاء العمال بعيدين عن أن يكونوا في التيار نفسه الذي يسير فيه، أو حتى في اتفاق تام مع بعضهم في مسائل الاشتراكية والمادية. البرودونيون الفرنسيون وداعمو ماتسيني كانوا معادين لفكرة حركة العمال المستقلة. تفهم ماركس جيدًا النمو غير المتكافئ للوعي السياسي، وقرر أن أفضل طريقة لدعم القضية هي أن يساعد بقدر الإمكان في إنشاء الأممية. انتهى كريمر بأن صار عضوًا برلمانيًا ليبراليًا، وجلس تولين في لجنة بفرساي أثناء كميونة باريس. لا بد من الإبحار بحرص شديد في البحر الممتلئ بأسماك القرش للحفاظ على الأممية المنشأة حديثًا. أخبر ماركس إنجلز "أن الأمر سيحتاج بعض الوقت قبل إحياء الحركة للسماح باستخدام جرأة اللغة. علينا أن نكون *fortiter in re, suaviter in modo* (أقوياء في الفعل، ولطفاء في الأسلوب)". لطف الأسلوب أمر لم يتصوره على الإطلاق تابعوه الروس بشكل خاص -لينين وبليخانوف وآكسلرود ومارتوف وتروتسكي- دعك من محاكاته.

---

4 David Fernbach, 'Introduction', in Karl Marx, *The First International and After*, ed. David Fernbach, London and New York, 2010, p. 12.

بالتأكيد كان الخطاب الافتتاحي بعيدًا جدًا عن أسلوب "البيان الشيوعي"، ولكن الشيء الغريب الآخر هو عدم التوازن الحاصل بين مناقشة الموقف في بريطانيا (أربعة أخماس الوثيقة) وتحليل الأحداث في بقية أنحاء العالم. صيغ الخطاب بوضوح كمناشدة لأعضاء النقابات الإنجليزية أكثر منه موجهًا لعمال العالم. على هذا المستوى كان ناجحًا. كان ماركس يعرف جمهوره، وكان البيان موجهًا لاحتياجات هذا الجمهور. تجاوز مجموعه كونه سردًا يقظًا وكاشفًا لنمو الرأسمالية الإنجليزية التي جعلت الثري أكثر ثراء وحطّت من وضع العمال إلى مستويات محبطة من الفقر. كان العمال يحظون بامتياز هائل واحد على رؤسائهم. ربما اقتبس ماركس من شيلي في هذه النقطة ("أنتم كثيرون، وهم قليلون")، ولكن واصل وشرح أن القوة السياسية أمر جوهري إذا أراد العمال أن يحرروا أنفسهم، شريطة أن يفهموا أن تفوق الأعداد "يعتمد فقط على التوازن إذا كانوا متحدين في العدد وتقودهم المعرفة". بشكل مقصود ولكنه خاطئ، نزع ماركس أي إشارة إلى أيرلندا والهند، وقصر سياسات العالم على الولايات المتحدة والحرب الأهلية وقمع بولندا. الفقرة الختامية، وعلى الرغم من كونها غير كافية، إلا أنها كانت أقوى قسم في الخطاب:

"إذا تطلب تحرير الطبقات العاملة اتفاقًا أخويًا، كيف يكملون مهمتهم العظيمة بسياسة خارجية تسعى لتنفيذ مخططات إجرامية، وتلعب على التحيزات الوطنية، وتبدد دماء الشعوب وثرواتها في حروب القراصنة؟ ليست حكمة الطبقات الحاكمة، ولكن مقاومة الطبقات العاملة في إنجلترا لحمقها الإجرامي، هي التي أنقذت غرب أوروبا من الانغماس إلى قمة رأسه في الحملة المشينة لاستمرار العبودية وانتشارها على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. هذا القبول الخالي من الإحساس بالعار، أو التعاطف المدعي، أو عدم المبالاة البلهاء، التي شهدت بها أوروبا القوقازيين وهم يقعون فريسة للطبقات العليا في أوروبا، وبولندا البطلة التي اغتالتها

روسيا؛ والزحف الكبير وغير المقاوم لتلك القوة البربرية، التي يقبع رأسها في سان بطرسبرج، ويديها في كل مجلس حكم في أوروبا، علَّم الطبقات العاملة أنه من واجبهم أن يكونوا محنكين في غوامض السياسة الدولية، أن يراقبوا الأفعال الدبلوماسية لحكوماتها المتعاقبة، أن يواجهوها عند الضرورة بكل ما يملكونه من قوة؛ وحين لا يكونون قادرين على المنع، يجمعون الإدانات المتزامنة، وتبرير قواعد الأخلاق والعدالة البسيطة، التي كان يفترض أن تحكم علاقات الأخلاق للأفراد، والقوانين التي تسيطر على علاقات الدول.

القتال من أجل هذه السياسات الأجنبية، يشكل جزءًا من النضال العام الساعي لتحرير الطبقات العاملة.

"يا بروليتاريين العالم، اتحدوا".[5]

ظلت الأممية الأولى تنظيمًا صغيرًا. اعتمدت مكانتها على المقولات الراديكالية لزعمائها وعلى بياناتها الحادة. لن نخطئ إذا قلنا أن أعداءها وأصدقاءها بالغوا بشكل كبير في مدى قوتها. في عشية كميونة باريس، كان زعماء القطاع الفرنسي يواجهون محاكمتهم الثالثة. اتهمهم نص الحكم بالانتماء لجماعة سرية، وذكر المدعي للمحكمة أن مجموع العضوية في هذه الأممية الخبيثة كان ٨١١،٥١٣. يمكن للمرء أنه يفترض أن الكبرياء الفرنسية هي التي دفعته بأن يصرح بأن أكثر من النصف (٤٣٣,٧٨٥) كانوا فرنسيين. بعدهم جاءت ألمانيا بـ ١٥٠,٠٠٠ والإمبراطورية النمساوية المجرية بـ ١٠٠,٠٠. تراجعت إنجلترا في هذا الشأن –٨٠,٠٠٠ فقط– وبلغ العدد في سويسرا ٤,٥٠٠، بينما جاءت أسبانيا في المركز الأخير بالرقم الضئيل ٢،٢٧٨. وفقًا لما استمعت إليه المحكمة، كانت هذه الأرقام كبيرة بما يكفي لتشكل تهديدًا ثوريًا على المجتمع إذا كانت تلك الأرقام دقيقة، ربما كان هذا الاستنتاج مبررًا.

5 Marx, *The First International and After*, p. 81.



اسقط اعضاء الكميونة تمثال نابليون الأول من على عمود فندوم، ١٨٧١

بعد عدة أسابيع، قُبض على ١٤ اشتراكيًا ديمقراطيًا نمساويًا واتُّهموا بالخيانة العظمى. الرقم العالمي الذي ذُكِر في محكمة فيينا كان عضوية وتضامن مليون شخص قوي. بمعنى آخر، انضم ١٥٠ ألف منذ المهزلة التي جرت في باريس، وهكذا مضى الأمر. دخل أصدقاء الأممية في منافسة اتسمت بالتعصب الشديد، بأعداد وصلت إلى معدل محموم عندما أخبر محرر أمريكي شمالي، من جريدة "المدافع عن الرجل العامل" في شيكاجو، بهدوء لمؤتمر الأممية بأن اتحاد العمال الوطني وحده، والموالي للأممية، يتحدث باسم ٨٠٠ ألف عامل. ونقلت جريدة "لانترناسونال"، جريدة القطاع البلجيكي، أنه في العام نفسه (١٨٧٠) ضمت الأممية بالفعل عدة ملايين عامل تحت لوائها في أوروبا والولايات المتحدة. اليسار البلجيكي لم يهجر هذا التقليد كلية في العقد التالي، مع ظهور الأمميتين التاليتين، الكبيرة والصغيرة، إلى النور.

إذا كان أي من كل هذا صحيحًا، فالمصاريف المدفوعة (١ شلن في العام للأفراد، و٣ شلنات في العام لأعضاء الاتحادات الموالية) كان ستُغرق الأممية في المال. ولكن في الواقع كانت الأموال تنقصهم دومًا. كافحوا حتى لدفع الأجور القائمة بشكل منتظم. كانت العضوية الحقيقية محدودة. نصح ماركس المجلس العام أنه طالما آمن الرأي العام بهم فإنهم أكثر عددًا مما هم عليه حقًا، لذلك ربما يكون من المفضل ألا تُنشر قائمة الأعضاء. كان عددهم المقدر مع نهاية عام ١٨٧٠ ليس أكثر من ٢٩٤ في إنجلترا وبضعة آلاف في فرنسا وسويسرا؛ أما ألمانيا فكانت قصتها كارثية؛ بمرارة شكا ماركس لإنجلز أنه في العام الذي تلا تأسيس الأممية الألمانية لم يستطع فيلهلم ليبكنشت أن يجند ستة أعضاء. انضم أوجوست بيبل في وقت متأخر وهو عام ١٨٦٧، عندما لم يتبق للمنظمة سوى عدة أعوام. في إيطاليا كان تأثير ماتسيني طاغيًا للغاية، وكان عداؤه للاشتراكية والأممية معلنًا —"ليتحد كل الإيطاليين"— حتى انتصرت القومية في النهاية. جمعية العمال في نابلس والت الأممية عام ١٨٦٦ وسُجلت في المذكرة على أنها تضم ٦٠٠ عضو، وهو رقم يبدو مبالغًا فيه قليلًا. فقط بعد كميونة باريس بدأ العمال الإيطاليون الابتعاد عن ماتسيني والاتجاه إلى اليسار، وذلك بدافع من جاريبالدي، الذي احتفى بالكميونة وعرض تقديم خدماته بأي قدر. العضوية المسجلة في إيطاليا وصلت إلى عشرة آلاف، على الرغم من أن التقدير الأكثر منطقية يشير إلى أنهم كانوا ٢٠٠٠ على أقصى تقدير، ولم يكن هذا العدد سيئًا في حد ذاته بالمقارنة بإنجلترا. ولكن مَن كانوا؟ كانوا مزيج من غريبي الأطوار والشعراء والمثقفين وعدة متعصبين. كان العمال قليلين جدًا. يكتب إنجلز في ١١ مارس عام ١٨٧٢، في رسالة يائسة إلى ابنة ماركس لورا لافارج في باريس: "في إيطاليا ضغط الصحفيون والمحامون والأطباء على أنفسهم كثيرًا حتى أننا (الأمميون) غير قادرين على التواصل مع العمال؛ المختلفين كثيرًا عن المتحدثين باسمهم، كما هو الحال في الأماكن الأخرى".

يمكن الجدل بأن الأممية غرقت مؤقتًا في الذهب، أو الفضة مثلًا، خاصة في الولايات المتحدة، حيث هرب المهاجرون واللاجئون من الأزمات الاقتصادية والرجعية في أوروبا ووجدوا الملجأ فيها. تشكلت أول القطاعات الألمانية في شيكاجو وميلواكي عام ١٨٦٨، وتبعتهم سريعًا القطاعات الأمريكية والفرنسية والتشيكية والأيرلندية والإسكندنافية في نيويورك وسان فرانسيسكو ونيو أورليانز ومنيابولس وسبرينجفيلد وواشنطن ووليامسبرج. من غير المفاجئ أن الشعوب الصينية واليابانية في الساحل الغربي ظلت بعيدة. ارتدت الأممية في الأساس زيًا أوروبيًا-أمريكيًا. رقم ٥٠٠٠ عام ١٨٧١ لم يكن مبالغًا فيه، ولكن انشقاق غير ضروري بين المثقفين والعمال في العام التالي أدى إلى خروج الأغلبية، التي تركت خلفها ٩٥٠ عضوًا فقط. مع ذلك ظل الدافع الراديكالي حيًا وسوف يعاود الظهور في أممية عمال العالم (المعروفة أيضًا بالووبليز)، والتنظيمات الأخرى. على خلاف الأممية، جندت الووبليز العمال الصينيين واليابانيين.

في أوروبا رُسم خط جديد أدى للمزيد من الانقسام. اعتبر باكونين المجلس العام بأنه سلبيًا جدًا وإصلاحيًا، وأنشأ أمميته الخاصة من التحالف الاشتراكي الديمقراطي ودعا لموالاته. كان ماركس متوترًا، رأى أن التحالف سيشكّل أممية بداخل الأممية، وخطة باكونين الواقعية كانت أن يستولي على السلطة. رُفضت الموالاة، بينما حل باكونين التحالف وطلب أن ينضم قطاعه إلى الأممية. اتُفِق على ذلك. ولكن التحالف استمر بشكل مؤثر كمجتمع سري فرض فيه باكونين نظامًا يسوعيًا، وطرح فكرة أن "الفرد يذوب في إرادة الجماعة، وفي حياة ونشاطات التنظيم".

سيطر داعمو باكونين سريعًا على القطاعات الموجودة في إيطاليا وأسبانيا، وأعد باكونين استيلاء مشابهًا في فرنسا وسويسرا –قطاعات أوروبا القارية– تاركًا إنجلترا وشمال أمريكا إلى ماركس. بدأت الصحف الخاضعة لتأثير باكونين في إخضاع نشاطات المجلس العام لنقد لاذع. قبل

عامين فقط، أي عام ١٨٦٨، كان باكونين قد كتب لماركس: "بلدي الأم الآن هو الأممية، والتي تُعتَبَر أنت من ضمن أبرز أعضائها. بالتالي ينبغي أن تدرك يا صديقي العزيز أنني تلميذك، وفخور لكوني كذلك". في أبريل عام ١٨٧٠، قسم الباكونينيين القطاع الفرنسي في مؤتمر بمدينة لا شو دو فون ما أدى إلى حدوث تخريب بداخل المجلس العام.[٦] حدث الانقسام وكان العنصر الأساسي في المؤتمر الذي خُطط لإقامته في ماينز في سبتمبر من هذا العام، ولكن كان ينبغي تأجيله بعد اندلاع الحرب الفرنسية البروسية. كان الدكتاتور الفرنسي هو مصدر الاستفزاز، ولكن رد فعل بسمارك كان متلهفًا بعض الشيء. في خطابه الثاني، المستلهم من ماركس والذي كتبه بنفسه، اعتبر المجلس العام للأممية الحرب بأنها ضد مصالح العمال في البلدين. ناصر الأمميون الفرنسيون القضية ببيان نُشر في جريدة ريفيل في ١٢ يوليو عام ١٨٧٠:

"مجددًا، بسبب التوازن الأوروبي، والفخر القومي، وسلام العالم (أي أوروبا)، مهددين بالطموحات السياسية. أيها العمال الفرنسيون والألمان والأسبان! دعنا نوحد أصواتنا في صيحة واحدة مستنكرة للحرب!... في أعين العمال، الحرب من أجل قضية تفوُّق إحدى العائلات ليست سوى عبث إجرامي. وردًا على مزاعم الحرب لمن يستثنون أنفسهم من ضريبة الدماء، ويجدون في المآسي العامة مصدرًا للمضاربات الجديدة، نحتج نحن الذين نسعى للسلام والعمل والحرية! إخوتنا الألمان! لن يؤدي انقسامنا إلا لانتصار الاستبداد على جانبي نهر الراين".

رد فعل العمال الألمان في كيمنتس وبرلين اعتمد على لغة أممية مشابهة. وحتى ضمن الليبراليين والمثقفين الداعمين للحرب في فرنسا، فرجال مثل

---

6 في الوقت نفسه، كان حكام أوروبا، الذين بالغوا في تقدير القوة والقدرات العسكرية للأممية، لا البروباجندا الخاصة بها، التي كانت مؤثرة للغاية، يحاولون سحقها خلال سلسلة من المحاكمات والسجن للرموز المحلية الرئيسية.

تير ورفقته لم يكن لديهم طاقة للحرب. ولكن لويس بونابرت أصرّ على الانتحار. لا بد أنه أراد أن تنتهي الإمبراطورية الثانية بدوي المدافع الأجنبية بدلًا من التمرد الفرنسي. بسمارك، الذي كانت لديه خططه الخاصة لألمانيا دفعه لذلك عن طيب خاطر. لم يمض كل شيء وفقًا للخطة. قرر عمال ومواطنو باريس أن يدافعوا عن أنفسهم ضد البروسيين وفي الحقيقة حلفائهم الفرنسيين أيضًا. حين هُزموا في معركة سيدان، أوصل الخلفاء الجمهوريين الفرنسيين للويس بونابرت الأسلحة للبروسيين. تركوا باريس بدون دفاعات وفروا إلى فرساي. أفرج بسمارك عن مائة ألف سجين لمساعدة أهالي فرساي لاستعادة باريس. فرساي عام ١٨٧١، مقابل فيشي عام ١٩٤٠.

قرر العمال والحرفيين وأعداد هائلة من النساء والمثقفون الراديكاليون أن يدافعوا عن باريس التي تخصهم ضد البروسيين؛ ضد تير وهوسمان، اللذين أخذا باريس منهم، وضد المضاربين والسياسيين الفاسدين الذين ظنوا أنه باستطاعتهم أن يحكموا إلى الأبد. تلك المحاولة النبيلة، المحكوم عليها بالفشل منذ البداية، البطولية إلى أقصى درجة، دخلت سِجِّل التاريخ محاطة بهالتها الخاصة. في بعض الأحيان تستدعي الهزائم الاحترام أكثر من "الانتصارات" شبه الشغوفة وشبه المكتملة. تردد صدى التجربة خلال القرن العشرين، وفي كل أنحاء العالم. كتب عنها ماركس بالتفصيل كما فعل لينين المفتون بتاريخها والذي درس أسباب الهزيمة بالتفصيل الدقيق، بقدر استطاعته. هزيمة اليعاقبة في التسعينيات من القرن الثامن عشر، وكميونة باريس بعد حوالي قرن لاحق، كانا موضوعين استرجعهما مرارًا وتكرارًا سواء في السجن أو في المنفى. هو الذي وُلد بعد عام تقريبًا من ميلاد الكميونة، شغلته كثيرًا الدروس السياسية لهزائمها وقضاياها التي صارت رئيسية أثناء وجودها القصير، وأثرت على تفكيره في مسائل رئيسية عديدة

حتى النهاية: الحروب الأهلية والخارجية، الدولة وديمقراطية العمال، الجرأة والجسارة (أو افتقادهما).[٧]

ما الذي كانت عليه هذا الكميونة التي تركت أثرًا عميقًا على أصدقائها وأعدائها؟ بروسبير أوليفييه ليساجاراي، أعظم مؤرخ للكميونة، وأحد المشاركين في الأحداث من الصفوف الدنيا، كتب عملًا ذا مميزات نادرة، تاريخًا سياسيًا لا يضاهيه سوى القليل. يشرح في حوالي نصف الكتاب أسباب الهزيمة. كانت اللغة حادة ومنفعلة وغاضبة وصلبة، مكافئها الوحيد في أدب فرنسا هو أدب رامبو. بعد تسع سنوات من الهزيمة، شكر ليساجاراي صديقين له علنًا لقبولهما أن يكونا تاليين له في مناظرة مع صحفي مشهور بتشويه الكميونة والمشاركين فيها:

"أشكركما على مساعدتكما في إلقاء ضوء النهار على الجبن الذي لا يوصف لمشوهينا في جريدة فيجاريست طوال السنوات التسع الماضية. الناس أنفسهم الذي تصرفوا ككلاب جاليفيه (الجنرال الذي قاد القمع) أثناء سقوط باريس، الذين أهانوا الناجين، وأجهزوا على الجرحى، وبصقوا على الأموات... الناس أنفسهم، الذين لتسع سنوات، يراكمون القمامة على المبعدين والمنفيين... هؤلاء الحثالة الأدبية، الذين كانوا طوال تلك السنوات، محتكرين السيطرة على الصحف ودور النشر، اخترعوا أسطورتهم الخاص عن أفعال ورجال الكميونة".[٨]

---

٧ الموضة الأكاديمية اليوم تركز على الحاضرية لدرجة أن الماضي (التاريخ) يتم تجنبه كالوباء. بالنسبة للبعض، من الأفضل نسيان الماضي والتركيز على الأفراد أو المباني أو الآثار وإيجاد طريقة "جديدة" للنظر إلى الأحداث القديمة. لم لا ندرس الثورة الفرنسية من خلال القراءة "النسوية" لماري أنطوانيت؟ لم لا نقلل من إسهامات ماركس الهائلة باعتباره "معاد للسامية"؟ وهكذا. التراجع عن السياسة في أزمنة الهزيمة ليس شيئًا جديدًا. كتب ستاندال عن ذلك جيدًا بعد عام ١٨١٥. في القرن الواحد والعشرين، العديد من أفراد اليسار القديم المستقرين في الوسط الأكاديمي آثروا السلامة بالقفز من السفينة.

8 مقتبس من مقدمة إريك هازان لكتاب بروسبر أوليفييه ليسارجاي "تاريخ كميون باريس عام ١٨٧١:

ضمت "الحثالة الأدبية" فلوبير وزولا وصاند ودوديه، والأخوان جونكور وموباسان، ولكن ليس رامبو. كانت الهزيمة الأدبية الفرنسية ستكتمل لو لم تنتشر أبيات شاعر شاب غير معروف بداخل العاصمة المحاصرة وخارجها. حافظ آرثر رامبو على شرف الأدب الفرنسي بشعره. الحس السائد في باريس، وازدراء الحكام، والغضب المشتغل كلها أشياء كانت بادية في "صيحة حرب باريسية":

"انظروا قرب الربيع
داخل حدائق المدينة
يبدأ حصاد الحكومة في النمو
ولكن البستانيين امتلكوا زمام الأمور!

أوه يا شهر مايو، يا لها من نشوة خالصة!
سيفر، ميدون، بانيو، آنيار
استمعوا إلى جنرالات المزارعين، المشغولين
بوضع البذور في العدم.

البنادق والسيوف تومض في الموكب
الأسلحة ذات الأفواه البراقة تشير إلى الأمام
من دواعي بهجتهم أن يضربوا بأقدامهم

Prosper-Oliver Lissagaray, *History of the Paris Commune of 1871*, tr. Eleanor Marx, London andNew York, 2012, pp. ix–x.
لمن يريد سردًا تاريخيًا مفصلًا بدلًا من الشتات الأكاديمي ذي النية الطيبة وإن كان غامضًا في بعض الأحيان، لن يكون هناك كتاب أفضل من ذلك. الكميونة وتأثيرها يمكن فهمها فقط من خلال منظور سياسي. يمكن الاختيار بين المنظور الأناركي أو الماركسي، على الرغم أنه يمكن القراءة والمقارنة بالاتجاهين. كتابات ماركس عن الموضوع ("الحرب الأهلية في فرنسا" مثلًا) علمت العديد من الأجيال في أوروبا والقارات الأخرى وما زالت تعتبر واضحة ومقنعة.

في وحل نهر يجري بالدماء!

أبدًا، أبدًا لن نتراجع
عن متاريسنا، وأكوام حجارتنا:
تتشقق جماجمنا الشقراء من عصيانهم
في فجر ينتظرنا وحدنا.

مثل إيروس، يحوم السياسيون فوق الرؤوس
ظلالهم تُذوي الزهور
قنابلهم ونيرانهم تلون حديقتنا بلون الدماء:
تسحقنا قواتهم ذات الوجوه الخنفسية.

...

حجارة رصف المدينة ساخنة
على الرغم من الجازولين الذي تمطرونه.
وبالتأكيد الآن، الآن وحالًا علينا
أن نجد طريقة لاختراق قواكم

البرجوازيون في شرفاتهم بعيونهم الأشبه بعيون الحشرات
يهتزون على وقع صوت الزجاج المتكسر
يمكنهم سماع سقوط الأشجار في الشوارع
وبعيدًا يجري التحام قرمزي مرتعش."[٩][iii]

9 Arthur Rimbaud, *Complete Works,* tr. Paul Schmidt, New York,2000.
لتاريخ ثقافي مذهل للكميونة انظر:

في العالم الفني أيضًا، كان للكميونة أثرها. انتُخِب كوربيه كمندوب في أبريل، واقترح على الفور أن ينتخب الفنانون مناديب عن كل من الدوائر الاثنتين وعشرين. اقترح أيضًا أن يشرف هؤلاء المناديب على تعيين القيمين والمديرين في كل المتاحف العامة، وعلى القواعد في المعارض، إلى جانب إلغاء مدرسة الفنون الجميلة، والأكاديمية الفرنسية في روما، وكل الجوائز والميداليات القديمة. أما الفنانون الذين يعارضون الأغلبية فتخصص لهم جاليريهات لعروضهم الخاصة. اجتمع أربعمائة فنان في ١٥ أبريل لمناقشة المقترحات التي قُوبلت باحتفاء شديد:

"خرج الامتداد الحر للفن من السيطرة الحكومية والامتيازات السابقة، صارت هناك حقوق متساوية لكل أعضاء الاتحاد؛ والجميع يضمن استقلال وكرامة كل فنان، عن طريق إنشاء لجنة منتخبة يقترع فيها كل الفنانين".

لعب كوربيه والفنانين الآخرين دورًا رئيسيًا في اتخاذ قرار إنزال عمود فندوم. بُني العمود عام ١٨٠٣ من المعادن المصهورة من المدافع التي استولت عليها جيوش نابليون: ١٥٠ ألف باوند من البرونز النمساوي والروسي. الفكرة الأصلية كانت أن يوضع تمثال شارلمان أعلى العمود، ولكن تغيرت الفكرة، مع بدء البناء وظهور المنافقين، فوُضع تمثال نابليون وهو في صورة إمبراطور روماني. أُنزل التمثال عام ١٩١٤ بعد عودة ملكية آل بوربون، وحل محل التمثال العلم الملكي الأبيض. وأثناء حكم لويس فيليب أنزل العلم وعاد نابليون، ولكنه في هذه المرة ارتدى زيًا معاصرًا. خلال ثورة عام ١٨٤٨ اقترح كونت أن يُدمَّر العمود كله، ولكن لم يكن هذا هو الوقت المناسب. أنزل نابليون الثالث التمثال الحديث ووضع تمثالًا جديدًا أظهر نابليون الأصلي في سمت الإمبراطور الروماني. وبعد الهزيمة في سيدان، طالب الجمهوريون الغاضبون أن يتولى المواطن كوربيه فك الأعمدة التي

Kristin Ross, *The Emergence of Social Space: Rimbaud and the Paris Commune*, London and New York, 2008.

تُظهر فرنسا "حمقاء وكريهة". لم يكن كوربيه يميل لهدم النُصُب القديمة، كان يراها انعكاسات لمراحل تاريخيها مر بها الوطن، ولكنه كان يزدري عمود فندوم.

رغم ذلك فكر في أن يُفك ويُنقل إلى مسكن مصابي الحرب Les Invalides، حتى يتمكن المحاربون القدامى الذين تعرضوا لإعاقات من رؤية ثمرة تضحياتهم. وفي خطاب قوي إلى عمدة باريس، دعا الفنان إلى:

"إزالة العمود الموجود بالقرب من شارع رو دو باي، لكتلة المدافع المصهورة التي تخلد تقاليد الغزو والسلب والقتل، والموجود عبثًا في غير مكانه كأنه مدفع هاوتسر موجود في صالون للنساء، وسط محال ممتلئة ببدل فراك حريرية وأربطة... والتي تقع بجانب محال وورث، الخياط المفضل لمحظيات الإمبراطورية... هل تحفظ في غرفة نومك لطخات الدماء التي يتركها قاتل؟...انقلوا الأعمدة إلى متحف تاريخي، اجعلوها مصفوفة على جدران منزل المصابين؛ لا أرى ضررًا في ذلك. هؤلاء الرجال الشجعان ضحوا بأعضائهم من أجل الاستيلاء على هذه المدافع".

تُرك إكمال المهمة إلى الكميونة. وفي النهاية أسقط العمود.

كانت الكميونة هي أول مثال على طبقة تحاول تحرير المجتمع كله، لا تحرير نفسها فحسب. هجرت باريس القطاعات السياسية المحافظة والليبرالية وفرت إلى بوردو ثم استقرت في فرساي، على أمل أن يدخل الجيش البروسي، الذي يحاصر باريس، إلى المدينة ويغرق العصاة في أنهار الدماء. رفض بسمارك المواجهة المباشرة، وكانت رسالته بسيطة للمنتظرين في فرساي: سنساعد في إطلاق سراح سجناء الحرب الفرنسيين، ولكن عليكم أن تقوموا بأنفسكم بالأعمال القذرة. بعد مرور سبعين عامًا، سيكون هتلر أكثر تفهمًا لاحتياجات السياسيين الفرنسيين في فيشي؛ يمكن التخلص من

الأعداء المشتركين بنفس راضية عن طريق الجيش الألماني (الفرماخت)، ولكن العالم الإمبريالي كان قد بدأ التقدم للأمام منذ تلك اللحظة.

كان السياسيون الذين ساعدوا لويس نابليون والذين دفعتهم الجماهير الباريسية لإعلان الجمهورية متوترين للغاية. بعد فشلهم في إقناع البروسيين قرروا أن يهاجموا الكميونة. هم الذين قرروا قتال أهلهم الفرنسيين، بدلًا من انتظار الغزو الألماني، إنه اليمين والوسط الفرنسي الذين كانوا قد اعتبروا الرعب الذي جرى خلال الثورة الفرنسية هو أعظم المآسي (ضحايا المقصلة كانوا في حدود ثلاثة آلاف). خلال الكميونة، مات ٣٠ ألف، أعدِم منهم ١٤ ألف من الرجال والنساء، سُجن الآخرون أو أُبعدوا. فر العديد من الناس إلى المنفى. استقر العدد الأكبر من اللاجئين في لندن أو جنيف؛ والأكثر راديكالية منهم، ومن ضمنهم ليساجاراي، اتجهوا إلى بيت ماركس. وجد الآخرون الملجأ في نيويورك، حيث شارك عشرات الآلاف في مسيرة تضامنًا مع الكميونة بعد هزيمتها.

حتى بعد خمس سنوات، رُفضت مطالب العفو في مجلس النواب بنسبة تصويت ٣٧٢ مقابل ٥٠. أشار ليساجاراي إلى رد الفعل والتضامن الرائعين اللذين أظهرهما الأيرلنديون في أيرلندا والولايات المتحدة ونيوزيلاندا بعد التمرد الفنياني[iv] وشنق ثلاثة فنيانيين في مانشستر. قُتل ثلاثة، وكان هناك المئات في السجون، في حين كان أعضاء الكميونة عدة آلاف. أنهى كتابه بنداء لرفاقه من المواطنين:

"هل تفهمون أيها العمال، أنتم الأحرار؟ أنتم الآن تعرفون الموقف كله ومن هم الرجال. تذكروا المهزومين لا ليوم واحد، ولكن في كل الأوقات. أيتها النساء، اللواتي يعزز إخلاصكن شجاعتهم ويرفع منها، دعوا آلام السجناء تطاردكم كأنها كابوس دائم. دعوا كل الورش تحفظ

بعض المال من أجورها أسبوعيًا. لا تدعوا الاشتراكات ترسل إلى لجنة فرساي، وإنما تتوجه إلى الأيدي الوفية. دعوا الحزب الاشتراكي يؤكد على التضامن الأممي وقوته بإنقاذ من سقطوا من أجله".[10]

تمت استعادة النظام في فرنسا، ويرجع ذلك في الأغلب إلى دعم الريف للدكتاتورية والهجوم على باريس. ولكن فرنسا ضعفت ككل. سيطرتها على أوروبا القارية التي بدأت مع ملك الشمس (لويس الرابع عشر) واستمرت مع نابليون وصلت إلى النهاية. يجادل المؤرخون المحافظون الفرنسيون والبريطانيون أن الحرب هي ما أنهت الإمبراطورية الثانية، مقللين من شأن حقيقة أن فرنسا كانت تتعفن من الداخل. القرويون وحدهم هم من أبقوا على دكتاتورية لويس نابليون في موضعها. كان المزاج العام في المدن هو التحدي، كما تجلى في باريس الثورية أثناء الكميونة. كانت جيوش نابليون الأول نتاجًا للثورة بقدر ما كان هو ابنًا للتنوير. انتهت تلك الأزمنة. كان الجيش الفرنسي في حالة تدهور شديد، وطبقة الضباط كانت فاسدة أخلاقيًا وماليًا، افتقد جنودها الحماس وكانوا شبه جوعى. كانت فرنسا مستعدة للاستسلام حتى قبل معركة سيدان، وانتصارها الأخير في القرن التاسع عشر كان ضد شعبها.

متحدثًا من المنفى بمناسبة الذكرى الأربعين للكميونة في عام ١٩١١، أكد لينين على طبيعة الكميونة العفوية، كرد فعل على الهزيمة العسكرية، والبطالة الواسعة التي عانى منها العمال، وتدمير الطبقة البرجوازية الصغيرة الذي أدى إلى "اضطراب لا يمكن وصفه بين الطبقة العاملة". إلى هذا يضاف الإخفاق التام للجمعية الوطنية الذي سيطرت عليها أكثر القطاعات رجعية في البرجوازية، بالإضافة إلى المحافظين الريفيين، في تقديم أي قيادة للوطن

10 Lissagaray, *History of the Paris Commune*, p. 367.

كله. تلك كانت العوامل التي أدت إلى الثورة في باريس، والتي أجبرت الحرس الوطني على تولي السلطة:

"كان هذا حدثًا غير مسبوق في التاريخ. حتى ذلك الوقت، كان من المعتاد أن تكون السلطة في أيدي مُلّاك الأراضي والرأسماليين، أي في أيدي وكلائهم الموثوق بهم والذين يشكلون ما يطلق عليه الحكومة. بعد الثورة في ١٨ مارس، عندما فرت حكومة تير من باريس بقواتها وشرطتها وموظفيها، صار الناس سادة الموقف، وانتقلت السلطة إلى أيدي البروليتاريا. ولكن في المجتمع الحديث، لا تستطيع البروليتاريا التي يستعبدها الرأسمال اقتصاديًا، أن تسيطر سياسيًا حتى تحطم الأغلال التي تعيقها عن الوصول إلى رأس المال. هذا هو سبب أنه كان على حركة الكميونة أن تتخذ حتمًا لونًا اشتراكيًا، أي أن تبدأ بالسعي للإطاحة بسلطة البرجوازية وسلطة رأس المال، لتدمير أساسات النظام الاجتماعي القائم".[١١]

ذهب إلى أن طابع الكميونة الاشتراكي المبدئي، وإصلاحاتها الراديكالية، وشجاعتها لتحدي النظام القائم هو ما ضمن لها حياة تالية مجيدة:

"قال زعيمهم تير، القزم المتعطش للدماء، بعد ارتكاب حمام الدماء (الآن انتهينا من الاشتراكية لوقت طويل)... قتل الجنود المتوحشون حوالي ٣٠ ألف باريسي، وقُبض على حوالي ٤٥ ألف، أُعدِم العديد منهم بعد ذلك، سجن الآلاف أو نفيوا، فقدت باريس مائة ألف من أبنائها، من ضمنهم أفضل العمال في كل المهن... ولكن بلا جدوى كان نعيق هؤلاء الغربان البرجوازيين".[١٢]

11 V. I. Lenin, 'In Memory of the Commune', 1911, available at theMarxists Internet Archive, marxists.org.

12 السابق

لأنها كانت أكثر النضالات السياسية تقدمية في العالم الحديث، كان لها تأثيرًا عالميًا هائلًا.

أعلن الانتصار البروسي في حربي عام ١٨٧٠ـ١٨٧١ أيضًا ميلاد قوة جديدة في القارة. بلا جدوى طالب الفنانون أن تتحقق الوحدة الأوروبية. كتب لهم كوربيه الذي قضى وقتًا طويلًا في بافاريا:

"عندما تقابلنا في فرانكفورت وميونيخ، أعلنتُ اتجاهاتنا المشتركة. مثلما طالبت بحرية الفن، وطلبتم أيضًا حرية الشعب... شربنا ساعتها نخب فرنسا، ونخب قدوم الجمهورية الأوروبية. ومجددًا في ميونيخ في العام الماضي، أقسمتم بأكثر الأيمان قدسية ألا تقدموا فروض الطاعة لبروسيا. الآن، جميعكم مسجلون في مصارف بسمارك؛ تحملون على جبينكم رقمكم في الترتيب nombred’ordre، وتعرفون كيف تقدمون التحية العسكرية".

من هذا المنطلق، كان كوربيه سابقًا لعصره ومتخلفًا عنه في الوقت نفسه. بسمارك الواثق، استعان بالتفاوض والتحرش والرشوة ليشق طريقه نحو توحيد ألمانيا في ظل حكم هوهونتسولرن. هذه الوحدة المتأخرة، والظهور المفاجئ لدولة جديدة، كانت الأساس المادي للقومية العرقية، والأساس الأيدولوجي الراسخ الذي أثبت صعوبة زعزعته. لم يوجد ذلك من فراغ. كان التصنيع يغيِّر البلد؛ وعجَّل النمو المتسارع للطبقة العاملة من وجود الاشتراكية التي أنارت الأفق من وقت قريب (أو أظلمته، من وجهة نظر بسمارك). كان المستشار الحديدي يركض للحاق بفرنسا وإنجلترا وبلجيكا والبرتغال والنمسا-المجر في كل الجبهات. تساءل كيف صار لديهم جميعًا إمبراطوريات كبيرة بينما لا نملك نحن إمبراطورية. لم يكن يريد ذلك كمساحة إضافية للألمان، لأن التصنيع أوقف الهجرة تقريبًا، ولكن لأن

الدولة الأوروبية التي تحترم نفسها تحتاج أيضًا إلى إمبراطورية. لم لا يكون لألمانيا نصيبًا مساويًا في العالم؟

في شبابه، سافر بسمارك إلى هال ويورك، واستقل قطارًا متجهًا إلى مانشستر والمدن الصغيرة المجاورة ليشهد الثورة الصناعية بعينيه. كانت لغته الإنجليزية ممتازة، وكانت لديه دومًا شهية طيبة للطعام. كانت وجبته المفضلة بالفندق هي الإفطار، وكانت أفضل كثيرًا من السمك و"كعكة الفواكه الكريهة" التي تمثل الغداء، دعك من الأحسية المقرفة "المزودة بالفلفل الأبيض والأسود التي لا يستطيع الكثير من الأجانب أن يأكلوها". ولكن وجبات الإفطار الإنجليزية كانت طيبة بسبب "توفر قطع هائلة من كل أنواع اللحم، يضعونها أمامك لتقطع منها كثيرًا أو قليلًا بحسب اختيارك بدون أن يؤثر ذلك على الحساب". سيعرف بسمارك سريعًا أنه لا يمكن أن يحدث الشيء نفسه مع الإمبراطورية البريطانية.

في جل النقاشات التي تدور عن صعود الأممية، عادة ما يُذكر التضامن الذي أظهره الاشتراكيون الديمقراطيون الروس وأسلافهم الأناركيون الشعبويون لقضية الاستقلال البولندي. عادة ما حارب الثوار الروس والبولنديون جنبًا إلى جنب ضد الأوتوقراطية. ولكن هناك فترة بطولية للأممية نادرًا ما تُذكَر. في عام ١٨٧٧ أعلنت الإمبراطورية الروسية الحرب على العثمانيين في بلغاريا. كانت البروباجندا مألوفة: الإسلام يهدد السلاف. كانت الفظاعات التركية في البلقان قد تجاوزت كل الأعراف المتحضرة، وهكذا أراد القيصر خوض حرب تمكنه من استعادة القسطنطنية من أجل إمبراطوريته ومن أجل المسيحية. كان البريطانيون يعلمون تمام العلم أن هناك أسباب حقيقية، وعارضوا الحرب. لم يكونوا مستعدين لرؤية روسيا وهي تسيطر على الطرق التجارية. في الوطن، شن الزعيم الليبرالي المهزوم جلادستون حملة دعمًا للتدخل الإنساني ضد العثمانيين.

رفض ديزرائيلي هذا التهور وحذر الروس بأن بريطانيا ستشارك في الحرب لمنع تمزيق الإمبراطورية العثمانية.

شن القيصر الحرب، وصار القطاع الموجود بالبلقان الذي يشكل الآن بلغاريا ميدان المعركة. ظهرت مقاومة وطنية في الإمبراطوريتين. المئات والمئات من أعضاء الحزب الشعبوي الراديكالي "الأرض والحرية" ذهبوا إلى بلغاريا ليقاتلوا ضد الجيش القيصري، مع تراجع العثمانيين الفعلي. استمرت الحرب لمدة عام ونصف. منع البريطانيون سقوط إسطنبول، وعاد الجنرالات الروس إلى الوطن. العديد من الأمميين الشباب، الذي فعلوا الأمر نفسه اعتقُلوا ونُفيوا، والقليل منهم أُعدِم. هذا هو ما أرسلهم إلى العالم السفلي ليشكلوا تنظيمًا سريًا جديدًا، وهو إرادة الشعب، الذي تخلى عن كل أشكال النشاط العام، وكما ذكرت سلفًا ركز جهوده على اغتيال الأفراد الرئيسيين في الأوتوقراطية.

٥

الاشتراكية

اكتمل تفسخ الأممية الأولى بحلول عام ١٨٣٧. سيطر عملاء الشرطة على بعض الأفرع في فرنسا وسويسرا، ما فاقم الاختلافات الحادة بين باكونين وماركس ("كانت حربًا شديدة ضد ماركس وإنجلز"). كان الانهيار متوقعًا، وانتهى قرار نقل المجلس العام إلى نيويورك وإعادة بناءه إلى الإخفاق. ولم يمثل ذلك مأساة هائلة. العديد من أعضاء الأممية انتقلوا ليلعبوا دورًا هامًا في المساعدة على تنظيم الأحزاب الاشتراكية في أوروبا والولايات المتحدة. هناك نمط متشابه في تشكيل كل الأحزاب الاشتراكية الأوروبية: الصراعات الداخلية، والانشقاقات، والنزاعات حول البرامج، ثم الوحدة. يرجع اختلاف روسيا في الأساس إلى الظروف السياسية التي سادت البلد. مزيج الأوتوقراطية والتصنيع المتأخر أجل تشكل اتحادات العمال، ولم يُترك للفصائل الرئيسية في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (RSDLP) خيارًا آخر سوى أن تعمل سرًا. كان لهذا الواقع تأثيره على كل التيارات المعارضة، من الديسمبريين وإرادة الشعب إلى البلاشفة والمناشفة.

مثّل تشكيل الأممية الاشتراكية أيضًا بداية النهاية لعقود من الهيمنة الأناركية الراديكالية على اليسار الأوروبي الأمريكي. ومثل كل المنتصرين،

محا الاشتراكيون إسهامات من تغلبوا عليهم.[1] بدأت الأحزاب الاشتراكية تظهر في أنحاء قارة أوروبا وفي الولايات المتحدة، وبدأت تلعب دورًا سياسيًا هامًا سواء بالأفعال المتجاوزة للبرلمان (مثل الإضرابات)، أو البرلمانية إن إمكن. من ضمن تلك الأحزاب كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني هو الأكثر تقدمًا ونجاحًا. أصر بسمارك، القلِق من نموهم المتسارع، على قمع الحركة الاشتراكية وحركة العمال. قدمت حكومته قانونًا مناهضًا للاشتراكية أدى لحظر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. مررت الأغلبية في الرايخستاج (البرلمان الألماني) القانون في ٢١ أكتوبر عام ١٨٧٨، وتجدد قبول القانون كل عامين أو ثلاثة. ولكن بعد ضغط حركة العمال الجماهيرية ألغي "القانون الاستثنائي المناهض للاشتراكيين" في ١ أكتوبر عام ١٨٩٠. ظل القمع مستمرًا خلال تلك السنوات الاثنتي عشر، إذ حُل ٣٣٢ اتحاد عمال مرتبط بالحزب الاشتراكي الديمقراطي، وحُظرت ١٣٠٠ صحيفة ومجلة، وأرسل ألف ناشط للعالم السفلي، وسُجن ١٥٠٠ عضو لسنة على الأقل. لم ينجح ذلك في تعطيل نمو الحزب: في عام ١٨٨١ وبعد عام من تمرير الإجراءات الوحشية، تلقى الاشتراكيون الألمان ٣١٠ ألف صوت في انتخابات الرايخستاج. في عام ١٨٨٣ ارتفع الرقم لأكثر من نصف مليون،

---

1 استمرت الأناركية المسلحة في روسيا وأسبانيا حتى نهاية الحربين الأهليتين اللتين حاصرتا البلدين في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. في روسيا الثورية، قاد الجيش الأناركي في أوكرانيا نستور "باتكو" ماخنو، وهو قائد فرسان أناركي شديد الموهبة وظَّفت قيادة تروتسكي إمكاناته للمساعدة في هزيمة البيض في المنطقة. أصر تروتسكي، ويعود ذلك بشكل كبير إلى الأسباب العسكرية الإدارية، أن يقاتل ماخنو وقواته تحت قيادة الجيش الأحمر الموحدة. أحبطت محاولة حمقاء للقبض على ماخنو وفر إلى المنفى مع بعض أتباعه. أجبر معظم قواته على التجنيد في الجيش الأحمر. وتوفى ماخنو في باريس عام ١٩٣٤، قبل عامين من اندلاع حرب أهلية أخرى.
في أسبانيا لعب الأناركيون دورًا رئيسيًا في كتالونيا أثناء الحرب الأهلية الأسبانية، وكانوا أكثر التيارات راديكالية في الجانب الجمهوري. سحقهم اليمين مثلما سحق غيرهم، ولكن كذلك سحقهم الحلف الجمهوري الذي كان تحت السيطرة الاشتراكية والشيوعية. كان العديد من غير الأناركيين معجبين بدوروتي، القائد العسكري الأناركي، لنزاهته ومهاراته العسكرية. ما زال الغموض يحيط بموته. ولم تظهر أناركية ثورية جماهيرية مجددًا.

وبحلول عام ١٨٨٧ وصل إلى ٧٦٣ ألف. في عام ١٨٩٠، وبعد إلغاء القانون، تضاعف التصويت ووصل إلى ١,٤ مليون. كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بصحفه اليومية التسعين، ومجلاته الأسبوعية الثلاثة وأربعين، هو المعارضة الرئيسية في البلاد. هل سيخضع لـ "التقزم البرلماني"؟ هل سينجح في هزيمة طموحات بسمارك في الوطن وخارجه؟

قبل نصف قرن، أصدر أحد الشعراء الألمان العظام شيئًا يفوق التحذير من الأحداث القادمة. كان هاينرش هاينه أشبه بشعراء الأزمنة القديمة، ذا عين ثالثة يمكنها أن تستبصر المستقبل. كانت كوابيسه مقلقة. في صيف عام ١٨٤٠، وهو بداية العقد الذي سيقضيه في المنفى وقبل ثلاثين عامًا من توحيد ألمانيا، كتب هاينه قصيدة صغيرة مستبصرة كان عنوانها "ألمانيا" فحسب:

"ما زالت ألمانيا طفل صغير
والشمس مرضعته
لا ترضعه لبنًا صافيًا
بل لهبًا وحشيًا لا يتوقف.

على هذا الغذاء ينمو الطفل سريعًا
في الحقيقة تجري الدماء حارة
يراقبك أطفال جيرانك
وأنت تربي ذلك الصبي.

إنه عملاق صغير، عملاق أخرق
ينزع أشجار البلوط من على الأرض
ويضربك على مؤخرتك حتى تتألم
أو يهشم رأسك.

هو أشبه بسيجفريد، الرجل النبيل
القادم من الأغاني ومن القصص، الذي بعدما شحذ سيفه
شق السندان نفسه إلى قطعتين

نعم، ستكون سجفريد وسوف تذبح
التنين القبيح يا صبيي
مرحى! في السماوات ستضحك مربيتك
وتبتهج وهي تنظر إليك.

سوف تذبحه، وتستولي على كنوزه،
تستولي على لآلئ الإمبراطورية
مرحى، كيف سيضيء التاج الذهبي المشع
على جبينك! "[٢]

هل كان كارل ماركس، صديق هاينه الشاب في تلك الحقبة، لديه الوقت الكافي لإعداد الترياق؟ هل كان لدى أتباعه الوقت الكافي؟ كانت الأممية الأولى، وهي المحاولة الأولى من نوعها، لها تأثير محدود على ألمانيا بالمقارنة بفرنسا وسويسرا والولايات المتحدة. شهدت فترة الانتقال التي امتدت لثلاثين عامًا، من هزيمة الكميونة وحتى القرن التالي، نموًا متسارعًا للاستعمار الأوروبي، صاحبه صعود الأحزاب الاشتراكية التي كانت أفكار ماركس تسيطر على سياساتها تمامًا (ظلت بريطانيا استثناء من هذه الجهة). من ضمن هذه الأحزاب كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي هو الأكثر عددًا والأكثر تقدمًا نظريًا. نشأ الحزب في مؤتمر بمدينة جوتا عام ١٨٧٥، حين

2 Heinrich Heine, *The Complete Poems: A Modern English Version*,ed. Hal Draper, Oxford, 1982, p. 538.

قرر الماركسيون واللاساليون[7] الاندماج، اعتُبر هذا التنظيم نموذجًا لبقية أنحاء أوروبا. ولكن لم يكن هذا هو الحال مع ماركس وإنجلز، اللذين كتبا نقدًا لاذعًا لجوانب محددة من البرنامج، خاصة النقاش شبه الجاهل للعمل والأجور، إلى جانب عدم وضوح البرنامج تجاه مسألة الأممية. حُجب هذا النقد في حياة ماركس، ولم ينشر سوى مع كاوتسكي في جريدة الحزب النظرية "الأزمنة الجديدة" Die NeueZeit، بعد ضغط قوي من إنجلز، الذي هدد بأنهم إذا رفضوا النشر، سينشر "نقد برنامج جوتا،" كما عرف لاحقًا في فيَينا. القيادة الألمانية للحزب، التي غضبت من النشر، رفضت بشكل علني وصاحب هذا النقد.

استحوذ الاشتراكيون الألمان على القيادة في الإعداد للمؤتمر المؤسس للأممية (الاشتراكية) الثانية. انعقد المؤتمر في ١٤ يوليو عام ١٨٨٩، في مئوية سقوط الباستيل. سيطرت لافتتان على سال بيتريل، حيث انعقد المؤتمر: "يا عمال العالم اتحدوا" و"المصادرة السياسية والاقتصادية للطبقة الرأسمالية – وتأميم وسائل الإنتاج". في نهاية المؤتمر، سار المناديب إلى مقبرة بير لاشيز. وحمل ١٦ شخصًا إكليلًا ضخمًا ووضعوه على مقابر ضحايا الكميونة. كشفت الأممية الثانية عدم التساوي في الحركة الاشتراكية. قاد الوفد البريطاني كير هاردي، ووليام موريس، وإليانور ماركس، وجون برنز، ور. ب. كننينجهام-جراهام. في خطابه، التزم هاردي بتلك الحقائق: ١٠ مليون عامل صناعي، منهم مليون فقط ينتمون لاتحادات عمال. ولكن هذه النقابات ابتعدت كثيرًا عن الاشتراكية القارية وآمنت بأن الانقسامات الطبقية ليست بحاجة لأن تكون متصارعة؛ التزموا برضا بعلاقة حميمية مع الحزب الليبرالي، ولكنهم أنشأوا لجنة لاستكشاف الفكرة "الراديكالية" للتخلص من تلك العلاقة قبل أن تؤتي ثمارها، سعيًا لتأمين تمثيل برلماني مباشر. هاردي، الذي أدرج الاحتياج الملح لملء الفراغ، كان شخصية مركزية وراء مؤتمر برادفورد عام ١٨٩٣، حيث أُنشئ حزب العمال المستقل.



إدوارد برنشتاين وكارل كاوتسكي: يقف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني اليوم على يمين ما اعتنقه هذين المؤسسين

كان اليسار الفرنسي يتعافى من القمع الذي بدأ أثناء الكميونة واستمر بعدها، ولكن فشلت ستة تيارات مختلفة في الاتحاد، على الرغم من الحقيقة التي أشار إليها جول جيد في المؤتمر المؤسس للأممية الثانية:

"طبقة البرجوازية . لدينا قاسية وخالية من الرحمة أكثر من أي طبقة أخرى، كما أظهرت في مذبحة العمال في يونيو عام ١٨٤٨ ومايو عام ١٨٧١. لقد واجهوا الطبقة العاملة الفرنسية بالبارود، وهشموها تمامًا، وبقمع اتحاد العمال وحرية الاجتماع، نزعوا أي إمكانية للفعل المشترك".

على الرغم من الانقسامات، ارتفع عدد الاشتراكيين الفرنسيين من ١٧٩ ألف صوت في انتخابات عام ١٨٨٩ إلى ٤٤٠ ألف في عام ١٨٣٩. في بلجيكا أيضًا، استطاع اشتراكيو والون (المتأثرين بالأناركية وبلانكي)، وأقرانهم الفلمنكيون (الأقرب لماركس وإنجلز) أن يسووا خلافاتهم وشكلوا الحزب الاشتراكي البلجيكي.

طالب الحزب بامتيازات للعمال؛ وباع كتيب بعنوان "تعاليم الشعب"، يطالب بهذه الحقوق، أكثر من نصف مليون نسخة. أدت هذه المطالب إلى إضراب كبير في المقاطعة التي يسيطر عليها عمال المناجم في شارلروا، والتي انتشرت كالنار في الهشيم في لييج وبوريناج وهكذا تحولت إلى إضراب عام. استُدعي الجيش، وفي تأريخه الرسمي لبلجيكا الذي نشر عام ١٩٣٢ ، وصف هنري بيرين التفاصيل الدموية:

"لعدة أيام، قدمت مقاطعة هينو مشهدًا دراميًا لحرب واسعة النطاق. أعلنت الأحكام العسكرية في المدن. احتل الجيش مراكز المدينة، وعسكر الجنود في أفنية المصانع، وراقبت سرية الفرسان الطرق التي تؤدي إلى المداخل. سحق رصاص الجنود انتفاضة العمال بالرعب".

تزامن مع قتل العمال بداخل البلاد، الفظائع الاستعمارية بالخارج. كان حجمها واسعًا. كانت الإمبريالية البلجيكية من أفظع أشكال الاستعمار الأوروبي.

ولكن النتيجة النهائية كانت انتصار العمال، وكان انتصارًا هامًا رغم محدوديته. حصلوا على حق التصويت، وإن كان بقيود: لم تكن اقتراع متساو (رجل واحد: صوت واحد) ولكن اقتراع جماعي (أكثر من صوت واحد مخصص لعدد محدد من المصوتين، ويُحسب ذلك وفقًا لعدد أطفالهم، وحجم ملكياتهم وهكذا). كانت الكنيسة الكاثوليكية وكهنتها على الدوام هي المعارض الرئيسي للاشتراكيين. لزمن طويل، كان الخط الرئيسي المقسم للسياسة البلجيكية هو الدين وليس الإثنية. ما يجعل كل من الملحدين الاشتراكيين وجيرانهم البروتستانت متباعدين.[٣]

قبل الانتقال إلى الاشتراكية الديمقراطية الروسية، سنلقي نظرة سريعة على سبب أن اضطرابات الطبقة العاملة في الولايات المتحدة لم تنتج سوى حزب اشتراكي قصير العمر لا يضاهي أقرانه الأوروبيين، دعك من أقرانه الروس. في النهاية كانت هناك العديد من التشابهات بين الطبقة العاملة الأمريكية في تكوينها وعمال أوروبا الغربية. خلال القرن التاسع عشر، كان معظم المهاجرين –إذا استثنينا مهاجري شرق آسيا– قادمين من أوروبا.

---

3 كان ميلاد الاشتراكية وأحزابها هو أكثر المراحل بطولية، ومن المستحيل أن نوفيها حقها في هذا الكتاب. من يود الاطلاع على هذا التاريخ، هناك العديد من الأعمال المتعلقة بالموضوع، اثنان منهما لهما قيمة خاصة بسبب دقتهما الأكاديمية :

JuliusBraunthal, *History of the International, 1864–1914* [vol. 1] and*1914–1943* [vol. 2], trs Henry Collins and Kenneth Mitchell, London, 1966,and Donald Sassoon, *One Hundred Years of Socialism*, London, 1996.

عَبَرَت الأفكار المحيط الأطلنطي أيضًا، سواء كانت الأناركية أم الاشتراكية. كانت المنشورات الألمانية هي المسيطرة، ولكن الصحف الإسكندنافية والإيطالية كانت رائجة أيضًا. كانت هناك مكتبات وقاعات اجتماع يسهل الوصول إليها، ويمكن فيها إجراء الحوارات مع الآخرين المتفقين في الأفكار (أو غير المتفقين). قاوم مُلّاك المصانع بقوة تشكيل نقابات العمال والحرفيين، ولكن الووبليز حققوا تقدمًا بتجنيد عمال من جميع أنحاء البلاد (ومنهم عمال صينيون ويابانيون وأفريقيون أمريكيون) إلى جانب جمع قطاع متخصص في الدعاية السياسية بمختلفة اللغات. من بينها مجموعة شهيرة من الأغاني تميز بها جو هيل[vi] على وجه الخصوص.



يوجين ديبس، المرشح الرئاسي للحزب الاشتراكي الأمريكي. تلقى حوالي مليون صوت في الانتخابات في مناسبتين.

من جهة المقاتلين الصناعيين، كانت موجات الإضرابات في أعوام ١٨٧٧، ١٨٨٥ و١٨٨٦، و١٨٩٤ مذهلة سواء من جهة الروح القتالية أو التضامنية التي طورت في بعض الأحيان سمات شبه تمردية. كانت أفعال العمال البريطانيين والفرنسيين والإيطالين والألمان في هذه الحقبة متواضعة نسبيًا إذا قارناها بها. نستثني من ذلك الإضرابات البلجيكية والنمساوية لحق الذكور الكامل في الاقتراع. ولاحقًا بالطبع في الانتفاضات في روسيا وبولندا. ولكن من جهة شدة الطبقة العاملة الصناعية، لم يكن عمال الولايات المتحدة متأخرين، بل كانوا متقدمين.

وماذا عن مستوى الوعي السياسي؟ هنا أيضًا تبدو الأرقام مفاجئة. في العقدين الأولين من القرن العشرين، كان الحزب الاشتراكي للولايات المتحدة، الذي تأسس عام ١٩٠١، يضم ١٢٥ ألف عضو عام ١٩١٢، و١٠٠ ألف مع نهاية الحرب. فقط الاشتراكيون الألمان كان عدد أعضائهم أكبر: ٣٨٠ ألف في عام ١٩٠٦ و٢٤٣ ألف عام ١٩١٧. في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ١٩١٢ وعام ١٩٢٠، حاز يوجين ف. ديبس، المرشح الرئاسي الاشتراكي على أكثر من ٩٠٠ ألف صوت في المناسبتين. كان هناك عضوان بالكونجرس من الحزب، وأكثر من مائة عمدة اشتراكي وعدد من موظفي الدولة الاشتراكيين. وأضف إلى ذلك القاعدة الانتخابية للحزب –التي كانت قوية في أوكلاهوما وتكساس ومونتانا وواشنطن ونيفادا وغيرها– تشمل مساحة من البلد تفوق مما كان لدى الألمان والإيطاليين. ومع النتائج الكارثية، تجاهل الأخيرون افتراضيًا الجزء الجنوبي من بلدهم، وتجاهل الأولون الريف، على الرغم من نصائح إنجلز وتوسلات كاوتسكي. لا يوجد شك على الإطلاق من أن هذه القطاعات في الحزب الاشتراكي الأمريكي كانت تتجاهل عن قصد الكثير من جوانب الواقع، ولكن كذلك كان أقرانهم. أكثر "المناهج المجربة والمختبرة" والمتفاخر بها، (أي النضج) في الحزب الاشتراكي الألماني، لم يمنع أفول عام ١٩١٤، ولم تؤد حيوية الاشتراكين الإيطاليين إلى قبول الواحد وعشرين شرطًا التي وضعها لينين للانضمام إلى الكومنترن. هناك العديد من الأمثلة المتاحة لتوضيح تشابه الاشتراكين الأمريكيين مع رفاقهم الأوروبيين. أما السبب وراء قلة عدد الأصوات الانتخابية إذا قورنت بنسب وأرقام الأحزاب الألمانية والفرنسية والإيطالية فيرجع في الأساس إلى النظام الانتخابي الأمريكي، كما اكتشف ذلك كل مرشحي "الحزب الثالث" في أمريكا. ويرجع ذلك أيضًا إلى حرمان الأمريكان الأفارقة في الجنوب من التصويت فعليًا، بعد انهيار حقبة إعادة البناء قصيرة الأمد التي تلت الحرب الأهلية

الأمريكية. هذا الغياب الهائل لم يُعالج من الأسفل إلا من خلال الحراكات الجماهيرية غير العنيفة التي قادها مارتن لوثر كينج الابن وتهديدات الفوضى العنيفة التي أطلقها مالكوم إكس، وستوكلي كارمايكل، وحزب الفهد الأسود وآخرون. انتصارات الستينيات من القرن العشرين كانت نتيجة الحراكات الجماهيرية والشغب الجماهيري، التي جرت في كل المدن الرئيسية تقريبًا.

في مقاله الرئيسي الأول "سجناء الحلم الأمريكي"، يشير مايك ديفيز، وحجته وجيهة، إلى أن الاختلاف الرئيسي بين الولايات المتحدة وأوروبا هو حملات العنف المستمرة التي شنتها الحكومات الأمريكية المتعاقبة وأفراد شركات "الأمن الخاصة" مثل بنكرتون ضد الطبقة العاملة. كان هذا العنف جزءًا من النظام ذاته، ولم يكن هدفه فقط سحق الإضرابات وإظهار القوة للعمال، لاستبدال العمال الموحدين أو فض المضربين، ولكن أيضًا لاستباق ظهور الجماعات الاشتراكية والاتحادات المقاتلة. صحيح أن أوروبا حاولت ممارسة ذلك أيضًا ولكن نجاحها كان محدودًا. بالتالي لجأت للفاشية، وهي آخر ملجأ للطبقة الحاكمة المرتعبة. لم تكن هناك حاجة للفاشية في الولايات المتحدة، إذ نجح النظام القائم، من خلال مزيج الجبر والرضا، من تخليص نفسه باستمرار من كل ما هو "غير مرغوب فيه". شكَّل تأريخ ديفيز السوداوي لعمليات إطلاق النار التي قام بها أفراد الشركات، والاغتيالات الموجهة التي قامت بها الشرطة المحلية والمرتزقة المسجلون باعتبارهم شركات، والضرب والإعدام غير القانوني والرقابة والمجازر واختراق الإف بي آي، قائمة بشعة. لم يكن هذا عُرفا برجوازيًا ديمقراطيًا في أي مكان بخلاف الولايات المتحدة، واستمر لأكثر من قرن، بداية من هايز وحتى نيكسون. تضاعفت الهجمات الجسدية على العمال المتظاهرين رغم القيود القانونية. واستُخدمت الاختراقات الشديدة لتعجيز الجماعات الاشتراكية. كان هناك قمع شامل للسكان السود وابتزاز لهم، أغلبه جرى

في الجنوب وإن لم يقتصر عليه. بمعنى آخر كانت الديمقراطية الأمريكية في الغالب حالة استثناء مستمرة. هذا صحيح عند الحديث عن السكان الأفارقة الأمريكان والعمال المقاتلين، في حين أنه عند انقسام قطاعات من أجهزة الدولة، تُخلق مساحة سياسية هامة تسمح بالاعتراض الجماهيري.[4]

لم يكن النمط الروسي مشابهًا لذلك، لأنه (بالإضافة إلى الأسباب المذكورة سابقًا) لم تكن المؤتمرات تجري سوى في المنافي. والمناديب الذين كانوا يصلون إلى روسيا القيصرية كانوا يفعلون بذلك بصعوبة كبيرة. ونتيجة ذلك هيمن المنفيون على تلك الاجتماعات. كان مجلس تحرير جريدة "الشرارة-إسكرا" هو المركز الأيدولوجي والتنظيمي للاشتراكيين الديمقراطيين الروس، وبدا أن الانقسامات ترجع لاختلاف الأجيال: الحرس القديم المتمثل في بليخانوف وآكسلرود وزاسوليتش، في مواجهة الجيل الجديد المتمثل في لينين ومارتوف وبوتريسوف. عندما نُشر كتاب لينين "ما العمل؟" لأول مرة، وزعه الاشتراكيون الديمقراطيون برضا وسعادة (تحمس له مارتوف بشكل خاص). كانوا يعتبرونه تعبيرًا بسيطًا عما طرحه بليخانوف وآكسلرود، مؤسسا الحركة الاشتراكية الديمقراطية من وقت طويل: أي أن ضعف الطبقة البرجوازية الروسية واضح للغاية لذلك لا بد أن يستكمل العمال الروس مهامها السياسية. من البداية سيكون النضال *سياسيًا*، وليس اقتصاديًا فحسب. والذي يضع العبء على كاهل

4 كان هذا هو الوضع أثناء صراع فيتنام (١٩٦١-١٩٧٥)، آخر حرب خاضتها الولايات المتحدة واستعانت فيها بالتجنيد الإجباري. مع الخلاف بين وزارة الخارجية والجيش، شاهدنا المشهد المذهل الذي ظهر فيه مائة جندي سابق في مظاهرة خارج البنتاجون يهتفون: "هو هو هو تشي منه، ستنتصر جبهة التحرر الوطني". سيحتاج الأمر إلى حوالي عقد للعودة إلى الوضع السابق، وفي هذه الأثناء سيُجبَر نيكسون على الاستقالة. وكما صرح رئيس وزراء فيتنام: "الطريق إلى ووترجيت مر على فيتنام". احتاج الأمر إلى ممثل هوليودي من الدرجة الثالثة لاستعادة "القيم" الأمريكية السابقة لفيتنام. ولكن ذكريات الأممية النموذجية لمئات وآلاف المواطنين الأمريكيين لم تتلاش تمامًا. وميراثها المتبقي كان إنهاء التجنيد الإجباري.

البروليتاريا هو أن البرجوازيين والفلاحين بلا حول ولا قوة. طوَّر لينين هذا الطرح بتوضيح نوع من الأداة السياسية المطلوبة لتحقيق الثورة في روسيا، وهي حزب مركزي طليعي يشكله الثوريون المحترفون. وحتى هذه النقطة لم تكن هناك معارضة مبدئية كبيرة.

تفاقمت الأمور أثناء المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، الذي افتُتِح في بروكسل في ٣٠ يوليو عام ١٩٠٣. تولى محررو "الشرارة"، الذين كانوا القيادة الحقيقية في الحزب، معظم عملية الإعداد للمؤتمر. اتفقوا على ألا يسمحوا للعصبة اليهودية بالانضمام، لأن ذلك سيقسم العمال على أساس الإثنية. كان لمارتوف وتروتسكي، الاشتراكيان ذوا الأصل اليهودي، وجهتي نظر قويتين في هذا الموضوع. بعد مذبحة البوجروم في كيشينيف عام ١٩٠٣، انتقدت العصبة "الشرارة" لمحاربتها الصهيونية أكثر من محاربتها معاداة السامية، دافع مارتوف عن ذلك في الجريدة، وذهب بأن الصهيونية تمثل تهديدًا مباشرًا على الاشتراكية، لأنها بمثابة حاجز يمنع العمال اليهود الذين يمتلكون وعيًا سياسيًا من التقدم، بينما اجتذبت معاداة السامية معظم الجماعات السياسية الرجعية من السكان. في تقريره إلى المؤتمر، انتقد تروتسكي العصبة لـ "جلافتها من جهة القتال" و"غرورها وضيق أفقها"، وأشار إلى أن ما يعيق التسوية هو إصرار العصبة على احتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية:

"عزلة العصبة التنظيمية دفعت الطاقات الثورية لعمالها إلى أن تكون مستودعًا ضيقًا، وقلصت بلا رحمة من الأفق السياسي لزعمائها... قدم المؤتمر الخامس للعصبة السابق لمؤتمرنا طرحًا جديدًا: العصبة هي (تنظيم اشتراكي ديمقراطي للبروليتاريا اليهودية، وينضم للحزب كالممثل الوحيد للبروليتاريا اليهودية)... كل ما يتبقى هو أن تحصي الأصوات. ٤٠ مندوبًا في مواجهة خمسة ينتمون إلى العصبة، مع ثلاثة غيابات. وغادرت العصبة الحزب".

بينما استنفد الجدال الدائر حول العصبة وقتًا طويلًا، كانت الصدمة الحقيقية لاحقة عن ذلك. تساءل تروتسكي "أي فلكي سياسي كان سيتنبأ بأن الرفيقين مارتوف ولينين سيتحدثان في المؤتمر كزعيمين متعاديين يمثلان اتجاهين متعارضين؟" لم يتوقع أحد ممن شهدوا هذا المؤتمر الوصول إلى مفترق طرق، ولكن هذا ما حدث، وانقسم الحزب إلى الأغلبية (البلاشفة)، والأقلية (المناشفة)، اللذين تحولا إلى حزبين مختلفين.

في ذلك الوقت بدا الخط الفاصل بالنسبة للعديد من المراقبين من الداخل والخارج هامشيًا ومقتصرًا على تحديد من يمكن أن يكون عضوًا ومن لن يكون، كما كان الحال مع الفقرة الأولى من لائحة الحزب. حتى الداعمين المخلصين للينين شعروا بالارتباك. فوجئ لينين نفسه في البداية من أن الخلاف أدى إلى انقسام دائم. كما شرحت في المقدمة، كان يتمتع بعلاقة عمل مقربة وطيبة مع مارتوف، على الرغم من خلافاتهما العديدة. بعد ذلك استعادت أرملته ناديا كروبسكايا، المقاتلة المخلصة، أمثولة لتولستوي، اعتادت هي ولينين أن يستخدماها لتفسير صراعات البلاشفة ونشاطاتهم:

"بينما كان تولستوي يسير في إحدى المرات، لاحظ من بعيد رجلًا يضرب مؤخرته ويحرك يديه بطريقة عبثية تمامًا. فكر في أنه رجل مجنون، ولكنه حين اقترب، رأى رجلًا يشذب سكينه على حجر رصف. الأمر نفسه ينطبق على الجدالات النظرية. عندما نستمع إليها من بعيد، لا تبدو أنها تستحق الحديث عنها، ولكن عندما يتم استيعاب الفكرة، ندرك أن الأمر ذو أهمية كبيرة. كان هذا هو الحال مع البرنامج".[5]

---

5 Nadezhda Krupskaya, *Memories of Lenin*, London, 1930, p. 84.

قصة تولستوي هي تبرير لاحق للاختلافات التي خرجت سريعًا عن السيطرة، ولم يستعن بها لينين فحسب، عادة ما استخدمتها الجماعات التروتسكية والماوية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين لتبرير أسوأ أنماط الانفصالية، هذا الذي يجعل المرء يشعر أن شاحذ السكين لدى تولستوي

بسبب مواجهتهم لحدثين حرجين، الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية، انقسم المناشفة بشكل أكبر، إذ عارض مارتوف الحرب ودعم الثورة بشكل قوي، في حين لم يفعل معظم داعميه السابقين في القيادة الشيئين. دعم المناشفة الآخرون البيض في الحرب الأهلية. نتيجة ذلك عادة ما اعتُبر الانقسام الذي حدث في مؤتمر عام ١٩٠٣ -المؤتمر الحقيقي الأول- الذي بدأ في بروكسل والذي كان لا بد أن ينتهي في الطرف الشرقي من لندن، كإشارة مبكرة على بصيرة لينين. لم تكن هذه حقيقة الأمر، على الرغم من أن "صلابة" لينين المتعلقة بمن يمكنه أن يكون عضوًا في الحزب الروسي لم تكن خاطئة، ربما حقيقة أن شقيقه ساشا تعرض للخيانة من عضوين جديدين في الجماعة الإرهابية، رغم أنه عارض تجنيدهما بقوة، كان لها أثرها على لينين. لم تكن هذه قضية تافهة. على الرغم من كل ذلك، اخترق البوليس السري القيصري الجماعتين بسهولة كبيرة. هناك تقرير مثير للاهتمام من الناحية النفسية يشير إلى أنه عندما اخترق المخبرين للفصيلين الاشتراكيين كانا ينقلان أخبارهما إلى رؤساء الشرطة الذين يحركونهما، تَلوَّن كل منهما بفكر الجماعة التي "ينتمي" إليها، وتولدت كراهية بينهما، كان هذا مصدر تسلية في رئاسة البوليس، ولكنه أشار إلى أن أجهزة الدولة ليست حصينة تمامًا حين تشارك في النقاشات.

على الرغم من أن الصراعات بداخل الحزب الروسي كانت حادة إلى درجة كبيرة، ضم كل حزب اشتراكي أوروبي تيارين أو ثلاثة بآراء متباينة، كما اتضح ذلك عام ١٩١٤. قبل سبعة أعوام من هذا التاريخ، حظى الاشتراكيون الروس بفرصة هائلة، إذ مثَّل انتصار اليابان على روسيا عام ١٩٠٤ -أول فصل من صراع القوى الإمبريالية- ضربة هائلة ضد الأوتوقراطية، واحتفى به البلاشفة والمناشفة بهذه الطريقة. أدى هذا إلى

ليس سوى نسخة مهذبة من القصة - وأن الرجل الواقف عند الرصيف كان في الحقيقة يستمني بشكل محموم.

موجة من الإضرابات والمظاهرات، وأدى إلى ظهور السوفييتات –مجالس عمال منتخبة حازت سريعًا على الشرعية في أعين الجماهير الحضرية- وحدوث نضال مسلح أثناء انتفاضة موسكو.

مكانيًا وديموغرافيًا، كانت روسيا، بعدد سكانها الذي وصل إلى ١٤٣ مليون نسمة في عام ١٩٠٤، قوة أعظم من اليابان. كان عدد سكان جزر اليابان ٤٧ مليون فقط. البلدان كانا محافظين بشدة ودولتاهما شديدتي المركزية. كان إصلاح ميجي قد بدأ عملية التحديث، ولكنه لم يصحب ذلك أي ديمقراطية حقيقية. لم تظهر الأناركية أبدًا في اليابان، وظهرت أولى الإشارات الاشتراكية بعد الحرب الصينية اليابانية في عامي ١٨٩٤-١٨٩٥. تشكلت شاكاي شوجي كنكوي-كاي (جمعية دراسة الاشتراكية) عام ١٨٩٨ لتحدد إذ كان من الممكن تطبيق الاشتراكية في اليابان أم لا. بدأت مجموعات صغيرة، من بينهم بضعة مثقفين، في ترجمة الأفكار الاشتراكية من أوروبا الغربية وتداولها، مكونين مزيجًا من الليبرالية والفابية مع بعض أفكار فورييه وأوين. رأى البعض بأن المؤسسات والأديان اليابانية المتنوعة احتوت دومًا على بذور الاشتراكية، التي يمكن تهذيبها الآن وتنميتها بلطف. عبَّر عن هذا الحس أفضل تعبير عالم الاجتماع آبي إيسو، الأب المؤسس شديد الحرص للاشتراكية اليابانية:

"ما زالت مصانعنا شابة، والهوة الواسعة بين الأغنياء والفقراء ليست ملحوظة... الفقراء راضون بوضعهم، بينما لا يحاول الأغنياء أن يقمعوهم... بالكاد ما نعرف العوز، بسبب أن النمو المتسارع للصناعة أتاح الفرصة للجميع ليحصل على عيشه، ولا أحد يفكر في الاشتراكية، باستثناء كونها سؤالًا قادمًا من بعيد، لم ندخل بعد في الدوامة؛ ولكن علينا

أن نعد أنفسنا للهرب... أو على الأقل أن نعرف كيف نتصرف، إذا كان لزامًا علينا أن ندخلها لاحقًا".[٦]

كان الاشتراكيون اليابانيون متشابهون مع حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي من جهة نسبة العضوية لعدد السكان، وتم قبول انضمامهم إلى الأممية الثانية. وتحت مظلة الأممية، اشترك الاشتراكيون اليابانيون والروس ونشروا بيانًا أدانوا فيه الحرب في الشرق الأقصى. ضربت الهزيمة المجتمع الروسي ضربة موجعة، ولم يكن حلم نيكولاي الثاني ودائرته غير الرسمية المكونة من الأرستقراطيين، بنوال المجد في الشرق الأقصى سرًا كبيرًا، وظلوا يقودون الوزارات -الحرب، المالية، الشؤون الخارجية- في الخفاء لتحقيق أهداف الحرب. لم يكن القيصر أميز أفراد عائلة رومانوف، كان ضعيفًا ولا يثق بأحد، وغير قادر على استيعاب العناصر الأساسية للإستراتيجية سواء بالداخل أو الخارج. كان قراره يتأثر بسهولة بآراء أصدقائه والمنافقين له الذين يشاركونه عدم الكفاءة. كتب دومينيك ليفين أنه "صنع ثغرة في مركز صناعة القرار لم يكن قادرًا على ملأها.. يتحمل الإمبراطور في الأساس مسؤولية هزيمة روسيا في شرق آسيا، ولم تتحسن سمعته أبدًا".

أجبرت إخفاقات حرب القرم القيصر في ذلك الوقت على تحرير الأقنان على الرغم من الطريقة الخرقاء التي تم بهذا ذلك. أدت الهزيمة من اليابان إلى انتفاضة عام ١٩٠٥، ونعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك. أما بالنسبة للمنتصرين، فقد واجهوا أيضًا تغيرات سياسية. الماركسية التي لم تكن موجودة في الجزر اليابانية ظهرت لأول مرة بعد الحرب الروسية اليابانية.

---

6 Abe Iso, 'Social Problems and Their Solution', *Far East I* (20 July1896).
إذا وضعنا حجج النص في الاعتبار، سيكون العنوان مضللًا قليلًا (المشكلات الاجتماعية وحلها)، مقتبس من Hyman Kublin, 'The Japanese Socialists and the RussoJapanese War', *Journal of Modern History* 22: 4, 1950

٦

الإمبراطوريات تتحارب

في عام ١٨٨٧، وصف فريدريك إنجلز بهدوء واستبصار ما الذي سيكون عليه الصراع الجديد في أوروبا. أشار إلى أنه سيكون حربًا عالمية من نوع لم يُشهد لها مثيل من قبل، وستضم من ٨ إلى ١٠ ملايين جندي، ورأى أنهم:

"سيدمرون بعضهم، وأثناء ذلك سيسوون أوروبا بالأرض، بطريقة لا تستطيعها أسراب الجراد... سيتركز الدمار الذي أدت إليه حرب الثلاثين عامًا في ثلاث أو أربع سنوات، وسوف يسود القارة كلها... سينتهي كل ذلك بالإفلاس العام، وانهيار الدول القديمة وحكمتها التي تتباهى بها... من المستحيل كلية التنبؤ بنهاية كل هذا، ومن سيخرج منتصرًا من الصراع؛ ولكن لا شك من أن هناك نتيجة واحدة: الإنهاك العالمي وخلق ظروف صالحة للانتصار النهائي للطبقة العاملة".

في عام ١٩٠٧، وبعد جدل طويل في مؤتمر الأممية الثانية في شتوتجارت، صارت خلاله الحرب المقبلة أمرًا واقعًا، تم تمرير بيان صاغه كل من لينين ولوكسمبورج ومارتوف، وتم الاتفاق عليه *بالإجماع* في المؤتمر، وكما تذكر تفاصيل المؤتمر حظى البيان "بتصفيق صاخب وطويل ومتكرر، مع تحمس الوفد الفرنسي على وجه الخصوص". كان البيان كالتالي:

"إذا أوشك اندلاع الحرب، فمن واجب الطبقة العاملة وممثليها البرلمانيين في البلاد المشاركة، مدعومة بالنشاط التعاوني لمكتب الاشتراكية الأممية، بذل كل الجهود لمنع اندلاع الحرب بالوسائل التي تراها ناجعة، والتي بالطبع ما تتنوع وفقًا لشدة النضال الطبقي وشدة الموقف السياسي العام.

وفي حالة اندلاع الحرب رغم ذلك، سيكون من واجبهم التدخل سريعًا من أجل إنهائها، وبكل ما يملكون من قوة عليهم أن ينتفعوا بالأزمة الاقتصادية والسياسية الناشئة عن الحرب، وذلك من أجل تحريض الجماهير للإسراع من سقوط حكم الطبقة الرأسمالية".

كان القرار هو التسوية. رفض الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني قبول الدعوة الفورية للإضراب العام في أنحاء أوروبا في مواجهة الحرب. كانت بعض حجج ببيل واقعية، إذ أشار إلى أن الحرب سيكون لها تأثير مخلخل على الوعي الطبقي، وسيكون الإضراب العام غير واقعي. ولكن معظم حججه كانت مرتبطة بما سيحدث بعد اندلاع الحرب: ستتمزق الحياة العائلية، سيتم التركيز على المصانع الحربية، منع الصادرات، إلخ. ولكن ما كان لينين وكير هاردي ولوكسمبورج يدعون إليه هو إضراب عام *وقائي* لمنع اندلاع الحرب. ربما كان هذا يوتوبيًا، ولكنه لم يُختَبَر أبدا. أنهى ببيل المؤتمر رسميًا، وحسب قوله كان ذلك من أجل وحدة كل المندوبين في مواجهة الحرب المقبلة، ليتم تذكر ذلك "بحروف من ذهب" كذروة الأممية. توفى في العام التالي. وكان قد حذر مرارًا وتكرارًا في المؤتمر من أن حرب البلقان ليست إلا تمهيد لحرائق أكبر بكثير.



أوجوست ببيل: زعيم وكاتب اشتراكي ألماني.

مع مرور السنوات، أجرت الدول الإمبراطورية العظمى عملية إعادة تسلح متسارعة. قبلت بريطانيا صعود القوى الأخرى، ما دامت لا تمس المصالح البريطانية مباشرة. عندما صارت لفرنسا اليد العليا (كما كان الحال في أفريقيا) هددت إنجلترا بالحرب. تراجعت باريس ووُقع اتفاق بين القوتين عام ١٨٩٩. قَبِل البريطانيون السيطرة الفرنسية على المغرب ما دامت لا تؤثر على الاتفاقات التجارية القائمة، أو "الوضع السياسي" للبلد. اتُفِق أيضًا على أن "يستمر منصب المدير العام للآثار المصرية في عهدة خبير فرنسي، كما كان الحال في الماضي". كان الفرنسيون يشعرون بالرضا بسهولة. لم يكن البوير في جنوب أفريقيا محظوظين كثيرًا، عندما اكتُشفت مناجم الذهب والماس، خاض البريطانيون الحرب – وهو الدليل المبكر على أن الجشع الاستعماري يتفوق على التضامن العنصري.

في أغلب فترة القرن التاسع عشر، غيّرت الثورة الصناعية في بريطانيا البلاد، وتدريجيًا استفادت أوروبا الغربية كلها من اختراعات هذه الفترة، بالتالي كانت بريطانيا في موقع قيادي في العقود الأولى من العولمة الرأسمالية الأولى، كانت "جزيرة عالمية"، بتعبير الجغرافي الإمبريالي سير هالفورد ماكيندر الذي كتب قصيدة متباهية بعد الحرب، سخر فيها من الألمان بسبب طموحهم المبالغ فيه.[1]

مع بداية عام ١٩١٤، احتلت الإمبريالية الأوروبية، بقيادة الإمبراطورية الإنجليزية، شبه القارة الهندية بأكملها، واشتمل ذلك على بورما وسري لانكا والأرخبيل الإندونيسي وماليزيا والهند الصينية، وانشغلت بتقسيم الصين. سيطرت الإمبراطورية العثمانية على الشرق العربي. كان اليابانيون قوة استعمارية في شبه الجزيرة الكورية. سيطرت

1 "من يحكم شرق أوروبا يأمر قلب الأرض، من يحكم قلب الأرض يأمر جزيرة العالم، من يحكم جزيرة العالم يأمر العالم".

فرنسا وبلجيكا على أراضي أفريقيا، أما العضو الأحدث في النادي (ألمانيا) فكان ("يمدِّن") ناميبيا وتنجانيقا. حدد حجم الملكية الاستعمارية وضع كل دولة إمبريالية، ولا يتضمن هذا فقط المواد الخام، والثروة المنجمية عالية القيمة والتجارة، ولكن أيضًا سكان البلد.

شَكّل الرعايا المُستَعمَرين احتياطيًا كبيرًا في الحروب الإمبريالية والعمليات البوليسية في المستعمرات وحروب الغزو. استخدم البريطانيون الجيش الهندي، وكان لدى فرنسا (وما زال لديها) جنود في غرب أفريقيا تحت إمرتها واحتياطي هائل في الجزائر والهند الصينية؛ أنشأ اليابانيون مكافئًا كوريًا، وبعد ذلك، وبعد غزو منشوريا، صار لديهم نسخة صينية قصيرة الأمد. كثيرًا ما يتم التقليل من أهمية هذا المخزون في تزويد المدافع الاستعمارية.[2] نقلت المجلات الألمانية أخبار القمع الذي قامت به بريطانيا وفرنسا في مستعمراتهما، ولكن ما أرادوه هو المستعمرات التي يستطيعون قمعها بطريقتهم. مذبحة هيريرو في ناميبيا تقدم رؤية واضحة لطبيعة الحكم الاستعماري الألماني.

سيطرت الافتراضات التقليدية على الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى، خاصة في العالم المتحدث بالإنجليزية. تم دفع الرأي العام البريطاني لتصديق أن الحرب كانت حربًا من أجل الديمقراطية في مواجهة الطغيان، وهي حجة لم تستخدم كثيرًا في الزمن الذي مثَّلت فيه الأوتوقراطية القيصرية الحليف الرئيسي لبريطانيا. تغيير المواقف تجاه الحرب لا ينفصل عن التدخل الإمبريالي الذي يتم حاليًا في الشرق الأوسط والقرن الأفريقي وجنوب آسيا. في معظم أوقات القرن الماضي، اعتُبرت الحرب العالمية الأولى كارثة كبيرة

2 خلال الحرب العالمية الثانية، كان لدى الألمان احتياطي بشري من معظم الدول الأوروبية التي احتلتها. رفض فرانكو المشاركة في الحرب على الجبهة الغربية، ولكنه دفع بالفرقة الزرقاء سيئة السمعة لقتال الجيش الأحمر على الجبهة الشرقية.

على كل المستويات.[3] كانت الفكرة القديمة التي راجت مجددًا هي أنها كانت حربًا بين الديمقراطية الخالصة في مواجهة الأوتوقراطية البروسية و"الهجر الأشرار"، وهي فكرة خلَت دومًا من المعنى. كان حق التصويت محدودًا في ألمانيا وإنجلترا (ولم يكن التصويت مسموحًا للنساء)، ومن جهة التمثيل الطبقي، كان الاشتراكيون الألمان متقدمين على أقرانهم البريطانيين. كانت الدعاية المتعلقة بدخول الحرب للدفاع عن "بلجيكا الشجاعة" غير مقنعة أيضًا. كانت بلجيكا من أكثر الإمبراطوريات وحشية وقمعًا في أفريقيا. وقبل اندلاع الحرب مباشرة، قتل البلجيك الوالون منهم والفلمنكيون ما بين ١٠ إلى ١٢ مليون كونغولي. المكتبات الخاصة التي كانت تأوي كُتَّاب التنوير كثيرًا ما احتوت على رؤوس متقلصة وحولها أيدي وأقدام، وهو تعبير مصور لرؤية فالتر بنيامين بأن البربرية والحضارة كانا دومًا رفيقين حميمين. هل كانت هذه الدولة "الشجاعة" تستحق الدفاع عنها؟

في أيامنا هذه، يُنظر للتاريخ بشكل مختلف، على الرغم من الجهود الكبيرة لمؤرخين إمبريقيين بارزين اثنين على الأقل. رفض نيال فرجسون قبول شيطنة ألمانيا واعتبارها المسؤولة الوحيدة عن الصراع ويصبر، كمؤرخ محافظ متشدد مخلص، أن دخول بريطانيا للحرب "كان أسوأ خطأ في التاريخ الحديث"، وأن بريطانيا تستحق القدر نفسه من اللوم في الصراع. يرى فرجسون بأن الحرب أسرعت من نهاية الإمبراطورية البريطانية بدلًا من تقويتها. أما دراسة دومينيك ليفين عن الحرب في الجبهة الشرقية فتمثل سردًا شديد القيمة، خاصة في نقاشه عن روسيا القيصرية. بطريقتين مختلفتين،

3 أول مسرحية رأيتها في المملكة المتحدة (بصحبة مايكل بيلوف) كانت مسرحية جوان ليتلوود المذهلة "أوه، يا لها من حرب جميلة" (والتي أخرجها للسينما السير ريشتارد آتينبوره). هذا الموقف تجاه الحرب كان يعتبر الموقف الشائع في ذلك الوقت. ونقدّر كثيرًا المشهد الذي يصور التآخي بين الجنود أثناء هدنة الكريسماس.

تبنى فرجسون وليفين حقيقة أن المنافسة الإمبريالية أججت الصراع، وكان فصل ليفين الافتتاحي نموذجيًا في هذا الشأن.[4]

لم يكن اغتيال القومي الصربي للأمير النمساوي سوى الشرارة التي أججت الصراع، وليس سببه الحقيقي، ولو قارنا ذلك بزمننا المعاصر، سنقارن بتفجيرات ١١ سبتمبر، التي مهدت للحرب على العراق وتدمير ليبيا وسوريا واليمن، وخلخلة الاستقرار كلية في أفغانستان وباكستان. إن الحروب التي تلت ١١ سبتمبر استمرت زمنًا أطول من الحربين العالميتين الأولى والثانية مجتمعتين.

اندلاع الحرب في أغسطس عام ١٩١٤ قسَّم الحكومات، كما قسَّم الأحزاب الاشتراكية.

في بريطانيا، وكما كتب دوجلاس نيوتن، كانت هناك جدالات حقيقية في مجلس الوزراء، واستقال أربعة وزراء، ولكن بدون إعلام أعضاء مجلس النواب بالسبب، بخلاف تحريك الرأي العام ضد الصراع. وكانت بريطانيا تعاني من مشكلة إضافية وهي التمسك بالمستعمرة الموجودة بداخل الوطن، وهي أيرلندا. لا يمكن السماح بمشاهدة الجزيرة العالمية وهي تتفسخ، لأن هذا يهدد بإشعال مظاهر تمرد في المستعمرات الأخرى. رُفض الحكم الذاتي للأيرلنديين، وشجع المحافظون منهم القوى المتمردة في الجيش على عصيان الأوامر، ما أدى في النهاية إلى ظهور أيرلندا المتحدة. وهدد زعماء بروتستانت أولستر بثورة مستمرة بدعم عسكري. كان هذا هو السبب الرئيسي لتوتر البريطانيين من الحرب الأهلية الأوروبية.

تحليل لينين اليقظ "الإمبريالية، أعلى مراحل للرأسمالية"، والذي كُتب بعد اندلاع الحرب بسنتين، يظل أحد النصوص التأسيسية لفهم الحرب العالمية

---

4 Niall Ferguson, *The Pity of War*, London, 2014, and DominicLieven, *Towards the Flame: Empire, War and the End of Tsarist Russia*,London, 2015.

الأولى. يمضي الكتاب في شرحه معتمدًا على الصعود المتواصل للرأسمالية الصناعية والتناقض في حالة ألمانيا، التي صارت في ذلك الوقت أكبرة قوة صناعية في أوروبا، ولكنها بدون مستعمرات تقريبًا. إذا نحينا الإمبراطورية البريطانية جانبًا، وجد الإستراتيجيون في برلين أن تَمَلُّك دول تافهة مثل بلجيكا وهولندا والبرتغال مستعمرات أكثر نسبيًا مما تملكه ألمانيا هو أمر مثير للغيظ. ويستحق أساس حجة لينين، الذي اعترف أنه مدين في بحثه للمؤرخ الإنجليزي الليبرالي جون هوبسون، أن نقرأه بالطريقة التي كتبه بها:

"بالنسبة لبريطانيا العظمى، حلت حقبة التوسع الهائل للغزوات الاستعمارية بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٠، وجرت أيضًا بقدر ما في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر. بالنسبة لفرنسا وألمانيا حل التوسع الاستعمار في تلك السنوات العشرين. بالإضافة إلى ذلك شهدنا أن تطور الرأسمالية ما قبل الاحتكارية، الرأسمالية التي تهيمن عليها المنافسة الحرة، قد وصلت لحدودها القصوى في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. نرى الآن أنه بعد هذه الحقبة *تحديدًا*، بدأ (التوسع) الهائل في الغزوات الاستعماري، وصار الكفاح من أجل قسمة أراضي العالم شديد الحدة. لا شك إذن في أن الانتقال الرأسمالي من مرحلة الرأسمالية الاحتكارية إلى الرأسمال المالي *متصل* بزيادة حدة الكفاح من أجل تجزئة العالم. يحدد هوبسون، في بحثه عن الإمبريالية، الفترة ما بين عامي ١٨٨٤ و١٩٠٠، بعصر (التوسع) المكثف للدول الأوروبية الرئيسية. وفقًا لتقديره، كانت بريطانيا العظمى في تلك السنوات تحظى بـ ٣,٧٠٠,٠٠٠ ميل مربع من الأرض تضم ٥٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة؛ وفرنسا ٣,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع بـ ٣٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمة؛ وألمانيا ١,٠٠٠,٠٠٠٠ ميل مربع بـ ١٤,٧٠٠,٠٠٠ نسمة؛ وبلجيكا ٩٠٠,٠٠٠ ميل مربع بـ ٣٠,٠٠٠٠,٠٠٠ نسمة، والبرتغال ٨٠٠,٠٠٠ بـ ٩،٠٠٠،٠٠٠ نسمة. تكالب الدول الرأسمالية على

المستعمرات في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدًا منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر، حقيقة معروفة في تاريخ الدبلوماسية والسياسة الخارجية. في أكثر حقب المنافسة الحرة ازدهارًا في بريطانيا العظمى، أي الفترة ما بين عامي ١٨٤٠ و١٨٦٠، كان السياسيون البرجوازيون البريطانيون البارزون للسياسة الاستعمارية، وكانوا في صف تحرير المستعمرات، وانفصالها الكامل عن بريطانيا، هو أمر محتم ومرغوب فيه. في مقاله (الإمبريالية البريطانية الحديثة)[5]، والذي نُشر عام ١٨٩٨، يذكر م. بير أنه في عام ١٨٥٢، أعلن ديزرائيلي، السياسي الذي كان يميل بشكل عام إلى الإمبريالية، أن (المستعمرات بمثابة أعباء حول أعناقنا)، ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر، كان البطلان البريطانيان المعاصران هما سيسيل رودس وجوزيف شامبرلين، اللذان دافعا صراحة عن الإمبريالية، وطبقا السياسة الإمبريالية بأكثر الأساليب أنانية!

من المفيد أن نلاحظ أنه حتى هؤلاء السياسيين البرجوازيين البريطانيين البارزين رأوا حلقة الوصل بين ما يمكن أن نطلق عليه الاقتصادي المحض والجذور الاقتصادية السياسية للإمبريالية الحديثة. دافع شامبرلين عن الإمبريالية باعتبارها (سياسة واقعية وحكيمة واقتصادية) وأشار بوجه خاص إلى المنافسة الألمانية والأمريكية والبلجيكية التي كانت بريطانيا العظمى تجابهها في السوق العالمي. الخلاص يتمثل في الاحتكار، هكذا قال الرأسماليون وهم يشكلون الاتفاقات والنقابات والاتحادات. الخلاص يتمثل في الاحتكار، هكذا ردد الزعماء السياسيون للبرجوازيين، مما أسرع من الاستيلاء على الأجزاء غير المحتلة بعد في العالم. ووفقًا لصديقه المقرب، الصحفي ستيد، عرفنا أن سيسيل رودس عبر له عن آرائه الإمبريالية عام ١٨٩٥ بالتعبيرات التالية: (بالأمس كنت في منطقة إيست إند بلندن، وهو حي للطبقة العاملة ، وحضرت اجتماعًا للعاطلين. استمعت إلى الخطب

5 *Die NeueZeit*, XVI, 1, 1898, S. 302 [Lenin's note].

الجامحة، التي كانت على وجه التحديد صيحات من أجل الخبز! الخبز! وفي طريقي إلى المنزل، تأملت المشهد، وصرت مقتنعًا تمام الاقتناع بأهمية الإمبريالية... فكرتي التي أعتز بها هي الحل للمشكلة الاجتماعية، أي من أجل إنقاذ ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ نسمة في المملكة المتحدة من الحرب الأهلية الدموية، علينا نحن السياسيين الاستعماريين أن نحصل على أراض جديدة ليستقر السكان الزائدين، ولنتيح أسواق جديدة للسلع المنتجة في المصانع والمناجم. وكما قلت دومًا من قبل، الإمبراطورية هي سؤال توفير الطعام. إذا أردتم أن تتجنبوا الحرب الأهلية، عليكم أن تكونوا إمبرياليين).

قيل هذا عام ١٨٩٥، وقاله سيسيل رودس، المليونير، وملك الاقتصاد، والرجل الذي كان مسؤولًا رئيسيًا عن حرب الأنجلو-بوير. صحيح، كان دفاعه عن الإمبريالية فظًا ومتهكمًا، ولكنه في جوهره لم يختلف عن (النظرية) التي دافع عنها السادة ماسلوف وسوديكوم وبوتريسوف، وديفيد، ومؤسس الماركسية الروسية (بليخانوف) وغيرهم. كان سيسيل رودس بشكل ما اشتراكي شوفيني أكثر إخلاصًا".[6]

الجمل الأخيرة التي تحيل إلى الاشتراكيين الديمقراطيين الروس الذين دعموا روسيا في الحرب كانت ضعيفة نسبيًا. الاهتياجات الغاضبة حدثت في وقت أبكر، عندما قرر الاشتراكيون الألمان في الرابع من أغسطس عام ١٩١٤ التصويت لصالح ديون الحرب في الرايختاج. اتُخذ القرار بعد لقاء داخلي مشتعل في لجنة الحزب البرلمانية، وحظى قرار دعم الإمبريالية الألمانية في الحرب بـ ٧٨ صوتًا مقابل ١٤. طُبِّق النظام الحزبي على الأقلية، ولكن الانقسام المعلن صار في هذا الوقت حتميًا. كارل ليبكنشت وحده تحدى النظام الحزبي وصوَّت ضد الحرب، واعتبر الوطنيين "مفسدين أمميين".

6 V. I. Lenin, *Imperialism: The Highest Stage of Capitalism*, available at Marxists Internet Archive, marxists.org

شعر لينين بالذهول من استسلام كارل كاوتسكي. عندما قرأ لأول مرة نص كاوتسكي الذي يبرر التصويت في جريدة "الأزمنة الجديدة" *Die NeueZeit*، كان مقتنعًا في البداية أنه نص ملفق. كتبت روزا لوكسمبرج لصديق لها أن "أكثر شيء يتلقاه المرء من صحافة الحزب هنا هو الغثيان". مع سوء الحقيقة، أدرك لينين على الفور مدى الكارثة التي حلت. في النهاية فجّر القطاع الألماني من الأممية الثانية –وكان القطاع الأكبر– الأممية بالديناميت. بقدر ما كان مهتمًا، لم تكن هناك معضلة حقيقية في تحديد ما عليه أن يفعله. صار من المستحيل العمل مع التيار أمميًا، وكذلك الاشتراكيين الفرنسيين والبلجيك وجل قادة المناشفة وُضعوا في القائمة نفسها (باستثناء مارتوف وآكسلرود).

كانت روزا لوكسمبرج، وهي واحدة من أكثر الزعماء الموقرين في الحزب الألماني والأممية الثانية، تشعر بالأسى. ما جعل الأمور تتجه نحو الأسوأ وأثار غضبها كان التبريرات التي لا تنتهي التي تلقتها من الجانب المهادن من البرلمانيين بالحزب: لقد كانوا "مجبرين"، لقد كانوا "حسني النية"، إن "قلوبهم طيبة"، على عكس ذوي "القلوب الشريرة" من اليمينيين، كانوا "وطنيين دافعوا عن الحرب بدون شوفينية"، بالمقارنة بالشوفينيين الحقيقيين. وهكذا مضت المحفوظات التي لا تنتهي من التبرير. ولكن لم يهتز موقفها: "لا يمكن إطلاق الأحكام على *الدوافع* في الحالات التي تحظى بأهمية تاريخية عالمية، يمكن أن تُطلق الأحكام على الأفعال فحسب". عندما حاول زعيم الحزب، روبرت ديسمان، أن يجادل بأن أعضاء الجناح اليميني بالحزب كانوا موالين للحرب "ومتسقين مع أنفسهم"، وأن هؤلاء الذين صوتوا بتحفظ معهم كانوا دعاة حرب غير متسقين، أجابت صراحة: "أنا، في كل الظروف، أؤيد الاتساق، ولكني لا أتوقع سوى البؤس من فكرة القبول المهين للحرب، وليُلعن الاتساق".[٧]

7 George Adler, Peter Hudis and Annelies Laschiza, eds, *The Lettersof Rosa Luxemburg*, London and New York, 2011, pp. 330–1.

خلال السنة الأولى من الحرب، اجتمع النشطاء المناهضون للحرب – وكانوا في الأساس اشتراكيين إلى جانب بعض دعاة السلام– من كل أنحاء أوروبا في قرية زيمرفالد السويسرية لتقدير الموقف. اتحد البلاشفة والمناشفة المناهضون للحرب لتوقيع إعلان مُرر بالإجماع. كان الإعلان ضعيفًا إلى حد ما بالنسبة للينين، الذي كان يأمل في دعوى تسود أنحاء أوروبا لتحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية ضد الحكومات البرجوازية المؤيدة للحرب ودولها. وكان يأمل أيضًا في إدانة مدوية للأممية الثانية لفشلها المؤسف في الدفاع عن قراراته السابقة عن الحرب. فشل تمرير قرار بلشفي منفصل بهذه اللهجة، ولم يشعر لينين بالمفاجأة. في كتيب "الاشتراكيون والحرب" والذي كُتب بعد لقاء زيمرفالد، نلحظ انشغاله بالحروب والحروب الأهلية. أحال إلى بديهية كلاوزفيتز بأن "الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى" وأثنى على البروسي باعتباره "واحدًا من أعمق الكتاب الذين ناقشوا مشكلات الحرب... واعتبر الماركسيون دومًا أطروحته هي الأساس النظري للآراء المتعلقة بأهمية كل الحروب المعروفة، وذلك عن حق".



١٩١٩ تروتسكي وفرونزه يشرحان آخر أخبار الحرب الأهلية للمناديب الذين يحضرون المؤتمر الأول للأممية الشيوعية.

التهم لينين كتابات كلاوزفيتز، وملأ دفترًا كاملًا بتعليقاته وتساؤلاته. أرسل له رفيقه البلشفي ج. و. جوزيف، كتاب كلاوزفيتز "عن الحرب"، شارك جوزيف في وقت سابق في تحرير "الموسوعة العسكرية" الروسية، ونّمى علاقاته مع الضباط العسكريين الأصغر بعد الحرب الروسية اليابانية. اكتشف جوزيف أن العديد منهم كانوا في صف الإصلاحات القاسية في الجيش والمدرسة والعقيدة العسكرية الموحدة، ولكنهم واعون بالمقاومة التي سيلقونها إذا صرحوا بآرائهم. كانت تلوح هنا وهناك ظلال الديسمبريين التي يستحيل نسيانها.

ولكن لم هذا الاهتمام الشديد بكلاوزفيتز في هذا الوقت؟ أحد الأسباب واضح. كان لينين في وسط حرب صمتت فيها السياسة. والعودة إلى المكتبة في الأزمنة السيئة كان أمرًا معتادًا بالنسبة له، ودراسة كلاوزفيتز لفهم الحرب ساعدته بلا شك في تحليله للأسباب الواقعية للصراع. هل كان هناك سبب آخر؟ هل موجات الصدمة التي سببها استسلام الغالبية العظمى من الاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين والروس لآلات الحرب جعلته يفكر من جديد في تعقيدات العملية الثورية. كما هو واضح، آمن بأنه إذا تماسكت الأحزاب الكبيرة، ستكون قادرة على اختراق الجينجوية[vii] والشوفينية، التي أغشت مؤقتًا على وعي الطبقة العاملة. وبالفعل مع نهاية عام ١٩١٥، بدأ التهرب من التجنيد، وأعدم الجنود رفاقهم الجنود. وسريعًا ما انتشر هذا الحس من ساحات المعارك إلى عواصم عدة بلدان منخرطة في الحرب. هذا وحده كان سيقدم للموقف الأممي الموحد دفعة سياسية هائلة. ولكن لينين كان يفهم أكثر من كل رفاقه أن التراجع لم يكن ممكنًا. لم يكن التصالح مع الأحزاب التي دعمت حكامها في الصراع مسألة قابلة للنقاش. لم تكن هناك ضمانة من أي نوع بأن ميليشيات العمال التي ظهرت أثناء الكميونة ستظهر مجددًا بشكل تلقائي في أي بلد أوروبي. بشكل مبدئي، ربما لا يكون للحزب الثوري خيار آخر سوى إنشاء ميليشياته

المسلحة وتنظيم عصيان مسلح. لم يكن من الممكن ترك الأمور للصدفة مجددًا. بالتالي وبالقراءة المكثفة لكلاوزفيتز، اكتشف لينين أن الفيلسوف العسكري الألماني مدين لديالكتيك هيجل. كان من الواضح، من تعليقات لينين في الهوامش، أنه في الوقت الذي وصل فيه للمجلد الثالث من كتاب "عن الحرب"، كان يشعر بالإثارة الفكرية.

حين ناقش كلاوزفيتز تغيرات الإستراتيجية العسكرية الفرنسية بعد الثورة، وانتقد نقص الفهم المتعلق بطبيعة الرابط بين السياسة والحرب، اختتم حديثه كالتالي:

"لنكن واثقين، إن الحرب نفسها، في جوهرها وأشكالها، مرت بتغيرات هامة، مما جعلها أقرب إلى مظهرها المطلق. ولكن تلك التغيرات لم تحدث لأن الحكومة الفرنسية، بشكل ما، حررت، وأسقطت قيود السياسة، ولكنها كانت ناتجة عن السياسات المتبدلة التي قررتها الثورة الفرنسية لفرنسا إلى جانب جميع أنحاء أوروبا. تلك السياسات تستدعي وسائل مختلفة، وقوى مختلفة، وبالتالي تجعل من الممكن قيادة الحرب بطاقة عاقلة".

كان تعليق لينين على الهامش: "بالضبط!".

في تأمل كَتَبه كلاوزفيتز في جزء "بحث في الأوامر العسكرية متعلق بالحروب الدفاعية والهجومية، كتبه المؤلف إلى سمو الأمير في أعوام ١٨١٠ و١٨١١ و١٨١٢"، كتب كلاوزفيتز:

"بالمعاني السياسية، الحرب الدفاعية هي حرب تخاض من أجل الاستقلال، وإستراتيجيًا تعني الحرب الدفاعية حملة مقتصرة على قتال العدو

في مسرح حرب أعددته لأجل هذا الغرض. وسواء كنت في مسرح الحرب هذا أحارب بشكل دفاعي أو هجومي فلا يوجد فارق في ذلك".

علق لينين على الجملة الأخيرة: "صحيح".[8]

كان القيصر بحاجة إلى رئيس وزراء ذكي، وقاس، وخال من الرحمة. وهذا النموذج كان موجودًا في وزير الداخلية السابق المحافظ المتشدد، بيتر دورنوفو، الذي سحق ثورة عام ١٩٠٥. قراره في ذلك الوقت ما زال محفورًا في ذاكرة الجانبين:

"لا بد أن يُباد مثيرو الشغب على الفور بقوة السلاح، وأن تُحرق مساكنهم في حالة المقاومة. الحكم الذاتي المتعسف (السوفييتات) لا بد أن ينتهي الآن وإلى الأبد. لن تؤدي الاعتقالات إلى أي هدف في الوقت الحالي، وفي كل الأحوال من المستحيل محاكمة مئات الآلاف من الأشخاص. من الأساسي أن تفهم القوات كلية التعليمات السابقة. ب. دورنوفو".

---

8 المثير للاهتمام أن أفكار كلاوزفيتز صارت موضوعًا ساخنًا في الاتحاد السوفييتي بعد الحرب الأهلية مباشرة، أي عام ١٩٢١، عندما حاول فرونزه وآخرون تأسيس عقائد دوجمائية للجيش الأحمر، ما أثار رد فعل حاد من تروتسكي، الذي استنكر محاولات إنهاء النقاشات العسكرية بتبني عقيدة إستراتيجية تنطبق على كل الأوقات. انتصر تروتسكي في الجدل في المؤتمر الحادي عشر للحزب، ولكن تم قبول أفكار فرونزه بعد ترك تروتسكي لمفوضية الحرب مباشرة. كان تروتسكي قد ذهب إلى أنه من جهة السؤال العسكري سيكون اللجوء إلى الماركسية عديم النفع، لأنها لن تقدم شيئًا من هذه الجهة، وأزعج قادة الجيش الأحمر بإصراره على أن الانتصار في الحرب الأهلية يرجع إلى التعلم من كل من سلاح الفرسان المتحرك لدى الفوضويين الأوكران، والجنرال الأبيض أونجيرن. أكد على أن "المناورة ليست سمة الجيوش الثورية ولكن الحروب الأهلية تحديدًا". رُقي فرونزه باعتباره كلاوزفيتز السوفييتي، وصارت أفكاره جزءًا من الأرثوذكسية غير القابلة للمساءلة، أي ديالكتيك متجمد. ما الذي قادت إليه هذه الدوجما ليس سرًا كبيرًا. طُبقت في ٢٢ يونيو عام ١٩٤١ وكانت ينقصها الكثير. توفى فرونزه في ظروف غامضة عام ١٩٢٥. وأعلم توخاتشفسكي، القائد العسكري الأسطوري القادر على تجاوز الدوجما، بعد أوامر ستالين باعتباره "جاسوس ألماني".

هل كان بإمكان دورنوفو قلب الموقف إذا تولى قيادة مؤثرة على البلد؟ في عشية الحرب طُلب منه ذلك ولكنه رفض، وشرح صراحة لملكه أن الموقف الآن سيء جدًا وأن الاغتيالات والانتفاضات لن تتوقف في السنوات القليلة المقبلة؛ وإذا تولى منصبي رئيس الحكومة ووزير الداخلية، سيتحمل مسؤولية ذلك. ربما أدرك أيضًا أنه مع وجود الجيش على الجبهة، لن ينجح القمع الوحشي هذه المرة. قدم بالفعل مذكرة قصيرة عرض فيها اتجاهه المعادي بقوة لبريطانيا. رأى أن بريطانيا لا تحب شيئًا بقدر المناورة بحلفائها القاريين الكبار ليحاربوا منافسيها في أوروبا. اقترح أن قتال الألمان (الشريك التجاري الرئيسي لروسيا) وآل هابسبرج سيكون بمثابة قصر نظر، وأشار إلى أن استرضاء القوميين المتشددين الروس بضم جاليسيا –امتصاصًا "للانفصالية الروسية الصغيرة شديدة الخطورة، التي كانت في أفضل سياق لها قادرة على الحصول على أراض غير متوقعة كلية"– ربما تؤدي إلى عدم القدرة على التعامل مع القومية الأوكرانية.[9]

كان قلق دورنوفو الأساسي هو اندلاع الثورة. وعلى الرغم من كونه شديد الرجعية، فباعتباره وزيرًا للداخلية، لا بد أنه قرأ الكتيبات والكتب التي سبقت أحداث عام ١٩٠٥ ولحقتها. من الصعب أن نتخيل أنه لم يقرأ لينين، وإذا لم يقرأه فتحذيره للقيصر سيثير الانتباه بشكل أكبر وهو إذا سالت الدماء في روسيا حتى آخر قطرة في الحرب المقبلة، وهُزمت ألمانيا، ستندلع ثورتان في البلدين. تم تجاهل آرائه. شاركت روسيا في الحرب التي انتهت بعد عام ونصف بجمود مرير، بعد خسائر هائلة في الحياة البشرية على الجبهتين. ارتفعت الخسائر البشرية على الجبهة الغربية بدون أي نجاح عسكري حاسم لأي من الجانبين. وكانت الأحوال على الجبهة الشرقية تتدهور بشكل يصعب التحكم فيه. كان الألمان يتقدمون وبدأ الجنود الروس، (الفلاحون الذين يرتدون الزي العسكري) كما وصفهم لينين،

---

9 Lieven, *Towards the Flame*, p. 305.

يرون بأعينهم عدم نفع قادتهم العسكريين والخطابة الفارغة للسياسيين. بعد عامين ونصف من الحرب، سيطرت الثورة على روسيا، وعُزِلَت الأوتوقراطية، وحلت محلها حكومة مؤقتة. سنناقش في الفصل التالي مسار هذه الثورة، ولكن من الضروري أن نلقي نظرة سريعة على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. إذا ظلت الولايات المتحدة على الحياد، كما أراد معظم شعبها، لكانت الهدنة بين الإمبراطوريتين البريطانية والألمانية هي الحل الواقعي الوحيد. هل كان هذا سيعطل الثورة الروسية؟ سيظل هذا سؤالًا مثيرًا للجدل، ولكن قبل التفكير بجدية عن إمكانية ذلك اندلعت الثورة في روسيا. سقطت الأوتوقراطية. عُزل القيصر، وتولت الحكومة المؤقتة ذات التمثيل الواسع بزمام السلطة.



القوات الروسية على الجبهة الشرقية: التهرب والتمرد جمّد المجهود الحربي.

هذا جعل التدخل الأمريكي، الذي كان يخضع بالفعل لنقاش جدي، محتمًا. في خطاب بمؤتمر التجارة العالمية في دترويت عام ١٩١٦، قدم وودرو ولسون، الذي مزج خطابه التقوى الزائفة بالنفاق بشكل لا يضاهيه خطاب أي سياسي آخر في ذلك الوقت، هذه اللآلئ الحكيمة أمام التجار المجتمعين:

"ارفعوا أعينكم إلى آفاق العمل باستلهام فكرة أنكم أمريكيون، ودوركم هو أن تحملوا الحرية والعدل ومبادئ الإنسانية في أي مكان تتوجهون إليه. اذهبوا وبيعوا السلع التي تجعل العالم أكثر راحة وسعادة، واقنعوهم بمبادئ أمريكا".[١٠]

في نقاشات أبكر، استخدم ولسون باستمرار مفهوم العناية الإلهية ليبرر الأسلوب الأمريكي في غزو العالم. أرسل قوات إلى المكسيك وكوبا وهاييتي ونيكارجوا. نَقْل بلده إلى الحرب الأوروبية كان سيكلف حياة الناس، ولكن إذا وضعنا في الاعتبار أن كلًا من ألمانيا وبريطانيا كانتا تسيل منهما الكثير من الدماء، ستكون عملية خالية من المخاطر. "المصير الإلهي" ينتظر، وكما أوضح لرجال الأعمال الجنوبيين المجتمعين في موبل، ألاباما، في عام ١٩١٣، فهم في طريقهم إلى القمة: "وأنتم تصعدون ببطء وتمرون بعملية التسلق المضجرة التي تؤدي إلى الأراضي العليا الأخيرة، علينا أن نحظى بالنظرة النهائية لواجبات البشرية. لقد خضنا مسافة كبيرة في رحلة الصعود" ونقترب من الهدف النهائي، "لنصل إلى المرتفعات العليا حيث يشرق نور عدالة الله الذي لا يعيقه شيء". في رسالة إلى صديقه ومستشاره المقرب في ٢١ يوليو عام ١٩١٧، تفاخر قائلًا:

"إنجلترا وفرنسا ليس لديهما على الإطلاق الآراء نفسها تجاه السلام الموجودة لدينا. عندما تنتهي الحرب يمكننا أن نجبرهما على طريقتنا في التفكير لأنه في ذلك الوقت سيكونون تحت سيطرتنا ماليًا إلى جانب الأمور الأخرى".

جاء الانتصار الحاسم في الحرب بفضل القوة البشرية للولايات المتحدة وتكنولوجيتها، وليس للجزيرة العالمية. كيف سيعملون على الساحة

---

١٠ مقتبس من:

Perry Anderson, *American Foreign Policy and ItsThinkers*, London and New York, 2015, pp. 8, 9.

العالمية؟ خطابة وودرو ولسون المبالغة وعقدة المسيح التي كانت تصيبه لعبا دورهما لتظهر الولايات المتحدة كقوة عالمية. النقاط الأربعة عشر التي رفعها الليبراليون إلى عنان السماء لم تكن تتجاوز كثيرًا كونها محاولة للرد على البلاشفة، الذين تولوا السلطة، والذين نشروا المعاهدات السرية والإمبريالية الموجودة في الأرشيف القيصري. كان ملتزمًا بفكرة "حق تقرير المصير" لبعض الدول الأوروبية التي كانت تحت السيادة النمساوية المجرية سابقًا، لكن ظل معظم العالم تحت رحمة إمبراطورياته. عندما ظهر رجل فيتنامي في فرساي ليطلب حق تقرير المصير في الهند الصينية أُقصي جانبًا بازدراء. كان هذا الرجل هو هو تشي منه، الذي توجه لحضور المؤتمر المؤسس للحزب الشيوعي الفرنسي، وألحق بالولايات المتحدة هزيمة شهيرة بعد ثمانية وخمسين عامًا.

بعد أن حظى بموقع جديد كحَكَم، ارتكب الرئيس الأمريكي أخطاء فادحة من وجهة نظر إمبريالية شاملة. قرر أن يرضخ لإصرار الفرنسيين والبريطانيين بأن تُعاقَب ألمانيا اقتصاديًا بشدة (من خلال التعويضات) وتحيَّد على الدوام بأن تُمنع من بناء قواتها المسلحة، باستثناء الضروري للحفاظ على الأمن الداخلي وإبعاد البلاشفة. أما الطلب الإضافي للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية بأن تُقَسَّم المستعمرات الألمانية بين المنتصرين كمكافأة على عملهم الناجح فقد عدَّله ولسون بشكل طفيف. ستكون المستعمرات الألمانية تحت انتداب عصبة الأمم المشكلة حديثًا، وهي كيان ضعيف، إذا كان موجودًا أصلًا، ولم يوجد في الأساس للحفاظ على الحالة التالية للحرب. انتُزعت المستعمرات من ألمانيا، وزادت قوة منافسيها وظلت إمبراطوريتيهما كما هما. ووَصَف ولسون معاهدة فرساي المفروضة على ألمانيا بأنها "تحقيق غير مسبوق لآمال البشرية".

نعلم تمامًا عواقب ذلك. أدى الانهيار الاقتصادي في عام ١٩٢٩ إلى استقطاب سياسي حاد في ألمانيا. استوعب زعماؤها جيدًا أهمية الولايات

المتحدة، التي كانت مثار إعجابهم على مستويات عدة، واعتبروا أنفسهم مكافئها الأوروبي. بعد مرور قرن على الحروب النابليونية، وفي رهان فاوستي من أجل السيطرة على العالم، أجرى الرايخ الثالث آخر محاولة حقيقية لتوحيد أوروبا وتحقيق التجانس فيها. كان النموذج المسيطر على أذهانهم هو مبدأ مونرو[viii]، الذي حظى بإعجاب كبير في برلين، باعتباره أساس هيمنة الولايات المتحدة على أمريكا الجنوبية، كان المبدأ تأكيدًا صريحًا وناجحًا للغاية على الهيمنة الإمبريالية على قارة منقسمة، وكان هدفه الرئيسي اقتصادي: منع القوى الأوروبية من دخول المنطقة.

صُمم مبدأ لودندورف-هتلر كنسخة طبق الأصل من منافسه الأمريكي. كانت الخطة هي خلق نظام جديد في أوروبا يمكنه أن ينافس الولايات المتحدة مكانيًا وعسكريًا واستخدام القاعدة الأوروبية الجديدة لتدمير الاتحاد السوفييتي والبلشفية إلى الأبد، بالتالي الحصول على مساحة زراعية حيوية، ونفط وتموين دائم من العمال السلاف رخيصي الأجر. كان الزعماء الألمان واثقين من أنه في حالة اندلاع حروب أهلية (كما في أسبانيا على سبيل المثال) سيظل لديهم دعم أهلي لإنشاء قوى مساعدة للقتال إلى جانب جيوشهم. حين تصير روسيا تحت حكمهم، ستكون ألمانيا منيعة، وسوف تنهار الإمبراطورية البريطانيا من جراء ثقلها.

i Zimmerwald Declaration أقيم مؤتمر زيمرفالد في سويسرا عام ١٩١٥ وأعلن المنظمون رفضهم للحرب والمشاركة فيها.

ii المقصود توماس بين (١٧٣٧ـ١٨٠٩) وهو مثقف تنويري وأحد الأباء المؤسسين للولايات المتحدة.

iii هناك عدة ترجمات إنجليزية وعربية للقصيدة، الترجمة هنا اعتمدت على الترجمة الإنجليزية التي استعان بها طارق علي.

iv ثورة أيرلندية قامت ضد الحكم البريطاني لأيرلندا عام ١٨٦٧ ، والفنيان كانوا تنظيمًا ثوريًا يسعى لاستقلال أيرلندا.

v وهم من اتبعوا أفكار الألماني فرديناند لا سال (١٨٢٥ـ١٨٦٤)، وعلى الأغلب كانوا معارضين للماركسية.

vi Joe hill جو هيل (١٨٧٩ـ١٩١٥) مغني سويدي أمريكي، وأحد أعضاء الووبليز، حُكم عليه بالإعدام بإطلاق الرصاص بتهمة قتل صبي. كان الاتهام والحكم مثيرين للجدل، واعتبرهما البعض عقابًا لنشاطه السياسي.

vii Jingoism والمقصود الوطنية المفرطة التي تتسم بعنف السياسة الخارجية.

viii مبدأ يرفض التدخل الاستعماري الأوروبي في الأمريكتين، أصدره الرئيس الأمريكي جيمس مونرو عام ١٨٢٣.

القسم الثالث

١٩١٧ ـ ١٩٢٠: الدول والثورات

٧
فبراير

في عام ١٩٠٥، وفي سرده المفصل لبروفة الثورة التي لعب فيها دورًا قياديًا كرئيس لسوفييت سان بطرسبرج، لم يستطع تروتسكي، الذي كان في عشرينياته، مقاومة الاقتباس من موظف كبير بالأوتوقراطية، مكروه للغاية ولكنه ليس غبيًا. وكان مبرر هذا الاقتباس جيدًا:

"كتب سوفورين، كبير الأفاعي في البيروقراطية الروسية، في نهاية نوفمبر عام ١٩٠٥: (الثورة تضفي حيوية élan عجيبة على الرجال، وتحظى بحشود من الأنصار المخلصين والمتعصبين، المستعدين للتضحية بحياتهم. الكفاح ضد الثورة شديد الصعوبة، يرجع هذا تحديدًا لأنها تتسم بالكثير من الاهتياج والشجاعة والفصاحة المخلصة، والحماس الشديد الذي يصعب مناطحته. كلما كان العدو أقوى، كلما تحلّت الثورة بالإصرار والشجاعة، ومع كل انتصار تجتذب حشدًا من المعجبين. أي شخص لا يعرف ذلك، لا يعرف أن الثورة جذابة كالمرأة الشابة الشغوفة ذات الذراعين المفتوحتين، التي تمطر عليك القبلات النهمة بشفتين ساخنتين ومحمومتين، لم يمر أبدًا بمرحلة الشباب)".[1]

1 Leon Trotsky, *1905*, tr. Anya Bostock, London and New York,1971, p. 197.

في عام ١٩٠٥، كتب لينين نصًا بعنوان "خطتا الاشتراكية الديمقراطية"، نشره حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي بشكل موسع. تشبيهات النص لم تنطبق تمامًا مع ما ذكره الأفعوان المقتبس منه سابقًا، ولكنها لا تنفصل عنها كثيرًا:

"الثورات هي احتفالات المقموعين والمُستَغَّلين. لا يوجد زمن آخر كزمن الثورة، يمكن فيه للجماهير أن تكون في موقف المتقدم بفعالية كخالقين لنظام اجتماعي جديد. في تلك الأزمنة يقدر الناس على فعل المعجزات، إذ حكم عليهم بالمعيار الضيق البسيط للتقدم التدريجي.. سنخون الثورة ونغدر بها إذا لم نستخدم هذه الطاقة الاحتفالية للجماهير وهذا الحماس الثوري لبدء نضال يتسم بالقسوة والتضحية من أجل السير في الطريق المباشر والحاسم".[٢]

بعد اثني عشر عامًا، بدأ أحد المناشفة اليساريين المشاركين في الثورة وأحد الناقدين اللاذعين للينين، كتابة مذكراته:

"الثلاثاء، ١١ فبراير عام ١٩١٧. كنت أجلس في مكتبي في قسم تركستان (بوزارة الزراعة). خلف الحاجز كانت هناك كاتبتان تمارسان النميمة حول صعوبة الحصول على الطعام، والطوابير المزدحمة في الأسواق، وعدم الارتياح بين النساء، ومحاولة اقتحام أحد المخازن.

صاحت إحدى المرأتين: هل تعرفين، إذا سألتني، فهذه بداية للثورة!

لم تكن الفتاتان تفهمان ما الذي تعنيه الثورة، ولا أنا صدقتهم".

---

2 V. I. Lenin, ‘Two Tactics of Social-Democracy in the Democratic Revolution’, 1905,

متاح على: Marxists Internet Archive, marxists.org.

الراوي هنا هو ن. ن سوخانوف، الذي كان محررًا في مجلة "المعاصر"، ثم مساهمًا منتظمًا في مجلة مكسيم جوركي غير الحزبية ليتوبيس (سجل الأحداث). الاقتباس من الصفحة الأولى من الفصل الافتتاحي لمذكراته، "التمهيد". تاريخ سوخانوف لعام ١٩١٧، الذي كُتب ك "سجل شخصي" يعتبر من أفضل الكتب عن الثورة الروسية، واستخدمه تروتسكي ودويتشر (رغم اختلافاتهما) كمرجع لهما، وأيضًا احتفى به المؤرخون من كل المستويات. عندما نقرأ جنبًا إلى جنب تواريخ ١٩١٧ التي كتبها المشاركون في الثورة، والتي كانت لوقت طويل جزءًا من التراث السياسي والأدبي لتيارات اليسار، نجد: مجلدات تروتسكي الثلاثة عن الثورة وسرد فكتور سيرج التصويري للعام الأول، وتلاه سردين صحفيين حين وممتازين من الأمريكيين جون ريد وآلبرت ريس وليامز. ولكن ظل المؤرخون يفضلون عمل سوخانوف بسبب التفاصيل الرائعة التي يحتويها. نُشر الكتاب لأول مرة في موسكو عام ١٩٢٢، وظل متداولًا لأكثر من عقد على الرغم من إشاراته الوقحة للينين ("أناركي ودكتاتور") وتروتسكي ("متكبر ومتعجرف") وستالين ("أشبه بلطخة رمادية، يظهر باهتًا من آن لآخر ولا يترك أثرًا. حقيقةً لا يوجد شيء زائد يمكن أن يقال عنه"). أساء التقدير كثيرًا في هذه الملحوظة ودفع ثمنها. اتُهم بـ "التخريب" عام ١٩٤٠، وأُعدم.

في أيامنا، تكون نقطة انطلاق المؤرخين الرجعيين الرائجين (رائجين لأنهم رجعيون)، هي كلام الفاشي الإيطالي كورتسيو مالابارته، الذي اعتبر الثورة انقلابًا بلشفيًا، وانتصارًا للتكنيك لا السياسة، وعملية حظت بدعم شعبي محدود، أو لم تحظ بدعم شعبي على الإطلاق. عادة ما يصوِّرون زعيمها الرئيسي، لينين، على أنه دكتاتور بالفطرة. وبالإضافة إلى هذا القدر من التحليل التاريخي، يمكن لنا أن نضيف محدث النعمة الروسي البارز، الجنرال دميتري فولكوجونوف، الذي نفترض أن غرضه الأساسي

كان الحصول على مكسب سريع.[٣] وبالمقارنة بهذا الجمع الجامح، فالسيرة التي كتبها روبرت سرفيس (وإن لم يكن ملحقه من ضمنها) وكتابات ديفيد شوب، وس. أ. أوتيتشين وآخرين، تعتبر نماذج لسداد الرأي.

غزيرة هي الأدبيات المكتوبة عن الثورة الروسية. آمل أن يجد القراء المهتمون الكتب التي يحتاجونها، وليس الهدف من هذا الفصل أن يكون بديلًا عنها، إنما الهدف هو دراسة كيف واجه لينين المعضلات والتناقضات التي طرحتها انتفاضة فبراير والأزمة السياسية التي أدت إليها، وأن ننظر عن قرب إلى الشهور الثمانية الحاسمة التي كان عصيان أكتوبر ذروتها. في تلك الشهور سيصوغ لينين ويكمل نصين، مرتبطين ببعضهما ولكنهما مختلفين في طابعهما. كانت "أطروحات أبريل" دعوة للفعل وللنظام، موجهة للحزب البلشفي، الذي كانت قيادته تنجرف بعيدًا. بعد ذلك وفي عشية أكتوبر، أكمل لينين تقريبًا "الدولة والثورة"، وهو نص بدأ كتابته عام ١٩١٦ ومثّل قمة إنجازاته السياسية النظرية، وفيه يتحدث بدون تحفظ عما يعنيه المستقبل الشيوعي وما يحتاجه. استدعى هذا النموذج كميونة باريس، ولكنه ركز على تحقيق مِلكية اجتماعية عالمية معتمدة على الديمقراطية الشاملة، ونهاية الدولة والقانون والعقاب والقسمة الاشتراكية للعمل.

وفي إشارة أكثر تماسكًا نجد شيئًا مذهلًا بالقدر نفسه في النص. وهو أنه لا توجد إشارة واحدة في صفحاته عن الاختلاف بين روسيا وأوروبا الغربية، وهي الفكرة التي تكررت باستمرار في كتابات لينين السابقة. أُقصي هذا الموضوع لأن رؤية لينين في هذا الوقت كانت متعلقة على وجه التحديد بآلة الدولة: لأنها نظمت وقادت عنف الطبقات الحاكمة في الوطن وخارجه، ومن الأمور الأساسية لأي ثورة هي أن تستولي على الدولة

---

٣ أثناء زيارته إلى لندن، زار فولكوجونوف تامارا، أرملة إيزاك دويتشر، وانحنى وقبل يدها وقال: "كان زوجك مصدر إلهام لنا جميعًا". فلم تجب.

وتدمرها من خلال العنف، بغض النظر عن كل الاختلافات الأخرى. لماذا؟ لأنه في المرحلة الأخيرة يحدد تعقيد الدولة على الدوام وظيفتها القاهرة، بدون هذا الفهم لن تكون الثورة ممكنة. انتصار الثورة على الدولة هو الموضوع الذي عاد إليه لينين في سنواته الأخيرة، وهو يعد لخريطة توازن فكرية لإخفاقاتها.

ما كانت عليه الظروف المادية، وبعضها وُصف بالتفصيل في الفصول السابقة، جعل الثورة ممكنة، وأضفى شكلًا على الحزب البلشفي -الحزب الوحيد من نوعه الذي ظهر منذ الأممية الثانية- وكان له أثر هائل على القرن العشرين، وغيّر سياسات العالم بأشكال لم يكن من الممكن تخيلها؟ ما هي الشروط القبلية التي تجعل الثورة ممكنة؟

زادت الحرب العالمية الأولى من سوء الوضع. من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٦، فقدت روسيا القيصرية كمًّا من الجنود يساوي ما فقدته بريطانيا على مدار سنوات الصراع الأربع، وأكثر مما تحملته الإمبراطورية النمساوية والمجرية وإيطاليا مع نهاية الحرب. مع حلول عام ١٩١٦، مات حوالي مليون روسي على الجبهة الشرقية، تضاعفت الكارثة بسبب ضعف الحصاد في ذلك العام، والذي رجع السبب فيه بشكل كبير إلى تجنيد الفلاحين في الجيش بأعداد كبيرة، أدى هذا إلى ظروف أقرب للمجاعة في الوطن، هذا الذي تفاقم بسبب اضطراب نظام النقل، وذلك أيضًا بسبب الحرب.

طبقة النبلاء، التي كانت حتى الآن أساس الأوتوقراطية، أدركت ببطء أنها لن تستطيع أن تحكم بنفس الأسلوب فيما بعد، ولكن لم يكن لديها برنامج واقعي لأي إصلاحات بنيوية. حدث التفسخ سريعًا جدًا، وأثناء فزعهم انقلبوا مع أباطرة الصناعة على المَلَكية، وكانت المَلَكية تتحلل من داخلها. شنوا حملة شعواء، واتهموا البلاط بكونه متساهلًا مع الألمان

وخططوا، بدعم من الدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين في العاصمة، انقلابًا عسكريًا سريعًا ضد القيصر حتى يمكن للحرب أن تستمر رغم كل شيء.

كانت روسيا تختنق من نشيجها، وتحول ذلك سريعًا إلى الغضب. وكما تنبأت المرأتان العاملتان في مكتب سوخانوف، كانت هناك ثورة تقترب. وصف لينين الحرب باعتبارها "مدير مسرح عظيم" للثورة. كتب تروتسكي: "الحرب الإمبريالية شحذت حدود كل التناقضات، أخرجت الجماهير الرجعية من جمودها، وبالتالي أعدت لكارثة عظيمة المدى".

النضال الذي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قادته النساء والرجال الذين أدركوا تمامًا أن الخلخلة الثورية للقيصرية شرط ضروري للتنمية الاقتصادية والثقافية. ولكن القوى التي كانوا يحركونها لحل هذه المشكلة أثبتت أنها لا تتمتع بالكفاءة. كانت البرجوازية الصاعدة متخوفة من كل أحاديث الثورة. حاولت الإنتلجنسيا أن ترفع وعي الفلاحين، أن تحشدهم من أجل المهمة العظيمة القادمة. كان أملهم أن دعوة الشعب ستقنع الفلاحين (الموجيك) أن يعمموا بؤسهم الخاص وأهدافهم. كان رد الفعل محدودًا. ووسط يأسهم، استعانت الإنتلجنسيا الروسية بالديناميت بدلًا من الفلاحين، واحترق جيل كامل بسبب هذا النضال.

أثناء ثورة عام ١٩٠٥، جرت الانتفاضات الكبرى في المناطق الإمبريالية بروسيا القيصرية. اجتمع القمع الوطني مع الطبقي ليؤدي إلى مقاومة قزَّمَت الأحداث في موسكو وسان بطرسبرج. هياج الفلاحين اللاتفيين والجورجيين تطلب إرسال كتائب قيصرية مسلحة جيدًا لقمع الثورات. كان الأمر مختلفًا عام ١٩١٧. كانت روسيا تحاول مجاراة أوروبا الغربية، وازدهرت الصناعة. كانت المصانع الضخمة موجودة في بتروجراد وموسكو ودونيتس والقوقاز، كانت ظروف العمل والأجور بشعة. حجم المصانع كان يعني أنه لا يوجد نمو منظم سواء للبروليتاريا أو سادتها. ازداد

عدد الأولون بشكل خارج عن السيطرة، وكان الأخيرون محدودين في عددهم وبالتالي ضعاف اجتماعيًا وسياسيًا. لهذا السبب لم يقدروا على أن يفصلوا أنفسهم عن الأرستقراطية، التي أقصتهم عن دوائر السلطة الداخلية حتى صار الوقت متأخرًا جدًا على الطرفين. أما الرأسماليون الروس المعتمدون بشكل كبير على قروض الدولة وعقودها، والذين يساعدهم ويقيدهم المستثمرون الأجانب (وهم فرنسيون في الأساس)، فكانوا يتوددون للبلاط باستمرار، ويمولون للقضية المحافظة (بول ميليوكوف من الديمقراطيين الدستوريين، أو الكاديت، كان مفضلًا لهم بشكل خاص)، بينما كانوا يستغلون عمالهم بشكل وحشي.



ثورة فبراير: الجنود والعمال والرجال والنساء في حالة إخاء.

ثورة فبراير، التي دمرت صرح القيصرية، كانت ثورة عفوية، انتفاضة رئيسية لجماهير بتروجراد، تصدَّرها العمال والجنود. كانت رد فعل على أزمة شاملة، أشعلها نقص الخبز الشديد في المدينة الذي صاحبه إضراب عمال بوتيلوف من أجل زيادة في الأجر بنسبة ٥٠٪. كان رد الفعل المميت للمُلاك هو الإغلاق. أدى هذا لتسريح ٣٠ ألف عامل

خرجوا في مسيرة في الأحياء البروليتارية، ونجحوا في دعوة العمال الآخرين إلى الانضمام إليهم. أُغلقت المصانع، وبدأ إضراب عام. وفي ٢٥ فبراير، سارت الجماهير، في مسيرات مختلفة إلى مركز المدينة كالجداول التي تصب في النهر. وفي غضون ساعة، احتُلت الميادين.

تصرف البلاط بالطريقة الوحيدة التي يعرفها، أمر القيصر قادة المعسكر أن يسحقوا الانتفاضة مهما كان الثمن. في البداية أذعن الجنود لتلك الأوامر، ولكن المذبحة الناتجة عنها فجرت مجموعة من التمردات بداخل الجيش. وصلنا إلى النقطة الحرجة. فقدت الجماهير زخمها وعصي الجنود الأوامر في الداخل وتهربوا من الجبهة بأعداد متزايدة. النتيجة كانت السمة المُحَدِّدة لأي أزمة ما قبل ثورية، طالب المحرضون بـ "الخبز والسلام"، واجهوا الجنود بالكلمات، دعوهم إلى الانضمام للثورة. انتشر النفور الذي أدى إليه إطلاق النار في كل الثكنات. أقلية كبيرة ونشطة مكونة من ١٦٠ ألف جندي انضمت للانتفاضة، ومعظم الآخرين تبعوهم. مع حلول الليل، انسحبت حكومة القيصر من المدينة. صار العمال، منهم العديد من النساء والجنود والطلبة والمثقفين، سادة العاصمة.

حتى جنود فوج بافلوفسكي أوضحوا لضباطهم أنهم لن يطلقوا النار على العمال ولن يتوجهوا إلى الجبهة، أقيمت وليمة سخية في القصر المهيب للمليونير جوتشكوف، حضرتها قوى المحافظين العليا: ميليوكوف، الزعيم الأساسي والمُنَظِّر لليمين، وبعض الجنرالات المهتزين الخائفين من تفاقم الأمور ونبلاء متنوعين. اتفقوا على أنه لم يعد من الممكن الإبقاء على القيصر. أرسلوا وفدًا ليخبر نيكولاي رومانوف بهذه الحقيقة. وبعد ثلاثة أيام تنازل عن العرش. احتاج الأمر لانتفاضة جماهيرية عفوية، لم تتوقعها أي جماعة سياسية، وثمانية أيام لتُكتَب نهاية الإقطاع والدولة المستبدة الضعيفة في روسيا.

حاول سياسيو الدوما غير الجديرين بالثقة إنقاذ الموقف عن طريق إنشاء لجنة، ولكن هنا ثبتت أهمية خبرة الجماهير من عام ١٩٠٥؛ أول فعل سياسي تلا مغادرة القيصر كان عَقْد سوفييتات للعمال والجنود أعلنت على الفور سيطرتها على الموقف. في ١ مارس عام ١٩١٧، أصدرت سوفييت بتروجراد القرار رقم ١: كل وحدات الجيوش لا بد أن تُبقي على أسلحتها، وتنتخب ممثلين للسوفييت وتستخدم تلك الحقوق السياسية إلى النهاية. في إحدى الضربات، أنهت السوفييت أي إمكانية واقعية للدولة البرجوازية ما بعد الإقطاعية التقليدية من الصعود. انتقل الاحتكار المشروع للعنف بأمر شعبي إلى السوفييتات. حتى أقصى تعبير عن العفوية الثورية كان له حدوده. كيف ستنعكس هذه القفزة المؤسسية المذهلة على السياسة؟

لم تكن هناك قيادة تملك إستراتيجية للمضي قُدمًا. في خلال الأيام الثمانية الحاسمة، ضم الحزب البلشفي مجموعة صغيرة من العسكريين قادهم شليابنيكوف. سيطر المناشفة والاشتراكيون الثوريون بسهولة على سوفييت بتروجراد، ولكنهم كانوا غير قادرين على تشكيل حكومة سوفيتية بأنفسهم وخائفين من ذلك، توجهوا صاغرين إلى جماعة من الوجهاء البرجوازيين، وهم سياسيون متفاهمون في الدوما، كانوا في الأساس قد انضموا إلى المعارضة تحديدًا كجزء من حملة معادية للبلاط في عام ١٩١٦. خولت السوفييت لهؤلاء السادة مهمة تشكيل حكومة مؤقتة، فظهر مخلوق ضعيف ومريض منذ البداية. الحكومة المكونة من سياسيين لا يمثلون أحدًا وغير الجديرين بالثقة، لم يمثلوا لا القدامى ولا الجدد. الإضافة التالية لمناشفة جدد ووزراء اشتراكيين ثوريين لم يفرق كثيرًا في تغيير التوازن السياسي. الوزراء لم يفعلوا شيئًا سوى أنهم أطالوا أمد السياسات القديمة: استمرار الحرب، لا إصلاحات زراعية، وقمع مستمر للقوميات. Plus ça change، لم يتغير شيئًا.

كان المنفيون الثوريون الروس منتشرين في كل المدن السويسرية. كان ينضم إليهم نشطاء ألمان وإيطاليون مناهضون للحرب. نظمت جماعة

اشتراكية شابة في زيوريخ لقاء في ٢٢ يناير عام ١٩١٧ بمنزل الشعب، حيث ألقى لينين محاضرة عن ثورة عام ١٩٠٥. تحدث عن نقطة أساسية، وتنبأ تنبؤًا أمينًا رغم أنه خاطئ. النقطة الأولى كانت القطيعة الكاملة مع أرثوذوكسية حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، التي اعتنقها الفصيلان، بطريقتين مختلفين، باستثناء تروتسكي. ثانيًا، ذكر لينين الشباب أنه لن يكون في روسيا ثورة من مرحلتين، أولًا مرحلة برجوازية ثم مرحلة بروليتارية. أعلن قائلًا:

"بلا شك فهذه الثورة المقبلة لا يمكن إلا أن تكون ثورة بروليتارية، وبالمعنى الأعمق للكلمة: ستكون ثورة اشتراكية بروليتارية حتى في مضمونها. هذه الثورة القادمة ستظهر مستوى أكثر عمقًا... فإن المعارك الطاحنة وحدها، والحروب الأهلية وحدها، هي القادرة على تحرير الإنسانية من نير رأس المال".

لم يستطع التنبؤ بموعد حدوث هذه الثورة، وأنهى كلماته بلهجة آسفة: "نحن من الجيل الأكبر، ربما لن نحيا لنشهد المعارك الحاسمة لهذه الثورة القادمة".[٤]

بعد عدة أسابيع، اندفع الثوري البولندي برونسكي إلى غرفة لينين وكروبسكايا المستأجرة في ١٢ شارع شبيجلجاسه حاملًا أخبارًا عن ثورة فبراير، شعرا بالذهول. المهاجرون الآخرون كانوا يطرقون أبوابهما بالفعل، أسرعوا جميعًا إلى أكشاك الصحف عند البحيرة ليتمكن لينين من قراءة الأخبار بنفسه. أشارت كروبسكايا إلى أن "عقله كان يعمل بكثافة". من بين الأشياء الأولى التي فعلها هو أن كتب إلى آلكسندرا كولونتاي، العضوة في اللجنة المركزية البلشفية والموجودة في ستوكهولم. كانت الرسالة بالغة الوضوح: "لن نفعل ذلك مجددًا بين صفوف الأممية الثانية! ليس مجددًا مع

4 Nadezhda Krupskaya, *Memories of Lenin*, London, 1930, p. 286

كاوتسكي! بأي طريقة علينا تبنّي برنامج أكثر ثورية، وتكتيكات أكثر ثورية". ومرة أخرى، تحسبًا من أن لا تقوم لهجة الرسالة الأولى الحادة بتأثيرها كتب: "البروباجندا الثورية، بنفس أسلوبها، والتحريض والنضال من أجل ثورة بروليتارية أممية، والاستيلاء على السلطة من قبل (مناديب سوفييت العمال) لا من قبل أعضاء الكاديت المدعين".

عادت كولونتاي وأبرقت له تطلب تعليمات محددة، أيقظ الطلب لينين، رد قائلًا بأنه لا يريد إساءة تفسير كلماته؛ ما اقترحه هو رؤية إستراتيجية، ولم يكن مُخَطَطًا لفعل مباشر، المطلوب فعله إلى جانب المطالبة البلشفية الموحدة بـ "الأرض والسلام والخبز"، هو صياغة خطط محددة لتسليح الجماهير، أصرَّ على ذلك وكتب لكولونتاي أن عليهم أن "ينتشروا! ويحرضوا طبقات أخرى! ويقوموا بمبادرات جديدة... وأن يثبتوا للشعب أن السلام لن يتحقق إلا بمناديب سوفييت العمال المسلحين". كان يفكر مجددًا في كميونة باريس، هذه المرة لن يتعرضوا للهزيمة بسهولة. ذكر هذا القَدْر في لقاء جرى في ١٨ مارس في مركز للعمال السويسريين لإحياء الذكرى السنوية للكميونة، كان للمحاضرة الحادة والمكثفة أثرها على الجميع. رأى السويسريون فيه الحالم اليوتوبي، ولكن الروس فهموا أنه يتحدث عن الحاضر.

في هذه الأثناء وصلت كولونتاي إلى بتروجراد، لتنقل الأخبار إلى مكتب اللجنة المركزية. كانت قد وصلتهم رسالة واحدة من لينين بشكل غير مباشر: "يا له من عذاب لنا جميعًا أن أنتظر هنا في هذا الوقت". أصروا أن يعود لينين على الفور، بأي طريقة ممكنة.

في سويسرا، عقد لينين لقاء مع كل المنفيين ليناقش أفضل طريقة للعودة. اتفقوا على أن الأولوية الوحيدة هي الوصول إلى بتروجراد في أسرع وقت ممكن. اقترح مارتوف أن يطلبوا من الحكومتين البريطانية والفرنسية رحلة آمنة. سخر كارل راديك من هذا الاقتراح، وذهب إلى أن

طلب الأمان من هذين البلدين سيعني في الحقيقة أن يقال لهم: "من فضلكما دعانا نمر حتى نصل وننهي الحرب، وبالتالي نخفف الضغط عن الألمان ونجعل تركيزهم منصب عليكما". تراجع مارتوف واقترح ألمانيا، لم تكن هذه فكرة سيئة من وجهة نظر لينين، ولكنه حذر قائلًا إنه يمكن القبض عليهم جميعًا ويُطلق عليهم النار بتهمة الخيانة في لحظة وصولهم بتروجراد. كان الآخرون متوترين وكان ذلك مفهومًا؛ هناك احتمال أن لا يرحمهم التاريخ. ولكن لينين ومارتوف جادلوهم حتى تخلوا عن ترددهم.

في النهاية، اتُفق على أن الطريق الألماني هو الإمكانية الواقعية الوحيدة. أُرسل خطاب رسمي إلى اللجنة التنفيذية للسوفييت طلبًا لدعم الرحلة، ولم يأت رد. كان آلكسندر هلفاند (بارفوس)، المتعاطف الألماني مع الاشتراكية الديمقراطية الروسية منذ زمن طويل، والذي ساعد على نشر "إسكرا" في سنواتها الأولى، هو الوسيط الممكن الوحيد. هل كان باستطاعتهم الوثوق به؟

كان هلفاند يعيش في ضاحية شفابينج بميونيخ، حيث قضى لينين شهوره الأولى بالمنفى عام ١٩٠٢. في ذلك الوقت كان الاثنان يلتقيان بشكل شبه منتظم، ومن آن لآخر كانت روزا لوكسمبورج تمر بهما لتبادُل الحديث. في ذلك الوقت كان لينين يحرر "إسكرا" مع مارتوف وآخرين. بعد ذلك أنغمس هلفاند في مشروعات أعمال خاصة وراجت عنه سمعة في التحايل، بعدها تجاهله لينين، وأيضًا تروتسكي، الذي كان أكثر قربًا من هلفاند، قطع علاقته به وتبرأ منه قائلاً: "فالستاف[1]... الذي نضعه الآن في قائمة المرضى السياسيين".

ظل الآخرون على تواصل معه، وعندما اتصلوا به وافق هلفاند على ترتيب لقاء في شارع فلهلمشتراس مع أحد معارفه القدامى، وكان يدعى أرثر زيمرمان ـ وكان موظفًا كبيرًا في وزارة الخارجية الألمانية. في ديسمبر عام

١٩١٤، تنبأ زيمرمان بأن الحرب "لن تنتهي في الشهور القليلة القادمة"، على الرغم من تباهي القيصر والقيادة العليا، وعندما سُئل عن نصيحته أعد زيمرمان مذكرة استخباراتية بعنوان "التثوير"، وكان الهدف منها تشجيع المعارضة في مناطق مختلفة في الأراضي القيصرية وبالتالي إضعاف المركز، مجبرًا القيصر وقواده على القيام بسلام أحادي. لا بد أن زيارة هلفاند في مارس عام ١٩١٧ بدت كهدية من السماء. كانت الحرب في حالة جمود وكانت الخسائر الألمانية تتصاعد، كانوا بحاجة إلى مَخرَج.

كان زيمرمان على دراية كبيرة بالاشتراكية الديمقراطية الروسية، يعرف انشقاقاتها ونقاط ضعفها، ودَرَس التقارير المتعلقة بثورة فبراير بدقة شديدة، اتضح له تمامًا أن الشخصية الرئيسية بين جميع المنفيين هي لينين، هو الشخص الوحيد القادر على دفع الثورة للأمام، أكد له هلفاند أن كل هذا لن يمثل مشكلة. توجه زيمرمان إلى القصر وأخبر القيصر بالوضع، وشرح بالتفصيل الشديد ما يستلزمه ذلك: رحلة مجانية للمنفيين الثوريين الروس من سويسرا، مرورًا بألمانيا، إلى ساحل البلطيق. أرسل القيصر موجز الخطة إلى إمبراطور فيينا، الذي عارض ذلك بشدة، إذ رأى المسألة خطيرة جدًا ومن الممكن أن تؤدي إلى نتيجة عكسية، ولكن القيصر أصرَّ وكان مستعدًا للمخاطرة،أخبر زيمرمان أنه حتى لو نجح هذا المجنون، فبعدما ننتصر في الحرب سوف نسحقه. كان رد فعل لينين على هذه الملاحظة فوريًا: الثورة الألمانية تقترب، وسوف تُنهي كل الحسابات مع آل هوهنتسولرن. بعد مفاوضات متواصلة بدأ لينين والمنفيون رحلتهم الطويلة إلى الوطن، عدا الزعيم المنشفي اليساري جوليوس مارتوف، وبشكل مثير للعجب كان هو من أقنع المشككين الآخرين بأن يخوضوا المغامرة، في حين رفض في اللحظة الأخيرة أن يسافر حتى أمَّن السوفييت في بتروجراد الرحلة. هكذا نعرف أنه عندما أطلق عليه تروتسكي لقب "هاملت الاشتراكية الديمقراطية" كان ذلك لسبب وجيه.



في الطريق إلى موسكو، أثناء رحلته في "القطار المغلق"، تلقى لينين والمنفيون الآخرون ترحيباً حاراً من الاشتراكيين الديمقراطيين في ستوكهولم.

بينما كان "القطار المغلق" يمضي وهو يجرُّ عربته ويطلق بخاره في ألمانيا، كان يتضح أمام الجماهير في روسيا عدم نفع الحكومة المؤقتة، والعجز الذي أصابت به نفسها. يصف سوخانوف أحد اللقاءات مع رئيس الحكومة:

"ذكّرت كرينسكي بمقرات البوليس السري.. بدا أنه لم يتم الاستيلاء عليها... اقترح كرينسكي أن أقوم بنفسي بالاستيلاء على كل الأرشيفات وتأمينها. كان يتحدث وكأن هناك قوات ووسائل نقل متاحة للقيام بذلك، ولكني وجدت أن الأمر ليس كذلك".

ولكن ماذا عن بول ميليوكوف، الزعيم العظيم للبرجوازية الروسية؟ كتب سوخانوف:

"هو أيضًا وجد نفسه في حالة جمود. مظهره بالكامل أشار بوضوح أنه ليس لديه شيء ليفعله، وأنه لا يعرف على الإطلاق ما يفعله. صعد إليه بعض الناس، وبدأوا يتحدثون إليه، وطرحوا عليه الأسئلة وزودوه

بالمعلومات. تبين أن إجاباته متحفظة وغامضة، تركوه، ومجددًا أخذ يسير وحده جيئة وذهابًا".

إخفاق ميليوكوف في فعل أي شيء أطلق العنان للصحافة البلشفية وأدى لتحول المزيد من قطاعات الشعب إلى الراديكالية. وقبل كل شيء، كان إخفاق الحكومة في إنهاء الحرب هو ما كلفها حياتها السياسية. كان الجيش القيصري القديم على حافة الانهيار، يتعرض للهجوم العسكري من الرايخسفير (جيش الدفاع الملكي الألماني)، والهجوم السياسي بسبب ثقل البروباجندا الثورية التي انتشرت من خلال تيار من المحرضين البلاشفة (معظمهم كان يرتدي الزي العسكري). تهرب الجنود بأعداد هائلة، وتضاعفت عمليات الاستيلاء على الأراضي في الريف، وانعكست الشعبية التي حظت بها مطالب البلاشفة على تنامي قوة الحزب؛ فبعد أن كانوا ٣٠ ألف عضو في بداية مارس، صاروا يجندون العشرات من النشطاء الثوريين الجدد بصورة يومية، ملأوا الفراغ، ووصل لينين إلى محطة فنلندا، وقرر أن الوقت قد حان لإسراع الخطى. كانت لحظة تاريخية، حتى سوخانوف وصفها بهذا الوصف، هو الذي شهد الترحيب بالزعيم البلشفي في وطنه، بسبب منصبه الرسمي كعضو في اللجنة التنفيذية للسوفييت. وعلى الرغم من نقده الحاد للينين، شعر مؤرخ الثورة بالذهول منه، وأُعجِب بوضوح أهدافه منذ اللحظة التي وطأ فيها التراب الروسي. رحب بلينين رئيس السوفييت المنشفي الجورجي نيكولاي تشخيدزه، الذي قال:

"أيها الرفيق لينين، باسم سوفييت بتروجراد وباسم الثورة بأكملها نرحب بك في روسيا... ولكننا نعتقد أن المهمة الأساسية للديمقراطية الثورية الآن هي الدفاع عن الثورة من أي زحف داخلي كان أو خارجي... لا نسعى إلى الانقسام... ولكن إلى تقارب الصفوف الديمقراطية. نأمل أن تسعى لتحقيق تلك الأهداف معنا".

شعر سوخانوف أن هذا "الترحيب" يحتوي على استفزاز. أدار لينين ظهره حرفيًا لتشخيدزه وتحدث إلى الآخرين الذين اجتمعوا في غرفة الانتظار الإمبريالية في محطة فنلندا. سيكرر ذلك الخطاب فوق المدرعة التي نقلته من المحطة إلى مقر قيادة البلاشفة. بدأ حديثه قائلًا:

"أيها الرفاق والجنود والبحارة والعمال الأعزاء! أنا سعيد لأحيّي في أشخاصكم الثورة الروسية المنتصرة، وأحييكم باعتباركم طليعة الجيش البروليتاري في أنحاء العالم... الحرب الإمبريالية القرصانية هي بداية حرب أهلية في أنحاء أوروبا. إن الساعة ليست بعيدة للغاية حين سترفع الشعوب أسلحتها ضد مستغليها الرأسماليين... ألمانيا تغلي... يمكن في أي يوم أن تتحطم الرأسمالية الأوروبية. بدأت الثورة الروسية التي حققتموها عهدًا جديدًا. لتحيا الثورة الاشتراكية العالمية".

كان هذا بيانًا شاملًا. كان على الثورة أن تكون اشتراكية في طابعها، وأممية في منظورها، ويجري النضال باسمها في كل أنحاء القارة. تُحارَب الحرب ضد كل الإمبرياليات من الداخل والخارج. عندما استمع إليه، شعر سوخانوف بالذهول. وسجل في مفكرته:

"فجأة، وأمام أعيننا جميعًا، ونحن منغمسون كلية في الروتين المضجر للثورة، ظهر لنا ضوء مشرق مُشِّع غريب، محى كل شيء (عشنا عليه). صَوْت لينين، القادم مباشرة من القطار، أقحم في الثورة نغمة كنا متأكدين أنها ليست متناقضة، بل هي جديدة وقاسية وتصم الآذان لدرجة ما".

بالإضافة إلى ذلك، اعتبر سوخانوف أن "لينين كان على حق لألف مرة"، ولكن هذا لم يكن يكفي. كان كلامه شديد التجريد، و"كان علينا أن نفهم كيف ننتفع من هذه الفكرة عمليًا في سياستنا الثورية". ولكن لهذا السبب كانت الحكومة الثورية ضرورة، كان لينين يفهم ذلك بوضوح

شديد، أما سوخانوف ومناشفته اليساريين وعدة زعملاء بلاشفة فلم يفهموا.

خلافات لينين مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين كانت نظرية وسياسية؛ احتقر سلبيتهم، وازدراهم حين رفضوا *التحرك* أثناء ثورة ١٩٠٥ ، مجادلين بأن أحزاب العمال *ليس لديها* دور لتلعبه والثورة في مرحلتها الديمقراطية. اعتبروا عصيان موسكو الذي قاده البلاشفة مغامرة، ونظرية تروتسكي عن "الثورة المستمرة" انحرافًا يساريًا متطرفًا. ترك تروتسكي المناشفة وأنشأ جريدة، أجبرته الحرب على اللجوء إلى المنفى في نيويورك، كان في طريقه عائدًا إلى الوطن عندما قُبض عليه واعتقله البريطانيون في هاليفاكس بكندا. أفرجوا عنه بناء على طلب السوفييت، ولم تكن لجنة السوفييت التنفيذية على علم بأن أفكار تروتسكي الآن متوازية مع أفكار لينين، لقد كانوا يأملون في العكس.

في عام ١٩١٧، لم يتغير موقف الأغلبية المنشفية والاشتراكيين الثوريين، كانوا راضين بالسيطرة على السوفييت وترك الدولة للحكومة الانتقالية، أي في الحقيقة الكاديت، لأن ما كان يحدث يظل "المرحلة الديمقراطية" من الثورة. تم تجاهل الإخفاقات المدوية لتلك الحكومة، ولم ينضم المناشفة للحكومة ويودّعوا ماضيهم إلا في مايو ١٩١٧ ، إذ أقنعهم الكاديت بأن وجودهم في الحكومة ضروري للحفاظ عما تبقى من الوحدات المقاتلة في الجيش القديم على الجبهة الشرقية. بعض المناشفة اليساريين، يقودهم مارتوف، ومن ضمنهم سوخانوف، عارضوا هذا الانتحار. أما أغلبية المناشفة الذين أُجبروا على المشاركة السياسية، فقد خضعوا للحكومة.



لينين يعرض "اطروحات ابريل".

كان تكتيك لينين مزدوجًا؛ على الجبهة السياسية، دعا للتخلص من الكاديت والحلفاء من الحكومة ("ليسقط الوزراء الرأسماليين العشرة") وانتقال السلطة للأداة الوحيدة للحكم الذاتي التي كانت موجودة في روسيا: (كل السلطة للسوفييتات)، على مستوى آخر أكد مجددًا على الطبيعة المتغيرة للثورة، التي "تنضج الآن"، وتشكلت من "البروليتاريا وأغلبية الفلاحين، وتحديدًا، الفلاحين الفقراء، ضد البرجوازية، وضد حليفها، الرأسمال الأنجلو-فرنسي وضد كيانه الحكومي الذي يرأسه كرينسكي البونابرتي".

كان هذا هو السياق الذي صاغ فيه لينين "أطروحات أبريل" التي دفعت الحزب البلشفي بعد ذلك إلى الثورة الاشتراكية. بخلاف كل الثورات السابقة، كانت هذه الدعوة لحمل السلاح شديدة الوعي ومدبرة بحرص. لم يكن من السهل إقناع زعماء حزبه، وهذه حقيقة تثبت خطأ كل من ينظر

للحزب البلشفي في هذه الحقبة بنفس الطريقة التي صار عليها بعد عشر سنوات من استيلائه على السلطة. كانت "أطروحات أبريل" بمثابة قطيعة حادة مع الأرثوذوكسيات التي وحَّدت سابقًا كل أطياف الاشتراكية الديمقراطية الروسية، وبشكل رئيسي الدوجما التي تقول بأن الثورة ينبغي أن تكون برجوازية ديمقراطية، كما قال ماركس وكما أظهرت الثورتين الإنجليزية والفرنسية، ولكن آراء ماركس لم تكن دوجمائية على الإطلاق في هذه الموضوعات.

قدم لينين "الأطروحات" ثلاث مرات، مرة إلى حزبه، ومرة أمام اجتماع بلشفي-منشفي سري، ثم إلى مؤتمر كل الروس للسوفييت ونواب العمال في ٤ أبريل عام ١٩١٧. كانت الأطروحات نسخة مدونة مما كان يقوله منذ اللحظة التي هبط فيها من القطار في محطة فنلندا؛ كان ينبغي أن تُنتزع روسيا من الحرب الإمبريالية بدون تأجيل، وأن يُشرَح "بالتفصيل والإصرار والصبر" للشعب الذي ظل يؤمن أنها حرب دفاعية لحماية البلد أن هذه ليست الحقيقة، وحدها الحكومة الثورية والمناهضة للرأسمالية هي القادرة على سلام "لا يفرضه العنف". تغيرت طبيعة الثورة، جزئيًا كنتيجة للحرب، وجزئيًا بسبب التطورات الداخلية. وضعت فبراير السلطة في أيدي البرجوازية بدعم السوفييت. كان على ذلك أن ينتهي، وكان ينبغي أن تتشكل حكومة بروليتارية معتمدة على السوفييتات. لأن البلاشفة كانوا أقلية في السوفييتات الأساسية، كان عليهم أن ينتظروا وأن يقنعوا الناس من خلال البروباجندا والتحريض، ولكن التاريخ كان في صفهم. كانت السوفييتات هي "*الشكل الممكن* الوحيد للحكومة الثورية". الأفعال الأولى للحكومة الثورية ستكون مصادرة الملكيات، وتوزيع السلع تحت سيطرة السوفييت. جادل لينين بأن هذا لن يشكل الاشتراكية، ولكنه وضع بالفعل أسس الدولة-الكميونة لخلق مساحة يمكن من خلالها أن يتحقق الانتقال إلى الاشتراكية، ودافع كل من ماركس وأنجلز عن الدولة-الكميونة. واصل

لينين بأن أصرَّ على إنشاء أممية جديدة، طالما أن روزا لوكسمبورج نفسها أدانت الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في ٤ أغسطس عام ١٩١٤ واعتبرته "جثة عفنة".

كانت الإدانات تصم الآذان: كان "فاسدًا" ومنفصلًا عن الواقع الروسي، كان "مجرمًا" (هذه الدُرَّة جاءت من آكسلرود، الذي زامله لوقت طويل في "إسكرا")، واحتل العرش الذي أخلاه باكونين وهكذا. قادة البلاشفة كانوا متحفظين بشكل أكبر، ولكنهم كانوا غاضبين بالقدر نفسه في أوساطهم الخاصة. استعبدتهم جميعًا الأرثوذوكسية إلى درجة جعلتهم جميعًا يكررون كالببغاوات ويرددون كالرهبان العبارة الشهيرة لماركس:

"لن يفنى أي نظام اجتماعي على الإطلاق قبل أن تتطور كل القوى المنتجة بقدر المساحة الموجودة بداخلها؛ ولن تظهر علاقات جديدة وأعلى للإنتاج على الإطلاق قبل أن تنضج الظروف المادية لوجودها في رحم المجتمع القديم نفسه".

إذا كانت العلوم الطبية أكثر تقدمًا في عصر ماركس، كان من الممكن أن يتحدث عن تلك الحالات الاستثنائية التي يمكن فيها أن يتسبب الحمل العادي في إيذاء الطفل والأم، ويكون فيه تعجيل القابلة بالولادة أمرًا ضروريًا، وكان بإمكانه أن يستمتع باللعب بكلمة "قيصرية".

بعد يومين من صاعقة لينين، اعتمدت الصحيفة المنشفية "جريدة العمال" على ماركس مجددًا واتهمت اللذين "لا يأبهون بتلك الحدود" (التي وضعها ماركس) بأنهم يساعدون الثورة المضادة:

"جاء لينين إلى وسطنا من أجل أن يحوِّل هذا العمل إلى الرجعية. بعد خطابه، نستطيع أن نصرح أن كل نجاح هام للينين سيكون نجاحًا للرجعية، وكل النضال ضد الطموحات والمكائد الثورية المضادة سيكون بلا جدوى

حتى نؤمِّن جناحنا اليساري، حتى نكون محصنين سياسيًا، بصد حاسم للتيار الذي يقوده لينين. الخطر الأساسي موجود في اليسار".

ما لم يستوعبه كل منافسيه هو أن لينين لم يغير آراءه في مسألة إذا كانت القوة المنتجة وصلت للمستوى النهائي الذي وصفه ماركس أم لا. الحرب الإمبريالية التي ما زالت طاحنة وتدمر أوروبا القارية أقنعته أن الثورة لا يمكن أن تقتصر على بلد واحد، وكل شيء قاله عام ١٩١٧ كان متمحورًا حول هذه الحقيقة الجديدة؛ العدو هو الرأسمالية المالية. ما نَفْع بتروجراد بدون برلين وباريس؟ كان على ثورة فبراير أن تصير أكثر عمقًا بالقطيعة مع البرجوازيين، وإنهاء حكمهم، وإنهاء الحرب وتوقف سفك الدماء، ودعوة الجنود والبحارة الألمان للعودة إلى ديارهم والقيام بثورتهم. تغير لينين بالفعل، ولكن ليس بالطريقة التي تصورها أعداءه.

عندما قَدَّم لينين "الأطروحات" لأول مرة في اجتماع السوفييت، كانت نصيرته الوحيدة النسوية البلشفية آلكسندرا كولونتاي، لم يقتنع الآخرون، ووقف وحيدًا في مواجهة كل فصائل الاشتراكية الديمقراطية، ومن ضمنها فصيله. تلك الفترة المعروفة والمحرجة إلى حد ما في تاريخ الحزب البلشفي الشاب مُحيت من كتب التاريخ الرسمية اللاحقة، والمفاجئ بشكل أكبر أنها مُحيت من مذكرات كروبسكايا، على الرغم من أنه في حالتها ربما يرجع ذلك إلى الرقابة أو الحذر، أو المزيج من الأمرين. شعر لينين بالغضب حين تلقى أعداد ما بعد فبراير من الجريدة الشرعية الآن "برافدا". نحّى كل من ستالين وكامينيف مولوتوف من تحرير المجلة لكونه شديد الراديكالية وسريع الغضب، لم يكن في الجريدة شيئًا مختلفا كثيرًا عن المواد الموجودة في الصحافة المنشفية. وكان ستالين وكامينيف توافقيين في ذلك الوقت، ولم يكن هذا سرًا؛ كلاهما كان في صف مؤتمر بلشفي منشفي موحد متعلق بالحرب، وذلك في وقت دافع فيه أغلبية القادة المناشفة (وكامينيف نفسه) عن مواصلة نفس الحرب. كانت هذه أول إشارة للحس الغالب على الحزب، وضخامة

المهام التي واجهت لينين عند عودته. ترنَّح من إخفاقات حزبه، كونه عاش منفيًا لفترة طويلة، لم يتمكن من تقدير "حس" الوحدة الذي تواجد بعد عدة أسابيع من الثورة. وحتى أكون منصفًا، لا أعتقد أنه كان سيستولي عليه حس مشابه إذا كان في بتروجراد في ذلك الوقت. ما لم يستطع استيعابه على الإطلاق هو الرغبة الموجودة لدى البلاشفة المعتدلين واليمينيين لإرضاء الحكومة المؤقتة، المكونة من وجهاء الدوما الذين "انتخبتهم" أقلية محدودة للبرلمان القيصري، لم يكن التصويت مسموحًا للأغلبية.

لم يتحسن مزاج لينين حين فحص هويات من شكلوا هذه الحكومة؟ رئيس الوزراء؟ الأمير جيورجي لفوف، الذي يثق فيه ويعتمد عليه اليمين الليبرالي، انتُزع من مجلس محلي وسُلم مهمة قيادة "المرحلة الديمقراطية" من الثورة. بافل (بول) ميليوكوف، وزير الخارجية، وكلب الإرشاد الأيدولوجي الرئيسي للحكومة العمياء والعاجزة، أحاط به ثلاثة رفاق من الكاديت تولوا مناصب صغيرة. وزير الحربية كان آلكسندر جوتشكوف، وهو واحد من أغنى الرأسماليين في البلاد، المنتفخ من المال الذي حصل عليه من الحرب، والذي كان يساعد في توجيه العمليات منذ أغسطس عام ١٩١٤. أما وزير المالية فكان اسمًا مناسبًا بما يكفي، رأسمالي ذو تأثير كبير، وهو ميخائيل تيريشينكو. وكان وزير العدل آلكسندر كرينسكي، ابن مدير مدرسة لينين العجوز في سمبرسك. لم يكن حصول هؤلاء الممثلين الكبار في روسيا البرجوازية على ختم القبول النهائي من القنصل العام للولايات المتحدة في بتروجراد مفاجأة كبيرة لأي شخص. كان اسم القنصل العام هو جون سنودجراس؛ أسرَّ بأفكاره لأوراق السجلات عندما عاد إلى دياره: "ليس بإمكان الشعب الروسي أن يجد في بلاده رجالًا أفضل منهم ليخرجوهم من ظلمات الطغيان... لفوف ورفاقه بالنسبة لروسيا كواشنطن ورفاقه بالنسبة لأمريكا حين صارت أمة".[٥]

---

5 *New York Times*, 25 March 1917.

لم يكن المناشفة والاشتراكيون الثوريون الذين كانوا القادة المنتخبين للسوفييت مهتمين على الإطلاق بتحدي الحكومة المؤقتة: سبب المناشفة كان الأرثوذوكسية الماركسية التي شرحوها كثيرًا، وسبب الاشتراكيين الثوريين هو أنهم وافقوا على المسائل العملية مع المناشفة، وإذا أسقطوا الحكومة، سيمثل ذلك نهاية تعاونهم مع الجنرالات والرأسماليين، مما سيخرب الحرب. عندما وصل مارتوف، أكثر زعيم منشفي يحظى بالاحترام، إلى بتروجراد أخيرًا في شهر مايو، تحدث بقوة لصالح سحب كل الدعم من الحكومة المؤقتة، وأعلن أنه "إما أن تتولى الديمقراطية الثورية مسؤولية الثورة بنفسها، وإما ستفقد قدرتها على التأثير على مصير الثورة".[6] لم يذكر لينين كامينيف وستالين باسميهما، ولكنه لم يتحفظ في إطلاق نقد حاد للبرافدا، التي علقت تحريريًا بأن أطروحات لينين "غير مقبولة لأنها تبدأ من افتراض أن الثورة البرجوازية الديمقراطية انتهت، وتعتمد على التحويل المباشر للثورات إلى ثورة اشتراكية". وبالنسبة للأفكار المتعلقة بأن الحرب ما زال يدافع عنها البلاشفة "المعتدلون" (ومن ضمنهم ريازونوف الأكاديمي)، لم يتردد في كلامه؛ لا تصالُح مع المدافعين عن الحرب: "أظن أنه من الأفضل أن تقف وحيدًا مثل ليبكنشت، وحيدًا في مواجهة مائة وعشرة". لا يمكن التقليل من شأن دور الأفراد في التاريخ.

وَصْف سوخانوف للمشهد الذي جرى في القصر السابق للباليرينا محظية القيصر، كشيسنسكايا، (القصر الذي صار مقرًا للبلاشفة)، عندما

---

6 *Workers' Gazette*, 19 July 1917, p. 3

مقتبس من AlexanderRabinowitch, *The Bolsheviks Come to Power*, New York, 1976 .andLondon, 1979, p. 25

دراسة آلكسندر رابينويتش واحدة من أكثر السرديات تفصيلًا وقيمة عن ثورتي فبراير وأكتوبر. المعلومات الموجودة فيها تحتوي على تفنيدات لجل العبث المكتوب عن طبيعة ثورة أكتوبر وطبيعة الحزب الذي قام بها. كان التحليل جيدًا على وجه الخصوص في توضيح ديناميكية رفع الوعي السياسي الجماهيري في بتروجراد وتقاطعها مع البلاشفة. مزيج العفوية والتنظيم أدى إلى العصيان.

وصل لينين أخيرًا إلى هناك من محطة فنلندا، وألقى عشرات الخطب في طريقه، كان السرد الوحيد لأحد شهود العيان، وبالتالي استخدمه كل المؤرخين اللاحقين للثورة. لم يصل الصحفي اليساري إلى المقر إلا من خلال التمسك بطرف معطف زعيم البحارة البلاشفة ثم لاحقًا الأدميرال الأحمر راسكولنيكوف، الصديق "الودود بشكل غير اعتيادي والمخلص والأمين"، الذي كان أيضًا "ثوريًا لا يتزحزح دائمًا وأبدًا"، ولكن للأسف كان "متعصبًا بلشفيًا". عرفه لينين وتصافحا، ولكن لا بد أنه تعجب كيف استطاع أن يتسلل إلى لقاء حزبي مغلق. ولكن يسرُّنا كونه تمكن من ذلك، لأنه ترك لنا سردًا ساحرًا.

بعد سلسلة من خطابات الترحيب ذات الأهمية المحدودة، ومن ضمنها خطاب لكامينيف، الذي كان ارتباكه محسوسًا، جاء رد لينين الذي امتد لساعتين. وَصْف سوخانوف للخطاب حافظ على قوته حتى حينما يُقرأ اليوم:

"لن أنسى أبدًا هذا الخطاب المدوي، الذي لم يذهلني ويعجبني وحدي، أنا المهرطق الذي كان موجودًا بالصدفة، ولكنه أعجب كل المؤمنين الحقيقيين... بدا وكأن كل العناصر صعدت من مكامنها، وروح الهدم الكلي التي لا تعرف عوائق ولا شكوك، لا صعوبات ولا حسابات إنسانية، أخذت تحلق حول غرفة استقبال كشيسنسكايا، فوق رؤوس التلاميذ المسحورين".

بالنسبة لسوخانوف، لم يكن لينين أبدًا خطيبًا كلاسيكيًا، ذا "عبارات ماهرة... وصور مضيئة... ولطف جذاب... أو بديهة حاضرة"، ولكن بلا شك فهو "خطيب ذو تأثير وقوة، يخفف الأنساق المعقدة إلى عناصر أبسط ومتاحة بشكل أعم، ويطرقها على رأس مستمعيه ويطرقها ويطرقها حتى يقعون أسرى له". الطريقة الأبسط لشرح ذلك ستكون أن لينين يسيطر عليهم من خلال العقل وليس العواطف. لقد وصل في الوقت المناسب،

حين كان مؤتمر الحزب البلشفي يجري. في اليوم التالي لوصوله، دخل المعركة بسؤال: "لماذا لم تستولوا على السلطة؟" تلعثم رفاقه وتعثروا، مصرحين عن أسباب لم تختلف عن أسباب المناشفة. أخبرهم لينين أن "هذا هذيان". سيكون من الأمين أكثر قول هذا:

"السبب هو أن العمال ليسوا واعين بما يكفي، وليسوا منظمين بما يكفي. هذا هو ما علينا أن نعرفه. القوة المادية كانت في أيدي البروليتاريا، ولكن البرجوازية كنت واعية ومستعدة، هذه هي الحقيقة القاسية، ومن الضروري أن نعرف ذلك صراحة".

لم تكن كتابته مختلفة عن ذلك. الأكاديمي الأدبي الروسي الذي كان يحظى باحترام شديد في ذلك الوقت، د. س. ميرسكي، أشار إلى أنه "لم يُدخل في كتابته أي شيء لم يكن ملائمًا بصرامة لحجته. لا يوجد أثر لكتابة جميلة في العشرين مجلدًا الذين يشكلون الأعمال الكاملة للينين".[7] كراهيته للبلاغة والعبارات المنمقة كانت جزءاً من كراهيته للمبالغة، لـ "الأسلوب اليساري"، وكان هذا معروفًا لدى العديد من رفاقه الذي لم يسلموا من ازدرائه. يكمل ميرسكي: "ربما كان الكاتب الثوري الوحيد الذي لم يقل أبدًا أكثر مما يعنيه. وإذا جعله هذا يظل أقوى الكتاب الثوريين، فهذا لأنه كان يعني الكثير". واصل الناقد حديثه وقارنه بتولستوي؛ كتب الاثنان "أكثر أعمال النثر ملائمة في اللغة الروسية"، ولكن نثر لينين "الأشبه إلى حد كبير بنثر الرجل الشغِّيل"، اختلف عن نثر الروائي بالحس التالي: "لم يكن أسلوب لينين أدبيًا على الإطلاق... بين البساطة المدروسة والجمالية لتولستوي، والبساطة العملية للينين... نجد فارقًا عظيمًا بحجم الفارق بين

7 أعتقد أن كلامه صحيح في المجمل، ولكن هناك استثناءات، منها ما نضيفه في هذا الكتاب كخاتمة. وعندما تحدث ميرسكي عن تولستوي أيضًا تجاهل التخاريف الغامضة والمرتبكة التي تخللت "الحرب والسلام" والتي أضعفت الرواية فنيًا.

اليخت الأنيق والمحرك الكفء".[8] أحب ميرسكي استخدام لينين للجمل الاعتراضية والهوامش في مقالاته، ونصح القراء الذين يتجاهلونها أن يتحملوا مسؤولية ذلك، لأن "الأضواء المتسارعة يكون لها في بعض الأحيان تكثيف عجيب للفكر، وإيحاءات غير معتادة".

يعترف في الختام بأنه لا يكون من الممكن استيعاب "امتياز لينين غير الأدبي" إلا بعد قضاء بعض الوقت في قراءة أعماله وعدم قراءة شيء آخر بينها. "الصدمة التي تحدث عند الرجوع إلى الكُتَّاب الآخرين، لتجد أسلوبهم فضفاضًا ومبتذلًا وغامضًا ورخيصًا، تجعل المرء يدرك فرادة لينين ككاتب".



لينين متنكرًا في أيام يوليو.

8 D. S. Mirsky, *Lenin*, London, 1932, pp. 24, 25.

تلك المواهب الأدبية-السياسية والخطابية سيتم استغلالها على أكمل وجه، أولًا لدفع حزبه المتحفظ إلى المسار الجديد الذي صاغه بعناية شديدة في "أطروحات أبريل"، ثم لدفع بلده إلى هذا المسار أيضًا.

خلال تلك الشهور الثمانية الحاسمة، التي تمتعت فيها روسيا بأعلى مستوى من الحرية في تاريخها، تحدثت البلاد عن كل شيء قَمَعُه الخوف للعديد من العقود. من فبراير وحتى أكتوبر كان البلد كله يغلي، وكانت الجدالات تفيض من جماعة إلى أخرى. انضم العابرون ليستمعوا ويعارضوا. كانت روسيا أشبه ببهو واسع للاجتماعات، ولكن الاجتماع كان صاخبًا وفظًا. استغرقت الميادين والمصانع وترسانات السفن ومحطات القطار وأسواق القرى في السياسة. كان الرعد مدويًا، وأصاب الناس بالدوار. تبادل العناق والقبل رجال بوجوه شائكة غير حليقة، هل نام أي أحد في هذه الشهور؟ عادة ما استمع الناس إلى الجنود العائدين من الجبهة بدون أن يقاطعوهم، ومنهم جنود فرنسيون، أحدهم كان جاك سادول، الاشتراكي الذي لم يبرح روسيا وشارك في ثورة أكتوبر.

كان الجيش يفر من جميع الجبهات. في مذكراته متعددة المجلدات، ترك لنا كونستانتين بوستوفسكي، المنتمي للأدب الرفيع وغير المنتمي سياسيًا، تصويرًا موضوعيًا لكرينسكي وهو "يندفع إلى البلاد، ويحاول أن يثبِّتها... ما كان يفتقده من قوة الأفكار والقدرة على الإقناع، حاول تعويضه بالجمل الطنانة، والأداء الدرامي، والتعبيرات الرنانة، ولكن إيماءاته كانت سيئة التوقيت.. كان شخصًا غير قدير ولكنه لا يعي ذلك على الإطلاق". في أحد الأيام رآه بوستوفسكي "بوجهه المنتفخ الشاحب، وجفنيه الحمراوين، وشعره الرمادي القصير" يسب "ويمزق رتبة جندي عجوز ومريض من على كتفيه، لأنه رفض أن يقاتل... وقال له (أيها الجبان! عد إلى الخطوط

الخلفية! لن نطلق عليك النار، سنترك ذلك لضميرك!)... أدار الجنود له ظهورهم وهم يغمغمون ويلعنون".[9]

كان أكتوبر يقترب. وكانت الطبقة العاملة تتجه سريعًا إلى اليسار، ولم يعد ملايين الجنود الفلاحين مستعدين للقتال، شعروا بذلك أثناء حكم القيصر، ولم يغيروا رأيهم بعد أن صارت هناك حكومة جديدة. إذا تغير شيء فهو أنهم أسرعوا من مغادرتهم للجبهة، "مصوتين بأقدامهم" على حد تعبير لينين، ومجبرين الحكومة الجديدة على تقديم وثيقة للحقوق السياسية. كتب ن. د. سوكولوف القرار رقم ١، ولكن كما كتب سوخانوف، أملى معظم صيغة القرار الجنود المحيطون به؛ بالسماح بالانتخاب للجنود العاديين ولجان البحارة في الجيش والبحرية، بدا القرار رقم ١ كشهادة وفاة للجيش الإمبريالي القديم. أي قرار أصدرته اللجنة العسكرية في الدوما (البرلمان القيصري القديم) لن يولى له اهتمام حتى تقره السوفييت، وتقرير توزيع الأسلحة سيقتصر على اللجان المنتخبة لا الضباط، سيحدد "الفلاحون الذين يرتدون الزي العسكري" ما المسموح لـ "مُلاك الأراضي ذوي الزي العسكري". أُلغيت التحية العسكرية، إلى جانب عدم قبول "وقاحة الضباط". ما اعتبرته الحكومة المؤقتة استفزازًا، كان إعلانًا لحرب طبقية بداخل القوات المسلحة كما سيكتشف المشرعون سريعًا. محاولة الحكومة لعرقلة القرار من خلال قرار رقم ٢ الذي قصر الإجراءات على حامية بتروجراد مثّل إخفاقًا تامًا، كان الوقت متأخرًا جدًا على إيقاف المد. على الجبهة الشرقية، بدأ الجنود الروس في التآخي مع أقرانهم الألمان، وتبادلا الهدايا الرمزية وصاحوا: "ألمانيا ليست العدو، العدو في الخلف" *Germani nicht Feind. Deind hinten*، ما أثار الخوف في

9 Konstantin Paustovsky, *Story of a Life: In That Dawn*, trs. ManyaHarari and Michael Duncan, London, 196

القيادات الروسية والألمانية على حد سواء.[10] على الجبهة الغربية أيضًا، رفع اللواء الروسي شعار: "لتسقط الحرب!" وقرر انتخاب لجنته الخاصة وأعلن على الفور تضامنه مع الثورة. عوقب بعض الجنود بنقلهم إلى شمال أفريقيا.

كان الوعي بكل هذا هو ما قاد لينين ليصوغ "أطروحات أبريل"، لا كونه "بعيدًا" كما تخيل البلاشفة المحافظون في الداخل. اتفق جميع المؤرخين الرئيسيين على هذه الحقيقة. كان معظم القادة في البلاد يميلون للتصالح مع المناشفة. وأقال كامينيف وستالين البائس العجوز مولوتوف من منصبه كمحرر لـ "برافدا" لكونه متسرعًا وراديكاليًا للغاية.[11]

جرى تشكيل "التنظيم العسكري" البلشفي لأغراض عسكرية، لا من أجل الكفاح المسلح. في كتاب تروتسكي "تاريخ الثورة الروسية" فُسرت الروابط بين الجنود وسوفييت بتروجراد على أنها عناق ثلاثي: مناديب الأفواج المنتخبة لقطاع الجنود في السوفييت؛ اللجنة التنفيذية للسوفييت التي أرسلت مفوضين للأفواج، وكانت للأفواج لجنتها المنتخبة والتي كانت "نوعًا من النواة السفلية للسوفييت". بداخل هذا الإطار زاد عدد المحرضين البلاشفة بداخل الجيش، وسريعًا ما صار أكثر تيار يساري مؤثر في الجيش والبحرية. صار مقصفًا مخصصًا للجنود يجذب أكثر الجنود راديكالية الذين تزايدوا في مكاتب برافدا ببتروجراد. في ريجا، انتخب فوج نوفولادوجكي رقم ٤٣٦ لجنة أغلبها من البلاشفة، والتي أنشأت ناديًا للجنود حمل اسم

---

10 John Erickson, *The Soviet High Command: A Military-PoliticalHistory, 1918–1941*, Oxford and New York, 1962,

11 في وقت مبكر أو متأخر اضطر بعض الأكاديميين المراجعين من اختراع نسخة جديدة، "تؤكد" من خلال وثائق مختارة بعناية أنه لم يكن هناك انقسام على الإطلاق، وأن أفكار الحزب كانت متماشية مع أفكار لينين، الذي كان ينبغي تصويبه في أمر أو اثنين، إلخ. الأمر نفسه حدث مع ستيفن كوكتين في برنستون، الذي زعم أن من كتب شهادة لينين الأخيرة هم أرملته وموظفو السكرتارية! ومن أجل مراجعة حادة ونقدية لهذا النوع من "الدراسات". انظر:
Tony Wood, 'Lives of Jughashvili', *New Left Review*95, September–October 2015.

"الأممية الثالثة"، وذلك قبل عامين من إقامة الأممية الثالثة الفعلية. ما أشار إلى أن أعضاء الحزب البلشفي العاديين كان تفكيرهم تقدميًا، بالضبط مثل زعيمهم المنفي الذي كان في طريقه عائدًا إلى الوطن مستقلًا قطارًا ألمانيًا. كتب لينين: "أثناء الثورة، يتعلم الملايين وعشرات الملايين من الناس في أسبوع واحد أكثر مما يتعلموه في عام كامل من الحياة العادية الخاملة".

٨
أكتوبر

في أزمنة الثورة، تسبق الجماهير الحزب، ويسبق الحزب القيادة. عندما وصل لينين إلى محطة فنلندا، عازمًا على تحويل دفة القيادة إلى اليسار، ظن الناس أنه مجنون. وفي قصر توريد، قاطع بوجدانوف قراءة لينين لـ "أطروحات أبريل" بصيحات: "هذيان، هذيان رجل مجنون".

كتب سوخانوف: "خرجت إلى الشارع، وأنا أشعر كأني ضُربت على رأسي بالسوط طوال الليل".

ذكر راسكولنيكوف: "كان أكثر عمال الحزب احترامًا موجودين هنا. ولكن بالنسبة لهم أيضًا كانت كلمات لينين رؤيوية خالصة. لقد وضعت حدًا فاصلًا بين تكتيكات الأمس واليوم". نُشرت "أطروحات أبريل" ملحقة بإخلاء ذمة في "برافدا" نفسها. كان لينين في موقف الأقلية. عارضت عصيان أكتوبر أقلية أكبر حجمًا: كامينيف وزينوفييف وريكوف وفرونزه وآخرون، سواء كان "العمليون" منهم أو "النظريون". أثناء الفترة الهادئة السابقة لفبراير، التي خلت من أي زخم ثوري، بدا البلاشفة أقرب إلى اليسار، أثناء تلك الأشهر، من فبراير إلى أكتوبر، سبقت الجماهير الطليعة، وأدى اتفاقهما النهائي إلى هجوم ناجح على القصر الشتوي.

في "الدولة والثورة"، النص النظري غير المكتمل الذي قطعت الثورة استكماله، تخلى لينين عن كل الإحالات إلى الانقسام بين روسيا وأوروبا الغربية الذي امتلأت به كتاباته السابقة. كانت المقالة أقوى نصوصه النظرية، توازي "ما العمل؟" وتتجاوزه. أجبرته الحرب العالمية الأولى على إعادة التفكير الإستراتيجي؛ بدون إستراتيجية أممية ممنهجة، لن تتمكن الثورة الروسية من الوصول إلى ذروتها. والمهمة النهائية للثورات في الدول الأوروبية الأخرى، على اختلاف الطرق التي تقود إليها، ستكون هي المهمة نفسها في روسيا. من دون الاستيلاء على أجهزة الدولة وهزيمتها، تلك الأجهزة التي دافعت عن الطبقة الحاكمة ودعمتها، لن تكون هناك اشتراكية. ينبغي للمرحلة الأخيرة من الثورة في كل الدول، بغض النظر عن موقعها الجيوسياسي، أن تحظى بلحظتها المتمردة. هذا هو السبب الذي جعله يسمي القرن العشرين بعصر الحروب (الإمبريالية والأهلية) والثورة. مارست الدولة الرأسمالية احتكارًا للعنف الشرعي، وكان لا بد من كسر كل من الاحتكار والشرعية و"سحق" الدولة القديمة، من أجل أن تنتصر الثورة.[١٢]

في روسيا أيضًا، بداية من يوليو عام ١٩١٧، استاءت القيادة العسكرية العليا، التي تشهد تفكك الجيش على الجبهة وتلاحظ أن الدعاية البلشفية المناهضة للحرب تحث على التمرد، من عجز الحكومة المؤقتة، وإخفاقها في الإعداد للقضاء على الثورة. ناقش القادة العسكريون بجدية إمكانية الاستيلاء على السلطة وتنصيب دكتاتورية عسكرية لإعادة بناء الجيش واستكمال الحرب، ولكن الشرط المسبق الأساسي لهذين الهدفين

---

12 الدولة في المجتمعات الرأسمالية عام ١٩١٧ كانت تدرك وتفهم بالتأكيد هذه الحقيقة. القمع في فرنسا وألمانيا موثق جيدًا. في بريطانيا أيضًا، استُخدم القمع ضد الميثاقيين في مانشستر في مذبحة عام ١٨١٩ في بيترلو. الاشتراكيون الديمقراطيون في أنحاء أوروبا، بعد قرارهم بضرب خيامهم في معسكرات جيوش دولهم، غمسوا قمصانهم في دماء الحرب العالمية الأولى.

كان تدمير البلاشفة وخلخلة السوفييتات. من هذا المنطلق كانوا على خطأ بالطبع.

قرر القائد الأعلى للجيش، الجنرال كورنيلوف أن يحظى بدعم الحكومة المؤقتة أو أن يقسمها. نجح في ذلك، وإن فشل في إقناع كرينسكي، الذي صار الآن رئيسًا للوزراء، أن يدعم انقلاب فعَال على السوفييت، والقضاء على البلاشفة. كرينسكي، القلِق عن حق بأن يتم استخدامه ثم التخلص منه، رفض العرض، ولكنه قرر تنفيذ برنامج كورنيلوف السياسي بنفسه. نظر الرجلان إلى نفسيهما في المرآة وتخيل كل منهما نفسه دكتاتور النظام الجديد. كان هذا خيالًا محضًا. ربما كان يمكن لكورنيلوف أن يُشَكِّل حكومة عسكرية مؤقتة، إنما كرينسكي فلم تكن لديه فرصة على الإطلاق.

خطَّط الجيش لاستدعاء قوات الجبهة إلى بتروجراد لتنفيذ انقلاب واسع النطاق في ٢٦ أغسطس عام ١٩١٧. في هذا الوقت ستحتفل السوفييت بمرور ستة أشهر على الثورة. كانت الصحافة اليمينية تُذكي النيران المناهضة للبلاشفة، وتحذر من العصيان، وكان الجيش سيُعِدُّ، عند الضرورة، لانتفاضة بلشفية مزيفة ليسحقها ويستولي على السلطة. كان سيعهد بهذا إلى اتحاد الضباط، القطاع شديد المعاداة للسامية والموالي للقيصرية في الجيش. حاول كورنيلوف جاهدًا أن يكسب كرينسكي إلى صفه، ولكن طموحات الأخير الشخصية كانت عقبة في طريق ذلك، على الرغم من أن العديد من أعضاء الحكومة المؤقتة، وخاصة سافينكوف، نائب وزير الحربية، كان يعمل صراحة إلى جانب كورنيلوف. كان الأمير لفوف (جورج واشنطن الروسي بحسب تقدير سنودجراس) على وفاق تام مع كورنيلوف، وكان يحاول جاهدًا أن يقنع كرينسكي بأن الحكومة "الوطنية" هي الحل الوحيد. زعم لفوف أنه حظى بدعم كرينسكي، الذي وافق على التنحي عن منصبه كرئيس وزراء، ولكن كرينسكي زعم أنه

تظاهر فقط بالرضوخ من أجل أن يكسب وقتًا، لأنه كان يعرف أن لفوف مبعوث كورنيلوف.

كل هذا يكشف عمق الأزمة. لم يخبر كرينسكي قيادات السوفييت بأي شيء إلا بعد ذلك، عندما احتاج للمساعدة، واحتاجها سريعًا جدًا. عاد لفوف إلى قصر الشتاء وأشار إلى أنه إذا كان كرينسكي يخشى على حياته، فعليه الاستقالة فورًا والخروج من بتروجراد. كان رد فعل زعيم الاشتراكيين الثوريين ضحكة شبه هيستيرية. في اليوم التالي، ولدهشته، أقال كيرنسكي كورنيلوف من منصبه وعيَّن لوكومسكي بدلًا منه. أبرق القائد الأعلى "الجديد" برفضه للعرض وطلب من كرينسكي إما أن ينضم لكورنيلوف، أو سيواجه أهوالًا غير مسبوقة ستحل بالبلاد. كانت قواتهم تتقدم بالفعل نحو العاصمة. في هذا الوقت أمر كرينسكي كورنيلوف علنًا أن يتراجع، وأنذر هذا الأحزاب السياسية السوفييتية. رفض كورنيلوف، وأصدر بيانه الذي أكد فيه أنه بلا طموحات شخصية: "أنا، الجنرال كورنيلوف، ابن الفلاح القوزاقي، لا أريد شيئًا لنفسي، إلا الحفاظ على روسيا العظيمة". وافق غالبية القيادات العليا على هذا الهدف. هبطت سوق الأوراق المالية في بتروجراد، واقترب الجيش أكثر من المدينة.

اقترح كرينسكي الآن تشكيل حكومة مديرين، كما كان الحال في المراحل الأخيرة من الثورة الفرنسية. كان قادة السوفييت الرسميين متعاطفين مع الفكرة. سُمع مارتوف وهو يصيح: "كل حكومات المديرين تولّد الثورات المضادة!" كان لينين في المنفى بفنلندا؛ وكان تروتسكي في السجن. بعد إخفاق عصيان العمال العفوي في يوليو، الذي لم يتولاه البلاشفة ولكنهم دعموه، أمر قادة السوفييت بعملية اعتقال واسعة للنشطاء البلاشفة. البلاشفة الذين ظلوا في السوفييت كانوا معارضين تمامًا لكرينسكي ورفقته، ولكنهم اتفقوا على جبهة متحدة للدفاع عن الثورة ضد هجوم الجيش. من منفاه، صاح لينين غاضبًا بأن المناشفة والاشتراكيين

الثوريين كانوا على وفاق مع الحكومة المؤقتة منذ بدايتها، لقد دافعوا عن الحرب. كان كرينسكي مشاركًا مع المتآمرين سعيًا للانقلاب. كان من الصعب على لينين أن يقتنع بأنه ما زال هناك "حمقى وأوغاد" في صفوفهم، لا يستطيعون أن يروا الأمر برمته حتى الآن. كانت نصيحته لما ينبغي أن يقولوه للمناشفة هي:

"عمالنا وجنودنا سيقاتلون القوات المضادة للثورة... لا للدفاع عن الحكومة، إنما بشكل مستقل، للدفاع عن الثورة... سنقاتل بالطبع، ولكننا نرفض الانضمام إلى أي تحالف سياسي معكم أيًا كان، ونمتنع عن التعبير عن أدنى ثقة فيكم".

لم يكن حصول البلاشفة على الشعبية سرًا كبيرًا. اعترف سوخانوف بأنه بدون البلاشفة لا يمكن أن يكون هناك دفاع جدي عن العاصمة ضد كورنيلوف. جماهير العمال-الجنود "حين يكونوا منظمين، فالذين ينظمونهم هم البلاشفة ومَن يتبعونهم. في ذلك الوقت، كان تنظيمهم هو التنظيم الكبير الوحيد، ويجمعهم معًا نظام بدائي، ومختلطين بالمستويات الديمقراطية الدنيا في العاصمة". ما كانت الأحزب السوفييتية المعتدلة تشهده هو تنفيذ الحجج الرئيسية لكتابي "الدولة والثورة" و"أطروحات أبريل".

لا يمكن لأكبر حزب أن "يصنع" ثورة أو أن يسرقها، وإنما نجاح هذه المحاولة يعتمد على قدرة أحد الأحزاب الثورية ووضوحه وطاقته وإصراره حين تواجهه أزمة ما قبل ثورية. لم تكن قطيعة لينين مع "الأرثوذوكسية"، إنما مع المبدأ الإصلاحي والميكانيكي الذي تعامل مع الوعي الطبقي على أنه نتاج طبيعي لموقع العمال في المجتمع. رفض لينين هذا الشكل من السوسيولوجيا الفجة لصالح السياسة. لم تكن شعارات البلاشفة ومطالبهم اشتراكية على وجه الخصوص، ولكنها بالتأكيد كانت ثورية. كانت "القضايا الثلاث" للحزب البلشفي في العقد الماضي هي "مصادرة الأراضي

المملوكة"، و"الجمهورية الديمقراطية" و"العمل لثماني ساعات في اليوم"، أضاء هذا الطريق إلى فبراير. وفتح الثالوث الأكثر بلاغة "الأرض، والخبز، والسلام" أبواب أكتوبر.

في النهاية، هُزم كورنيلوف سياسيًا، اقترب البلاشفة محرضو الجنود، والجنود المسلمون والقوقاز القادمين من بتروجراد والأوفياء للسوفييت، ومناديب السوفييت، من قواته الخاصة وهم يدخلون المدن الصغيرة بالقرب من العاصمة، وبينما راقبهم الضباط بإعجاب، توسلوا مع إخوانهم بألا يقتلوا قومهم. خرَّب عمال السكك الحديدية القضبان، ما جعل من المستحيل على قطارات القوات أن تصل إلى العاصمة، وشرحوا بهدوء للقوات ماذ يحدث، وما يحاوله الجنرالات القيصريون، ولم سيُقابلون بمقاومة بالغة القوة، إلخ. انتصر المحرضون، وغادر الجنرالات بدون جيش. وفي محاولة أخيرة يائسة للسيطرة على الموقف، شَكَّل كرينسكي حكومة مديرين، وكانت هزلية من البداية وحتى النهاية، على الرغم من قصَر فترة حكمها. وخَلْف واجهتها حَظر كرينسكي جريدتين راديكاليتين، "العامل" (بلشفية) و"نوفايا جيزن" ("الحياة الجديدة"، مستقلة ومناهضة للحرب ومؤيدة للأممية). تجاهل البلاشفة الحظر ببساطة، وبينما اتخذ الحراس الحمر مواقعهم بالخارج، استمرت المطابع في عملها.

كان هناك صحفيان أمريكيان يراقبان الأحداث عن قرب، ويلخصانها لبعضهما قبل إرسال تقاريرهما إلى الولايات المتحدة، وهما جون ريد وريس وليامز. وصل ريد إلى البلاد بعد وليامز، وعرف بعض التفاصيل من زميله، الذي شرح له تأثير "أطروحات أبريل":

قال ريد : "إذن هؤلاء الذين يهاجمون لينين يزعمون أن ثورية فبراير السياسية البرجوازية ليست كاملة، أليس كذلك؟"

"قلت: لينين أيضًا لم يقل إنها كاملة، بحسب ما فهمت، الأمر كله معقد للغاية. ولم يقل لينين في أي لحظة أنه ينبغي الانتقال إلى الحكومة الاشتراكية – فقط أن ينبغي القيام بتلك الخطوات الأولى".

كان ريد نافد الصبر، وأراد أن يعرف متى سيضرب البلاشفة ضربتهم، أجاب وليامز بأن الضربة ستحل فقط عندما يحظون بالأغلبية.

بحلول أكتوبر، حصل البلاشفة على الأغلبية في سوفييتي موسكو وبتروجراد، كانوا أقوى تيار سياسي في لجان المصانع في العديد من المدن الصغيرة التي لم يكونوا يسيطرون فيها على السوفييتات. كان هذا المزيج حاسمًا، مضافًا إليه عسكرة الفلاحين التي أشعلت الريف، إلى جانب تناقل أخبار الاستيلاء على الأراضي التي انتشرت في البلاد. كان القوميون يستعرضون عضلاتهم، ولكن من خنادق الجبهة الشرقية مرورًا بالمصانع وحتى مركز المدينة، صار لا يمكن مواجهة مطلب السلام. ظهرت اللجان الثورية العسكرية تحت إشراف البلاشفة في العديد من المدن.[13]

بعد انتصار البلاشفة الانتخابي، توجه جون ريد إلى ريس وليامز وسأله: "والآن؟"

"لا يمكن أن يتأجل الأمر الآن".

---

13 بعد مرور عام، شرح لينين سبب عدم دعوة الحزب لعصيان في يوليو، حين تم قمع انفجار جماهيري عفوي رغم ذلك، ما برَّر الهجوم وأجبر لينين والزعماء الآخرين على الاختباء في العالم السفلي: "لم تراودنا الظنون فقط، بل كنا *نعلم* علم اليقين من تجربة الانتخابات الجماهيرية للسوفييتات، أنه في سبتمبر وبدايات أكتوبر ستنضم الأغلبية العظمى من العمال والجنود إلى صفوفنا بالفعل". هذا الواقع الجديد هو ما (*حدد صواب شعار* "دعونا نقوم بعصيان" في أكتوبر، كان سيثبت خطأ الشعار في يوليو، حين لم نطرحه في الحقيقة)".

ليون تروتسكي، الذي خرج مؤخرًا من السجن، انتُخب رئيسًا للجنة الثورية العسكرية للسوفييت، والتي أخذت تُعدُّ لتمرد ٢٥ أكتوبر.[١٤] كانت الحامية تحت سيطرة اللجنة الثورية العسكرية، وكان الحراس الحمر القادمين من المصانع متصلين بأفواج هامة إستراتيجيًا. شهدت انتخابات مفوضي الوحدة الجدد، في الوحدات العسكرية بالحامية، عدم التصويت للمفوضين المناشفة والاشتراكيين الثوريين، وحل البلاشفة محلهم. في الواقع، صارت السلطة الآن في أيدي الحزب البلشفي. كان الهجوم النهائي على قصر الشتاء مسألة من قبيل الشكليات، وكان الحدث الرمزي أقل درامية مما صوَّره إيزنشتاين في فيلمه "أكتوبر"، إذ كانت المقاومة مثيرة للشفقة".[١٥]

كان الأمريكيان في مزاج متأمل، قال ريد وهو مستغرق في أفكاره:

"أتساءل عما ينبغي أن يشعر به المرء إذا كان في مكان ليبر أو دان أو حتى مارتوف العجوز، دعك من جيورجي بليخانوف... عمليًا كل هؤلاء الزعماء؛ الأناركي والمنشفي والاشتراكي الثوري اليساري أو اليميني إلى جانب البلشفي – طوردوا لسنوات، ورُحِّلوا إلى سيبريا، أو ضُربوا بالسياط في السجون الروسية القذرة... ما الذي يمكن أن يشعر به الشيوخ العنيدون والمتكبرون، بغض النظر عن فضيلتهم، حين يرون رفاقهم

---

14 جرى اللقاء الأخير لتحديد موعد في ١٠ أكتوبر في منزل واحدة من النشطاء البلاشفة. كانت قد طلبت من زوجها المنشفي، سوخانوف، أن يبيت في مكان آخر تلك الليلة. سوخانوف الذي استطاع اختراق مقر البلاشفة في ليلة عودة لينين، مُنع من المبيت في سريره في عشية حدث أكثر أهمية، حدث كان يعارضه ولكنه الحدث الذي جعله شهيرًا. تم الاتفاق على كل التفاصيل في الاجتماع الذي استمر لعشر ساعات. كان هناك صوتان معارضان: زينوفييف وكامينيف. وبالنسبة للباقين، فقد احترقت القوارب التي كان من الممكن أن تجعلهم يتراجعون.

15 لم تكن نهاية الحكومة المؤقتة بعيدة في الوقت الذي جرى فيه الهجوم العفوي على مقرها. استطاع البلاشفة بصعوبة كبيرة أن يقنعوا المهاجين بألا يشنقوا الوزراء، الذين جرى أصطحابهم إلى مكان آمن، وهو السجن المفضل للقيصر؛ قلعة بطرس وبولس. فر كرينسكي من القصر متنكرًا في صورة امرأة. وبشكل مناسب له، لجأ ("جيفرسون" ثورة فبراير) إلى الولايات المتحدة، حيث توفى في نيويورك عام ١٩٧٠.

يتحولون فجأة إلى لينين! يعترفون في دقيقة واحدة بأن لينين وحده يمكنه أن يجلب السلام والخبز والأرض. هذا هو السبب الذي يجعلهم لا يستطيعون مسامحته؛ بالتالي يحاولون غاضبين دعم كرينسكي".[١٦]

بعد عدة أيام، في ٢٥ أكتوبر، خرج الرجلان مبكرًا لحضور اجتماع السوفييت، حيث كان يوشك صدور الإعلان.

بدأ الاجتماع الطارئ في سوفييت بتروجراد في الساعة ٢:٣٥ في ذلك اليوم. أفسحت المنصة لتروتسكي: "بالنيابة عن اللجنة الثورية العسكرية، أعلن أن الحكومة المؤقتة لم تعد قائمة". واصل كلامه ليروي للمناديب تفاصيل ما تحقق.[١٧] وأثناء حديثه، دخل لينين القاعة ليلقى تصفيقًا يصم الآذان، وقفت القاعة تحية، وهتف الحاضرون: "يحيا الرفيق لينين، الذي عاد إلينا مجددًا". أفسح له تروتسكي المنصة. أعلن لينين الهادئ، الذي لم يتحدث سوى لعدة دقائق، بداية عهد تاريخي جديد، وحقبة جديدة في التاريخ، وأنهى كلامه متعهدًا بإنشاء نظام اشتراكي جديد، وصاح قائلًا: "تحيا الثورة الاشتراكية العالمية".

16 Albert Rhys Williams, *Journey into Revolution: Petrograd 1917–1918*, Chicago, 1969, pp. 38 9.

17 في العيد الأول للثورة، كتب ستالين في "برافدا": "كل الجهد العملي المتصل بتنظيم الانتفاضة خضع للتوجيه المباشر من الرفيق تروتسكي، رئيس سوفييت بتروجراد. يمكن التصريح بثقة أن الحزب مدين في الأصل وفي الأساس للرفيق تروتسكي، لتوجهه السريع إلى المعسكر إلى جانب السوفييت والأسلوب الكفء الذي نظم به عمل اللجنة الثورية العسكرية". مقتبس من:

Isaac Deutscher, *Stalin: A PoliticalBiography,* London, 1966, pp. 210–11.

لم تُحذف هذه الجمل فقط من أعمال ستالين الكاملة عام ١٩٤٧، سنة العيد الثلاثين للثورة، بل مُحي من التاريخ بوحشية كل ذكر لتروتسكي ولجل البلاشفة القدامى. في كتاب ديفيد كينج الوثائقي الحديث "اختفاء المفوض" The Commissar Vanishes, New York, 2014، يصف الكاتب بالتفصيل كيف عُدلت الصور.

Къ Гражданамъ Россіи.

Временное Правительство низложено. Государственная власть перешла въ руки органа Петроградскаго Совѣта Рабочихъ и Солдатскихъ Депутатовъ Военно-Революціоннаго Комитета, стоящаго во главѣ Петроградскаго пролетаріата и гарнизона.

Дѣло, за которое боролся народъ: немедленное предложеніе демократическаго мира, отмѣна помѣщичьей собственности на землю, рабочій контроль надъ производствомъ, созданіе Совѣтскаго Правительства — это дѣло обезпечено.

ДА ЗДРАВСТВУЕТЪ РЕВОЛЮЦІЯ РАБОЧИХЪ, СОЛДАТЪ И КРЕСТЬЯНЪ!

Военно-Революціонный Комитетъ
при Петроградскомъ Совѣтѣ
Рабочихъ и Солдатскихъ Депутатовъ.

25 октября 1917 г. 10 ч. утра.

إعلان اللجنة الثورية العسكرية باندلاع الثورة.

استولى البلاشفة على السلطة. جرى قتال لمدة يومين في موسكو، وعدة معارك خارجها، ولكن لم تكن هناك إصابات تذكر. قرر الزعماء المناشفة/ الاشتراكيون الثوريون أن المقاومة ستكون تهورًا ولن تكون عملية. كانوا يعضون أناملهم من الغيظ ولكنهم تنحوا جانبًا. حتى مارتوف،

المنشفي الأممي، غضب في اجتماع مبكر مع تروتسكي وانسحب منه. سيعود، ولكن جل الزملاء المؤيدين للحرب كانوا يعرفون أن زمنهم قد ولّى. عندما قرروا مقاطعة كل المؤسسات السوفييتية، اتهمهم سوخانوف الغاضب بأنهم انضموا للثورة المضادة. مارتوف، الذي سمع زميله القديم تسيريتيلي يتحدث في السوفييت، شحب وجهه من الغضب ودعاه بـ "مؤيد فرساي" في إشارة لمن ساعدوا في سحق كميونة باريس. لم يكن في مخيلتهم أنه في خلال عدة أشهر، سينضم العديد ممن كانوا رفاقًا سابقين إلى الجيوش البيضاء المدعومة من حكومات الوفاق في الحرب الأهلية. فزعت سوق الأوراق المالية، وكررت هبوط حكومة كرينسكي وداعميها. إلى متى سيستمر ذلك؟ طُرح السؤال نفسه في البيت الأبيض.

بينما كان لينين يعرض "أطروحات أبريل" في سوفييت بتروجراد، كان أنصار الحرب في واشنطن مستعدين للتحرك تجاه أوروبا. كان وودرو ولسون يناقش مستشاريه المقربين مسألة بدخول أمريكا الحرب العالمية الأولى. ولسون، الذي ما زال يُعتبر في بعض الدوائر رمزًا أخلاقيًا وليبراليًا -بل وأمميًا- كان في الحقيقة سياسيًا أمريكيًا نموذجيًا، ارتدى القناع أفضل من الكثيرين. في جلساته الخاصة كان في بعض الأحيان يتخلى عن هذا التظاهر، قال لصديقه المقرب وموضع ثقته الكولونيل هاوس عام ١٩١٣ إنه "يعتقد أن الكذب مُبَرَّر في بعض المواقف، خاصة حينما يتعلق الأمر بشرف النساء... وعندما يرتبط بشؤون السياسة العامة". عندما أشار هاوس إلى أنه ربما كان من الأفضل البقاء صامتًا عن الكذب، وافق ولسون سريعًا جدًا ووعده بألا يفعل ذلك في المستقبل، وكانت هذه كذبة أخرى. كانت بياناته العامة، في الأساس، عبارة عن زيف محض، وناقضت الأفعال التي اتخذها فعليًا على الأرض. اتضح هذا للغاية في موقفه من الثورة الروسية. عبَّر في العلن عن تفهمه للحدث، ولكن في الكواليس المحدَّ مع صاحبه المشيخي الأرثوذكسي ووزير الخارجية، روبرت لانسينج، الذي اعتبر

البلشفية هجومًا على المسيحية والحضارة التي أدت إليها. عارض ولسون أي اعتراف بالحكومة السوفييتية.

هو المنغمس بشدة في الإشراف على التدخل الأمريكي في المكسيك لإنهاء الثورة في تلك البلد، بدأ يولي انتباهه الآن إلى الموقف الذي يتغير بسرعة في روسيا. وقنّع كل ذلك بتصريحاته التي أعلن فيها أنه بالإطاحة بالقيصر، فكل قوى الوفاق الآن ديمقراطية إذا قورنت بالاستبداد الذي تقوده ألمانيا. من وجهة نظره فكل ما يحدث لا يؤدي إلى شيء إلا "قيادة رأينا العام إلى الطريق الصحيح".

رأى ولسون المكسيك وروسيا كمشكلتين سياسيتين متشابهتين. بعد أكتوبر صار ذلك هوسًا. بالدعم القوي من نقابات جومبرز" واتحاد العمال الأمريكي، حذر ولسون "الووبليز" والجماعات الراديكالية الأخرى من أن البروباجندا البلشفية في الولايات المتحدة سيتم التعامل معها بقسوة. أبقى على وعده، وليس في وطنه فقط. كان ولسون مقتنعًا، مثل معظم حلفائه الأوروبيين، أن الحكومة البلشفية ليست مستقرة جدًا، ولن تصمد سوى لعدة أشهر، أو سنة على الأكثر، ويمكن إسقاطها بسهولة. قرر تسليح وتمويل الجيوش البيضاء لكولتشاك ودينيكين، كما فعل من قبل مع كارانسا في المكسيك. وأمام الرأي العام كذب مجددًا، وأعلن في البداية دعمه الكبير لحق الشعوب في تقرير مصيرها، وقال للرأي العام الأمريكي والعالم بوضوح إن "كل الشعوب لديها الحق في تحديد شكل حكومتها". وأصر على أنه ينبغي للمكسيكيين اختيار زعمائهم رغم أنه كان يعد لإرسال الأسطول الأمريكي لاحتلال فيراكروز عام ١٩١٤. أرسل جنود المارينز الأمريكيون للاستيلاء على هايتي عام ١٩١٥ وجمهورية الدومينيكان عام ١٩١٦، ثم أرسلهم في حملة برية عميقة في قلب المكسيك.

في أكتوبر عام ١٩١٨، وصل خداع ولسون إلى ذروة جديدة: "سياستي تجاه روسيا شبيهة للغاية بسياستي تجاه المكسيك. أنا أؤمن بفكرة تركهم يتلمسون الطريق نحو خلاصهم، حتى لو تلطخوا بالأناركية لبعض الوقت". وبعدها بدأ حربًا سرية ضد روسيا الثورية لم يقرها الكونجرس على الإطلاق. في العام نفسه، أرسلت وحدات عسكرية إلى فلاديوستوك وآرخانجلسك. بشكل غير مفاجئ، رد الزعماء البلاشفة على العدوان، ولكن شفهيًا فقط. بعد قراءة برقية من المفوض السوفييتي للشؤون الخارجية، غضب ولسون لـ "وقاحتها". طلب تروتسكي من الدبلوماسيين السوفييت بصراحة تامة أن يحصلوا على جوازات سفر "إلى أمريكا والبلاد الأخرى لاقتراح إسقاط كل الحكومات التي لا يسيطر عليها العمال". أزعج هذا ولسون إلى حد أنه تقبَّل نصيحة وزير الخارجية بألا يكشف برقية تروتسكي إلى الرأي العام، مخافة أن تشجع على "حرب طبقية" ومساعدة الووبليز والاشتراكيين المناهضين للحرب.

عبَّر زعماء النقابات اليمينيين والاشتراكيون المؤيدون للحرب لولسون بالفعل عن انزعاجهم الشديد من كون التجربة البلشفية اليوتوبية تشجع الحالمين في الولايات المتحدة، وإذا لم تتوقف مناصرة السلام وتمجيد الإضرابات، من الممكن أن تنتشر من أوروبا إلى "شيكاجو ونيويورك وسان فرانسيسكو ومصالحنا الصناعية الأجنبية الأخرى". انطلقت عملية قمع واسعة ضد الووبليز و"الأناركيين الأجانب، خاصة الإيطاليين" عام ١٩١٨، في سبتمبر من العام نفسه، اعتُقل زعيم الحزب الاشتراكي يوجين ف. ديبس (أحد مؤسسي الووبليز) وفقًا لقانون التحريض، لإعلانه أمام الرأي العام أن الحرب إمبريالية و"قلوبنا مع البلاشفة في روسيا"، حُكم عليه بالسجن لعشر سنوات. طلب ضباط الجيش الأمريكي في حملة آرخنجالسك السماح لهم بالمزيد من التدخل. اقترح قائدها، الكولونيل جيمس راجلز، أنه "من الأفضل كثيرًا قتل الرأس –هنا في روسيا- من مخاطرة الاضطرار

للقيام بذلك في الوطن".[18] في عشية تدخل البلاد الحاسم في الحرب الأهلية الأوروبية والسياسات العالمية، كان يمكن لسياسة الولايات المتحدة العالمية أن تُعرِّف ببساطة كالآتي: الثورة المضادة الدائمة. رغم ذلك فضَّل البلاشفة أن يركزوا سخطهم على الإمبريالية البريطانية والفرنسية، ومحاولة إثارة الشقاق بين الأخيرة والولايات المتحدة. كان تشيشيرين، الذي خلف تروتسكي كمفوض للشؤون الخارجية، أكثر دبلوماسية في لهجته خلال حواراته مع واشنطن، ولكنه أبقى على لهجة حادة منتظمة، وحذر ولسون من أن الأموال والأسلحة الأمريكية سوف تُهدَر لأنها تحاول مساعدة "جثة ملعونة".

---

18 David S. Foglesong, *America's Secret War Against Bolshevism: US Intervention in the Russian Civil War, 1917–20*, North Carolina, 1995.

كُتب هذا الكتاب بعد الحرب الباردة، هو أكثر سرد موثق بحرص للتدخل الأمريكي السياسي والعسكري ضد الجمهورية السوفييتية الجديدة، وتفسير نموذجي لأصوله.

٩

بعد الثورة

"الثورات هي احتفالات المقموعين والمُستَغَّلين"، هكذا كتب لينين في كتابه "خطتا الاشتراكية الديمقراطية".

شعر بالصدمة عندما عرف بعد عدة أسابيع من الثورة أن بعض قطاعات المقموعين قرر الاحتفال بالانتصار بالطريقة التقليدية، وبتنظيم مهرجان ارتجالي يتماشى مع العربدة الأشبه بعربدة العصور الوسطى، والبعيدة عن الأفكار السامية التي طرحها، وكان ذلك بهدف التخلص من البقايا القيصرية. كانت بتروجراد هي مسرح الاحتفال. الفقرة التالية كتبها الزعيم البلشفي أنطونوف-أوفسينكو، المفوض العسكري الأعلى وقائد حامية بتروجراد. نادرًا ما يذكر المؤرخون الوصف الذي كتبه في مذكراته. كان الاحتفال باخوسيًا جامحًا وخارجًا عن السيطرة، واستمر لعدة أسابيع، حتى أصاب العاصمة الثورية بالشلل:

"انتشرت عربدة جامحة وغير مسبوقة في أنحاء بتروجراد، وحتى الآن لا يوجد تفسير مقبول يُرجع ذلك أو لا يُرجعه إلى تحريض خفي... مَثَّلت أقبية قصر الشتاء أكثر المشكلات غرابة... فوج بريوبراجنسكي، الذي ظل منضبطًا حتى ذلك الوقت، ثمل تمامًا بينما كان يقوم بواجبه في حراسة القصر. وفوج بافلوفسكي، حصننا الثوري، لم يصمد للإغراء أيضًا. بعدها أُرسل إلى هنا حراس مختلطون، مجموعون من كتائب مختلفة، وثملوا هم

أيضًا. بعدها كُلف أعضاء لجان الفوج (أي قادة الحامية الثوريين) للقيام بواجب الحراس، ولكنهم استسلموا كذلك للإغراء. تلقى رجال الألوية المسلحة أمرًا بتفريق الحشود، تحركوا هنا وهناك لبعض الوقت، ولكنهم بشكل مثير للشك بدأوا يترنحون. بحلول الغسق انتشرت الباخوسية المجنونة. (دعونا نقضي على بقايا القيصرية!) استحوذ هذا الشعار الجذِل على الحشود. حاولنا أن نوقفهم بسد المداخل، ولكن الحشود دخلت من النوافذ، انتزعت الحواجز، وخلعت المقابض".

لجأ أنطونوف-أوفسينكو، اليائس الآن، إلى مجلس مفوضي الشعب (السلطة الأعلى) ليساعدوه، عينوا "مفوضًا خاصًا ومنحوه سلطات خاصة" للمساعدة في حل الأزمة، ولكن هو أيضًا "أثبت أنه غير جدير بالثقة"، للأسف لم يذكر الكاتب اسمه. لم يتوقف "الجنون الثمل" إلا حين "هدد فوج فنلندي ذو ميول أناركية نقابية" بتفجير الأقبية وإطلاق الرصاص على الناهبين.[1] كان من الممكن تجنب هذا الجنون إذا نظمت سوفييت بتروجراد الاحتفال، وتعاملت معه كحدث عام مفتوح لكل المواطنين. كان المواطنون العاديون والأفواج البلشفية الأساسية سيستهلكون نبيذ القيصر في خلال يوم واحد. في رأيي أخطأ مجلس مفوضي الشعب في قراره بإلقاء بقايا القبو في نهر نيفا، وعبَّر ذلك عن افتقادهم للخيال. كان من الممكن أن يُستخدم النبيذ بشكل أفضل إذا جرى توزيعه بطريقة مناسبة، ولكن من الواضح أنه كانت هناك مشكلات أهم تستدعي المواجهة بالداخل وبالخارج.

كان لينين شديد الإيمان بأن مجموع أحداث الحرب وثورة أكتوبر عام ١٩١٧ ستؤدي إلى صاعقة ثورية في أنحاء أوروبا. لم تخالف الأحداث التي جرت في السنوات الثلاث الأولى التالية للثورة الروسية هذا التقدير. ولم يحدث من قبل، أو من وقتها، أن اهتزت أسس أوروبا بقدر ما حدث فيما

---

1 مقتبس من: Isaac Deutscher, *The Prophet Armed*, London, 2003,pp. 266–7.

بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠. ضربت القارة موجة من الانتفاضات السياسية والعمالية شبه المتزامنة: انتفاضة برلين، وسوفييت ميونيخ، وكوميونة بودابست، وإضراب عام في النمسا، واحتلال للمصانع في إيطاليا، وعدم استقرار للجيوش والأساطيل في عدد من البلدان، وشعور متنام لدى الحكام بأنهم لن يستطيعون أن يحكموا بنفس الأساليب القديمة.[٢]

بريطانيا وحدها، التي تفصلها القناة، تجنبت هذا النوع من الانتفاضات، ولكنها واجهت تهديدًا آخر، وذلك من مستعمرتها الداخلية، أيرلندا، التي كانت تغلي من هزيمة ثورة عيد الفصح عام ١٩١٦. أدى التأثير بعيد المدى لهذه الثورة إلى تمرد مغامري كونوت[iii] في الهند عام ١٩١٩، الذي لم يحظ بالدراسة الكافية، وكان التمرد الأول والأخير من نوعه خلال سنوات الحكم الاستعماري البريطاني الطويلة على الأراضي المحتلة في آسيا وأفريقيا.

في بتروجراد نفسها، وبعد يومين من الثورة، بدأت الحكومة الجديدة سعيها للوفاء بتعهداتها، وكان أول هذه التعهدات وأهمها بطريقة ما، هو إنهاء الحرب. أصدرت السوفييت بيانًا كتبه لينين دعا "كل شعوب الدول المعادية وحكوماتها... بالبدء في مفاوضات مباشرة من أجل سلام عادل وديمقراطي". كان هذا سلاحًا ذا حدين. اقترح لينين أنه إذا لم تستجب حكومات بريطانيا وفرنسا وألمانيا، سيكون على الطبقة العاملة في البلدان الثلاثة أن تقوم بفعل مباشر. احتفى البيان بالتقاليد الراديكالية في تلك البلدان. كان العمال في طليعة معظم النضالات التقدمية، كتب لينين قائلًا:

---

2 نعرف أنه لم تنجح أي من هذه الانتفاضات. أُغتيل ليبكنشت ولوكسمبرج في يناير عام ١٩١٧، اغتالهم الفيلق الحر الألماني الفاشي المبكر بمباركة الزعماء اليمينيين بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، نوسكه وإيبرت وشايدمان. تعلم الحكام أيضًا من دروس أكتوبر: اتجهت إيطاليا نحو الفاشية، بينما في الجمهورية الضعيفة بألمانيا رسَّخت الطبقة العاملة المنقسمة والبرجوازية المرتعشة من انتصار الفاشية الألمانية. لم يكن تفكك الدولة في إيطاليا وألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى متقدمًا كما كان الحال في روسيا القيصرية، ولكنه لم يكن منفصلًا كثيرًا عنها. أُعيد استقرار الدولة في البلدين بتحالف واضح وصريح بين السياسيين البرجوازيين الأنقياء المُلّاك والقمصان السود والبُنّية الفاشية، التي أظهرت أنها وحدها القادرة على هزيمة العمال والبلاشفة.

"النموذج العظيم للحركة الميثاقية في إنجلترا، وسلسلة الثورات ذات الأهمية التاريخية العالمية، والتي قامت بها البروليتاريا الفرنسية، وأخيرًا النضال البطولي ضد القوانين المناهضة للاشتراكية في ألمانيا... كل هذه النماذج التي تمثل العمل الإبداعي التاريخي، تقوم بدور التعهد بأن يفهم عمال تلك البلاد الواجب الملقى على عاتقهم لحماية البشرية من أهوال الحرب".

تجاهل زعماء الوفاق هذه المناشدة. قبلت الحكومة الألمانية ووافقت على حضور مؤتمر لمناقشة سلام منفصل مع روسيا. اعتبر كل من لينين وتروتسكي هذا البديل الأسوأ. الطريقة الوحيدة التي سيبرر بها البلاشفة سلامًا منفصلًا هو اندلاع ثورة في ألمانيا.[3]

تروتسكي، بقدراته كوزير للخارجية، ضاعف من شدة المناشدات السابقة بحثّه للحكومتين البريطانية والفرنسية على الدخول في محادثات للسلام. لم تعد الحرب حتى تصب في مصلحتهما، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار المجازر واسعة المدى على الجبهة الغربية. كان من غير المبرر الاستمرار بتلك الطريقة. لم يكن هناك رد فعل من لندن وباريس. كان الحلفاء واثقين من أن هناك مشاركًا جديدًا ينتظر متأهبًا على جانب الأطلنطي، وسوف يغيِّر من توازن القوى نهائيًا ويساعد في إلحاق الهزيمة بالقيصر.

---

3 في النهاية وقّعت القيادة البلشفية التي تعاني من انقسام شديد على اتفاق سلام منفصل في برست-ليتوفسك. كان بوخارين وأنصاره في صف "الحرب الثورية"، بينما تبنى تروتسكي وأنصاره حالة "اللا حرب واللا سلم" بتطويل عملية التفاوض ومدّها. مجددًا كان لينين وحيدًا في الدفاع عن فكرة أنه لا يوجد بديل سوى قبول الشروط الألمانية القاسية. قال إن أي تصرف أحمق سيؤدي إلى هزيمة الثورة. اتفقت كل الجماعات على أن الثورة الألمانية هي الحل الواقعي الوحيد، ولكن لا يمكن تنظيم ثورة من العدم. بالطبع كانت هناك إشارات إلى تزايد حس القتال في ألمانيا، مثّل إضراب البحارة في كييل دفعة هائلة، ولكن لم يكن من الممكن تأجيل الهدنة تحت أي ظرف. انتصر لينين في المعركة ولكنه دفع ثمن ذلك. عاد شريك البلاشفة الوحيد في الحكومة، الاشتراكيون الثوريون اليساريون، إلى التكتيكات القِبَلية القديمة، واغتالوا السفير الألماني الكونت ميرباخ وذهبوا مسلحين إلى مؤتمر مشترك مع البلاشفة في موسكو. البلاشفة الواعون بطبيعة المؤامرة لم يحضروا. نُزع السلاح من الاشتراكيين الثوريين اليساريين وقُبض عليهم وحُظِر حزبهم.



تروتسكي وجوفي (إلى اليمين) في برست-ليتوفسك في عام ١٩١٨، يقودان الوفد السوفييتي.

في ١٥ ديسمبر عام ١٩١٧، وقَّع تروتسكي على هدنة مع ألمانيا، لتنتهي الحرب على الجبهة الشرقية. وفي مناشدة "لشعوب أوروبا الكادحة والمقموعة والمنهكة"، شرح أن ما فعلوه كان ضروريًا لإيقاف المذابح ودعاهم لتنحية الحكومات التي رفضت حضور المؤتمر والموافقة على السلام الفوري: "على العمال والجنود أن ينتزعوا مسألة الحرب والسلام من أيادي البرجوازية المجرمة ويحتفظوا بها في أياديهم... لدينا الحق في أن نطالبكم بذلك، لأن هذا هو ما فعلناه في بلادنا". كان لهذه المناشدة أثرها على أوروبا؛ كان رد فعل العمال وأعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي في النمسا غاضبًا عندما عرفوا أن الجنرال النمساوي هوفمان هدد بإحلال الخراب على روسيا إذا لم تخضع للمطالب الانتقامية المبالغ فيها التي وُضعت على طاولة برست-ليتوفسك. دعا الاشتراكيون الديمقراطيون لمسيرات

حاشدة في فيينا، تضامنًا مع الثورة الروسية، وفي الوقت نفسه، أدت موجة هائلة من الإضرابات التلقائية، التي فاجأت الاشتراكيين الديمقراطيين، إلى توقف الحياة الصناعية في فيينا وستيريا والنمسا العليا، وفي خلال يوم واحد وصلت إلى بودابست.

عقدت سوفييت العمال النمساويين، التي انتخبتها المصانع، جمعيتها الأولى في ١٦ يناير عام ١٩١٨. حضر الاشتراكيون المجلس ودعموا القرارات المقترحة، ولكنهم لم يقدموا برنامجًا يخصهم لتصعيد الأمر. توجه وفد، ضم فيكتور آدلر وكارل سايتس، ليلتقي برئيس وزراء خائف. في اللحظة التي وصل فيها الوفد، تلقى بيانًا من كونت تشيرنين، وزير الخارجية؛ تعهد فيه بأن النمسا لن تدعم بعد الآن أي مكاسب إقليمية على حساب الجمهورية السوفييتية، وسوف تقدم اعترافًا غير مشروط لحق بولندا في تقرير المصير.

اعتبر الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون ذلك انتصارًا، وسارعوا بإعلان أن العمال انتصروا في هدفهم الأول. بلا شك كان المزاج العام في النمسا قبل ثوري، حتى أن بعض الاشتراكيين الديمقراطيين اليساريين اعترفوا بذلك. لم يكن هناك سبب موضوعي للجمود، ولكن لم يكن هناك حزب سياسي منظم أو تيار ليقترح قطيعة تامة مع الحرب والرأسمالية والإمبراطورية. على العكس، في اجتماع رئيسي بسوفييت فيينا، دعا الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون العمال لإنهاء الإضراب، قوبل خطابهم بصيحات وتصاعدت جدالات غاضبة واستهجن العمال المقاتلون تصرف السياسيين. بسبب عدم وجود بديل سياسي، انهار الإضراب بعد أربعة أيام، ولكن مع عودة العمال إلى المصانع، اندلع تمرد بحري في كاتارو على الساحل الدلماسي، وهو موقع الأسطول النمساوي البحري الإمبريالي. كان نصف الأسطول –السفن البحرية والزوارق والبوارج– متمركزة هناك. لم يكن نمط الثورة مختلفًا عن روسيا في عام ١٩٠٥ و١٩١٧. استولى البحارة

على السفن، واعتقلوا أدميرالين اثنين، ورفعوا الأعلام الحمراء على كل سارية، وانتخبوا مناديب لتشكيل سوفييت للبحارة، طالبوا بتحسين ظروفهم وبإنهاء فوري للحرب. ومجددًا كان العائق أمامهم هو عدم وجود محرضين سياسيين مرتبطين بحزب ثوري. لعب قائدهم العسكري فون جوسيك على عامل الزمن، واستدعى وحدات عسكرية من البوسنة والأسطول المتمركز في فيومي للمساعدة. البحارة المسلحين، ولكن غير المسيسين، كانوا محاطين أرضًا وبحرًا، ولم يكن لديهم خيار سوى الاستسلام. حوكم ثمانمئة بحار عسكريًا وحُكم على معظمهم بالإعدام، ولكن لم يُعدم سوى أربعة لأن فكتور آدلر هدد وزارة الحربية بالقيام إضراب عام. بعد ذلك دافع الاشتراكي الديمقراطي اليساري أوتو باور عن حزبه، مجادلًا بأنه إذا قام بثورة، سيرسل الجيش الألماني لسحقهم، وستسقط الجبهة الجنوبية "وسوف تشتبك جيوش الوفاق القادمة من الجنوب مع الجيوش الألمانية القادمة من الشمال على الأراضي النمساوية، ستكون النمسا أرضًا للمعركة". هل قُدمت هذه الحجة الضعيفة والمثيرة للشفقة لتبرير التخريب الفعَّال لعملية القيام بثورة؟ في هذه المرحلة من الصراع لم يكن هناك أي تحليل على الإطلاق عن الإنهاك العالمي من الحرب، ولإمكانية أن يتمرد الجنود الألمان إذا طُلب منهم أن يفتحوا النار على إخوانهم النمساويين، وأيضًا لم يكن هناك إدراك لحقيقة أن جنود الوفاق الذين تعرضوا لصدمة ما بعد الحرب كانوا يتهربون بدورهم. سُحق التمرد في الجيشين الفرنسي والإنجليزي، وأصاب سرطان الشوفينية الاشتراكية الاشتراكيين النمساويين بقدر ما أصاب رفاقهم الألمان. كان باور يجادل بقوة بأن تحويل الحرب العالمية إلى حرب أهلية ضد حكام النمسا سيجلب الحرب الكبرى إلى الوطن. اعتبر نفسه ماركسيًا، ولكن تبريره أوحى بأنه لم يفهم هيجل. تغير الزمن، ولكن الأعراف الاشتراكية الديمقراطية لم تتغير. بعد عشرين عامًا، وعند تنظيمهم انتفاضة شوتسبوند

اليائسة والمأساوية والتي جرت في اللحظة الأخيرة في عشية دخول هتلر إلى النمسا، هل فكّر الزعماء الاشتراكيون النمساويون في احتمال أنه كان بإمكانهم تجنب هذه الكارثة لو كانوا أكثر جرأة عام ١٩١٨؟

وماذا كان يعتقد باور وآدلر ورفاقهم في تغيير الوضع في برلين؟ هنا أيضًا أتت مناشدة البلاشفة لعمال أوروبا ثمارها. حاول العمال الألمان، الذي استلهموا الاضطراب العام في فيينا، بأن يقوموا بالأمر نفسه في برلين. حتى قبل الثورة الروسية كان هناك اضطراب متصاعد في ألمانيا.



لينين يخطب في لقاء بمناسبة عيد العمال، عام ١٩١٩.

في عيد العمال في مايو عام ١٩١٦، أولَت عصبة سبارتاكوس (سبارتاكوس بوند)، التي كان يقودها كارل ليكبنشت وروزا لوكسمبورج، ظهرها لقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي بعد ٤ أغسطس عام ١٩١٤،

ودعت بجرأة لمظاهرة هائلة من أجل السلام والاشتراكية. سُجن الزعيمان لفترة قصيرة عام ١٩١٥، وكانا قد خرجا من السجن لتوهما. تجاوزت الاستجابة كل التوقعات. كان الحس العام قد تغير، ثَقَب واقع الحرب الفقاعة الشوفينية. في رواية "كارل وروزا"، وهي الرواية الافتتاحية في ثلاثية آلفرد دوبلن العظيمة، يصف الكاتب الألماني هذا المشهد من عيد العمال بأسلوب وثائقي، لم تكن هناك معلومة في غير محلها. كانت الرسالة واضحة: ففي أزمنة الحرب، كل ديمقراطية رأسمالية، مهما كانت منقوصة (كان نصف السكان مقصيون من حق التصويت بسبب الجنس)، تستحيل إلى ديكتاتورية، ويكون ذلك أوضح في بعض البلدان عن الأخرى:

"يا له من وقت عظيم ذلك الذي انقضى في ميدان بوتسدام ببرلين! احتل البوليس المكان في وقت مبكر ذلك الصباح، ولكن مع ذلك جاء العمال. تزايدت أعدادهم، الآلاف منهم. وظهر كارل، كارل ليبكنشت في زي جندي عادي. كانت تقف إلى جانبه... تتحدث. ولكن صوت كارل كان يرعد فوق كل شيء آخر: (لتسقط الحرب! لتسقط الحرب! لتسقط الحكومة).

ثم تحرك أفراد البوليس، رافعين سيوفهم، للقبض عليه. ألقت روزا والآخرين أنفسهم بينهما. استمر في الصياح... ركض أفراد سلاح الفرسان واعتقلوا كارل. كان الاضطراب خارجًا عن السيطرة. مادت أرض الميدان والشوارع المؤدية إليه بالناس الغاضبين لساعات... يا له من عيد عمال متفجر!... حُكم على كارل بالسجن لأربع سنوات... وبعد وقت قصير قبضوا عليها هي أيضًا. حكموا عليها بالحبس الاحتياطي لأجل غير مسمى. والآن ابتلعها السجن".

في ربيع العام التالي (١٩١٧) جرت إضرابات عامة في برلين وهال، وبرونسفيك وماجديبرج وليبزج بسبب نقص الطعام. ولكن ليبزج في ذلك الوقت كانت معقلًا للحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل، الذي أنشئ بسبب انشقاق آخر في اليسار بعد أغسطس عام ١٩١٤، وتراوح بين أفكار الإصلاح والثورة، ولكنه انتهى بالثبات في المعسكر الأول. كان هناك عمال أرادوا ما هو أكثر وأصروا "أن تتعهد الحكومة بقبول تسوية سلمية فورية، وترفض أي رغبة في ضم أراض بشكل علني أو سري".

في صيف العام نفسه، طالب البحارة المتمردون في الأسطول الألماني في كييل بالسلام بدون ضم أو تعويض. حوكم "عشرة زعماء" عسكريًا، وأعدم اثنان منهم، وحُكم على الآخرين بمجموع ١٨١ سنة من الأشغال الشاقة. تعلم حُكّام ألمانيا دروس الثورة الروسية.

في يناير عام ١٩١٨، وفي أعقاب ما حدث في فيينا، تحول صوت الرعد البعيد إلى عاصفة هائلة من الإضرابات في أنحاء ألمانيا. كانت لجنة ممثلي العمال في برلين قد دعت في ٢٧ يناير إلى إضراب. تلقوا الدعم من الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وبالطبع تلقوه من عصبة سبارتاكوس، التي كان زعماؤها الرئيسيين ونشطاؤها البارزين في السجن. دخل مليون عامل (نصفهم في برلين وحدها) في إضراب لعشرة أيام. كان المطلب الرئيسي هو السلام والتضامن مع روسيا، وألا يكون هناك ضم للأراضي، ولكن الحس العام بين العمال، الذين أرادوا حكومة جديدة، كان متجهًا أكثر نحو القتال. رفض الجنرال لودندورف، الدكتاتور المطلق في بلاده، أن يتزحزح عن موقفه، وقرر مواصلة القمع، ونفذ الجنود أوامره.

لاحقًا سيكتب مؤرخ اشتراكي ديمقراطي نمساوي: "فقط لو كانت راودت القوات فكرة الانضمام إلى جانب العمال، لتحولت الحركة إلى

نضال ثوري. ولكن الجنود ظلوا بلا حركة ولم يلمسهم أحد".[4] هل كان لهذا دورًا ما في التنازل المهين للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في عام ١٩١٤؟ أم يظل الأمر سابقًا لهذا الحدث؟ في النهاية، غالبية أفراد قيادة وقاعدة النقابات الدائمين، خاصة في جنوبي ألمانيا، أصيبوا بداء مراجعاتية برنشتاين[iv] المؤيدة للرأسمالية. وكما ستشير روزا لوكسمبورج لاحقًا، فمعارضة الوسط (معارضة كاوتسكي) لبرنشتاين كانت مبنية على "فكرها المحافظ"، ولأن كاوتسكي كان شارحًا للماركسية لوقت طويل، كان من الصعب عليه أن ينفصل نظريًا عن هذا الماضي. كانت الممارسة مسألة مختلفة كلية. ومع ذلك، لو كان حزب العمال الألماني الجماهيري قد عارض الحرب بقوة (وكان موقف برنشتاين من الحرب غامضًا)، لساعد هذا بلا شك في توعية العمال المجندين المنتمين للحزب الاشتراكي الديمقراطي.

أكثر مهمة مستحيلة لدى الجندي هي أن يعصي الأوامر، التهرب من الجندية أمر صعب بما يكفي، والعديد من المتهربين من الجيوش التي حاربت في الحرب العالمية الأولى أطلق عليهم الرصاص باعتبارهم "جبناء" و"خونة" بعد محاكمات عسكرية صورية. كانت مظاهر التمرد واسعة النطاق في روسيا ممكنة بسبب حقيقة أن البلاشفة، إلى جانب أعضاء الصفوف الدنيا وبعض زعماء المناشفة والاشتراكيين الثوريين، كانوا يكرهون الحكومة، جعل هذا معارضة الحرب أسهل كثيرًا. قرار الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني بالتصويت لصالح ديون الحرب نزع فاعلية العمال في المصانع وعلى الجبهة. ومن منطلق الخوف من موجة الشوفينية التي عبَّرت عنها الحشود في ٤ أغسطس عام ١٩١٤، لم تستطع زعامة الحزب الاشتراكي الديمقراطي أن تفكر فيما وراء اللحظة الحاضرة. الوعي السياسي، كما أصر لينين في العديد من المرات، لا يسير في خط مستقيم. لقد تغير، كما أظهرت بشكل

4 Julius Braunthal, *History of the International, 1914–1945*, tr.John Clark, London, 19

كبير حقبة ما بين هزيمة عام ١٩٠٥ وانتصار عام ١٩١٧، وهذا كان سبب الاحتياج لحزب للبقاء أقوياء في الأزمنة السيئة. لم يحدث هذا في ألمانيا، لم يكن أمام الجنود بديلًا حقيقيًا لقبضة لودندورف الحديدية، وعندما كان الجنود مستعدين للثورة، لم تكن عصبة سبارتاكوس قوية بما يكفي.

في الوقت الذي بدأت فيه الحرب في بريطانيا، أسقط مؤتمر النقابات والغالبية العظمى من حزب العمال كل معارضتهما لها، ووقعا على هدنة تقضي بعدم حدوث إضرابات خلال الحرب، واشتركا في حملة تجنيد ونشرا كتيبًا بعنوان "الحرب التي تنهي كل الحروب"، وهو انعكاس ضعيف للبروباجندا الليبرالية المناصرة للحرب. ظل حزب العمال المستقل والحزب الاشتراكي البريطاني معادين للحرب، ولكن بدون تأثير. اتبع أعضاء البرلمان الأربعين القادمين من حزب العمل هذا التيار، باستثناء مذهل من رامزي مكدونالد. التابعات لحركة سفراجيت أيضًا انقسمن في هذا الشأن، دعت إيميلين بانكهورست الحركة الجماهيرية للتوقف، وأرسلت مناصراتها من النساء إلى منازلهن لحياكة الجوارب للجنود. أما ابنتها سلفيا، وهي الاشتراكية المخلصة من قبل الحرب، فعارضت بثبات المذبحة وصارت شيوعية.[5] ناهض برتراند راسل الحرب بالقدر نفسه، وعارضها بلهجة قوية وقضى فترة في السجن. أما أسكتلندا فهي التي ظهرت فيها معارضة مميزة. ألقى جون ماكلين، المدرس الاشتراكي الشاب، خطبًا في لقاءات كبيرة في جلاسجو، شرح فيها الطبيعة الإمبريالية للحرب ودعا العمال ألا يشاركوا في قتال الغرض منه الجشع والاستعمار، أما إذا كانت رغبتهم شديدة في القتال، فاقترح أن يزحفوا إلى لندن للتخلص من المَلَكية. منذ بداية حياته السياسية أصر ماكلين على انفصال أسكتلندا ودافع عن فكرة قيام جمهورية عمالية أسكتلندية. كان يزدري الإمبراطورية البريطانية، وكانت تزدريه بدورها. اعتقُل عام ١٩١٤ وفقًا لقانون الدفاع عن المملكة، حُكم عليه

5 كتيب لينين "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية" كان موجهًا لها هي وآخرين.

بالأشغال الشاقة لثلاث سنوات، في سجن بيترهيد، وأُجبر على تناول الطعام حين أضرب عنه. عند خروجه استقبله عشرات الآلاف من العمال، وحملوه كمنتصر في شوارع جلاسجو. كرَّم البلاشفة نضاله ضد الحرب بانتخابه رئيسًا شرفيًا لمؤتمر السوفييتات الأول لعموم روسيا، إلى جانب لينين وتروتسكي وليبكنشت وآدلر وسبيريدونوفا. استُقبل الخبر ببهجة على ضفاف نهر كلايد.[6] توفى من الالتهاب الرئوي في الرابعة والأربعين من عمره. مزيج الفقر والسجن بالإضافة إلى تقديمه لمعطفه الوحيد لرفيق جامايكي مبترد، أدى إلى أن يموت مبكرًا.

في جنوبي أوروبا، كان التأثير الأكبر للثورة الروسية في إيطاليا. البلد الذي توحد في وقت متأخر، عام ١٨٦٠، كان يهيمن عليه ديموغرافيًا الفلاحون الجنوبيون، الذين لا يتحدثون الإيطالية، وأغلبيتهم كانوا أميين حتى عام ١٩١١. قرار إيطاليا بالانضمام إلى الوفاق عام ١٩١٥ لم يلق ترحيبًا كبيرًا في الجنوب، أو ضمن العمال في المصانع الشمالية، ولكنه كان مكسبًا لرجال الصناعة الإيطاليين. انعكس النمو الهائل في الصناعة بسبب مجاراة احتياجات الحرب على قطاع الصلب والهندسة، حيث تضاعف الإنتاج والأرباح (ومن ضمنها الخاصة بشركة فيات) من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٧. توازى النمو المذهل لرأس المال مع زيادة كبيرة بنفس القدر في حجم البروليتاريا: على سبيل المثال عدد العمال الذين وظفتهم فيات زاد

6 في بداية يناير عام ١٩١٨، كتب مكسيم لتفينوف، السفير السوفييتي في بريطانيا، إلى ماكلين: "كتبت لقنصلهم الروسي (القيصري) في جلاسجو لأخبره عن تعيينك وأطلب منه أن يسلمك القنصلية. ربما يرفض ذلك، وفي تلك الحالة سوف تفتح قنصلية جديدة وتعلن عنها في الصحافة. ربما يكون موقفك صعب إلى حد ما، ولكن ستحظى بدعمي... من الهام جدًا أن تبقيني (أنا ومن خلالي السوفييتات الروسية) على علم بالحركة العمالية في شمال بريطانيا". فتح ماكلين قنصلية جديد في ١٢ شارع ساوث بورتلاند، جوربالز، جلاسجو، ولكن لم تعترف الحكومة البريطانية به كقنصل، وأمرت مكتب البريد بألا يوصل الرسائل إلى هذا العنوان أو هذا الاسم. في تعبير عن تفاهة الإمبراطوريات العالمية!

من ٤٤٠٠ عام ١٩١٤ إلى ٤١٢٠٠ عام ١٩١٨. كانت الأركان الثلاثة لمثلث إيطاليا الذهبي هي تورين وميلان وجنوة.

غضب الفلاحين المتفرق تجاه الحرب، الذي أثاره التجنيد الإجباري ونقص الطعام والمؤن، كان واضحًا في الريف بداية من يناير عام ١٩١٦، وعادة ما صاحبته مظاهر هجوم عنيفة على الشرطة وأعيان القرى. كان السخط المديني المتركز في تورين ناتجًا عن نقص الطعام ومستويات الاستغلال العالية للغاية في المصانع. كانت اللياقة الاجتماعية نادرة، وكان الوضع الاجتماعي على خلاف الوضع في بتروجراد عشية ثورة فبراير (انعكست أرباح فيات على نمو صناعة بوتيلوف للسلاح). أخبار إسقاط القيصر واستيلاء العمال على السلطة ولدت الأمل بين الفقراء في إيطاليا سواء في المدينة أو الريف. في أغسطس عام ١٩١٧، أطلقت قوات "الكارابنيري" النار على اثنين وأردتهما قتيلين لاحتجاجهما على نقص المؤن، ومطالبتهما بالحصول على الخبز وإنهاء الحرب. شاركت النساء والأطفال في كل تلك الاحتجاجات وهتفت للبوليس "انضموا لأخوتكم، لا تطلقوا النار عليهم"، ولكن تم تجاهلهم. كان رد الفعل على القتل هو الإضراب العام. من جديد نضجت الشروط الموضوعية لإنشاء سوفييتات مدينية –وبالتالي وجود كيانين سلطويين مستقلين. لم توجد قوة سياسية لتضغط من أجل تحقيق ذلك في البلاد. مع نهاية الحرب العالمية الأولى وما تبعها من فرض سلام كارثي أكد على ضرورة اندلاع حرب ثانية، كانت الخسائر الإيطالية متقاربة مع الخسائر في روسيا. جُند أكثر من ٥ مليون شخص من أجل القتال. تتنوع الأرقام، ولكن كان عدد القتلى بين ٦٠٠ ألف ومليون شخص. أصيب نصف مليون إصابات بالغة وجُرح مليون.

بعد عام من الهدنة، استثارت إضرابات تورين المفكرين الثوريين الشباب، الثورة الروسية والاضطراب الثوري التالي لها أديا إلى الاستحواذ على إحدى الصحف. الآن سيحرر جريدة "النظام الجديد" L'Ordine

Nuovo أنطونيو جرامشي، المفكر الشاب القادم من سردينيا، والذي درس في تورين وأقام فيها، ويساعده بالميرو تولياتي. صارت هذه الجريدة صوت عمال تورين، ونتيجة ذلك حظى جرامشى باحترام وإعجاب عظيمين في المصانع. لم يكن بعد زعيمًا لأي حزب أو فصيل سياسي. في ٢٠ يونيو عام ١٩١٩، نشرت الجريدة مقالًا بعنوان "ديمقراطية العمال"، حث فيه جرامشي العمال بقوة لتحويل "لجانهم الداخلية" الضعيفة فعليًا (وكانت بمثابة تنازل من السلطة في وقت الحرب) إلى مجالس عمال منتخبة ديمقراطيًا. وصلت السوفييتات إلى تورين، وكان رد الفعل على المقال واسعًا. في ديسمبر عام ١٩١٩، اشترك أكثر من ١٥٠ ألف عامل في المجالس الجديدة، التي تكونت من مفوضين انتخبهم كل فريق عمل في كل مصنع. كان النموذج خليطًا متسرعًا من كميونتي بتروجراد وباريس. تُنزع صلاحيات أي مفوض إذا أرادت ذلك أغلبية من انتخبوه.

كان الموظفون يستعدون أيضًا. في مارس عام ١٩٢٠، اجتمعوا ليؤسسوا اتحادًا عامًا للصناعة. جاء أمينها العام، سنيور أوليفيتي، بمذكرة مكتوبة على الآلة الكاتبة تقول بأنه لا بد من تدمير سوفييتات المصانع مهما كان الثمن، اتفقت الحكومة مع ذلك، وانتشرت القوات لحصار تورين. استخدم موظفو فيات نزاع تافه على تغيير التوقيت الصيفي من أجل تحقيق الاستفزاز، أعلنوا الإغلاق، وأصروا على أن الطريقة الوحيدة للتسوية هي فض مجلس العمال والعودة إلى "اللجان الداخلية" القديمة. وفي مواجهة هذه المناورة الفجة لتدمير تنظيم الطبقة العاملة، دعت نقابة العمال الهندسيين والحزب الاشتراكي الإيطالي إلى إضراب عام. استجاب نصف مليون عامل للدعوة وحل الصمت على كل المصانع الكبيرة في بيمونتي، ولكن زعماء اتحاد العمال الإيطالي والحزب الاشتراكي الإيطالي رفضا المساعدة على تطوير الإضراب، على أمل أن يظل إقليميًا. بعد أحد عشر يومًا، لم يكن

لدى عمال تورين خيارًا سوى تسوية النزاع، بينما رفضوا فض سوفييتهم. وحل الجمود.

استمرت المعركة لأربعة أشهر ونصف، وفي هذه المرة في ميلان وعلى نطاق أوسع. أوقف الموظفون التفاوض مع نقابة العمال الهندسيين، وكان رد فعل النقابة هو الإضراب الجزئي. لم يكن لدى الموظفين خبرة بهذا التكتيك وشعروا بالغضب، ولجأوا للعنف، وأمر رؤساء شركة ألفا روميو بعقاب جماعي تمثَّل في شكل الإغلاق. احتل العمال المصنع، وتبعهم عمال المدينة في المصانع الأخرى. بعد يومين، احتُلت مصانع التعدين الكبرى في تورين. انتشرت الحركة بسرعة في الصناعة الإيطالية الثقيلة، ومثلت تحديًا عامًا للرأسمالية الإيطالية. أبقى العمال المحتلين على عملية الإنتاج، وحمى الحراس الحمر المصانع من الهجمات الخارجية. كان الموقف يحتاج إلى حزب سياسي للتقدم على المستوى الوطني وتحدي الحكومة. ألقى اتحاد العمال الإيطالي، غير القادر على قيادة النضال، بالمسؤولية على الحزب الاشتراكي، الذي أعادها باقتراح استفتاء. سُئل الأعضاء إذا كانوا يريدون المزيد من المفاوضات أم الثورة، وبشكل غير مفاجئ اختارت أغلبية محدودة خيار المزيد من المفاوضات، خوفًا من فقدان الوظائف والأجور والتعرض لمجاعة عامة. قام رئيس الوزراء الليبرالي جوليتي بتنازلات اقتصادية، حتى أنه زعم أنه يوافق على مبدأ "سيطرة العمال". انتهى احتلال المصانع، ورغم أنهم لم يكونوا بعيدين جدًا عن الذروة، تراجع العمال الإيطاليون، الذين تخلى عنهم اتحاد العمال والحزب الاشتراكي (بعض زعمائه كانوا يتفاوضون سرًا مع جوليتي)، وترنحوا من الهزيمة الكارثية ليتعرضوا لعواقب أكثر رعبًا.

اهتاج الرأسماليون الإيطاليون والأحزاب السياسية التي تقف إلى جانبهم من تحدي العمال، لم يكونوا مستعدين لجولة جديدة، وبالتالي اتجهوا للفاشية. هل توقف اتحاد العمال والحزب الاشتراكي، وهما يريان القمصان السود التابعة لموسوليني تحرق اتحاد العمال ومقرات الحزب في أنحاء إيطاليا،

ليتأملوا كيف كان من الممكن أن يسير الأمر في اتجاه مختلف؟ هؤلاء الذين فكروا في ذلك بالفعل غادروا ليساهموا في تأسيس الحزب الشيوعي في مؤتمر بـ "ليفورنو" عام ١٩٢١، أما المقتنعين بأن الطريق إلى ديمقراطية العمال ممكن بدون الحاجة لحزب فغيروا رأيهم بعد وقت قصير. كان لهزيمة سبتمبر عام ١٩٢٠ تأثير على عقل جرامشي يتجاوز تأثير الثورة الروسية، اعترف أن برنامجه لمجلس العمال عاني من قيود شديدة، ولوقت قصير اعتنق يعقوبية[٧] صارمة ترفض كل المجالس التمثيلية. سريعًا ما عاد إلى وجهة نظر أكثر عقلانية عن العلاقة بين الحزب والجماهير، ولكنه لم يتخل أبدًا عن موقفه الجديد الذي يرى أنه لا يمكن قيام ثورة بدون حزب سياسي. سيكون هذا هو "الأمير الحديث". ويحتاج الحزب السياسي إلى "قوام عسكري" دائم.[٧] لم يكن جرامشي قد قرأ الكثير من أعمال لينين في ذلك الوقت، ولكن الاستنتاج الذي وصل له لم يكن مختلفًا كثيرًا عن أطروحات لينين (الذي دعمه في هذا الوقت بليخانوف وآكسلرود وجل زعماء الاشتراكيين الديمقراطيين الروس) إلى الحد الذي يقول بأن الحزب الثوري لا بد أن يكون "مستعدًا *لكل شيء*"، خاصة "الإعداد وتحديد التوقيت وتنفيذ *تمرد وطني مسلح*".

من خلال رؤية تلك الانتفاضات والهزائم من بعيد، هل كان لينين مخطئًا في التفكير بأن الأكثر إلحاحًا هو أممية جديدة وأحزاب جديدة؟ ظل انهيار الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني يطارده. كان سيوافق على نقد جرامشي لهذا الحزب، النقد الذي كُتب في ديسمبر عام ١٩١٩. كان الإيطالي قد ذهب ساعتها إلى أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في عامي ١٩١٩-١٩٢٠ قلص مجالس الجنود والعمال في هذه البلد إلى "شكل لين وطيع أمام إرادة الزعماء". وبالإضافة إلى ذلك "فيات هي من شكلت

7 حتى من اختلفوا مع هذا التقدير في وقتها أو بعد ذلك، لا بد أنه سرّهم أن يتم تحقيقه أثناء المقاومة الإيطالية للفاشية. نزع السلاح ذاتيًا بعد الحرب كان تنازلًا من تولياتي.

مجالسه، وأمنت فيات وجود أغلبية من رجالها، لقد عطلت الثورة واستأنستها"، وكانت حلقة الوصل بينها وبين العمال هي "ضربة قبضة نوسكه على ظهورهم".

١٠

الأممية الثالثة

في جل شهري سبتمبر وأكتوبر عام ١٩١٧، بدا أن لينين رأى في نجاح ثورة أكتوبر في الأساس نقطة انطلاق للثورات في أنحاء أوروبا. كانت الحرب ما تزال محتدمة وكان يأمل في أن تؤدي إلى أزمات ما قبل ثورية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وممتلكات إمبراطورية هابسبرج. بالنسبة له كانت هذه أكفأ طريقة لهزيمة الثورة المضادة. من أجل تحقيق ذلك، كان من الضروري البدء في تنظيم أممية جديدة ستمثل قطيعة تامة مع الجبن الفدرالي والسياسي للأممية الثانية، وقطاعاتها الشوفينية الاجتماعية التي خضعت لحكوماتها الرأسمالية ودافعت عنها أثناء الحرب. لهذا السبب، كان الاتفاق مع التشريعات (ومع الشروط الإحدى وعشرين التي وضعها لينين عام ١٩٢٠ للانضمام للكومنترن) ضروريًا لتكون جزءًا من النظام الجديد.

آمن لينين بقوة بأن الحروب الأهلية على وشك الاندلاع في أنحاء أوروبا، ولهذا السبب كانت هناك حاجة إلى أممية شيوعية لتقوم بدور قيادي في الثورة العالمية. كان يزدري الأممية الثانية بشكل خاص لأنها جعلت من "ذوي البشرة البيضاء" أولوية لها، ولم تهتم ببقية أنحاء العام، ومن ضمنهم ضحايا الدول الإمبريالية. ستقاتل الأممية الشيوعية إلى جانب الرفاق الآسيويين والأفارقة لتحطيم أغلال الإمبراطورية الأوروبية. انتهت الحرب وكان يمكن رؤية النتيجة النهائية في المقابر والمستشفيات والعيادات النفسية

في أنحاء أوروبا. بدت الأرقام مفزعة: ٣٠ مليون قتيل وجريح، ومجاعة عامة، وديون حرب هائلة. استنكر لينين إنشاء القوى المنتصرة لعصبة الأمم واعتبرها "عصبة اللصوص البرجوازيين"، وأنشئت لوضع ختم الموافقة على الجرائم الاستعمارية وغيرها من الجرائم.



مناديب المؤتمر المؤسس للأممية الشيوعية (كومنترن)، موسكو، ١٩١٩.

صاغ تروتسكي الدعوة لحضور المؤتمر المؤسس عام ١٩١٩. وقّع عليه هو ولينين باسم الحزب الشيوعي في روسيا، الذي انضم إليه عدد من المنظمات الأخرى في الدول المجاورة وحزب العمال الاشتراكي في الولايات المتحدة. واحتوت الدعوة على الآتي:

"أثناء الحرب والثورة، صار واضحًا بشدة أن الأمر لم يقتصر على الإفلاس التام للأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية القديمة، إلى جانب الأممية الثانية... وعدم قدرتها على القيام بفعل ثوري إيجابي... إنما طرحت القفزات الهائلة للثورة العالمية باستمرار مشكلات جديدة، الخطر

يتمثل في إمكانية كبح جماح هذه الثورة بتحالف الدول الرأسمالية، التي اجتمعت معًا ضد الثورة تحت اللافتة المنافقة التي حملت اسم (عصبة الأمم)... العهد القائم هو عهد تحلل وانهيار كامل النظام الرأسمالي العالمي، والذي سيجر معه كل الحضارة الأوروبية إذا لم تُدمَّر الرأسمالية بتناقضاتها المستعصية".

انعقد المؤتمر الأول للأممية الشيوعية (الكومنترن) في موسكو من ٢ إلى ٦ مارس عام ١٩١٩. ولأن الجمهورية السوفييتية الوليدة انقطعت تقريبًا عن بقية العالم، فلم يتم قبول تعيين دبلوماسيين في أي مكان، وكانت مهددة بالتدخلات والحرب الأهلية في الداخل، كان الوصول للعاصمة الروسية في غاية الصعوبة. استطاع الحزب الشيوعي الألماني المُشكَّل حديثًا، الذي كان يعيقه مقتل اثنين من زعمائه الرئيسيين، لوكسمبورج وليبكنشت، أن يرسل مندوبًا، ولكنه ردد وجهة نظر روزا بأن تشكيل أممية جديدة سابق لأوانه. لا يوجد شك كبير في أنها لو كانت حاضرة بنفسها لدافعت بقوة عن التأجيل حتى ظهور بضعة أحزاب جماهيرية أخرى. كانت وجهة نظر لينين، التي وافق عليها الحزب البلشفي بالإجماع هذه المرة، متأثرة سلبًا بالاختلافات الحادة التي ظهرت بعد توقيع معاهدة برست-ليتوفسك مع الألمان، وكانت وجهة نظره أن هناك حاجة لأممية جديدة وسبب ذلك بالتحديد هو المساعدة على بناء أحزاب جماهيرية. الحدث الذي جرى كان بمثابة انتصار، وبمجموعة من الأطروحات التي شرحت المواجهة بين الديمقراطية البرجوازية والدكتاتورية الثورية، عبَّر المؤتمر الصغير، الذي ضم خمسة وخمسين مندوبًا، عن أهدافه. ونُظر للبيان النهائي، الذي كتبه تروتسكي في زمن "حل فيه الخراب على أوروبا وتصاعدت منها أدخنة الحطام"، على أنه مكمل لـ "البيان الشيوعي"، ودعوة لتعميم التجارب الثورية للطبقة العامة وكل حلفائها من أجل وضع أساس سلسلة من

الثورات العالمية. كان هذا هجومًا لاذعًا على زعماء الحرب الأوروبيين: "مشعلو الحرائق وسيئو السمعة مشغولون بالبحث عن المجرمين المسؤولين عن الحرب، مدعومين كالعادة بكورَس الضفادع المكون من أساتذة الجامعة، وأعضاء البرلمان، والصحفيين، والوطنيين الاجتماعيين، وغيرهم من القوادين السياسيين للبرجوازية". هناك بعض الأشياء التي لا تتغير أبدًا.

حظى الكومنترن بدفعة مؤقتة بسبب الثورتين المجرية والبافارية قصيرتي الأمد، وللحظة عابرة، ظن لينين أن هذا ربما ينبئ ببداية هجوم جديد بعد هزيمة برلين. لم يمض الأمر بهذه الطريقة. لم يكن للثورة المجرية تأثير كبير خارج بودابست، وبداياتها كانت غريبة إلى حد ما. سلَّم البرجوازيون السلطة حرفيًا إلى تحالف اشتراكي ديمقراطي وشيوعي ولكنه لم يكن متكافئًا. الاشتراكيون الديمقراطيون كانوا يضمون ٧٠٠ ألف عضو، لأن أعضاء النقابات حصلوا على عضوية تلقائية في الحزب. وكان الشيوعيون هم سجناء الحرب المجريون الذين حررهم البلاشفة. كان زعيمهم بيلا كون قد انضم للاشتراكيين الديمقراطيين، وكان الحزب الشيوعي المشكّل حديثًا يضم ١٠٠٠ عضو. كان لينين متشككًا ومرتابًا، كيف حدث ذلك؟ طمأنه كون بأنه مسؤول عن مجلس الحكم، على الرغم من الثقل الشديد للاشتراكيين. زعيم شيوعي آخر، تيبو صامويلي، عارض أي دمج مع الشيوعيين بسبب اختلاف حجم العضوية. جادل كون، وأشار إلى أنهم سيكونون سجناء منذ البداية، ومن الممكن أن يُنحوا جانبًا إذا اعتبرهم الاشتراكيون الديمقراطيون زائدين عن الحاجة. كانت هناك وجهة نظر سائدة بين بعض المثقفين ترى أن الليبراليين المجريين أرادوا أن تتولى السلطة حكومة راديكالية لإخافة الوفاق ومنعه من تقسيم المجر في فرساي. لو كان هذا هو الوضع، فقد نجحت الخدعة.

ولكن بيلا كون ذهب في تقرير للبرافدا في الرابع من يوليو إلى أن الإضراب في بودابست لم يكن حدثًا محليًا، إنما كان جزءًا من "سلسلة من

الإضرابات التي حلت في مصانع منفصلة... كانت حركة جماهيرية واحدة... توقف العمل في كل مكان". تحدى كون وجهة النظر التي تقول إنه مجرد إضراب ضد الجوع أو للمطالبة بالإصلاح الانتخابي، مجادلًا أنه كان ضد التعسكر ولا ينبغي التقليل من شأنه:

"خلال الحرب كان من الصعب تحويل منظمات العمال وفقًا للمتطلبات الثورية للبروليتاريا؛ ولكن *العمال الآن يستمرون في النضال على الرغم من زعماء نقابات العمال*... لخمسة عشر عامًا هدد الأعضاء الرسميين للحزب (الاشتراكي) البرجوازية: (سنبدأ بالتحدث بالروسية). في اللحظة الراهنة، تتحدث البروليتاريا المجرية اللغة الروسية، وفي الواقع يتصرفون كالروس".

بعد ستة أشهر أرسل الوفاق قوات رومانية وتشيكية إلى المجر، التي أسقطت الحكومة، هذا الذي أتاح مساحة لظهور دكتاتورية، ثم توجهوا للانضمام لجيوش دينيكين في الحرب الأهلية الروسية. فشل كون في مصادرة الأراضي المملوكة وتوزيعها على الفلاحين. إذا حظى الريف بالانتصار، لربما اختلفت النتيجة النهائية.

من الصعب فهم ما حدث في بافاريا بدون سرد أكثر تفصيلًا عن سقوط برلين. بحلول خريف عام ١٩١٨ صار من الواضح حتى لأكثر الأعضاء غباء في القيادة العليا الألمانية أنهم خسروا الحرب. الجنرال لودندورف، المدافع القاسي عن المصالح طويلة الأمد لألمانيا، لم يكن من هذا النمط، ولكن حتى هو كان يعرف أن اللعبة انتهت. شدَّد على اقتراحه للقيصر بوقف إطلاق النار وتشكيل حكومة أكثر "ديمقراطية" لإرضاء وودرو ولسون. سيساعد هذا لودندورف أيضًا على تحويل النقد من الجيش إلى المدنيين الذين يمكن أن يُلاموا على الهزية. وافق القيصر ونُفذت الأوامر،

وقدم الحزب الاشتراكي الديمقراطي عن طيب خاطر عضوين للعمل في الوزارة، واستعدوا للاستمرار مع الملكية طالما تقلصت سلطات المؤسسة كما هو الحال في بريطانيا. ولكن القوى المنتصرة حوَّلت القيصر فلهلم الثاني إلى فزاعة ورفضوا التسوية؛ لا بد أن يرحل القيصر. غضبت القيادة البحرية الاستعمارية واستمرت في السقوط، أطلقت كل المدافع النيران دفاعًا عن ملكهم. في ٢٤ أكتوبر عام ١٩١٨ (في الذكرى الأولى للثورة الروسية)، أرسلوا الأسطول إلى البحار المفتوحة للاشتباك مع الأسطول الملكي. قرر البحارة الألمان، غير المقتنعين بهذه المهمة الانتحارية، أن يتمردوا. انطلاقًا من القاعدة البحرية الرئيسية في فلهلمسهافن، انتشر هذا الحس في كل الوحدات على الساحل الألماني، وأثر كذلك على العديد من الجنود. فشلت كل محاولات سحق الثورة. نحَّت سوفييت الجنود والعمال في بافاريا الملك لودفيج الثالث عن عرشه قسرًا. صارت ميونيخ كميونة. في بداية نوفمبر وصلت الثورة الألمانية إلى برلين، حملت حشود هائلة من الجنود والعمال الأعلام الحمراء وطالبوا بالسلام ونهاية الملكية. عُزل القيصر، وبدا وكأن بتروجراد أخرى في طريقها للتشكل. كان لينين مقتنعًا بأن الثورة الألمانية ممكنة، واتفق هو وتروتسكي على أنه إذا تطلب الأمر ينبغي التضحية بكل ما في روسيا من أجل تحقيق النجاح في ألمانيا.

مجددًا جاءت الظروف الموضوعية في صف الثورة، ولكن على خلاف بتروجراد، حيث استرخى المناشفة والاشتراكيون الثوريون وراقبوا تكشُّف الأحداث بدهشة وعدم فهم، كان أقرانهم الألمان مستعدين بشكل أفضل. عارضت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي تمامًا أي انتفاضة. غضبوا من خطاب كارل ليبكنشت الصريح أمام الحشد المرحب له في برلين بعد خروجه من السجن مباشرة. بعد الهجوم على الحرب الرأسمالية التي حولت "أوروبا إلى مقبرة"، رحب بالثورة الروسية وتعهد باختراق عزلتها:

"لا ينبغي أن نتخيل أن مهمتنا انتهت لأن الماضي مات. علينا الآن أن نستجمع قوانا لبناء حكومة العمال والجنود، والدولة البروليتارية الجديدة، دولة السلام والبهجة والحرية لأخوتنا الألمان وأخوتنا في أنحاء العالم. نمد أيادينا لهم، وندعوهم أن يستمروا لاستكمال الثورة العالمية. من منكم يريد أن يشهد الحكومة الاشتراكية الألمانية والثورة الألمانية، فليرفع يده!"

رُفعت كل الأيدي.

كان المستشار الجديد وزعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي فردريش إيبرت، يؤمن أن الطريقة الوحيدة لاستعادة النظام تكون بتدمير عصبة سبارتاكوس، وذلك بسبب استمرار العمال والجنود في التظاهر وانضمام روزا لوكسمبورج والزعماء الآخرين من المنظمة الشيوعية الألمانية الناشئة إلى ليبكنشت في المسيرات. في وقت مبكر، وبعد تأسيس الجمهورية مباشرة، توصل إيبرت إلى "اتفاق شفوي" مع الجنرال فلهلم جرونر، القائد الجديد للجيش، يقول بأن المهمة الرئيسية هي منع "انتشار البلشفية". كتب جرونر بعد ذلك أن تدمير البلاشفة في الداخل في غاية الضرورة للجيش، وأن "إيبرت فكر في هذا... وشكلنا تحالفًا ضد البلشفية... لا يوجد حزب آخر لديه تأثير كاف على الجماهير ليستطيع إعادة تأسيس سلطة حكومية بمساعدة الجيش". في عام ١٩٩٣، تحالفت القيادة العليا نفسها مع حزب مختلف من أجل تحقيق أهداف مشابهة.

قرر إيبرت أن يسحق الشيوعيين، ولكنه كان يعرف أن هذا لن يكون سهلًا. كان ليبكنشت رمزًا للشجاعة وكان محبوبًا، ويعود ذلك بشكل كبير إلى معارضته للحرب التي دافع عنها إيبرت وحزبه، والأسوأ من ذلك ثبوت كونه على حق. كان لا بد من التخلص من تلك الكوادر. بدأ "الكريسماس الدموي" لإيبرت مبكرًا، بهجوم عسكري على العمال المقاتلين في المدينة خلال شهر ديسمبر، والذي بدأ عندما هاجمت الوحدات

العسكرية مظاهرة أنصار عصبة سبارتاكوس، وقتلت أربع عشر شخصًا. تعرضت مكاتب جريدة الحزب للحريق، وغلف التوتر المدينة. خطَّ الجيش ملصقًا انتشر في أنحاء برلين:

"أيها العمال! أيها المواطنون!

سقوط بلادنا وشيك!

حافظوا عليها!

هي ليست مهددة من الخارج، بل من الداخل:

من جماعة سبارتاكوس.

اقتلوا زعيمها.

اقتلوا ليبكنشت!

ساعتها ستحظون بالسلام والعمل والخبز!

توقيع: جنود من الجبهة".

في ٢٩ ديسمبر عام ١٩١٨، أمر إيبرت بتوزيع جماهيري لكتيبات الحزب الاشتراكي الديمقراطي. كان ذلك إعلانًا للحرب:

"إن الأفعال الوقحة لكارل ليبكنشت وروزا لوكسمبورج تلطخ الثورة وتهدد كل إنجازاتها. لا يمكن للجماهير أن تتحمل الانتظار دقيقة أخرى والنظر بتريث لهؤلاء الأجلاف وأتباعهم الذين يعيقون نشاط السلطات الجمهورية، محرضين الناس على الخوض عميقًا في الحرب الأهلية، وخانقين الحق في حرية التعبير بأياديهم القذرة. إنهم يريدون أن يمزقوا كل شيء يجرؤ على الوقوف في طريقهم بالأكاذيب والتشهير والعنف، ويتصرفون تصرفات مهينة وكأنهم سادة برلين".

بعد يومين انعقد اجتماع خاص لعصبة سبارتاكوس، قرروا فيه القيام بعصيان مسلح باعتبار أنها طريقة الدفاع الوحيدة ضد كتلة إيبرت-جرونر. عارضت روزا لوكسمبورج هذه المغامرة، وشرحت بهدوء أنهم جماعة صغيرة، وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل يحظيان بدعم الغالبية العظمى من العمال الألمان. هم لا يحظون بالأغلبية في مجالس العمال أو في أي مكان آخر، والمبادرة بالنضال للاستيلاء على السلطة في هذه الظروف سيكون أمرًا جنونيًا وغير ديمقراطي. كان التصويت ضدها، ولكنها رفضت الابتعاد. بدون إستراتيجية سليمة، انطلق نصف مليون عامل إلى الشوارع، وفي خلال أسبوع فحسب سُحقَت الانتفاضة. ساعتها ارتكب زعماؤها خطأ آخر، وبدلًا من مغادرة برلين نهائيًا توجهوا إلى العالم السفلي، حيث عثر عليهم البوليس واعتقلهم. سمح إيبرت بأن يُسلموا إلى الفيلق الحر (الذي صار جل أعضائه نازيين متعصبين)، والذين قتلوا كارل وروزا وألقوا بجثتيهما. سيُقتل آخرون بعد ذلك. استمرت الحرب الأهلية في ألمانيا لعدة أشهر على الرغم من انتخاب لجنة دستورية، حصل فيها الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل المنفصل على مجموع أصوات بلغ ١٤ مليون. قاطعهم الحزب الشيوعي الألماني. وكل هذا لم يوقف الانتفاضات والإضرابات المسلحة في أنحاء البلاد.

كان صمود السوفييت البافارية هو الأطول، كانت قد سبقت برلين في التخلص من ملكها وإحلال "جمهورية اشتراكية" تحت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل، برئاسة كيرت آيزنر. كان يوجد أكثر من ٥٠٠٠ مجلس، ولكن الحزب الاشتراكي الديمقراطي فاز بانتخابات ديسمبر. تلقى الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل ٢,٥ في المائة. في ٢٥ فبراير عام ١٩١٩، حين كان آيزنر في طريقه لتقديم استقالته، اغتاله يميني متشدد مناصر للملكية. أدى هذا الحدث إلى إضرابات عامة في ميونيخ ونورمبرج؛ شكّل

العمال والجنود في المدينتين ميليشيات مسلحة لمقاومة الثورة المضادة. التقت أحزاب العمال الثلاثة -الحزب الاشتراكي الديمقراطي، والحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل والحزب الشيوعي الألماني- لمناقشة الأزمة. كان هناك اقتراح لتأسيس جمهورية سوفييتية في بافاريا؛ كان يوجين ليفين، زعيم الحزب الشيوعي الألماني، معارضًا لها وعارض بشدة أي استيلاء على السلطة، واستعان ببرلين كمثال. ولم يكن مقتنعًا بجدية الحزب الاشتراكي الديمقراطي، كان قلقًا من أنه بإمكانهم أن ينسحبوا مع أول ذريعة ثم يطعنون العمال من الخلف، لأن هذا أسلوب مختبر ومجرب. وعلى الرغم من المعارضة الشيوعية، أعلنت الأحزاب الأخرى في السابع من أبريل قيام جمهورية سوفييتية بافارية، انهار الكيان سريعًا. كان ليفين يعلم تمام العلم أن الموقف يدعو لليأس، ولكنه لم يرغب في السماح بسحق العمال. أنشئت جمهورية سوفييتية جديدة تحت سيطرة الحزب الشيوعي، وسريعًا ما نظمت شبكات الإنتاج والتوزيع بالإضافة إلى تسليح المجالس وتشكيل نواة لجيش أحمر. كان ليفين يعلم أن كل هذا مكتوب عليه الفشل، ولكنه شعر أنه من واجبه أن يقاتل إلى جانب ميليشيات العمال ليحاول منع المذبحة الكاملة. في الأول من مايو، دخلت ميونيخ وحدات عسكرية إلى جانب الفيلق الحر التابع لجوستاف نوسكه، والذين ضموا ٣٠ ألف مسلح. قُتل ألف عامل، وأسر ليفين، وحوكم وأعدم. سجلت الثورة المضادة انتصارًا آخر. وأثناء محاكمته، قال ليفين الكلمات التالية:

"نحن الشيوعيون جميعًا متهربون من حكم الموت، أنا واع تمامًا بذلك، ولا أعرف إذا كان هروبي سيطول أم أنه عليَّ أن أنضم إلى كارل ليبكنشت وروزا لوكسمبورج. في كل الأحوال أنا أنتظر حكمكم برباطة جأش وسكينة داخلية، لأنني أعرف أنه أيًا كان حكمكم لا يمكن لمسار الأحداث أن يتوقف... انطقوا بحكمكم طالما اعتبرتموه مناسبًا. لم أسع إلا لإيقاف محاولتكم لتلطيخ نشاطي السياسي، واسم الجمهورية السوفييتية، التي أشعر

بشدة ارتباطي بها، وتلطيخ الاسم الطيب لعمال ميونيخ. لقد حاولنا جاهدين، وأنا معهم، الاستعانة بمعرفتنا وضميرنا لنقوم بواجبنا تجاه الأممية والثورة العالمية الشيوعية".[1]

الشكل الذي اتخذته الثورة الألمانية كان مشابهًا لما تنبأ به لينين في "الدولة والثورة"؛ كان في أغلبه عبارة عن إضرابات جماهيرية عفوية، وفعل جماهيري وضع أساس مجالس الجنود والعمال (السوفييتات)، وسعى يسار الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل والشيوعيين تركيز السلطة كلها فيها. كانت تلك المجالس شكلًا من أشكال الديمقراطية المتطرفة، وأكثر جذرية من البرلمانات السنوية التي طالب بها الميثاقيون الإنجليز في القرن السابق. كانت قريبة من شكل الديمقراطية المباشرة التي تم تجربتها في الشهور الثمانية التي فصلت بين فبراير وأكتوبر في روسيا. ولكن الشيوعيين وحلفائهم من الحزب الاشتراكي المستقل لم يتمتعوا بالقوة الكافية من جهة التأثير السياسي أو العدد للإعداد لخطة *واعية* للاستحواذ على السلطة أو لتنظيم قوة الثورة وتنسيق التعاون بينها. باستثناء بعض الشيوعيين (ومثّلوا قوة ضئيلة)، لم يكن هناك أطراف أخرى. كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل بمثابة نبيذ قديم في قنينة جديدة. وعلى الرغم من أن الموقف المطروح كان جيدًا، لم يستطع في عشية وضحاها أن يتجاوز الرذائل الفكرية التي ورثها من التجارب المريرة داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. لم تسلم روزا لوكسمبورج نفسها من هذا الفيروس، في بعض الأحيان قللت من شأن

---

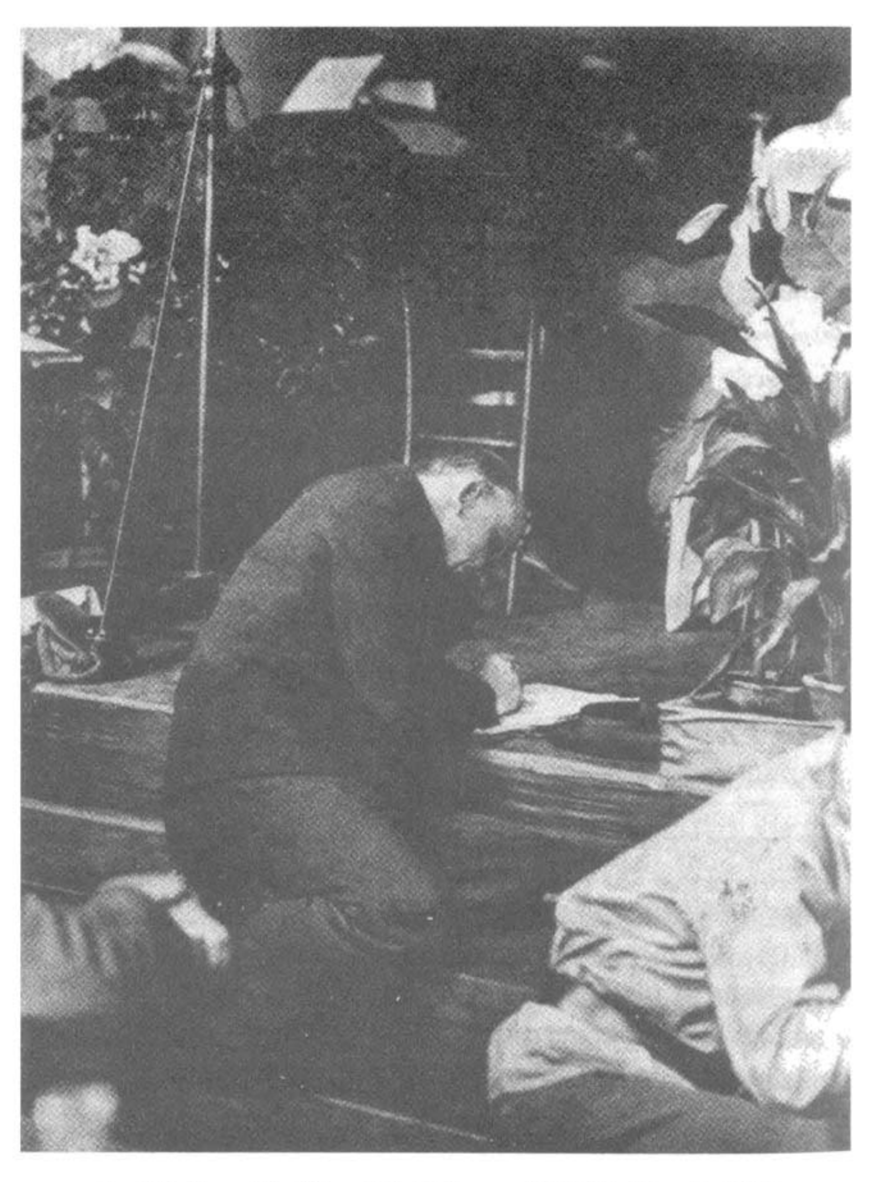
1 Rosa Levine-Meyer, *Levine: The Life of a Revolutionary*,Glasgow, 1973.

سرد مؤثر لتلك الأيام كتبته زوجة ليفين، التي استقرت بعد ذلك في لندن. في إحدى المرات، وبعد خطاب ناري ألقيته في مظاهرة مناهضة لحرب فيتنام في لندن، اقتربت مني وقدمت نفسها وقالت: "عليك أن تتسم بالحذر، لأنهم سيقتلونك. تعال وتناول الشاي معي". أشعر بندم شديد لأنني لم أقبل دعوتها، ولكني أظن أنها أساءت تفسير كلماتي. لقد تحدثت عن الحاجة الملحة لإنشاء جبهة جديدة في أوروبا والولايات المتحدة، أعني من خلال حركة مناهضة للحرب. لا بد أنها ظنت أنني كنت أعني النضال المسلح.

قدرة الطبقة الحاكمة على ممارسة عنف هائل من أجل الحفاظ على مؤسساتها ووضعها في المجتمع. في ديسمبر عام ١٩١٨، وهو الوقت المتأخر، حين لجأ إيبرت والجنرال جرونر لسفك الدماء، لم تغير رأيها. بالطبع كانت على حق في معارضة العصيان، وشُجاعة لأنها قاتلت من أجله، ولكن حتى إذا كان حزبها قد حصل على أغلبية مجالس العمال في برلين ومعظم ألمانيا، فأي محاولة للاستيلاء على السلطة كانت ستجعلهم يواجهون عنف آلة الدولة، وكانت الحرب الأهلية ستصير حتمية.

رأى لينين وتروتسكي في الكومنترن المبكر مدرسة أساسية تساعد على تبادل النقاش عن التكتيكات والإستراتيجيات الثورية. أثناء المؤتمرات الأربعة الأولى لم يكن هناك شك من أن الجدالات الجارية حرة وقوية، على الرغم من ثقل موسكو في ذلك الوقت كموطن للثورة الناجحة الوحيدة، هذا الذي تنبأ ببعض اللمحات عن المستقبل. على سبيل المثال أثناء النقاش المطول الذي جرى عام ١٩٢٤ عن الأزمة الاقتصادية، تنبأ تروتسكي ببصيرة مذهلة بالتأثيرات التي ستحدث في عالم الإمبراطوريات، وأشار بشكل خاص إلى الإمبراطورية البريطانية التي:

"تشكلت طبيعتها على مدار القرون. تغلغل تقدير الطبقة الذاتي في دمائهم ونخاعهم، في أعصابهم وعظامهم. ستكون خلخلة الثقة الذاتية للحكام العالميين في حالتهم أمرًا في غاية الصعوبة. ولكن الأمريكي سيخلخلها بالطريقة نفسها، عندما يأخذ الأمر بجدية. بلا جدوى ستكون تعزية البرجوازي البريطاني لنفسه إذا تصرف كمرشد للأمريكي الذي يفتقر إلى الخبرة. إلا أنه ستكون هناك حقبة انتقالية. ولكن لب المسألة لا يتعلق بعادات القيادة الدبلوماسية، إنما بالسلطة الحقيقية، والرأسمال، والصناعة القائمة. وإذا نظرنا للاقتصاد، تحتل الولايات المتحدة المرتبة الأولى، بداية من إنتاجها في الشوفان وحتى البوارج الكبيرة من الطراز الحديث. إنهم ينتجون كل ضروريات الحياة إلى درجة تصل من نصف إلى ثلثي ما تنتجه البشرية كلها".



لينين يضع ملاحظات لتفنيدوجهة نظر المندوب الإيطالي – كما نشرت في جريدة أخبار لندن المصورة.

في عام ١٩٢٦ المتأخر، وفي اجتماع للجنة التنفيذية للكومنترن، استطاع الزعيم الشيوعي الإيطالي أماديو بورديجا، المنعزل بداخل حزبه، أن يجادل ضد بوخارين وستالين، وكان ذلك للمرة الأخيرة، وصرَّح قائلًا:

"لدينا في الأممية حزب واحد فقط حقق انتصارًا ثوريًا — وهو الحزب البلشفي. يقولون إنه ينبغي علينا إذن أن نسير في الطريق الذي قاد الحزب الروسي إلى النجاح. هذا صحيح تمامًا، ولكن يظل غير كاف. الحقيقة هي أن الحزب الروسي قاتل في ظروف خاصة، في بلد لم تكتمل فيه الثورة البرجوازية الليبرالية بعد، ولم تُهزم فيه البرجوازية الرأسمالية الأرستقراطية الإقطاعية بعد. بين سقوط الأوتوقراطية الإقطاعية واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة هناك حقبة قصيرة جدًا لا يمكن أن تقارن بالتطور الذي على البروليتاريا تحقيقه في البلاد الأخرى. لأنه ليس هناك وقت لبناء آلة دولة برجوازية على أطلال الجهاز الإقطاعي القيصري. التطور الروسي لا يتيح لنا تجربة كيف يمكن للبروليتاريا أن تطيح بدولة رأسمالية ليبرالية برلمانية، موجودة منذ عدة سنوات ولديها القدرة على الدفاع عن نفسها. لذا علينا أن نعرف كيف نهاجم دولة برجوازية ديمقراطية حديثة، لديها من جهة وسائلها الأيدولوجية الخاصة في تحريك البروليتاريا وإفسادها، ومن جهة أخرى وسائل الدفاع عن نفسها في مواجهة تيار النضال المسلح بكفاءة تفوق الأرستقراطية القيصرية. لم تُثَر تلك المشكلة أبدًا في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي".[٢]

الفكرة المناهضة للشيوعية التي انتشرت خلال الحرب الباردة والتي تقول إن "الكرملين" مسؤول عن ظهور كل سخط اجتماعي أو ثورة في أي مكان في العالم وجدت سريعًا توأمها الماركسي الميكانيكي: كان الكرملين مسؤولًا عن كل قمع للسخط الاجتماعي وكل انتصار للثورة المضادة. كان المفهوم الأول سخيفًا، ولكنه انتشر بقوة عظيمة، والثاني تجاهل تمامًا استقلال الأحزاب والحركات الأصيلة، تلك الأحزاب التي اتسمت بوجود زعماء نشيطين مستقلي الفكر يستطيعون تجاهل نصح موسكو بل كانوا

---

2 مقتبس من
Perry Anderson, 'The Antinomies of Antonio Gramsci', *New Left Review* 100: 1, November 1966.

يتجاهلونه بالفعل، وعادة ما كانوا يملكون القوة الكافية والثقة الذاتية في الانتصار بالثورة، أما الذين قبلوا دون معارضة التوجيهات المضللة للكومنترن، فعلى الأرجح لم يستطيعوا هزيمة العدو.[٣]

3 بعد ذلك بوقت قصير، انتهت كل أشكال المعارضة في الكومنترن، كما انتهت في الحزب الأصلي. لم يختلف الكومنترن كثيرًا عن كونه أداة في يد السياسة الخارجية السوفييتية، تحاول به خنق استقلال الأحزاب الشيوعية في أنحاء العالم، وإقصاء من يعارضونه، وفي بعض الأحيان إجبار الأعضاء على تنفيذ قرارات تؤدي إلى إنهاء حياة الناس: لم يكن من المسموح للحزب الصيني أن ينهي تحالفه مع القومي شيانج كاي شيك، حتى وهو يعد لسفك دماء الشيوعيين في شنجهاي عام ١٩٢٧. لم يرتكب الشيوعيون الصينيون هذا الخطأ مجددًا. كانوا يقولون شيئًا لستالين وينفذون قراراتهم. يقال إن ماو قدم الإنجيل الستاليني "تاريخ قصير للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي" لليو شاوتسي وأوصاه قائلًا: "اقرأه بحرص إذا أردت أن تموت". وتلت ذلك السياسة الإجرامية للمساواة بين الاشتراكية الديمقراطية والفاشية في ألمانيا ورفض فكرة الجبهة الاشتراكية الشيوعية الليبرالية الموحدة ضد هتلر، التي ربما كانت ستمنع انتصاره الانتخابي. كان الشيوعيون الألمان ضعافًا للغاية ولم يستطيعوا تجاهل موسكو، ودفعوا ثمن ذلك، كما دفعت الثمن أوروبا والشرق الأوسط.

عندما حُل الكومنترن عام ١٩٤٣ لإرضاء الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، لم تذرف الكثير من الدموع على أفوله. اندلعت الثورة الفيتنامية عام ١٩٤٥ والثورتين اليوغوسلافية والصينية عام ١٩٤٩. وجاء الانتصار الكوبي بعد عشر سنوات في عام ١٩٥٩. وفي الحالات الأربع، كانت موسكو موجودة كأمر واقع. ما زال ختم الأممية الاشتراكية موجودًا.

١١

الجيش الأحمر والحرب الأهلية والفلاسفة المقاتلون

خلال السنوات الخمس الأولى من الكومنترن، رأى كل من الأصدقاء والأعداء في الجيش الأحمر قوة مقاتلة لـ "البروليتاريا العالمية"، روجت لهذه الفكرة طبيعة أصوله وأيدولجيته. أنشئ الجيش سريعًا لخوض الحرب الأهلية، تَشَكَّل أساسه من الحراس الحمر المرتبطين بالسوفييتات أو الكيانات التي تكافئها والتي كانت فروعًا للحزب البلشفي. بعض قادة الحرس الأحمر صاروا قادة عسكريين مشاهير أثناء الحرب الأهلية وبعدها. في عشية الثورة كان هناك ١٠ آلاف من قوات الحرس الأحمر في موسكو، و٢٠ ألف في بتروجراد، وعدد متناثر في المدن الأخرى. تلقت فرقة بتروجراد دفعة كبيرة عندما ترك قطاع كبير من العمال المهاجرين الصينيين، المجلوبين إلى روسيا الإمبراطورية لبناء السكك الحديدية وتوسعتها، وظائفهم وانضموا للحزب البلشفي والحرس الأحمر، أثبتوا أنهم مقاتلون أشد من العديد من رفاقهم الروس. إلى جانب أسرى الحرب الذين رغبوا في أن يكونوا جزءًا من الثورة، التحق المهاجرون الصينيون بالجيش الأحمر باعتبارهم "الكتيبة الأممية"، كانت كتيبة بروليتارية تمامًا، وتحت قيادة سان يو-فان، الذي انضم رسميًّا للجيش الأحمر في مايو عام ١٩١٨.

أُضيف إلى هذا الأساس العديد من الجنود الروس الذين صاروا راديكاليين، والذين فروا من الجبهة. حتى هؤلاء الذين بقوا في الجيش

الإمبراطوري سريع التفكك كانوا متحفظين للغاية من استخدامهم ضد السوفييت. بعد ثلاثة أسابيع من الثورة، قال قائد الجيش الثاني عشر، الجنرال بوسوخوف، لرفاقه إن "الجيش غير موجود على الإطلاق" انعقد مؤتمر للجيوش الاثنى عشر لانتخاب لجنة تنفيذية: وكانت النتيجة هي أغلبية للبلاشفة ورئيس بلشفي. صارت هذه الوحدات المسيسة عنصرًا هامًا في الجيش الأحمر الجديد كنمط بدأ يتكرر في الأماكن الأخرى.

لينين، كرئيس للحكومة، أمر قائد الجيش القديم، الجنرال دوخونين، ليبدأ مفاوضات سلام على كل الجبهات. رفض دوخونين، أقاله لينين بالتليفون. ولإذلال النظام القديم، عين البلاشفة الملازم كريلينكو قائدًا جديدًا، مع البلشفي الحاد والضابط الإمبريالي السابق م. د. بونتش-بروفيتش كرئيس أركان. عُزل الجنرالات القيصريين القدامى من كل مناصبهم القيادية. وأثناء اقتحام مقرات القيادة العليا (ستافكا)، جر الحشد الغاضب دوخونين، الذي رفض المغادرة مع رفاقه مبكرًا، من أحد القطارات وأعدموه في مكانه. دُمر الجيش القيصري تمامًا. سيتجه الجنرالات والضباط القيصريين الأشداء إلى الجنوب لتشكيل جيش متطوعين مضاد للثورة، مدعوم من الوفاق، لاستعادة البلد. أعد المسرح في ذلك الوقت لحرب أهلية وحشية. كان الكاديت الليبراليون يدعمون البيض، وكذلك الاشتراكيون الثوريون اليمينيون والمناشفة اليمينيون.

شَكّل البلاشفة الجيش الأحمر. وبينما كان لدى البيض ضباط كثيرون وينقصهم الجنود، كان الحمر يفتقدون بشكل كبير للضباط المهرة. دفعت العملية الثورية بعض الوجوه الجديدة إلى المقدمة: فرونزه، بوديوني، ف. ك بليوخير، مالينوفسكي، يوجوروف من ضمن آخرين. ستختبرهم الحرب بشكل أكبر. أثبت بليوخير نفسه كقائد عسكري مميز في أرض المعركة. ولكن أكثر القادة موهبة كان محتجزًا بسجن عسكري ألماني عند اندلاع الثورة، قصته لا تخلو من الأهمية، لأنه بالنسبة للينين ورفاقه، الذين

تعرضت ثورتهم لهجمات من الداخل والخارج، كان ظهور الروسي الذي كان مزيجًا من كلاوزفيتز ونابليون، بمثابة هدية من السماء.[1]



مارشال توخاتشفسكي، أمهر قائد بالجيش الأحمر، أعدمه ستالين.

عمل ميخائل توخاتشفسكي البارز يلقي الضوء على حلقات هامة في الماضي العسكري والسياسي لما كان وقتها الاتحاد السوفيتي. ولد في مقاطعة بنزا بروسيا القيصرية عام ١٨٩٣، من عائلة أرستقراطية حل بها الفقر، من أصل فلمنكي: شارك جده الكبير في الحملات الصليبية واستقر بالقرب من أوديسا مع زوجة تركية، وحصل على اللوردية على قرية توخاتشيف. التحق توخاتشفسكي بالجيش الإمبريالي في سن مبكرة جدًا، وشارك في الحرب العالمية الأولى كملازم في فوج حرس سيمينوفسكي الخاص. أسره الألمان عام ١٩١٥، وسُجن في

---

1 اعتمدت في قدر كبير من هذه المواد على مصدرين رئيسيين، سرديات إريكسون الموثوقة عن الجيش الأحمر كانت مرشدًا لا غنى عنه:

The Soviet High Command, London, 1962, and *The Road toStalingrad*, vols. 1 and 2, London, 1975.

ومجلد إيزاك دويتشر الأول في ثلاثية تروتسكي "النبي مسلحًا" The Prophet Armed يحتوي على أفضل سرد، وعلى حد علمي أفضل نقاشات عسكرية. كتابات تروتسكي العسكرية تقدم رؤى نادرة عن كل هذه الموضوعات. إريكسون قدم تحيته الخاصة في صـ ١٢٩ من كتاب القيادة السوفيتية العليا The Soviet High Command: "من منطلق التطور التالي لـ (العلم العسكري الستاليني) والتأثير المميت له على التطور العسكري السوفيتي، تلقت جدالات تروتسكي إثباتات لاحقة لحياته... سيكون من المبالغ فيه إضافة العنصر التنبؤي على مقولات تروتسكي عن الشؤون العسكرية في ذلك الوقت، ولكن من الملحوظ أن العديد من التحذيرات التي أطلقها في ذلك الوقت ثبتت صحتها بعد وقت طويل من توقف ما يطلق عليه (الجدال حول العقيدة). فلسفة توخاتشفسكي السياسية العسكرية الخاصة تم صياغتها في نص مميز تُرجم عام ١٩٦٩ بعنوان: "الثورة من الخارج". ' Revolution fromWithout', *New Left Review* 55, May–June 1969.

قلعة إنجولستاد؛ وكان رفيقه في السجن شارل ديجول، الذي امتعض قليلًا من عدمية الجندي الروسي وراديكاليته.

بعد خمس محاولات للهرب، استطاع في النهاية الوصول إلى بتروجراد بعد استيلاء البلاشفة على السلطة في أكتوبر عام ١٩١٧. هو الذي تأثر بالثورة الفرنسية والديسمبريين منذ شبابه، لم يجد صعوبة في الانضمام لخدمة الثورة. انضم أولًا للحزب البلشفي، وأُرسل سريعًا إلى سكليانسكي، نائب تروتسكي في مفوضية الحرب. لم يكن هناك وقت لاختباره، في خلال أسابيع قليلة تولى قيادة الجيش الأحمر الأول الشهير على الجبهة الشرقية، مواجهًا فيلق تشكسلوفاكي (أرسله الوفاق ليقاتل مع البيض) بالقرب من سيمبرسك، المدينة التي ولد فيها لينين. براعة توخاتشفسكي في أرض المعركة كانت السبب في الاختراق الحاسم الذي دمَّر جبهة كولتشاك بالقرب من سامارا في مايو عام ١٩١٩، وبدأ تقدمًا أدى لتراجع الجيوش البيضاء إلى تومسك وكراسنويارسك خلال عدة أشهر. حين نقله تروتسكي إلى الجبهة القوقازية، التي كانت مهددة بسبب عودة الترابط في جيش دينيكين، كرر توخاتشفسكي نفس الأداء، وسريعًا ما التفت قواته حول دينيكين، وطاردت البيض حتى البحر في نوفوتشركاسك وتوابسي في مارس عام ١٩٢٠.



مارشال فرونزه: مُنَظِّر عسكري بلشفي، آمن بأن الماركسية قدمت إجابات على التساؤلات العسكرية.

بعد مرور شهرين، وبعد صعوده المتسارع، عُين توخاتشفسكي قائدًا للجبهة الغربية في الحرب الجديدة للجمهورية السوفييتية الشابة ضد بولندا التي غزت روسيا. أحبط توخاتشفسكي التوقعات الدولية سريعًا بتغيير المصير في روسيا البيضاء، ودفع العدو وأعاده إلى حدود بولندا، وبعد ثمانية أسابيع من التقدم، عبر نهر البوج ووصل إلى فيستولا. يستعيد هذه اللحظة الدكتاتور العسكري البولندي بيوسودسكي (الذي كان أخوه الأكبر من أعضاء الجماعة الإرهابية التي انضم ليها شقيق لينين الأكبر ساشا):



كلاوزفيتز: دافع عنه بشدة كل من لينين وتروتسكي وسكيلانسكي.

"هذا التقدم الذي لم يتوقف الأشبه بزحف الديدان الذي قام به حشد الجيش الهائل، والذي استمر لأسابيع، بتقطعات محدودة، جعلنا نعتقد بأن هناك شيئًا لا يقاوم يقترب كالسحب الرعدية التي لا يمكن مواجهتها... بهذا التقدم نحو وارسو، أثبت توخاتشفسكي أنه تَطوَّر حتى صار جنرالًا يتجاوز القائد العادي".

في السابعة والعشرين من عمره، نفس السن التي كان عليها نابليون في لودي، كان توخاتشفسكي على أبواب وارسو. في ٢٦ يوليو عام ١٩٢٠، كتب فون سيكت، مهندس الرايسفهر (جيش دفاع المملكة) في ألمانيا بعد الحرب: "الانتصار الكامل لروسيا لم يعد محل نقاش"؛ كان يعني "الانتصار الكامل" في معظم أوروبا. ذهب توخاتشفسكي لاحقًا إلى إنهم إذا لم يتعرضوا لتراجع عسكري، لوصل الجيش الأحمر إلى حدود ألمانيا لمساعدة الثورة الألمانية. لم يتحقق ذلك، وثبَت خطأ فون سيكت. أدى خطأ عسكري كارثي لتجريد الجيوش السوفييتية من الانتصار العظيم الذي كان يتوقعه

لينين على خريطة العمليات أمام مناديب الكومنترن في موسكو عند اندلاع المعركة. قيادة الجنوب الغربي التابعة ليجوروف وبوديوني وستالين، والتي وُضعت في نطاق قيادة توخاتشيفسكي بعد عبور خط برست-ليتوفسك، رفضت إطاعة الأوامر للتوجه شمالًا من أجل التضييق على وارسو من الأسفل، بحمق بالغ سعوا للهجوم على لفوف في الجنوب، وفتحوا ثغرة هائلة في مقدمة خط الهجوم الروسي. هذا التصرف المتمرد، والذي أسهم فيه الغباء والغيرة من جانب ستالين وبوديوني، كلّف الجيش الأحمر خسارة الحرب. دفع بيوسودسكي في الحال بقواته إلى الثغرة بين القيادتين وحوّل جيوش توخاتشفسكي إلى اليسار. تبع ذلك فوضى تضاعفت بسبب تعامل سلاح الفرسان التابع لتوخاتشفسكي للمؤن والمنقولات أثناء تقدمه المتهور. تم احتواء الثورة البلشفية بداخل حدودها، أُعدم مفوضون أدنى درجة بسبب مخالفات أقل، في حين هرب ستالين بدون لفت نظره على التخريب المؤثر للعملية العسكرية الرئيسية.

كانت هناك بالطبع مشكلة سياسية رئيسية قلل لينين من شأنها؛ حظى الوعي القومي البولندي بدفعة هائلة بعد معاهدة فرساي، كل الثوريين الروس دافعوا لعقود عن الاستقلال البولندي، ولينين بوجه خاص دافع عنه بشدة ضد القمع القيصري للبلد. لم يكن الفلاحون البولنديون مستعدون لأن يحل روسي محل آخر. الطبقة العاملة البولندية أيضًا كانت منقسمة، فإذا استُخدمت بولندا كجسر أساسي إلى ألمانيا، وعُزل بيوسودسكي، كم من الوقت سيستمر هذا الوضع كان سيظل سؤالًا مفتوحًا.

موت لينين وسقوط تروتسكي قضيا على مصير توخاتشفسكي؛ بدلًا من تعيينه في قيادة الجيش الأحمر وأن يتخذ مقعده في البوليتبورو (المكتب السياسي)، فرض عليه أعداؤه عملًا مكتبيًا، على الرغم من أنه لم يخل من الأهمية. عمل بنجاح كمدير الأكاديمية العسكرية، ونائب القائد الأعلى

والقائد الأعلى. قلل من رتبته فوروشيلوف، الذي كان يكرهه، وصار قائدًا لقسم العمليات في الجيش الأحمر عام ١٩٣١. في هذه الحقبة حمل لواء الريادة في استخدام صفوف العربات، ومعارك الدبابات، وإسقاط المظلات. وبفضله صار الجيش الأحمر آلة عسكرية حديثة منيعة في الثلاثينيات. عُين توخاتشفسكي مارشال، ولكنه لم ير ثمار عمله.

قرر ستالين التخلص منه في وقت مبكر، في عام ١٩٣٦، إن لم يكن قبل ذلك. على أي حال نُسجت مؤامرة مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD) في ذلك العام. كانت تجري عملية تطهير سياسي للحزب والجيش في الوقت نفسه. إذا أُعدم معظم أعضاء لجنة لينين المركزية باعتبارهم "خونة" كيف سيُترك جنرالات تروتسكي أحياء؟ عندما عرف جهاز الأمن السري النازي (زيشرهايتدسنست) بالخطط الموضوعة لتوخاتشفسكي، قدم يد المساعدة؛ زوَّر وثائق لجعل الأمور أسهل على مفوضية الشؤون الدخلية لإثبات تواطؤ توخاتشفسكي مع القيادة الألمانية العليا وخيانة الاتحاد السوفييتي، ومررها إلى روسيا، لهدف واضح وهو تدمير القائد الذي كان الفرماخت (جيش الدفاع الألماني) يخشاه للغاية في روسيا. استُخدمت الوثائق المزورة على الفور كدليل للمفوضية الداخلية على اتهامات الخيانة ضد توخاتشفسكي ورفاقه العسكريين المقربين (ياكير، بليوخير، أوبوريفيتش، بوتنا، جامارنيك، وآخرون). في ١٢ يوليو عام ١٩٣٧، أطلقوا الرصاص على توخاتشفسكي. تم "رد اعتباره" عام ١٩٥٦ بعد مؤتمر الحزب العشرين في الاتحاد السوفييتي: أُسقطت اتهامات الخيانة ونُشر كتابان عنه، وصدر طابع بريد لتكريمه عام ١٩٦٣، ولكن لم يُسمح بإجراء تحقيق عن أسباب وفاته ولا نقاش نقدي عن دوره التاريخي.

حياة وأعمال توخاتشفسكي تطرح أسئلة تاريخية رئيسية؛ السؤال الأول يتعلق بالطبيعة الشاملة للحرب الأهلية الروسية التي تلت استيلاء البلاشفة على السلطة، ماذا كان طابعها العسكري والاجتماعي؟ هناك

أدبيات واسعة وثرية عن ثورة أكتوبر نفسها، كتب معظمها الماركسيون وجلها كُتِب وفقًا لمعيار علمي عالي القيمة (تروتسكي، سوخانوف، دويتشر، كار، ليبمان وآخرون)، بينما لا يوجد تقريبًا شيء له قيمة عن الحرب الأهلية، التي كانت نتاجًا شديد الأهمية للثورة. كما أكد لينين، كانت ثورة أكتوبر تتجاوز قليلًا كونها تعبير عن هتاف "فلتحيا الاشتراكية": الاستيلاء على السلطة كان بسيطًا بشكل خادع، وفي أغلبه لم يتطلب مجهودًا كبيرًا. التاريخ الواقعي للنضالات الطبقية الحرجة والتي ستقرر مصير الثورة الروسية لم تبدأ في أكتوبر عام ١٩١٧، إنما في مارس عام ١٩١٨، حين رفع الفيلق التشيكوسلوفاكي الراية البيضاء للثورة المضادة على طول نهر الفولجا. السنوات المدمرة الثلاث للحرب التي تلت الثورة حددت الشكل الأخير لها بشكل يتجاوز كثيرًا ميلادها البريء واليوتوبي، ودفعتها نحو القالب الذي سيصير لاحقًا الستالينية.

هناك بالطبع بعض الذكريات المكتوبة عن هذه الحقبة، وبعض القصص الصحفية ذات المستوى العالي، مثل قصص إيزاك بابيل القصيرة الجذابة، ولكن كل هذه الأشياء عادة ما كانت سطحية وذاتية. في الواقع لا نعرف الكثير عن هذه المحنة الحاسمة. الجدالات العسكرية في ذلك الوقت، التي لعب فيها توخاتشفسكي دورًا بارزًا، تقدم بشكل ما إشارات هامة لأي تأمل في معنى الحرب الأهلية. الإسهامات المختلفة في هذا الجدال تلقي جميعًا بعض الضوء على طبيعة المشكلات التي واجهت الثورة بعد أكتوبر، حين اندلعت الحرب في سهول روسيا وسهوبها الواسعة. كانت هناك ثلاثة مواقف أساسية: تروتسكي، مفوض الحرب ومهندس الجيش الأحمر، لم يقتنع بوجود إستراتيجية ماركسية مميزة للحرب، اعتبر الشؤون العسكرية فرعًا تقنيًا من المعرفة، بدون علاقة مقربة بالسياسة بشكل يتجاوز الهندسة أو العمارة. بالتالي كتب قائلاً:

"ليست المادية التاريخية بأي حال منهجًا جامعًا لكل العلوم... محاولة تطبيقها على نطاق الشؤون العسكرية سيكون أعظم مغالطة، لن تقل عن مغالطة السعي لضم العلوم العسكرية إلى مجموعة العلوم الطبيعية... على الرغم من أنه على المرء أن يقبل كون (العلوم العسكرية) علومًا، فمن المستحيل أن نفترض أنه يمكن بناء هذا العلم وفقًا للمنهج الماركسي".

سياسة تروتسكي العسكرية كانت منطقية تمامًا ومتسقة مع هذا الموقف. في وقت مبكر، اتخذ قرارًا أساسيًا باستخدام ضباط قيصريين سابقين لتدريب البروليتاريا على السلاح وقيادتهم، إذ اعتبروا مُستأمنين على المعرفة العسكرية المحترفة، أعيد تسميتهم ليكونوا "متخصصين عسكريين" وحازوا على قيادة القوات: خلال الحرب الأهلية سيطروا على فيلق الضباط بالجيش الأحمر فوق مرتبة النقيب. دافع تروتسكي عن هذه السياسة بأقصى قوة ضد الهجمات التي تعرضت لها بحجة أنها تفتح الباب للرجعية والردة بداخل مراتب الجيوش الثورية. كان مدعومًا من لينين، الذي كان كلاوزفيتزي أرثوذوكسي من هذه الجهة. حتى في هذه المرحلة كان الرجلان يفهمان أن أفكار ماركس لم تتطرق لكل شؤون الفكر والعمل، وكان هذا يشمل الفلسفة العسكرية بالإضافة إلى الأدب.

أما فرونزه، الجندي البلشفي القديم والمُنَظِّر الذي صار خليفة تروتسكي كمفوض للحرب بعد عام ١٩٢٢، والذي كان، وفقًا لرأي البعض، ضحية جريمة قتل طبي أمر بها ستالين عام ١٩٢٥، والذي خُلِّد في رواية بوريس بلنياك الشجاعة "قصة القمر غير المنطفئ"، فكان خصم تروتسكي الأساسي في الجدالات العسكرية، وكانت آراؤه أقرب لآراء الجنود العاديين في الجيش الأحمر. نقطة انطلاقه كانت على النقيض من تروتسكي؛ دافع عن "عقيدة عسكرية موحدة"، ما يعني رفض الفصل الذي وضعه تروتسكي بين الماركسية ونظرية الحرب. كان فرونزه مقتنعًا بضرورة وجود "علم بروليتاري للحرب"، لأنه سيعبر عن الطابع الاجتماعي للطبقة

العمالية باعتبارها السيد الجديد للمجتمع. كتب قائلًا: "طبيعة العقيدة العسكرية التي يقبلها جيش أي دولة تحددها طبيعة التوجه السياسي العام للطبقة الاجتماعية الموجودة على رأسها"،[٢] بالتالي من غير الصحيح أن يُعهد بوضع الإستراتيجية لأعضاء الطبقة الحاكمة البائدة في روسيا – أي الضباط القيصريين الذين يفكرون بالضرورة من منطلق المنظور العسكري للعدو وضد ما تقاتل الثورة من أجله للحفاظ على حياتها. جادل فرونزه و"المعارضة العسكرية" ضد الهيراركية الرأسية والنظام الحديدي الذي أسسه تروتسكي في الجيش الأحمر: أرادوا بنية ديمقراطية للقيادة، يصير فيها المفوضون العسكريون خاضعين للمفوضين السياسيين، المنتخبين بدورهم من أسفل، وليسوا معينين من أعلى. استكمل فرونزه عملية تحديد العقيدة الإستراتيجية لأي جيش بروليتاري:

"تكتيكات الجيش الأحمر كانت وستظل محملة بروح العمليات الهجومية الجريئة والمُنَفّذة بطاقة كبيرة، ينبثق هذا من الطبيعة الطبقية للعمال وجيش الفلاحين وفي الوقت نفسه يوافق متطلبات الفن العسكري".[٣]

هكذا أصر فرونزه على أن حرب المناورة تفوق حرب المواقع الثابتة وحلل الحرب الأهلية كدرس تاريخي: التحركات السريعة عبر المسافات الهائلة ستقرر في المستقبل ناتج الصراعات العسكرية الرئيسية، وكطبقة، فالطبقة العاملة مناسبة بشكل فائق، بالطبيعة والمعنويات، لممارسة تلك الأفعال الهجومية المتحركة، كان هذا هو السبب الرئيسي لانتصار الحمر في الحرب الأهلية.

اتخذ توخاتشفسكي موقفًا ثالثًا مميزًا في هذا الجدال؛ اتفق مع تروتسكي على ضرورة النظام العسكري الكلاسيكي والمركزية في الجيش

---

2 'Introduction to Tukhachevsky', *New Left Review* 55, May–June 1969.

3 السابق.

الأحمر، وكذلك هاجم إلى جانب تروتسكي جماعة الحرب الحزبية الأناركية، بعض من تبناها لاحقًا هُزِم في الحملة البولندية بسبب التمرد وعدم الكفاءة. من جهة أخرى، تبنى موقف فرونزه وجوزيف في إصرارهما على الدور الجديد في الهجوم. كتب قائلًا: "المناورة هي الوسيلة الوحيدة لتأمين الانتصار". مفهوم توخاتشفسكي عن المعارك المستقبلية عكَس تجربته في قتال كولتشاك ودينيكين:

"الاحتياطي الإستراتيجي، الأداة التي كان مشكوكًا بها على الدوام، لا نريدها على الإطلاق في حربنا. الآن هناك سؤال واحد: كيف نستخدم الأعداد الكبيرة من أجل أن نحظى بأقصى قوة ضاربة. وهناك جواب واحد: اطلق كل القوات في الهجوم، لا تحتفظ في الاحتياطي ببندقية واحدة".[4]

اتهم تروتسكي وستالين بعضهما لاحقًا بالبونبارتية، وهو التهديد الذي كان يخشاه كل من كانوا بالحزب البلشفي. في الحقيقة، الشخص الوحيد الذي استلهم مثال نابليون عن وعي في ذلك الوقت هو توخاتشفسكي، فحتى خطاباته لقواته قبل المعارك كانت أشبه بأسلوب الجنرال الفرنسي. كانت الإستراتيجية العسكرية النابليونية تفضل الهجمات السريعة المتحركة للجيوش ذات التسليح الخفيف مستغلين الأرض أثناء مسيرتهم. ما كان فرونزه يؤمن به هو الاختلاف المميز للحرب البروليتارية، أما توخاتشفسكي الذي جاء من خلفية مختلفة كلية، تبنى استعادة مبادئ الحرب الثورية التي احترفتها جيوش نابليون في الأيام المجيدة المضطربة لنضال فرنسا ضد الحلف الكبير. في مواجهة هذا كان رد تروتسكي هو أن فرنسا في بداية القرن التاسع عشر كانت أكثر دولة متقدمة اقتصاديًا واجتماعيًا في قارة أوروبا، بينما تظل روسيا واحدة من البلاد الأكثر رجعية. كيف من الممكن أن تحاكي الإستراتيجية العسكرية النابليونية، حتى لو رغبت في

---

4 السابق.

ذلك؟ إذن على العكس من ذلك، ينبغي أن تقود الدولة السوفييتية الوليدة قاعدة كلاوزفيتز التي تعطي الأولوية للدفاع.

ما هي طبيعة الصراع العسكري الذي أتاح ظهور تلك الجدالات؟ المواقف الثلاثة الموجزة سابقًا تصبح مفهومة فقط في ضوء الحرب الأهلية نفسها. على عكس الاعتقاد الشائع، لم يضم النضال المسلح الذي جرى بين عامي ١٩١٨ و١٩٢١ جماهير كبيرة. بمعايير الحرب الحديثة كانت حربًا ذات بنية محدودة بشكل واضح وممتلئة بالثغرات. كان الوضع هدامًا بشكل هائل في تأثيره على الاقتصاد والمجتمع (مؤكّدة الدمار الكارثي الذي كانت قد سببته بالفعل الحرب الإمبريالية)، كان الصراع بين جيشين صغيرين نسبيًا، لا جيش فيهما تجاوز ١٠٠ ألف أو ١٥٠ ألف في كل جبهة. ربما لم تحدث معركة واحدة اشتبكت فيها قوتان تجاوزتا أكثر من ٥٠ ألف رجل – عادة ما كان العدد أقل. توخاتشفسكي نفسه أكّد على هذه السمة الأساسية للحرب الأهلية في تقرير كتبه لينين في ديسمبر عام ١٩١٩. كانت سمات الحرب الأهلية هي "الجيوش الصغيرة" و"الكثافة الضعيفة للوحدات المشتبكة"، و"الجبهات الممتدة"، و"التجنيد غير المنظم"، و"المستوى التقني المنخفض". ذكر أن "كل تلك السمات تميز الحرب الأهلية عن أي حرب قومية أو إمبريالية". يدعم وصف جون إريكسون المفصل هذه الرؤية:

"الجبهات المتناثرة بمؤخرتها الفوضوية، يمكن أن تُسحق بصاعقة، تَضرِب كقبضة على ورقة مشدودة. ولكن في اللحظة التي ستفقد فيها الضربة شدتها، وتنتشر القوة في خط أرفع على مساحة أوسع، ستجعلهم الضربة المضادة يتراجعون متعثرين في فوضى".[5]

ما هو الأساس الاجتماعي لهذا التنافس المسلح؟ هنا ينبغي أن نسعى لفهم جذور الجدالات العسكرية بداخل الجيش الأحمر. استولى البلاشفة

5 Erickson, *The Soviet High Command*, p. 50.

على السلطة وخلفهم أقلية البلد: كانت لديهم "أغلبية إستراتيجية" (لينين) لأن الطبقة العاملة الروسية مثّلَت قوة ساحقة في المدن الرئيسية أثناء أكتوبر. أما الفلاحون، الذين كانوا يفوقون البروليتاريا عددًا بعشر مرات، فكانوا محايدين أو طيبين، ولكن عندما اندلعت الحرب الأهلية فقد النظام السوفييتي سريعًا جل المشاعر الطيبة التي كانت تكنها له جماهير الفلاحين بسبب الخراب الذي جلبته الحرب، والحصار الخانق الذي فرضه الوفاق، وضروريات الطعام المتعذر الحصول عليها، نشأت فكرة طلبيات القمح الإجبارية، ليس بالأسلوب الجمعي ولكن بشيوعية الحرب. عبَّر تروتسكي عن هذه الحقيقة بأمانة قاسية حين قال لاحقًا: "لقد استولينا على روسيا كلها لهزيمة البيض". وكانت النتيجة متوقعة، هكذا حاربت الثورة من أجل الحفاظ على وجودها في ريف معادٍ كثيرًا لها. بالطبع كانت جماهير الفلاحين المتوسطين والفقراء يخشون البيض ويكرهونهم أكثر: وكانت هذه الكراهية كافية لتؤمِّن النصر العسكري النهائي، في حين لم تكن كافية لتغيير النتائج العسكرية لهذا الانتصار لصالح الاشتراكية. لم يكن هناك رابط عضوي في معظم المناطق بين الجيش الأحمر والسكان المدنيين. أشار تروتسكي إلى أن ممارسات حرب العصابات العفوية في سيبريا في بداية الصراع لعبت دورًا إيجابيًا في إزعاج مؤخرة البيض. ولاحقًا في أوكرانيا، حين كان عنصر الكولاك أكثر أهمية، فتت الفلاحون الجانبين، وتصرفوا ك "قوة مشتتة" (توخاتشفسكي) تجاه الجيش الأحمر. من جهة الجيش الأحمر نفسه، القوة "البروليتارية" التي افترضها فرونزه لنظريته، فلم يكن مكونًا من الطبقة العاملة. مع نهاية الحرب، وبعد الجهود الشديدة، لم يشكّل الجنود البروليتاريون سوى نسبة ما بين ١٥ إلى ١٨ في المئة، المتبقون كانوا من الفلاحين، ومعظمهم مجندون إلزاميًا، ويواجهون جيوش العدو المكونة أيضًا (وبشكل أكبر) من الفلاحين المجندين إلزاميًا. كانت أعداد المتهربين من الجيش الأحمر هائلة، ولم يكن من السهل السيطرة عليها أثناء الصراع، في

إشارة قاسية إلى طبيعة الحرب الأهلية. في عام ١٩١٩ فقط، تجاوز عدد المتهربين ٢،٨٤٦،٠٠٠. يعلق المؤرخ المتعاطف فيدوتوف وايت على ذلك قائلًا: "العدد الهائل من المتهربين من الجيش الأحمر كان بلا شك عَرَضًا للصراع العميق والحاد بين إرادة الدولة الشيوعية وجماهير الفلاحين الروس".[٦] بفعل الطبيعة الإستراتيجية والاجتماعية انفصلت الحرب الأهلية الروسية بعمق عن حروب التحرير التي جرت لاحقًا في ذلك القرن.

من منطلق هذه الخلفية، يتضح الخطأ الأساسي في نظريات فرونزه: إنها تفترض قوى سياسية غير موجودة. لم يكن من الممكن ظهور عقيدة عسكرية "بروليتارية" في روسيا عام ١٩٢٠ لأنه لم يوجد جيش بروليتاري لتحقيقها. في المقابل تَمَثَّل استحقاق تروتسكي العظيم في وعيه الراسخ بالأساس الاجتماعي الهش للحرب، وتحديدًا كونها ليست حربًا شعبية بهذا المعنى، ويمكن بل ينبغي أن يقودها التقنيون القيصريون وتُحارَب وفقًا للأساليب العسكرية المدرسية. كانت الإستراتيجية "البروليتارية" يوتوبية في ظروف عام ١٩١٩ السيئة. كذلك كان رفض تروتسكي لأسبقية المناورة ذو أساس جيد بالقدر نفسه، لم تصعب عليه رؤية كيف كانت أسلوبًا شائعًا لدى جانبي الصراع، وعكست الظروف المُدَمَّرة والفقيرة في روسيا الرجعية. كان تروتسكي خليفة حقيقيًا لإنجلز، الذي كتب: "ليس هناك شيء يعتمد على الظروف الاقتصادية بقدر الجيوش والأساطيل. الأهداف والتشكيل والتنظيم والتكتيك والإستراتيجية تعتمد اعتمادًا مباشرًا على مستوى نمو الإنتاج المتاح ووسائل الاتصال المتاحة".[٧] مَن يقبل هذه الصيغة يحتاج إلى أن

6 كان هذا هو النقيض التام لما حدث في الصين، حين طُرد الشيوعيون الصينيون من المدن بسبب القمع والمذابح التي ارتكبها القوميون والاحتلال الياباني، أعادوا بناء قوتهم في الريف. ومن منطلق الدعم الشديد الذي حظوا بها، مكّن هذا الخرق للأرثوذوكسية الماركسية جيوش الصينيين الحمراء لاستعادة المدن، هذا الذي وصل لذروته في الزحف إلى بكين في أكتوبر عام ١٩٤٩. بهذه الطريقة، تجاوز ماو تسي تونج الجدالات العسكرية الروسية في العشرينيات من القرن العشرين.

7 'Introduction to Tukhachevsky'

يضع تأكيدًا مشددًا على أهمية التكنولوجيا والتنظيم، وبقيامه بذلك بطاقة وكفاءة لا يضاهيها أحد، قاد تروتسكي الجيوش السوفييتية إلى الانتصار في الحرب الأهلية.

دور توخاتشفسكي في الجدالات العسكرية، الذي ظل ثانويًا أثناء الحرب الأهلية، صار الأبرز بعدها مباشرة أثناء الحملة البولندية. ومن منطلق صدقه تجاه طموحه النابليوني، دافع عن صراحة عن "الثورة من الخارج" -أي الحرب البروليتارية الهجومية ضد الدول البرجوازية المجاورة- للإطاحة بالرأسمالية وتنصيب الطبقة العاملة المحلية في السلطة. في الوقت الذي ستنجح فيه الثورة الاشتراكية، سيكون "لديها الحق الطبيعي في التوسع، كمسألة مسار". فكرة الميليشيا الدفاعية بدلًا من الجيش الهجومي كانت "خرافة قديمة للأممية الثانية"، التي قيدت العمال دومًا في فكرة "شبه المعركة السلبية". "وضعت الأممية الثانية المفهوم الذي يرى أن هذا الهجوم (هجوم البروليتاريا على البرجوازية) يُسمَح به فقط بداخل حدود الدولة".[8] ذهب توخاتشفسكي إلى أن المطلوب الآن هو قيادة أممية للثورة البروليتارية، تُنَسِّق العمليات الخارجية في أنحاء القارة.

معرفة أصول تلك الأفكار ليست أمرًا مستغلقًا، تبدَّت عبقرية نابليون العسكرية في موجة من الحملات الخارجية التي حملت أفكار الثورة البرجوازية إلى كل أنحاء أوروبا، ونقلت معها المؤسسات السياسية وجبهات الدولة إلى أي مكان ذهبت إليه. رحبت إيطاليا وألمانيا والبلاد المنخفضة بشكل واسع بالغزو الفرنسي واعتبرته تحريرًا: مثَّل هيجل وبيتهوفن نماذج لمن اعتبروا النظم الجديدة إشارة إلى التقدم التاريخي. لم يتم التعامل مع الجيوش الفرنسية كجيوش قمع ولم تُهزم إلا حين دخلت الأرضية الاجتماعية برجعية بائسة ليست منطلقة من أي من أفكار الثورة

---

8 السابق.

البرجوازية بخلاف القومية، كما حدث في أسبانيا وروسيا. من المنظور الفرنسي، كان بونابرت، كما أكد ماركس، تجسيدًا للطبقة البرجوازية المستقرة والمتخمة، ومن منظور غير الفرنسيين ظل قوة مدمرة وبطولية للعديد من الأوروبيين.

كان الأمر مستغلقًا في المواقف البلشفية اللاحقة وحتى المعاصرة. لم يقتبس لينين في سنواته الأخيرة من روسبيير أو بابوف إنما من نابليون، وذلك لتبرير أفعاله للقيام بثورة أكتوبر، في مواجهة اتهامات المناشفة المستمرة بأنها كانت قبل أوانها، استعان بمقولة نابليون: "لنشتبك أولًا ثم نرى" On s'engage et puit on voit. أما تروتسكي، الذي لم يكن لديه سوى ساعات قليلة لقضائها في قطاره أثناء الحرب الأهلية فتأمل في الإمكانيات الأممية الجديدة. في ٦ أغسطس عام ١٩١٩، أرسل مذكرة مكتوب عليها "سري للغاية" إلى لينين واللجنة المركزية، كان فحواها الرئيسي هو: ربما لا يكون للجيش الأحمر قوة حاسمة في أوروبا إذا استعادت العسكرية الأنجلو فرنسية "عامل الحيوية"، ولكن ألا يمكنه أن يغيِّر علاقات القوى في آسيا بهزيمة الإمبراطورية البريطانية. ذهب إلى أن هناك إمكانية لتجاوز الفاصل الطويل الذي ينتظرهم قبل استكمال الثورة الأوروبية، وذلك بممارسة سياسة مواجهة في آسيا:

"في اللحظة الحالية ربما يثبت أن الطريق إلى الهند أسهل في العبور وأقصر لنا من الطريق إلى المجر السوفييتية. نوعية الجيش الذي لا يمثل في هذه اللحظة قوة كبيرة بالمعايير الأوروبية بإمكانه أن يخلخل التوازن المهتز لعلاقات التبعية الاستعمارية الآسيوية، ويقدم دفعة مباشرة لانتفاضة الجماهير المقموعة ويؤكد انتصار هذه الثورة في آسيا".[٩]

في النهاية كانت هناك سوابق قليلة لموقف توخاتشفسكي.

9 Leon Trotsky, *The Trotsky Papers, 1917–1922*, ed. and ann. JanM. Meijer, London and The Hague, 1964, p. 622.

شرَّع الحزب البلشفي الحروب الهجومية للدولة البروليتارية ضد الدول البرجوازية المجاورة بغرض مساعدة الطبقة العاملة الشقيقة في ثورتها. كتب لينين عام ١٩١٤:

"التنمية الاقتصادية والسياسية غير العادلة هي القانون المطلق للرأسمالية. بالتالي يكون انتصار الاشتراكية ممكنًا أولًا في عدة بلدان أو حتى في بلد رأسمالي وحيد. بعد مصادرة ممتلكات الرأسماليين فيها وتنظيم إنتاج البلد الاشتراكي، ستثور البروليتاريا المنتصرة في هذه البلد على بقية العالم – العالم الرأسمالي– وتجذب إلى قضيتها الطبقات المقموعة في البلدان الأخرى، تثير الانتفاضات في تلك الدول ضد الرأسماليين، وعند الحاجة سيصل الأمر لاستخدام القوة المسلحة ضد الطبقات المُستَغِّلة ودولها".[10]

كرر تروتسكي ذكر تلك المبادئ عام ١٩٢١:"من حيث المبدأ، ستظل الحكومة السوفييتية دومًا في حالة حرب ثورية هجومية وفقًا للشروط التي يمكن أن تؤدي فيها هذه الحرب إلى تحرير الطبقات الكادحة في الدول الأخرى".

هكذا كانت هناك خلفية مرجعية محددة لعقيدة توخاتشفسكي، كانت هناك أيضًا نتائج ثورية مضادة قوية كما سنرى. إلى جانب التدخل في روسيا نفسها، انتقلت الإمبريالية سريعًا بعد ثورة أكتوبر لسحق انتفاضات جيوش أخرى بواسطة جيوش أجنبية، ونجحت في ثلاث حالات هامة. دمَّر الجيش الروماني الغازي الكميونة المجرية المحاصرة، ورسخَّت السلطة البرجوازية في بودابست لخمس وعشرين سنة. أما الثورة الفنلندية، التي عطَّلت الحراس البيض في الشمال، فأدى إبرار الجيش الألماني الذي يقوده فون در جولتس إلى اختراقها ثم سحقها. وفي الشرق، أطاح جيش يقوده البريطانيون ومكون من المرتزقة الفارسيين بجمهورية جيلان على ساحل بحر

10 'Introduction to Tukhachevsky'.

قزوين. في كل تلك الحالات لم تستطع الدولة السوفييتية مساعدة الثورات الشقيقة، وشهدت هزيمتها بدون أن يكون لها حول ولا قوة، وذلك بتدخل خارجي لا بقوة داخلية. لينين على وجه الخصوص شعر بالحزن المرير من الإخفاق في مساعدة الكميونة المجرية عام ١٩١٩. في هذا السياق يمكن أن نرى في أفكار توخاتشفسكي التفافًا منطقيًا على "الثورة المضادة من الخارج"، في هذا الموقف الجديد الذي خلقته نهاية الحرب الأهلية في روسيا.

عدوان بيوسودسكي الساعي للضم عام ١٩٢٠ أتاح منصة انطلاق طبيعية للهجوم المضاد. عندما عَبَر الجيش الأحمر نهر البوج باتجاه بولندا، كان الهدف المباشر هو تحرير وارسو والطبقة العاملة البولندية. كان لدى البلاشفة أسس معقولة للاعتقاد أن البروليتاريا البولندية ثورية واشتراكية وسوف تتحد معهم لقتال ثلة كولونيلات بيوسودسكي وشميجوي-ريدز. استمر الإضراب العام في ١٩٠٥ في وارسو وقتًا أطول من أي مكان آخر في الإمبراطورية الروسية، ظهرت السوفييتات عام ١٩١٨، وظل ميراث لوكسمبورج وتيشكا[vi] قائمًا هناك. بالإضافة إلى بولندا ووراءها، كانت ألمانيا، "المفتاح الرئيسي للموقف الأممي"، كما سيدعوها تروتسكي لاحقًا، محاصرة بالعصيان والحرب الأهلية، كانت في موقف شبه ثوري. قَمَع الفرايكورب (الفيلق الحر) الانتفاضة السبارتكية في البلطيق؛ ربما يمكن إنقاذ وريثتها بجيش آخر من الشرق، الفرسان الحمر؟ في عام ١٩٢٠ آمن كل بلشفي بأن مستقبل الثورة الروسية يعتمد على نجاح الثورة في الغرب، هكذا بدا أن دوافع التضامن الأممي والدفاع الذاتي تبرر تقدم الجيش الأحمر خارج الحدود الروسية. أوجز لينين ذلك عندما قال إن الحملة البولندية ستكون ضربة ضد نظام فرساي بأكمله، النظام الذي ينسّق دوليًا الحصار على الاشتراكية في روسيا ويقمعها في أوروبا الغربية والوسطى.

وحده تروتسكي عارض المسير إلى بولندا، وحذر من مخاطره؛ مجددًا أظهر تقديره المستبصر لحدود الثورة الروسية، ذهب إلى أن القومية البولندية

قوة أساسية سيثيرها وجود الجيش الروسي على أراضيها، بغض النظر عن ألوانه، مثلما استثيرت الشوفينية الروسية من غزو الجيوش البولندية قبل عدة أشهر. لا يقتصر الأمر على ذلك، هناك أمر أكثر أساسية، ذكّر تروتسكي البلاشفة بأن الجيش الأحمر في أغلبه مكون من الفلاحين ذوي التعليم السياسي المحدود، ولا يمكن الاستعانة بهم عند الحاجة للقيام بغزوات في أنحاء أوروبا. الجنود الفلاحون الذي يشكلون الجيش لن يقاتلوا بحماس كبير خارج حدود أراضيهم. كتب تروتسكي: "بهذا النوع من التكتيك لن نكون قادرين على الاستحواذ على روح الفلاحين". لم يصمَّم الجيش الأحمر لغزو بروكسل أو جاليسيا، على العكس، السياسة العسكرية الدفاعية هي السياسة الممكنة الوحيدة في روسيا ذات الاقتصاد المتأخر وطبقة الفلاحين غير الاشتراكية.

ثبت أن تروتسكي كان على حق. الطبقة العاملة الألمانية، التي لم يكن لها تقاليد ثورية قبل الحرب العالمية الأولى، صارت راديكالية بسبب الهزيمة وقامت بمحاولات عصيان متكررة بعد الحرب. أما الطبقة العاملة البولندية فاتبعت تطورًا عكسيًا؛ بعد تاريخ طويل من الانتفاضات الثورية، تشتتوا بعد الحرب، وبعد ظهور الدولة البولندية تحت حماية معاهدة فرساي، لم يكن هناك رد فعل شعبي لنداء الجيوش السوفييتية للوقوف أمام بيوسودسكي. كان يمكن تجنب الهزيمة العسكرية في الحملة البولندية، ولم يكن يمكن تجنب الهزيمة السياسية للمفهوم الذي يقف وراءها. تنظير توخاتشفسكي اللاحق كان صريحًا بما يكفي:

"ربما لا تكون الطبقة العاملة مستعدة على الدوام للترحيب بيد المساعدة المقدمة نحوها. ربما ما زالت بحاجة لوقت لتتأنى وتدرك أين يقع خلاصها. باختصار، لن يكون الهجوم الاشتراكي على الدوام مرتبطًا بالانتفاضة الثورية التي تحدث في الدولة المعنية".

بمعنى آخر، لم يعد دور الجيش الأحمر فقط هو مساعدة أشكال العصيان المحلية التي تتعرض للهجوم، إنما المبادرة، وأن يحل بدلًا منها عند اللزوم. حدد تروتسكي هذا الاختلاف بوضوح شديد، أكد على أنه "في الحرب الطبقية العظيمة، التي تجري الآن، لا يمكن للتدخل العسكري الخارجي أن يتجاوز كونه دورًا *مصاحبًا ومتعاونًا وثانويًا*، ربما يسرع التدخل العسكري من حل الصراع ويجعل الانتصار أسهل، ولكن فقط عندما يكون الوعي السياسي والظروف الاجتماعية مهيأة للثورة".

كما يشير دويتشر في تحليله الكلاسيكي للحملة، كان هذا المبدأ بالتحديد هو ما تجاهله توخاتشفسكي. حاول فرونزه أن يهرب من وضع الحدود المُقَيِّدة للحرب الأهلية بتخيل إستراتيجية ماركسية للمستقبل. توخاتشفسكي أيضًا حاول الهرب منها ولكن بالعودة إلى الماضي، بالطبع ما لم يستوعبه هو الاختلاف الأساسي في طبيعتي الثورتين البرجوازية والاشتراكية. استطاع نابليون لبعض الوقت أن ينجح في تصدير أفكار عام ١٧٨٩ على رؤوس حرابه، لأن التغيرات السياسية في المجتمع، تلك المتضمنة في الثورة البرجوازية، لا تتطلب بطبيعتها مشاركة جماهيرية من أسفل. وكما ستشهد على ذلك الأحداث اللاحقة في ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا، يمكن للأوليجارشية الصغيرة أن تفرض تلك الأفكار من أعلى من خلال البيروقراطية والقمع. في المقابل، لا يمكن للثورة الاشتراكية أن تكون اشتراكية بالتعريف إلا إذا شاركت فيها جماهير الشعب التي تضع حياتها على أيديها، لتطيح بالمجتمع القائم من أعلاه إلى أسفله. لا يمكن تحقيق نسخة بروليتارية من حملة نابليون الإيطالية في القرن العشرين.

بعد الحرب العالمية الثانية، فرض ستالين الأسلوب البيروقراطي "الثورة من الخارج" —الذي يعتبر الآن منفصلًا تاريخيًا عن أصوله في الحقبة اللينينية- وذلك في أنحاء أوروبا الشرقية، وكانت النتائج شائنة. تلك المخلوقات غير الطبيعية كانت على الأقل منتجات جانبية للانتصار على

العدوان النازي والدفاع ضد تهديد أشكال الزحف الأنجلو-أمريكية. تمثّل الخط المطلق من التقاليد الكريمة سابقًا للجيش الأحمر بعودة حكم الكوماندانتورا السوفييتية في براغ بعد عشرين سنة، ولم يكن ذلك لطرد الألمان، إنما فقط لقمع التشيك: كانت بمثابة رجعية من الخارج، وكانت مسمارًا كبيرًا في نعش الاتحاد السوفييتي.

من أجل أن نضع الجدالات العسكرية والسياسية الثلاثية في بدايات الجيش الأحمر في موقعها التاريخي، ربما يكون من المثمر أن نعقد مقارنة. دعونا نتذكر أن إنجلز أكد على أن "الأهداف والتشكيل والتنظيم والتكتيك والإستراتيجية تعتمد اعتمادًا مباشرًا على مستوى نمو الإنتاج المتاح ووسائل الاتصال المتاحة". من الواضح أن النقص الملحوظ في صياغة إنجلز هو تقليصه للمحددات المادية للحرب إلى قوى الإنتاج، المتصورة على أنها تكنولوجيا، المفقود هنا هو *علاقات* الإنتاج، هكذا وصل لحكمه الشهير غير الدقيق بأن المدفعية والقذائف جعلت المتاريس أسلوبًا قديمًا والعصيان المدني مستحيلًا. بعد أكتوبر غابت عن روسيا العلاقات الاجتماعية المرتبطة بهذا النوع من الحرب، لم يعد هناك شيء يمكن فعله سوى العودة إلى الأنساق التقليدية.

السؤال التاريخي العظيم الثاني الذي طرحته حياة توخاتشفسكي الغامضة الناقصة يتعلق بأداء الجيوش السوفييتية أثناء الحرب العالمية الثانية. منذ نهاية العشرينيات، وهب توخاتشفسكي نفسه لبناء جيش ميكانيكي وصناعي: مع صعود الفاشية في أوروبا، صار من الواضح تهديد التدخل الإمبريالي الثاني. في النصف الثاني من حياته، تخلى توخاتشفسكي عن المفاهيم المسبقة المستمدة من تجربته في الحرب الأهلية، أي أولوية الهجوم على الدفاع، وتفضيل المناورة على المواقع الثابتة. أدت التغيرات التقنية التي نتجت عن صعود الوحدات الميكانيكية -التي غابت عن الحرب الأهلية، باستثناء الاستخدام القديم للقطارات المسلحة- إلى تغيُّر طبيعة المشكلات

الإستراتيجية للحرب التقليدية. في مقاله "الحرب كإشكالية نضال مسلح" (١٩٢٨)، وضع توخاتشفسكي بدقة شديدة الخطوط العريضة لنمط الحرب العالمية الثانية، إذ أكد على أهمية المبادرات الدبلوماسية لإحداث انقسامات في صفوف العدو الرأسمالي، وتنبأ بأن حرب الخنادق لن تلعب دورًا في الصراعات المستقبلية: انتقد الإصرار الأحادي على الهجوم/ المناورة وذهب إلى أن حرب المواقع الدفاعية ستكون هامة بالقدر نفسه؛ في النهاية، أولى أهمية كبيرة للاستخدام الماهر للدبابات، ولكنه أوضح أنه لا يجب أن تُقَدَّس بمعزل عن العناصر الأخرى في الإستراتيجية العامة (الفولرية[vii]/ الحرب الخاطفة ـ بليتسكريج)، ولا بد أن تمتزج بوحدات مشاة من أجل تحقيق أكبر تأثير.

بعد عامين، كان توخاتشفسكي رئيسًا لقسم العمليات في الجيش الأحمر، سريعًا ما شَكّل أول لواء ميكانيكي عام ١٩٣٠ (دبابات وعربات مدرعة)، وجرَّب أول وحدات مظلات عام ١٩٣١. وفقًا لأحد المصادر، تصور أن يقدم المساعدة لانتفاضة بروليتارية محتملة في ألمانيا على شكل إسقاط جنود مظلات خلف خطوط العدو عند منطقة الرور وسكسونيا المنخفضة وبروسيا. كانت هذه الفكرة عودة لمفهوم لينيني أصيل، وفي الواقع حققته جيوش الحلفاء والسوفييت خلال الحرب العالمية الثانية في اتصالهما بحركات المقاومة في البلقان. ابتكار توخاتشفسكي التالي كان تطوير ما دعاه بـ "المناورة المركزية" أو الحصار المزدوج، الذي تضمن اختراق خطوط العدو باستخدام تشكيلات متحركة، والذي مارسه في تدريبات عسكرية هائلة عام ١٩٣٣. الملحقون العسكريون الأجانب الذين راقبوا تلك التدريبات لاحظوا أن مفهومها التكتيكي كان متقدمًا عن قدرة القوات على تنفيذها. بعد ثمانية أعوام، وضعت "المناورة المركزية" فون بولوس[viii] في الشراك بستالينجراد. كما شرحت مجلة نيو ليفت ريفيو:

"لن يكون من المستبعد على الإطلاق أن نزعم أن العديد من عمليات الحصار في الحرب العالمية الثانية، كمعركتي ستالينجراد وكورسون-شفتشنكوفسكي عام ١٩٤٤، مدينة بمفهومها للتجارب التي أجراها توخاتشفسكي وجماعته في سهول بيلاروسيا وأوكرانيا بداية من عام ١٩٣١".[١١]

بداخل إطار العلاقات الاجتماعية غير المتغيرة في الحرب، طوَّر توخاتشفسكي في الثلاثينيات ربما أكثر المفاهيم التكتيكية تقدمًا في العالم. إذا كان هناك أي شخص مسؤول عن انتصار الجيش الأحمر النهائي على الفيرماخت، فهو بالتأكيد هذا الشخص.

علامة الاستفهام الأخيرة في عمله تتعلق بالأحداث التي أدت للحرب الروسية الألمانية عام ١٩٤١. منذ حلف رابالو عام ١٩٢٢، تدرب جيشا البلدين معًا في القواعد الخاصة بداخل الاتحاد السوفييتي، والتي ضمت مدرسة للدبابات والطيران. زار توخاتشفسكي ألمانيا عام ١٩٣٢، أي في العام السابق لوصول هتلر للسلطة. زعمت بعض التقرير أنه وجامارنيك[ix] طلبا من ستالين إغلاق مراكز التدريب فور وصول هتلر لمنصب المستشار. يشير آخرون إلى أنه ندم من إنهاء التعاون التقني بين الجيشين. في كل الأحوال أغلقت القواعد في أكتوبر عام ١٩٣٣، وبعدها لم يُلق توخاتشفسكي غير تصريح رئيسي عام واحد عن الشؤون الخارجية، وذلك في مقالة عسكرية طويلة في "برافدا" في ٣١ مارس عام ١٩٣٥، وكانت تحذيراته الملحة من مخاطر العدوان النازي مستبصرة.

بعد مرور عام، وحين بدأ يتعرض لحالة أفول جزئي وتشكك في نواياه، وافق توخاتشفسكي على الإجابة عن أسئلة يطرحها الجنرال إيسرسون، مدير أكاديمية الجنرالات المنشأة حديثًا، وزميله بافل

11 'Introduction to Tukhachevsky'.

فاكوليتش، رئيس قسم العمليات، ولم يكن حاضرًا سوى الضباط الكبار. لمدة ساعتين تحدث معهما عما ينبغي فعله. كان السؤال الأول بسيطًا، حين سُئل عن العدو المحتمل الذي ينبغي أن يعدوا أنفسهم لقتاله، رد بلا تردد: "ألمانيا". أما السؤال الثاني فكان متعلقًا بإدارة العمليات في الحرب القادمة، هنا نبَّه المارشال محاوريه أن يحذروا من الدوجما، سيحدد الموقف العالمي "الموقف الإستراتيجي المتماسك". ولكن توخاتشفسكي أشار إلى أن الإستراتيجية التي استُخدمت أيام الحرب العالمية الأولى صارت الآن على وشك الفناء؛ في الحرب القادمة سيهاجم العدو فجأة ويستخدم كل شيء متاح على الأرض والبحر والجو ليفاجئ الجيش الأحمر؛ ومن أجل الوقاية من ذلك لا بد أن يكون الاتحاد السوفييتي في حالة استعداد دائم، بتشكيلات عمليات يقظة وقادرة على الهجوم في اللحظة التي يتوقف فيها العدو. شرح ذلك بشكل أكبر:

"بالنسبة للحرب الخاطفة التي يروج لها الألمان، فهي موجهة لعدو لا يريد القتال ولن يقاتل. إذا لاقى الألمان عدوًا يصمد ويقاتل وينتقل للهجوم، سيغيِّر هذا من الوضع. سيكون الصراع مريرًا وممتدًا، وبطبيعته سيؤدي لتغيرات عظيمة وعميقة على الجبهة في هذا الجانب أو ذاك. كملجأ أخير سيعتمد كل شيء على مَن يملك نسيجًا أخلاقيًا أعظم ومَن سيُظهِر احتياطي العمليات العميق الموجود لديه بالقرب من نهاية العمليات".

بعد وقت قصير أُطلق عليه الرصاص. قرر ستالين عزل توخاتشفسكي، إلى جانب الشخصيات العسكرية الكبيرة الأخرى التي نافسته من الماضي والتي لم يثق فيها. كان التواطؤ المثير للسخرية بين مفوضية الشعب للشؤون الداخلية والخدمة السرية الألمانية، ذلك الذي كان مسؤولًا عن مقتل توخاتشفسكي، والتي استغفلت فيها الخدمة السرية المفوضية، هو ما أدى إلى تقوية "العلاقة" واستبق الحلف النازي السوفييتي الذي تم التوقيع عليه بعد عامين.

أثبت تطهير الجنرالات أنه ضربة أقعدت القدرات القتالية للجيش الأحمر، وهذا ما كانت تتمناه بالضبط الخدمة السرية. كارثة يونيو- أكتوبر عام ١٩٤١، التي لم يستوعب فيها الاتحاد السوفييتي تمامًا الغزو الألماني، وفُقد فيها ملايين الرجال ونتاج سنوات من البناء الصناعي، لا بد أن تُعزى كلية إلى عدم وجود أي قيادة عسكرية خبيرة بعد عام ١٩٣٧. هذا يتجاوز كونه إهمالًا، بل كان جريمة، ومسؤوليتها على الكارثة هائل ولذلك ظلت موضوعًا ممنوع الخوض فيه في الاتحاد السوفييتي حتى نهاية الدولة. لم يتكشف أبدًا هول العمى الذي أصاب ستالين وعدم كفايته. الحكايات المشكوك فيها عن الخطاب السري الذي ألقاه خروتشوف لم تسهم سوى بجعل الاتهامات الصادقة الموجهة لـ "الجينراليزيمو"[x] أكثر غموضًا.

على عكس الاعتقاد الشائع، لم يكن لدى الفرماخت في أي وقت تفوق عسكري على الجيوش السوفييتية على الجبهة، العكس كان صحيحًا. لم يتوقف الأمر على أن الجيش الأحمر انتشر في مواقع متقدمة بعدد يفوق عدد القوات الألمانية على الجبهة الشرقية بثلاثة فرق في يونيو عام ١٩٤١. كان لدى الجيش الأحمر نسبة تفوق مدهشة في عدد الدبابات، وهي نسبة سبعة إلى واحد، ومن المفترض أن الدبابات هي السلاح الأهم لدى الفيرماخت: بلغ عدد الدبابات ٢٤،٦٠٠ دبابة في مقابل ٣٥٠٠ دبابة بانزر منتشرة أمامها. بالنسبة للجو كان الاتحاد السوفييتي متفوقًا على القوة الجوية الألمانية (اللوفتفافه) بنسبة أربعة إلى واحد في عدد الطائرات. هكذا لا يوجد أساس للأسطورة القائلة بأن تسليح الألمان كان قادرًا من حيث المبدأ على سحق الدفاعات الروسية بأي حال، ولا يمكن إيقافه في النهاية إلا حين يستطيع الحراك الشعبي الكامل على إعادة التوازن في موسكو وستالينجراد. غزوات ألمانيا عام ١٩٤١ كانت انتصارات عسكرية فحسب، فازت فيها ألمانيا بالمهارة والمفاجأة ضد خصم أكثر تفوقًا دمرته قيادته غير المؤهلة والمخبِطة، والتي ارتكبت الخطأ وراء الخطأ. مسؤولية ستالين الشخصية عن

هذا الانهيار كانت مضاعفة: على مدى عامين دمَّر فيالق الجيش الأحمر وخلخل مواقع الدفاع عام ١٩٣٩، ورفض أن يقتنع بإمكانية الهجوم الألماني رغم التحذيرات المتكررة، ورفض أن يضع الصناعة السوفييتية في خدمة الحرب.

في النهاية انتصر الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، ولم يرجع ذلك لتفوقهم في المهارة العسكرية – بعد توخاتشفسكي، لم يُخرج الجيش الأحمر سوى جنرالات متوسطين ولم يكونوا بارعين- ولا الرباط الذي يجمع بين الجيش الثوري وقاعدته الجماهيرية –كان عدد المتهربين أمام الألمان يُحسَب بعشرات الآلاف- إنما يرجع الانتصار إلى الثقل الاقتصادي والاجتماعي للاتحاد السوفييتي بعد الخطة الخمسية، والذي قللت المخابرات الألمانية منه وأهلكت نفسها بذلك. ظل الفرماخت منتصرًا حتى نظمت تلك الآلة الهائلة نفسها أخيرًا وبقدر من العقلانية لتخوض الحرب، بعدها قاومت ببطء تحت لواء القومية. أنقذ الانتصار المتأخر أوربا من الفاشية، وكان ثمن ذلك عظيمًا، ولم يُحسب بعد قدر الثمن الذي كان يمكن تجنب دفعه.

في مقدمة جون إريكسون للطبعة الثالثة من عمله الكلاسيكي عن القيادة السوفييتية العليا، والذي كُتب قبل موته بعدة أشهر، استنتج التالي:

"عاش النظام على الدوام على حد سكين رفيع، اتضح لي الجانب المخيف لهذا في حوار واحد مع قائد المدفعية ن. ن. فورونوف. سألني إذا كنت راضيًا عن المساعدة التي تلقيتها أثناء أحداث يونيو عام ١٩٤١... ولأني كنت أعرف أنه كان موجودًا في قلب الأحداث في الساعات الأولى من يوم الأحد ٢٢ يونيو، سألته عن تعليقه. قال إنه في حوالي السابعة والنصف صباحًا تلقت القيادة العليا أخبارًا مشجعة: الجيش الأحمر يرد

الضربات، لقد تجاوزنا الكابوس السيء، لقد توجه جنود الجيش الأحمر إلى الحرب، استجاب (النظام) وسوف يواصل استجابته".[١٢]

لقد فعلوا ما هو أكثر من ذلك، ومن المفيد تكرار ذكر الحقيقة (التي كان يعرفها في ذلك الوقت تشرشل وجنرالاته وروزفلت والجنرال مارشال)، تلك الحقيقة التي تقول بأنه بدون المقاومة الروسية والقدرات التي كشفتها الدولة السوفييتية، لاستولى الرايخ الثالث على أوروبا. كان مستوى المعاناة التي لحقت بالسلاف (الجنس الأدنى) متقدمًا للغاية، إن لم يكن بنفس قدر القسوة التي اتسم بها التطهير العرقي لليهود. دائمًا ما تقلل الثقافة السياسية الانتصارية المسيطرة على الغرب اليوم من شأن الإسهام السوفييتي في "حرب الجندي ريان". حجم الدمار الذي ألحقه الجيش الأحمر بالأنظمة الفاشية، واستسلام جيش فون بولوس السادس في ستالينجراد، وكفاءة السلاح السوفييتي في كورسك، قصم ظهر الرايخ الثالث. أدى تأخير الولايات المتحدة وبريطانيا المقصود في فتح جبهة جديدة إلى مقتل أكثر من مليون سوفييتي. وأدى صدام آلتي الحرب إلى خسائر هائلة لحقت بالجانبين على الأراضي السوفييتية. زعم الجيش الأحمر تدمير ٤٨ ألف دبابة ألمانية، و١٧٦ ألف مدفع، و٧٧ ألف طائرة. في العموم، فقدت الجيوش التي حرَّكتها ألمانيا الفاشية ١٣,٦ مليون جندي، لا يقل عن ١٠ مليون منهم التقوا بحاصد الأرواح في معارك الاتحاد السوفييتي. على الجبهة الشرقية، فُقدت ٥٠٦,٥ فرقة ألمانية، "بينما فقدت الأقمار الصناعية الألمانية البطيئة أثر ١٠٠ فرقة أخرى نتيجة الاشتراك في الحرب ضد الاتحاد السوفييتي".[١٣] وحين نرى أن من قاتلوا مع الرايخ الثالث وخلفائه محتفى بهم حاليًا في كرواتيا وأوكرانيا الناتو والمجر وصربيا، نعرف الكثير عن طبيعة الزمن الذي نعيشه.

---

12 Erickson, *The Soviet High Command*, p. xx

13 Erickson, *The Road to Berlin*, p. xx

رسَّخ الانتصار من مكانة الجيش السوفييتي في أنحاء العالم، ولا شك أنه أعطى دفعة للجيوش الثورية في الصين وفيتنام. بعد انتهاء الحرب، لم يتغير شيئًا داخل الوطن، استغل الجيش الأحمر، الذي انفصل عن ماضيه في العديد من المستويات، شعبيته القومية الحديثة ليطالب بالمزيد من التمويل؛ الإنفاق العسكري غير المسيطر عليه، والمغامرات الخارجية في إثيوبيا وأفغانستان، والإخفاق في التعامل مع الاقتصاد المتداعي، أدت إلى نهاية النظام. لا أحد في قيادة الحزب الشيوعي أو الجيش تنبأ بهذا الانهيار السريع.

ولكن لينين نفسه، إلى جانب تروتسكي وسكيلانسكي وتوخاتشفسكي وبليوخار، لم يكن ليفاجئهم هذا الانهيار.

---

i Falstaff شخصية شكسبيرية تمثل فارسًا يتفاخر بأفعاله رغم جبنه.

ii المقصود اتحاد النقابات الذي ساهم في تأسيسها صمويل جومبرز Samuel Gompers عام ١٨٨١.

iii Connaught Rangers تمرد حدث في فوج أيرلندي تابع للقوات البريطانية في الهند عام ١٩٢٢.

iv إدوارد برنشتاين Edward Bernstein (١٨٥٠-١٩٣٢) كان عضوًا بالحزب الاشتراكي الديمقراطي، وكان صديقًا لماركس وإنجلز قبل أن يراجع أفكارهما فيما بعد.

v اليعقوبية Jacobinism في إشارة إلى نادي اليعاقبة الذي كان له تأثيره على الثورة الفرنسية، تُفهم الكلمة بمعنى اليسار المتشدد، والجمهورية المركزية.

vi جان تيشكا Jan Tyszka (١٨٦٧-١٩١٩) اسمه الحقيقي ليو يوجيشيس، ماركسي بولندي وأسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي في بولندا، وكان من أعضاء عصبة سبارتاكوس.

vii في إشارة إلى نظرية جون فولر في الحرب، وفولرJohn Fuller (١٨٧٨-١٩٦٦) كان ضابطًا إنجليزيًا وألف عدة كتب في نظريات وعلوم الحرب.

viii فريدريش بولوس Friedrich Paulus (١٨٩٠-١٩٥٧) قائد الجيش السادس الألماني، استسلم للقوات الروسية في معركة ستالينجراد.

ix يان جامارنيك Yan Gamarnik (١٨٩٤-١٩٣٧) من قادة الجيش السوفيتي.

x Generalissimo، لقب عسكري يوازي القائد الأعلى، حصل عليه ستالين بعد الحرب العالمية الثانية.

القسم الرابع

مسألة النساء

١٢

الموجة الأولى

كانت الاشتراكية هي التيار السياسي الأول الذي استوعب فكرة قهر النساء وناقشها بجدية بداخل الحركة. كتب النصان الأساسيان فريدريش إنجلز وأوجوست بيبل، ولا ينبغي التقليل من شأن تأثيرهما المبدئي. على جانب آخر، ندم إنجلز لأنه لم يول اهتمامًا أكبر لأعمال شارل فورييه؛ نص الكاتب الفرنسي "الحط من النساء في الحضارة"، صدر عام ١٨٠٨، وسبق الكثير مما كُتب بعد ذلك. كان فورييه مقتنعًا بعمق أن الطبيعة التقدمية أو الرجعية لأي مجتمع يمكن الحكم عليها بمعيار واحد، كيف تُعامِل المرأة.[١]

1 "هل يمكن رؤية ظل للعدل في المصير الذي يحل بالنساء؟ أليست النساء الشابات مجرد سلع تُعرض لمن يشتريها بأعلى سعر وكأنها ممتلكات خاصة؟ أليس القبول الذي تقدمه لرابط الزواج مثيرًا للسخرية ويجبرها عليه طغيان الإجحاف الذي يتحكم فيها منذ طفولتها؟ يحاول الناس أن يقنعوها أن قيودها منسوجة من الورود، ولكن هل لديها أي شك حقًا في انحطاطها، حتى في المناطق المتنفخة بالفلسفة كإنجلترا، يكون لدى الرجل الحق في اصطحاب زوجته إلى السوق مربوطة بحبل حول رقبتها، ويبيعها كبهيم حَمول لأي شخص يدفع السعر المطلوب؟ هل وجهة نظر رأينا العام في هذه النقطة متقدمة عن الزمن الفظ الذي تجادل فيها مجلس ماكون، المجلس الحقيقي لقوم الفاندال، حول إذا كانت النساء تملك أرواحًا أم لا، وقرروا أن لديها روح بهامش ثلاثة أصوات فقط؟ التشريعات الإنجليزية، التي يحتفي بها الأخلاقيون للغاية، تعطي الرجال حقوقًا متعددة في حين أنها منحطة من جهة الجنس (جنس النساء)، مثل حق الزوج أن يلاحق عشيق زوجته قضائيًا طلبًا لتعويض مالي. الأشكال الفرنسية أقل إثارة للازدراء، ولكن في أساسها تحقق نفس شكل العبودية... الطرح العام هو أن التقدم الاجتماعي والتغيرات التاريخية

هضم لينين كل هذه النصوص، وعادة ما استعان في خطاباته بمعيار فورييه الدقيق في تقييم المجتمع.

في كتاب "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" (١٨٧٤)، كتب إنجلز تاريخًا تقريبيًا للمجتمع الإنساني المبكر، وانبنى هذا التاريخ في مجمله على دراسة هنري لويس مورجان عن أعراف وممارسات قبائل إيراكوي في منطقة نيويورك. أضاف إنجلز إليه تحليله عن ظهور الملكية الخاصة والروابط بينها وبين الممارسات الجندرية. صدم معاصريه بالإشارة إلى أن الزواج "عهر شرعي"، وكان لاذعًا في نقده للكنيسة والمجتمع البرجوازي في العموم، اللذين زرعا فكرة أن الزواج الأحادي هبة من الله وأبدي. رد إنجلز على ذلك في "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" بالدخول إلى مملكة الحيوان وأشار قائلًا:

"إذا كان الزواج الأحادي هو قمة كل الفضائل، إذن فأرقى كائن هو الدودة الشريطية، التي تملك مجموعة كاملة من الأعضاء الجنسية الذكرية والأنثوية في كل شرائحها أو أجزائها التي تتراوح من ٥٠ إلى ٢٠٠، وتقضي حياتها كلها في جماع كل هذه الأجزاء. ولكن إذا اقتصرنا على الثدييات، نجد كل أشكال الحياة الجنسية؛ الاختلاط، أدلة على الجنس الجماعي، تعدد الزوجات، الزواج الأحادي. ينقصهم فقط تعدد الأزواج – احتاج الأمر إلى البشر من أجل الوصول إلى ذلك".

كتب إنجلز القليل جدًا عن الأشكال المحددة من القمع الجندري في ظل الرأسمالية. في دراسته المعنونة بـ "المرأة في ظل الاشتراكية" (١٨٧٩) حاول

تحدث بفضل تقدم النساء نحو الحرية، وانحطاط النظام الاجتماعي يحدث كنتيجة تناقص حرية النساء". شارل فورييه، "الحط من النساء في الحضارة.

Charles Fourier, 'Degradation of Women in Civilisation', in *Théorie des Quatre Mouvements et des Destinées Générales*, 3rd ed., Paris, 1808.

تظل هذه الجملة الأخيرة معيارًا سليمًا (وإن لم يكن المعيار الوحيد) لتقييم المجتمعات عبر العالم حتى يومنا هذا.

ببيل أن يعالج هذا النقص. كان طابع الكتاب أكثر اجتماعية، يضع يده على واقع الحاضر ويقدم دليلًا إحصائيًا على التمييز الجندري على كل المستويات. صِيغ الكتاب ليدفع الاشتراكية الديمقراطية لتدمج احتياجات ومطالب النساء في برامجها السياسية. شعر ببيل بالغضب بشكل خاص لإنكار حقوق التعليم على نصف سكان إنجلترا وألمانيا وغيرهما من الدول. في فصل مفصل ومؤثر عن العهر (ملحق بفصل الزواج الأحادي)، وأسبابه ونتائجه، وما الضروري فعله حتى يختفي طوعًا، أدان بشدة سوء معاملة العاهرات ومحاكمتهن، معتبرًا المؤسسة شرعية ك "الشرطة والجيش النظامي والكنيسة والرأسمالية".

لم يكن لدى ببيل ولا إنجلز الكثير ليقولاه عن المثلية الجنسية؛ تجاهلها إنجلز، بينما اعتبرها صديقه ببيل "انحرافًا"، حتى في اليونان القديم، وترك القراء بافتراضات مشوشة وسخيفة وخالية من القيمة الحقيقية. طرحه الذي يقول إنه "مع تزايد إدمان السكان الذكور في اليونان للشذوذ مع الصبية، اتجه السكان النساء إلى طرف النقيض وتشكّل حب نفس الجنس" يكشف عن إخفاق تام في الفهم. ظلت المثلية الجنسية بقعة عمياء عند كل أطياف اليسار الأوروبي تقريبًا حتى منتصف القرن العشرين، لم يتعلق الأمر بكون المثليين مختفين في الدولة، فهم خضعوا لقوانين التجريم، والتي كانت وحشية في بروسيا على وجه الخصوص، والتي امتدت بعد ذلك إلى ألمانيا الموحدة في عهد بسمارك.[2] أما المطالبة بعدم التجريم أو عدم تطبيقه، وهو المطلب الديمقراطي الصريح، فكان عليه أن ينتظر الثورة الروسية.

---

2 تُرك الأمر لألماني آخر في الحقبة نفسها، وهو كارل هينريش أولريشس (الذي وُلد عام ١٨٢٥ في فريزلاند الشرقية في منزل لوثري متعصب)، الذي حاول أن يقدم تفسيرًا أكثر تماسكًا. تجربة أولريشس الجنسية الشخصية مع صبي أكبر منه في المدرسة كان يحبه جعلته ينفتح على دراسة اليونان ويتعلم كلًا من اليونانية واللاتينية. كتب ١٢ كتيبًا عن "الأورنية" وهي الكلمة التي استخدمها عن حب الذكور لنفس الجنس. كانت أول محاولة جادة لفهم مثلية الذكور الجنسية وأطلقت جدالًا استمر إلى يومنا هذا. لم يستطع أولريشس أن يتقبل ألمانيا الجديدة وذهب للعيش

مثل كل شيء في روسيا القيصرية كانت الأوتوقراطية تحدد وضع الناس؛ الإصلاحات البطرسية المحدودة في القرن الثامن عشر كانت موجهة لأقلية صغيرة من النساء من النبلاء والطبقات التجارية، تلك الإصلاحات تركزت في الأساس على حق النساء في التملك، وهي خطوة للأمام أضعفت من السيطرة الأبوية، وظل الاستغلال المزدوج للنساء الفلاحات الخاضعات للقنانة من دون مساءلة. أسقطت إصلاحات أخرى في القرن التاسع عشر بعض القيود المتعلقة بالتعليم والمهن. بحلول عام ١٩٠٠ كانت هناك مُدَرِّسات وطبيبات ومحاميات نساء في روسيا القيصرية أكثر من أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية: إذا طُبِّق تعريف فورييه للمجتمع بصرامة، لا بد أن تكون روسيا القيصرية أكثر تقدمية في بداية القرن العشرين من ألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة، ولكن من الواضح أن هذه لم تكن حقيقة الوضع.

الأمر نفسه ينطبق على السياسة؛ كانت النساء الروسيات منغمسات في السياسة أكثر مما يدرك المؤرخون المعاصرون، قصائد بوشكين ونكراسوف التي تمدح النساء الديسمبريات اللواتي صاحبن أزواجهن في المنفى بسيبريا روَّجت لهذه التجربة بين العديد من الروس، وتولت بقية المهمة اليوميات والمذكرات والرسائل التي كتبتها النساء أنفسهن، قرأت الأجيال التالية هذه النصوص أو قُرئت لهم.

الثورات الفرنسية التي انتهت بكميونة عام ١٨٧١ كان لها تأثير هائل على قطاعات مختلفة في الإنتلجنسيا الروسية، بداية بالديسمبريين ونهاية بالفصيلين الرئيسيين لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. عندما

في إيطاليا، كما يشير إلى ذلك كاتب سيرته الذاتية هوبرت كينيدي في كتابه "كارل هينريش أولريشس: رائد الحركة المثلية الحديثة".
Karl Heinrich Ulrichs: Pioneer of the Modern Gay Movement, San Francisco, 2002 (available at hubertkennedy. angelfire.com).

اتهمه المناشفة بأنه أشبه بروبسبير، أصرَّ لينين على أنه ليس لديه تعاطف خاص مع اليعاقبة، إنما الذي يشغله كان عزلهم من السلطة، وسوف يضيف بدقة أن بول آكسلرود (الزعيم المنشفي) هو الذي يتطابق تمامًا مع روبسبير، كما يتطابق مارتوف مع اليعاقبة.

بالنسبة للنساء الروسيات على وجه الخصوص، تركت الأحداث في فرنسا مذاقًا محببًا؛ قرأن أن النساء لعبن دورًا نشطًا على مستويات عديدة، تُرجمت بيانات أوليمب دو جوج النسوية للروسية. نادت دو جوج، ابنة الجزار والكاتبة المسرحية، بحقوق متساوية، وكتبت نصًا لمواجهة أو استكمال "إعلان حقوق الرجل"، كان عنوان النص "إعلان حقوق المرأة"، وطالبت فيه بالحقوق نفسها لكل النساء أي "الحرية، والملكية، والأمن، وخاصة مقاومة القمع". تتمتع الدولة بالسيادة، ولكنها تكون كذلك فقط إذا "أعادت توحيد الرجال والنساء". من بين ١٤ نقطة في ميثاقها النسوي هناك القليل الذي يستحق الاهتمام؛ أكدت على أن هناك حاجزًا واحدًا يعيق تقدم النساء "لأن ممارسة الحقوق الطبيعية للمرأة لا يحدها حدود سوى التي يضعها الطغيان المستمر للرجل". طالبت بضرائب مساوية على النساء وعملي جبري مساو؛ ولكن في المقابل يحق للنساء "النسبة نفسها في توزيع الأماكن والوظائف والمناصب والكرامة والصناعة"، لأن طالما تحظى النساء بالفعل بحق "صعود المقصلة"، بالتالي "لا بد أن يحظين بالحق في صعود المنابر حيث يستطعن التعبير عن رأيهن". حقيقة أنها أهدت الإعلان لماري أنطوانيت أحبط من تأثيره. سياسيًا كانت ملكية-جيروندية[1]، وكان اليعاقبة يزدرونها ولم يكونوا وحدهم، في ٣ نوفمبر عام ١٧٩٣، ووسط الرعب، حوكمت وحُكم عليها بالموت. وُضعت المقصلة في ميدان دي لا كونكورد.

التأثيرات الثقافية الأساسية على النساء المتعلمات من الطبقات العليا والوسطى في المجتمع الروسي، لم تبتعد عن المفكرين والشعراء الذين كان الشباب يوقرونهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان بوشكين

وليرمونتوف وجوجول من المفضلين الكبار، ولكن فيما يتعلق بجل الطلاب والشعبويين والإرهابيين، لم يستطيعوا منافسة أدب تشرنشفسكي التعليمي ومراجعات دوبريولوف النقدية أو جدالات بيساريف. كما ناقشت في الفصل الأول، عرَّفت رواية تشرنشفسكي "ما العمل؟" سياسات جيلين على الأقل في روسيا. والفترات الطويلة التي قضاها الكاتبان الآخران في السجون القيصرية أضفت عليهما هالة خاصة، وانجذاب مضاعف من القطاعات الراديكالية في المجتمع. كان الكتاب والنقاد الليبراليون والمحافظون التقليديون يزدرون تشرنشفسكي. رواية نابوكوف الروسية الأخيرة "الهِبة" سخرت منها حتى النهاية، مما يثير سؤال إذا كانت الرواية بهذا السوء لم كتب نابوكوف خمسين صفحة يسخر فيها من كاتبها ورفاقه؟ على الرغم من أنه حتى نابوكوف اعترف أن هناك "بالتأكيد أثرًا للكبرياء الطبقي لدى الكُتاب ذوي الأصل النبيل تجاه تشرنشفسكي العامي"، وأنه حين كانا وسط أصدقائهما ذوي الأفكار المشابهة "كان تولستوي وتورجنيف يدعوانه بـ (الحشرة المقرفة)... وسخروا منه بكل الطرق". من الواضح أن النقد لم يقتصر على قيمة أدبه أو خلوه من القيمة.

بالنسبة للنساء، قدمت الرواية البطلة في شخصية فيرا بافلوفنا، واستطعن بسهولة أن يتوحدوا معها. كانت مستقلة وراديكالية، وعاشت في كميونة سكنية، ونظَّمَت جمعية لتجليد الكتب. كان تأثير الرواية طاغيًا على البلشفية ألكسندرا كولونتاي حين قرأتها لأول مرة في عمر السادسة عشر، وتوسلت لأمها أن تذهب لمُجَلِّد كتب ليعلمها كيفية التجليد، شعرت ببعض الإحباط حين ظهر رجل في منتصف العمر ليس شديد الجاذبية ويهمل ثيابه. كان الوضع مشابهًا بالنسبة للعديد من النساء المتعلمات، اللواتي اكتشفن من خلال الكتاب أفكار التحرر ومساواة النساء، والعيش في كميونة، والاتحاد الحر. دفعت هذه الأفكار الرجال أيضًا بعيدًا عن الرؤى الأبوية المهيمنة في روسيا وغيرها. آراء لينين نفسها

عن النساء لم تُستمد من إنجلز وبيبل فقط ولكن من الأدب الروسي الراديكالي. أكّد تشرنشفسكي على المساواة الجندرية، ولكنه لم يكن شديد الإيمان بطريق عدم الزواج الأحادي من أجل تحرير المرأة. فكر في أنه حتى الاتحادات غير الكنسية، يمكن وينبغي أن تكون أحادية الزواج، وأن العيش المخلص هو اختيار هام للنظام الثوري وتعبير عن المساواة الحقيقية.

كانت النساء الروسيات المنتميات للإنتلجنسيا أكثر تقدمًا سياسيًا من معاصراتهن الأوروبيات؛ عدد النساء اللواتي انضممن إلى حركة النارودنيك[ii] وشاركن في التوجه إلى الريف للعمل مع الفلاحين كان مرتفعًا بشكل مفاجئ. كان هذا قبل عقود قليلة من ميلاد حركة السفراجيت في بريطانيا والولايات المتحدة، والتي اقتصرت في الأساس على قضية واحدة: حق النساء في التصويت. العديد من المجتمعات الأوروبية الأخرى كانت متأخرة للغاية فيما يتعلق بمسألة النساء.

في روسيا، لم يكن هناك أحد يحظى بحق التصويت، ونتيجة ذلك، حارب النساء والرجال معًا ضد الأوتوقراطية. عندما انقسم حزب النارودنيك القديم "الأرض والحرية" بسبب قضية الإرهاب والعنف، وتَشَكّل فرع منه ليواصل السير في طريق الإرهاب، انضمت أكثر النساء موهبة لتنظيم إرادة الشعب، الذي كان هدفه الأساسي هو اغتيال ألكسندر الثاني. احتفت أجزاء كبيرة من البلاد بحرارة بالقرار الجماعي الذي اتخذه ثمانية وعشرين عضوًا في اللجنة التنفيذية من أجل تنفيذ المهمة؛ عشرة من هؤلاء الأعضاء، أي أكثر من ثلثهم، كن نساء، وهي نسبة تفوق ما تحقق بعد ذلك في اللجنتين التنفيذيتين للفصيلين اللذين شكلا حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي.



فيرا فيجنر (١٨٥٢-١٩٤٢): سُجنت لعشرين عامًا لدورها في اغتيال ألكسندر الثاني.



صوفيا بيروفسكايا (١٨٥٣-١٨٨١): نظمت اغتيال ألكسندر الثاني، وشُنقت. ألف شوستاكوفيتش فالس مخصص لذكراها.



آنا كوربا: زميلة بيروفسكايا في المدرسة، تحولت للراديكالية بسبب الحرب الروسية التركية. انضمت للبلاشفة وظلت عضوة حتى وفاتها.

كانت النساء هن فيرا فيجنر، صوفيا إيفانوفا، آنا كوربا، تاتيانا ليبيديفا، أولجا ليوباتوفيتش، والشقيقات ناتاليا أولينيكوفا وماريا أوشانينا، وصوفيا بيروفسكايا، وإليزافيتا سيرجيفا، وآنا ياكيموفا. الأخيرة كانت ابنة راهب. الأخريات كلهن جئن من طبقة المُلّاك أو العائلات العسكرية، وجميعهن باستثناء ثلاث، انتهين إلى السجن وصعدن منصة المشنقة.

تركت فيرا فيجنر وراءها سردًا حيًا عن تلك الأزمنة في مذكراتها. مثل العديد من الأخريات، ومن ضمنهم فيرا زاسوليتش (أول امرأة تطلق مسدسًا على هدف، والتي صارت لاحقًا عضوة في هيئة تحرير "إسكرا" وظلت منشفية رغم ذلك)، كانت ممزقة من قرار انقسام الحزب، وحاربت جاهدة لبعض الوقت ليظل متحدًا. كانت قد قضت سنوات في الريف، حقيقة كونها طبيبة ساعد على تأسيس روابط بينها وبين العديد من الفلاحات اللواتي لم يحصلن على مساعدة طبية من أي نوع، وكما وصفهم جوركي بالوصف الشهير، كانوا معتادات على الولادة في الحقول والقنوات، ويقطعن بأسنانهن الحبل السري. كانت فيجنر غاضبة لعدم قدرة بروباجندا جماعتها اختراق الريف. عادت إلى سان بطرسبرج، وأخيرًا انضمت إلى الفصيل الإرهابي، وصارت واحدة من منظميه الأساسيين وساعدت في الإعداد لإعدام أكثر الأعضاء كراهية في الأتوقراطية. بعد اغتيال ألكسندر الثاني، لم تفزع، ولكنها وهبت نفسها لحماية أعضاء الحزب من عصبة عملاء ومخبري البوليس الذين يدورون في المدينة، وقبضوا عليها أخيرًا عام ١٨٨٣. شعر القيصر الجديد بالارتياح: "الحمد لله، لقد قُبِض على هذه المرأة الفاسدة". حُكم عليها بالسجن مدى الحياة، وقضت ٢٢ عامًا بالحبس الانفرادي في قلعة شلسلبورج، أُفرج عنها عام ١٩٠٥ وروسيا تستعد للثورة. في السجن، أدركت فيجنر أن بروباجندا الأفعال كانت بلا جدوى، مثلها مثل البروباجندا الأخرى التي يشكلها الحديث الفارغ، فهي لم تقد أبدًا لانتفاضات جماهيرية. في مذكراتها المؤثرة

تنكرت تمامًا للعنف، وجادلت بأن كلا من الحزب والأوتوقراطية، باللجوء إلى "المعركة المباشرة"، أفسدا كل شيء من حولهما. كتبت: "من جهته، زعم الحزب أن كل الوسائل مسموح بها في النضال ضد العدو، وأن الغاية تبرر الوسيلة". استنكرت "جماعة القنبلة والمسدس وتقديس الإرهابي". هي التي احترقت من التجربة نفسها، فهمت جيدًا جدًا كيف أن "القتل والمشنقة استحوذا على عقل الشباب؛ وكلما كانت أعصابهم أضعف، وكلما كان محيطهم أكثر قمعًا، عَظُم إحساس السمو تجاه فكرة الإرهاب الثوري".

صوفيا بيروفسكايا كانت المنظمة الرئيسية لخطة اغتيال ألكسندر الثاني؛ كانت مسؤولة عن كل التفاصيل، من تحديد مواقع المراقبين وقاذفي القنبلة، وحتى إعطاء الإشارة النهائية. قُبِض عليها سريعًا وحقق معها فون بليفي، رئيس البوليس سيء السمعة، واعترفت بدورها بدون أي تحفظ.

بعد ذلك، أثناء محاكمتها، لم ترفع صوتها سوى مرة واحدة، حين اتهمها المدعي العام (م.ن .مورافييف)، أحد أصدقاء طفولتها، هي والآخرين بأنهم قتلى وحشيون وغير أخلاقيين. ردت معترضة عليه بحدة؛ لقد اعترفت بالحقائق المتعلقة باغتيال القيصر بكامل إرادتها، لا حاجة للتشويه، لأن

"فيما يتعلق باتهامي والآخرين باللا أخلاقية والوحشية، وعدم الاحترام للرأي العام، عليّ أن أعترض وأشير لحقيقة أن أي شخص يألف حياتنا والظروف التي كان علينا أن نعمل فيها، لن يلق علينا اتهامات اللا أخلاقية والوحشية".

قاتلت بيروفسكايا حتى النهاية المريرة. ظهرت ابتسامة منتصرة على وجهها أمام المشنقة صاحبها تثبيت قدميها بشدة تحت زائدة خشبية على

المنصة واحتاج الأمر لرجلين لينزعا قدميها قبل أن يتمكنوا من شنقها.[٣] كانت أول امرأة ثورية تُشنق. رفض القيصر عددًا هائلًا من الرسائل التي تدعوه بأن يرحمها، لأنه بخلاف الأشياء الأخرى، كان أبوها حاكم سان بطرسبرج.

فكرت بيروفسكايا طويلًا وكثيرًا قبل الانضمام لإرادة الشعب، شجاعتها ومهاراتها التكتكية دفعاها سريعًا نحو القيادة. عاندت في إحدى المسائل، وهي توضيح أن أفعالها لا تتعلق بالانتقام؛ أصرَّت على أن "الثأر شأن شخصي، وأوضَّح أنها ربما تشرح تلك الأفعال الإرهابية النابعة من الإرادة الشخصية ومبادرة أشخاص مستقلين، ولكنها لا تتعلق بأفعال الأحزاب المنظمة"، وسيكون من السخف أن نتخيل أنه يمكن لحزب سياسي أن "يتشكل تحت راية الانتقام، خاصة إذا حظى بتعاطف شخصي كالتعاطف الذي تمتع به حزبنا دون شك. لم تُطلق أول رصاصة –رصاصة زاستوليش– من أجل الانتقام، ولكن من أجل المجازاة على إهانة الكرامة الإنسانية".[٤]

---

3 في يوليو عام ١٩٠٤، كان فيتشسلاف فون بليفي وزيرًا للداخلية حين اغتاله أعضاء "الوحدة المقاتلة" لحزب الاشتراكيين الثوريين للجرائم التي ارتكبها في الماضي والحاضر. قبل عامين نفذت الجماعة نفسها حُكمًا مشابهًا على سَلَف فون بليفي في المنصب. شرح كتيب للاشتراكيين الثوريين "أننا حكمنا على هذا الشرير باسم الشعب". كان منطقهم أن "فون بليفي واحد من الأعمدة التي تسند جدار الأوتوقراطية، الجدار الذي يعيق مسير الشعب نحو الحرية والسعادة. إذا سقطت الأعمدة سيسقط الجدار". ولكن لم تمض الأمور على هذا النحو، كما سيكتشف العديد من المساهمين في البروباجندا. وحتى في هذه الحالة، كانت معاداة السامية الخبيثة التي اتسم بها فون بليفي هي التي أدت لموته. يفنو آزيف، مخبر البوليس ذو الأصل اليهودي، والذي رأس "الجماعة المقاتلة" في الاشتراكيين الثوريين، لم يهتم بإخبار الأوكرانا (قسم الأمن والنظام العام) بخطة الاغتيال.

٤ قررت فيرا زاسوليتش ورفيقة أخرى، كولنكينا، العضوتان في جماعة "متمردو كييف" الإرهابية المتشددة، اغتيال الحاكم والمدعى العام في محاكمة جماعية لعشرات من أعضاء الحزب. أغضب زاستوليتش قرار الحاكم أن يُجلد السجناء. واجهته وأطلقت عدة رصاصات عليه، بالكاد ظل حيًا. رغم اتهامها بالجريمة تلقت التحية في المحكمة باعتبارها بطلة، تمت تبرئتها وفرت إلى أوروبا

في أغسطس عام ١٩١٨ ، كتب لينين وصدَّق على مرسوم يحتوي على قائمة بأسماء الثوريين والشخصيات العامة التي تستحق التكريم بنُصُب فردية. تشكّلَت القائمة الانتقائية للثوريين من الأسماء التالية:

١. سبارتاكوس
٢. تيبريوس جراكوس
٣. بروتوس
٤. بابوف
٥. ماركس
٦. إنجلز
٧. بيبل
٨. لاسال
٩. جوريس
١٠. لافارج
١١. فايون
١٢. مارا
١٣. روبسبيير
١٤. دانتون
١٥. جاريبالدي
١٦. ستيبان رازين
١٧. بيستيل
١٨. ريليف
١٩. هرتسن

الغربية. في هذه الحقبة أدركت أن أفعال الإرهاب الفردي غير مجدية، وانضمت لجماعة تحرير العمال في سويسرا، التي استقر فيها بالفعل بليخانوف وآكسلرود. هناك التقاها لينين أثناء رحلته إلى أوروبا الغربية.

٢٠. باكونين
٢١. لافروف
٢٢. خالتورين
٢٣. بليخانوف
٢٤. كاليف
٢٥. فولودارسكي
٢٦. فورييه
٢٧. سان سيمون
٢٨. روبرت أوين
٢٩. جليابوف
٣٠. صوفيا بيروفسكايا
٣١. كيبالشيش[5]

في عام ١٩١٨، أزاح المثّال السوفييتي فلاديمير تاتلين الستار عن نصب لبيروفسكايا، نحته راخمانوف. رأى جل النقاد أن التمثال غير مقبول؛ وحل محل تمثال راخمانوف تمثال جديد للمستقبلي الإيطالي أورلاندو جريتسللي. بحسب الشائعات التي راجت في ذلك الوقت، لم يحب لينين التمثال الجديد على الإطلاق. تم التكليف بعمل تمثال جديد، أكثر تقليدية ووقارًا، ولكن مع اندلاع الحرب الأهلية لم يكتمل أبدًا. ولكنهم نجحوا في تسمية الشوارع باسمها في لينينجراد ومدن أخرى.[٦]

---

٥ من الواضح أن الرجل الكهل كان متعجلًا؛ نسى، من بين عدة أسماء، الأوروبيين جيمس كونولي وجون ماكلين وتوماس مونتسير، وغير الأوروبيين سيمون بوليفار وراني ملكة تشانسي وتوسان لوفرتور.

٦ معظم الأسماء الأخرى في القائمة لم تصل لهذه المرحلة. لم يبدأ أبدًا عمل نُصُب لهم، وكان هذا يزعج لينين؛ قيل له ببساطة إن هناك أولويات أكثر إلحاحًا. كان الاستثناء تمثال ماركس وإنجلز

كان العقدان الأخيران من القرن التاسع عشر عبارة عن سنوات هزيمة ويأس بالنسبة للنساء. أخف رسائل كتبتها النسويات إلى القيصر المحافظ المتشدد ألكسندر الثالث، طلبًا للإصلاحات التي يمكن أن تخفف من معاناة النساء، كانت تُعاقَب صاحباتها بالنفي. كان المجتمع الروسي يتفكك، وكان القيصر ووزرائه مقتنعين أن حالة القمع الدائمة هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على النظام. اعتمدت الأوتوقراطية على دعائم مؤسِّسة أربع، هي المِلكية الخاصة والمَلَكية والكنيسة والجيش، تلك المدعومة من القطاعات البيروقراطية في جهاز الدولة. قوّى ألكسندر الثالث من مكانة الكنيسة، وأتاح لها جناحًا عسكريًا غير رسمي متمثلًا في جماعة "المئات السوداء"، التي قامت بممارسات عنف (بوجروم) منتظمة ضد اليهود؛ ولكن حين اهتز جهاز الدولة، لجأ القصر إلى الإصلاحات؛ وضعت إخفاقات حرب القرم أساس الإنهاء الشرعي للقنانة، والهزيمة على أيدي اليابانيين كانت الخلفية التي أدت إلى أحداث عام ١٩٠٥، وأسرعت "الحرب العظمى" من حلول أحداث عام ١٩١٧. انهار القيصر تمامًا، وكذلك انهار نظامه.

ولكن قليلين هم من تنبأوا بهذا في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. عادة ما تدفع الانتصارات الرجعية إلى الهدوء السياسي المؤقت والسلبية من جانب المهزومين. تشبه الطوبوغرافيا السياسية الصحراء؛ يظهر فيها السراب ولا تظهر الواحة. مع فناء جل الجماعات الأناركية الشعبية، وعدم وجود إشارة إلى أي معارضة سياسية أخرى وغياب أي إصلاحات فوقية جادة من أعلى، ظل البلد في سبات وصمت، وكان القيصر وزوجته الدنماركية شديدة المحافظة، الأميرة ماريا داجمار، يتحسسان من أي شكل من التحرر النسائي.

الذي أزاح عنه لينين الستار بنفسه. أحد النقاد المتيمين للمدرسة البنائية أشار إلى هذا النصب شديد التقليدية بقوله: "يبدو وكأن الرجلين خرجا من الحمام معًا مرتدين ملابسهما كلها".

توجز إيرينا في مسرحية تشيكوف "الشقيقات الثلاث" (١٩٠٠)، الحس السائد في دوائر الطبقة الوسطى في ذلك الوقت:

"أوه، أنا تعيسة... لا أستطيع العمل، ولن أعمل... اعتدت أن أكون عاملة برقيات، الآن أعمل في مكاتب مجلس المدينة، وليس لدي شيء سوى الكراهية والازدراء لكل ما يطلبون مني فعله. أنا وصلت الثالثة والعشرين، وأنا عملت بالفعل لفترة طويلة، وجف عقلي... أنا يائسة ولا أفهم كيف أنني ما زلت حية، وأنني لم أقتل نفسي".

ركزت مسرحيات تشيكوف على بيئته؛ يصعب وصف أحوال الفلاحات وهؤلاء اللواتي دخلن عالم الصناعة لأول مرة. كانت العائلات ترى الفتيات الشابات عبئًا عليهم، وهكذا كانوا يزوجونهن عند البلوغ أو بعده بفترة قصيرة، الانتقال من العيش مع الآباء إلى العيش مع عائلة الزوج، كان ببساطة انتقالًا من طبقة من الجحيم إلى أسفل أعماقه، إلا إذا كن محظوظات للغاية. لم تقتصر عادات الزواج في بعض المناطق على إحضار العروس لسريرها معها، ولكنها كانت تحضر سوطًا أيضًا كهدية لعريسها، في العائلات كبيرة العدد كان من الشائع أن يصر الحمُ على ممارسة علاقة جنسية مع الفتاة حين يكون ابنه في الخارج في العمل أو مسافرًا. الحمل الذي لا يتوقف والحموات القاسيات، أديا إلى أن تصاب الفتيات بشيخوخة قبل الأوان ثم الموت. على خلاف إيرينا عند تشيكوف، كان يُحكم على الفلاحات الشابات بالموت المبكر في اللحظة التي يتزوجن فيها. كم من الوقت سيبقين على قيد الحياة يعتمد على شدة إرادتهن، وبعضهن أذعنَّ للقدر واستسلمن.

ولكن الأخريات قاومن ونجين، وعبرن عن شجاعة ومهارات عملية يفتقدها أزواجهن؛ كثيرًا ما طالبت هؤلاء النسوة بمنزل منفصل بعيد عن الحموين، وبعضهن تجنبن شرك الزواج تمامًا ولجأن إلى الرهبنة؛ أحد النماذج المؤثرة في هذا الشأن كان نموذج إيلا شقيقة القيصر، التي صارت راهبة بعد مقتل زوجها، الدوق الكبير سيرجي، ولكن الانتقال إلى الرهبنة لم يصبح أبدًا حركة جماهيرية، كان هناك ارتفاع في رقم الراهبات من ٧٠٠٠ عام ١٨٥٥ إلى ٤٧٠٠٠ في ١٩١١، ولكنه كان رقمًا تافهًا بالمقارنة النساء والأطفال الذين يتزاحمون على المصانع، ربما لم تكن القصص التي تصل القرى عن أديرة الراهبات مشجعة للغاية. تستدعي حياة النساء اللواتي صرن عاملات بالمصنع أسوأ أيام الثورة الصناعية في بريطانيا.

كانت نساء روسيا الراديكاليات الأكثر تقدمًا على المستويين الاجتماعي والسياسي بعد كميونة باريس. لم يقاتلن فقط من أجل أنفسهن ولكن من أجل تحرير البلد كله، وهي ظاهرة استثنائية في التاريخ الاجتماعي للعالم في ذلك الوقت. في عام ١٩١٨، استدعى لينين فورييه حين كان يفكر في بلده في الأساس، وكتب: "من منطلق تجارب كل الحركات التحررية، يمكن ملاحظة أن نجاح أي ثورة يقاس بقدر مشاركة النساء فيها".

بعد شنق بيروفسكايا، تخلّت الأوتوقراطية عن كل قيد؛ شُنقَت العديد من النساء الأخريات أو أُطلق عليهن الرصاص، ورزحت المئات في السجون، وعادة ما كُن يُغتصبن ويُضربن ويُقدن للانتحار. اشتعلت الشرارة ولم تنطفئ أبدًا، والأهم هو أن صارت هناك سابقة تعتمد عليها النسوة اللواتي جئن بعد ذلك. بشكل ما تلاشى الإرهاب كأيدولوجيا وصار في مهب الريح، ولكن لم تتراجع مشاركة النساء في السياسة الراديكالية، كما سنرى في ثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧.

اقتصرت المساواة الجنسية على الحركة الثورية في روسيا خلال القرن التاسع عشر، ولكن ماذا عن الجنسانية نفسها؟ جرت نقاشات ساخنة عن الزواج الأحادي والحب الحر، ولكن النساء والرجال المنتمين للنارودنيك كانوا متحفظين إلى حد كبير فيما يتعلق بتلك القضايا، عادة ما ركزت نقاشاتهم على الثورة، وأي شيء يشتتهم عن هذا الطريق كان يعتبر انحرافًا. لم يرتبط أي وصم أخلاقي بالرفقة الطهرية أو الجنس غير المحظور أو المتزوجين زواجًا أحاديًا، طالما لم يسبب أي من ذلك خرقًا للنظام الثوري. كتب إنجلز أن الحب الحر يكون محصلة كل الحركات الثورية.

أدت العصور الوسطى إلى ظهور قطاعات مهرطقة كبيرة وصغيرة في المسيحية والإسلام، أولت اهتمامًا عظيمًا للحب والجنسانية، وأحيانًا ما كان هذا في شكل مقنَّع بداخل التيار الرئيسي. الراهبة الباطنية التي تعود إلى القرن السابع عشر، القديسة تيريزا من آفيلا، لم تترك مساحة كبيرة للخيال حين وصفت النشوة "الروحية" التي ذكرتها في كتاباتها كالتالي:

"رأيت في يديه رمحًا ذهبيًا طويلًا، وعند رأس الرمح بدا أن هناك بعض النيران. تبدى لي وهو يدفع الرمح في بعض الأوقات إلى قلبي، ويخترق أحشاءه؛ وحين يسحب الرمح، بدا أنه يسحب أحشائي معه، ويتركني مُختَرَقة بالحب العظيم لله. كان الألم عظيمًا جدًا، حتى جعلني أتأوه، ولكن ما كان طاغيًا هو حلاوة هذا الألم الشديد، الذي لم أرغب في التخلص منه".

صوَّر برنيني هذه الذروة الروحية بشكل رائع في تمثاله "نشوة القديسة تريزا" المنحوت لكنيسة كورنارو التابعة لكنيسة سانتا ماريا ديلا فيتوريا في روما. العديد من القطاعات قبل الصوفية والصوفية في العالم الإسلامي تحدثت عن مباهج النشوة والاتحاد، مع الخالق عادة ولكن ليس في كل

الأحيان. وفقًا لحديث شهير، أصرَّ الرسول على أن يقضي المؤمنون وقتهم في المداعبة قبل الفعل الأخير؛ كان مبدأ المتعة مهمًا جدًا. واليهودية بدورها قدَّمت للعالم نشيد الأنشاد الممتع.

كانت الكنيسة الكاثوليكية تطارد الطوائف التحررية على الدوام. كانت هناك "أخوية الروح الحر"، الجماعة اليوتوبية التي تعود إلى القرن الثاني عشر؛ آمنوا بأن تاريخ العالم وصل لنهايته، وأن الله سيصل بنفسه ليعلمهم ويمتعهم. بعد ثلاثة قرون، حُرق الراديكالي الجنسي البوهيمي و"المهرطق" المثلي مارتن هوسكا على عمود لأنه كان يبدأ صلواته بـ "أبانا الذي بداخلنا"؛ عوقب تلامذته، "الآدميين"، لترويجهم للبراءة العدنية: كانوا يسيرون عرايا في كل مكان، يبشرون بعدم وجود الخطيئة وينغمسون في العلاقات الجنسية بانفتاح فيما بينهم. لا توجد إحصائيات عن أرقامهم أو أعداد المنضمين، ولكن المثير للاهتمام بما يكفي هو أن جل تلك الطوائف المتحررة اتجهت إلى الشيوعية البدائية، وعبَّرَت صراحة عن احتقارها للكنيسة، وشخصياتها الموقرة، والثروة التي راكمتها. كتب كارل كاوتسكي عنها كأسلاف للاشتراكية، رغم أنه نفسه ظَل أكثر محافظة منهم في تلك المسائل وفي مسائل أخرى.

فيما يتعلق بالثورات، فحتى أكثر الطوائف بيوريتانية أنتجت انفجارًا في حرية الفكر، وضمَّت أعضاء انفصلوا عن كل الأرثوذوكسيات. أكثر التيارات راديكالية أثناء الثورة الإنجليزية كان تيار المساوين، وأخلافهم الحفارين؛ وأكثرهم تقدمًا اجتماعيًا وجنسيًا كان المعنفون (Ranters). الأخيرون كانوا معادين للدين النظامي والكنائس، لم يؤمنوا بالشيطان أو الجحيم، وأصروا أن الحياة البشرية كلها تنتهي على الأرض، ورفضوا بغضب أي فكرة متعلقة بالخطيئة الأصلية، كان مفكرو التيار، أمثال آبيزير كوب في أوكسفورد، من أنصار الحب الحر والاختيار الحر، وحرَّضوا الرأي العام لإلغاء الأسرة لصالح "علاقات جنسية مع شركاء متنوعين،

سواء كانوا رجالًا أو نساء، كل شيء متاح ويمكن الحصول عليه. من غير المفاجئ أنهم جذبوا جمهورًا عامًا كبيرًا. الشعار الإنجليزي الذي يقول "يا للبهجة، إنه الأول من مايو، تبدأ اليوم ممارسة الجنس في الأماكن العامة"، له أصله في دوائر المعنفين؛ ربما كان المناخ أكثر أمانًا في تلك الأزمنة.

كريستوفر هيل، أحد المؤرخين الثقاة لهذه الحقبة، كتب أن المعنفين كانوا جماعة كبيرة ضمت القسيس الخاص بكرومويل، بيتر ستيري، إلى جانب ابن عمدة لندن إيزاك بننجتون. ذكر هيل بأنهم نادرًا ما لوحقوا لأن معظمهم كانوا من غير المؤمنين بالحياة الأخرى، وقداسة الكتب المقدس، أو من هذه الجهة الله، هكذا لم يرغبوا على الإطلاق في أن يصبحوا شهداء، وتبرأوا بسرور من مذهبهم عندما كانت السلطات تطلب منهم ذلك. من جهتها شجعت الثورة البيورتيانية "زواج الرفقة" حيث لا تكون الزوجة مساوية تمامًا للزوج ولكن بالأحرى "مساعدة" له ولديها حرية الطلاق. منذ عام ١٦٥٣ إلى عام ١٦٦٠، سُمح بالزواج المدني أيضًا، ما أوصل الإصلاح إلى نتيجته المنطقية.

لم يكن الإرهابيون الشعبويون في روسيا متحررين للغاية ومتساهلين في مسألة الانحياز للجسد كما كان المعنفون والآدميون.[٧] احتوى كتابهم المقدس، رواية تشرنشفسكي التي قُرئت على نطاق واسع، على هجوم قاس على العائلة التقليدية واستخدام النساء كعبيد، واحتوت على إقرار لحقِّ النساء في اختيار شركائهن. ولكن الرواية لم تكن عملًا مغامرًا بشكل خاص حين يأتي الحديث عن اللذة الجنسية؛ حتى في راديكاليته كان هناك شيء رهباني لدى تشرنشفسكي. قدَّم الكتاب لجيل الستينيات في القرن التاسع عشر أخلاقيات بديلة؛ حس من الانضباط الذاتي والتضحية تطابقت

٧ ناصر لينين بشدة التعري والاستحمام عاريًا، مشيرًا إلى أنه بخلاف فرصة الحصول على فوائد صحية من الشمس والماء، ستكون فرصة مناسبة لتلاشي الأصل الطبقي للشخص نهائيًا.

مع روح ذلك العصر.[8] تصف فيرا فيجنر، في مذكراتها البارزة والمؤثرة، احتياجها في السجن لبعض جوانب المسيحية، ولاحقًا لحلم يوتوبي عن الحياة القروية مستمد مباشرة من تشرنشفسكي. قرأ النشطاء الرواية إلى جانب المقالات، التي كشف فيها تشرنشفسكي عن كونه ثوريًا مخلصًا وصارمًا. في يومياته يصف نفسه بأنه "ينتمي للثقافة الجبلية" و"يعقوبي"، و"نصير للاشتراكيين والشيوعيين"، وكتب أنه يشعر "باشتياق لا يمكن كبته للثورة الوشيكة". في رسالة كتبها باسم مستعار إلى جريدة "كولكول" (الجرس) التي كان يحررها هرتسن وكان مقرها في لندن، طالب تشرنشفسكي بتطبيق أكثر الحلول تشددًا لعلاج أمراض روسيا القيصرية: "وحده الفأس يمكنه أن ينقذنا، ولا شيء سوى الفأس! غيروا لهجتكم، ودعوا الأجراس تدق لا للصلوات ولكن للإنذار! ادعوا روسيا لحمل الفأس!" لم يفعل هرتسن شيئًا من ذلك، ولكن الشعبويين الراديكاليين الروس لبوا النداء، متهمين اليعاقبة بعدم الاتساق لعدم إنهاء العمل الذي بدأوه جيدًا عام ١٧٩٢، وجادل البعض بأن هذا هو سبب فناء روبسبيير وسان جوست.

---

8 لا بد من الإدلاء باعتراف في هذه النقطة؛ باءت محاولاتي لقراءة تشرنشفسكي في أعمار السابعة عشر والثانية والثلاثين والثانية والسبعين جميعًا بالفشل الذريع. في المرة الأخيرة التي استطعت فيها قراءة أكثر من مائة صفحة استطعت استيعاب جاذبيته، المتكئة على الحقائق التي ذكرها وعناصر اليوتوبيا التي ضمّنها، لا تأثير الكتب كعمل سردي. من يستطيع قراءة هذه الرواية طالما أتيحت لآلىء مثل ألف ليلة وليلة وديكاميرون لبوكاتشيو؟ كانت الرواية بديلًا للنصوص السياسية الأكثر مباشرة، وعندما كان الراديكاليون ينضجون، كانوا ينتقلون على الفور لماركس.

في إحدى المرات هاجمت فيرا زاسوليش أحد المشككين في تشرنشفسكي: "كانت الرقابة تعيقه... كان عليه أن يكتب بالإشارات والهيروغليفية. كان بإمكاننا فك شفرته، ولكن أنتم، جيل بداية القرن العشرين، لا تمتلكون تلك المهارة... تجدونه كئيبًا وفارغًا... حتى بعدما نُفي تشرنشفسكي إلى سيبريا ولم يعد قادرًا على شرح مقالاته، راج نوع من المفتاح للفهم، ليس لديكم هذا المفتاح اليوم، وبدونه لن تعرفوه... لا يمكنكم أن تفهموا أنه لم يكن ما تتخيلوه عنه وسط جهلكم". لا يوجد أي كاتب روسي آخر، ربما باستثناء تولستوي، حظى بهذا الإخلاص والوفاء.

في زمننا يبدو من الصعب على الكثيرين قبول فكرة أن العنف والإرهاب الذي أظهرته "إرادة الشعب" في روسيا القيصرية كان مدفوعًا بالأفكار والحلول الليبرالية، لم تكن إشارة لينين لهم على أنهم "ليبراليون يحملون القنابل" خالية من المعنى، إنما كان يلخص فقط وصفهم لأنفسهم. عندما أطلق تشارلز جيتو، المضطرب نفسيًا، الرصاص على الرئيس الأمريكي جيمس جارفيلد هام ١٨٨١ ، أصدرت قيادة إرادة الشعب إعلانًا عامًا بيَّنَت فيه:

"تعاطفها العميق مع الشعب الأمريكي... تعتبر اللجنة التنفيذية أنه من واجبها الإعلان باسم الثوريين الروس عن اعتراضها على هذا النوع من الأفعال العنيفة... على أرض تتيح فيه الحرية الشخصية فرصة خوض معارك أمينة بين الأفكار، حيث لا تحدد الإرادة الحرة للشعب القانون فحسب، ولكنها تحدد أيضًا شخصية الحاكم، على تلك الأرض تُمَثِّل الجريمة السياسية كوسيلة للنضال تعبيرًا عن الروح الاستبدادية التي نسعى لتدميرها في روسيا... يمكن فقط تبرير العنف حين يُوَجَّه ضد العنف".

فيرا فيجنر وفيرا زاسوليتش وصوفيا بيروفسكايا والعديد من النساء الإرهابيات الأخريات اللواتي هربن من عائلاتهن الأرستقراطية والبرجوازية، عادة ما زيفن زيجات مختلقة مع رفاقهن الذكور، كن مهتمات أكثر بهدم دعائم الأوتوقراطية وإصلاح المجتمع على حساب إقامة كميونات يوتوبية أو حضانات للعاملات أو ما شابه. بلا شك كن رائدات للمساواة الجندرية، ولكن الإفصاح عن النسوية الجنسية المتحررة أو السعي لتغيير ثوري لظروف النساء الملتحقات بأعداد كبيرة للعمل في المصانع لم يهمهن كثيرًا.

لهذا، ينبغي علينا أن ننتقل لخليفاتهن الأكتوبريات، هن (ورفاقهن الذكور) اللواتي سيجددن أفكار المعنفين، هؤلاء المعارضين الهاربين من طغيان الكنيسة ونساء كميونة باريس.

١٣
النساء الأكتوبريات

لعبت النساء دورًا رئيسيًا في ثورتي عام ١٩١٧ ، وذلك بقدر أعظم كثيرًا من دورهن عام ١٩٠٥ ؛ في الواقع اندلعت انتفاضة فبراير بسبب إضراب النساء في مصانع النسيج لدورهن المزدوج كعاملات، وفي حالات كثيرة كزوجات للجنود على الجبهة، أرسلن مناشدات لعاملات المعادن للانضمام إليهن، وفي نهاية اليوم، سارت ٥٠ ألف عاملة في شوارع العاصمة، وانضمت إليهن ربات بيوت في مسيرة إلى مجلس الدوما للمطالبة بالخبز. كان ذلك في يوم النساء العالمي (٨ مارس وفقًا للتقويم الجريجوري)، والذي قدَّمته الناشطة البلشفية كونكورديا سامويلوفا للروس عام ١٩١٣ ، ليجري الاحتفال به ويُذكر ويُلاحَظ بداية من ذلك العام. عادة ما كان حدثًا عامًا صغيرًا يجري في عدة مدن، أما الاحتفال به من خلال إضراب جماهيري للعاملات النساء فكان فعلًا غير مسبوق. كانت هناك مفارقة خاصة: كان الرأسماليون الروس يفترضون أنه لأن النساء أكثر المجموعات المقموعة والمطيعة والرجعية اجتماعيًا (بمعنى أنهن على خلاف النساء الإرهابيات في العقود السابقة، كان الغالبية العظمى منهن أميات)، هذا سيجعلهم وفقًا للمنطق الرأسمالي أكثر أعضاء قوة العمل خضوعًا وخلوًا من المشاكل. كان هذا خطأً في التقدير، ومع استمرار الحرب العالمية الأولى، زادت الحاجة لعمال أكثر، تضاعفت نسبة النساء في المصانع مرتين وثلاثًا.

كان مصنع بوتيلوف للسلاح ينتج أيضًا جل العمال المقاتلين والمنظمين الشيوعيين، إناثًا وذكورًا.

في موسكو أيضًا تحولت العاملات إلى الراديكالية. إحداهن كانت آنا ليتفيكو، التي كانت في الثامنة عشر من عمرها عام ١٩١٧، ووصفت بعد ذلك عملية التحول في مذكرات مختصرة؛ هي وصديقتان لها كن يعملن في مصنع إلكترولامبا في حزام موسكو الصناعي. تذكرت عودة أبيها لبيته عام ١٩٠٥ بعد رفع آخر متراس في المدينة "مضروب في كل جزء من جسده، وملابسه ممزقة وجيوبه ممتلئة بالخرطوش"، هذه المرة كان الأمر مختلفًا؛ كان العديد من الجنود والقوزاق في صفهم. في أكتوبر توجَّب اختيار أي جانب تقف في صفه: المناشفة أم البلاشفة؟ أعجبت آنا بمنظمين بلشفيين اثنين عملا معها. في هذا المصنع أرسل المناشفة المثقفين ليخطبوا فيهم من الخارج، "ولكن ساعتها قيل لي إن عادة ما كان العكس صحيحًا – كان المناشفة هم العمال والبلاشفة هم المثقفون. كيف أحل هذا الإشكال؟"

في أحد الأيام انتظرت أحد البلاشفة وسألته: "ما الفرق بين البلاشفة والمناشفة؟" فرد قائلًا:

"كما ترين، طُرد القيصر، ولكن ظل البرجوازيون وقبضوا على زمام السلطة. البلاشفة هم الذين يريدون قتال البرجوازيين إلى النهاية. المناشفة ليسوا هذا الشيء أو ذاك".

قررت آنا أنه "إذا كانوا سيقاتلون إلى النهاية فسوف أنضم إلى البلاشفة". انضمت صديقتاها لها.[٩]

9 Anna Litveiko, 'In 1917', in Sheila Fitzpatrick and Yuri Slezkine, eds, *In the Shadow of Revolution: Life Stories of Russian Women*, tr. Yuri Slezkine, Princeton, 2000, pp. 49–53.

لا أحد من المشاركين أو زعماء الأحزاب السياسية الموجودة في العاصمة كان لديه أي فكرة أنه سيكون اليوم الأول للثورة، باستثناء الموظفتين اللتين سمعهما سوخانوف خلسة بعدما وصل إلى المكتب ذلك الصباح. خرجت النساء في اليوم التالي أيضًا، وفي هذه المرة خرج الرجال أيضًا. صارت أحزاب اليسار الآن متيقظة تمامًا، تكتب المنشورات وتطبعها وتوزعها، تشابهت اللهجة في معظمها، باستثناء منشورات البلاشفة، التي طالبت أيضًا بالسلام والإنهاء الفوري للحرب الإمبريالية. بحلول نهاية الأسبوع تحول النسيم الهادئ إلى عاصفة. سوخانوف، الموجود الآن في الشوارع ليدوّن ملاحظات ويستوعب الموقف، اختلس السمع لشخصين غير متعاطفين؛ قال الرفيق ذو الوجه المحبط: "ما الذي يريدونه؟"، فجاء الرد من قرينه: "يريدون الخبز والسلام مع الألمان، والمساواة لليهود". رأى مؤرخ المستقبل أن الرجل أصاب كبد الحقيقة، وعبَّر عن بهجته من "هذه الصيغة النابهة لبرنامج الثورة العظيمة".

كانت هناك امرأتان فقط في عضوية اللجنة المركزية البلشفية عام ١٩١٧: ألكساندرا كولونتاي وإيلينا ستاسوفا. انضمت فارفارا ياكوفليفا بعد مرور عام وصارت وزيرة التعليم عام ١٩٢٢، وبعدها صارت وزيرة المالية. لم يكن المناشفة أفضل حالًا؛ الفارق الرقمي مع إرادة الشعب الإرهابية كان مذهلًا للغاية، ولكن حتى الوضع مع خليفتها "حزب الاشتراكيين الثوريين" أظهر كم الأشياء التي تغيرت في القرن الجديد. نسبة النساء في كياناتهم البارزة أيضًا سجلت انهيارًا شديد الحدة، على الرغم من أن ذلك كان أقل بهامش ضئيل في جناحهم الإرهابي، تنظيم القتال.[10]

كتاب "في ظل الثورة: قصص حياة نساء روسيات"، لشيلا فيتزباتريك ويوري سليزكين، هذا الكتاب الفاتن يضم مذكرات لنساء الاشتراكيين الثوريين ومن اتخذن صف البيض في الحرب الأهلية.

10 حُلَّ الجناح عام ١٩٠٣، عندما تكشّف أن قائدها كان يعمل مع الأوكرانا، البوليس السري القيصري.

تنوعت أسباب ذلك؛ جُندت النساء العاملات بأعداد هائلة في التجمعات الصناعية؛ المقارنة السياسية كاشفة بالقدر نفسه؛ هؤلاء الرجال والنساء القادمين من الجماعات القديمة، والذين أرادوا الحفاظ على ولائهم في زمن مختلف، ربما انضموا للاشتراكيين الثوريين، ومعظمهم ظهروا الآن في المجال العام بدون قناع الإرهاب.[١١]



آلكساندرا كولونتاي: بلشفية مخضرمة، النصيرة الوحيدة لأطروحات ابريل. المرأة الأولى التي عُيِّنت سفيرة (إلى النرويج).

---

١١ صار اثنان من الاشتراكيين الثوريين، آلكسندر كيرنسكي وفكتور تشرنوف، عضوين بارزين في الحكومة المؤقتة. كان كيرنسكي على الدوام وسطيًا ومؤيدًا للحرب؛ حضر تشرنوف مؤتمر زيمرفالد وكان مولعًا بإخبار الفلاحين أنه عندما تحل الثورة، لا بد من التخلص المادي من كل مالك وورثته من أجل نجاح أي إصلاح. وكوزير غير كفء للزراعة في حكومة كيرنسكي، كانت السياسات التي حاول تنفيذها مختلفة قليلًا. اشتراكية ثورية أخرى، وهي فاني كابلان، حاولت اغتيال لينين في أغسطس عام ١٩١٨ وكادت أن تنجح.



إيلينا ستاسوفا (١٨٧٣-١٩٦٦): بلشفية مخضرمة أخرى ومقربة للغاية من لينين. كانت سكرتيرة الحزب في بتروجراد عام ١٩١٧، وبعد ذلك مسؤولة بالكومنترن.

لم تكن ألكسندرا كولونتاي المرأة الوحيدة التي لعبت دورًا هامًا في بدايات الاتحاد السوفييتي، ولكن بلا شك كانت الأكثر موهبة، وكان لديها عقل وروح مستقلين كلية. يمكن أن نرى في أعمالها مركب النسوية الثورية (الاشتراكية لا الراديكالية)، فهمت أكثر من معظم من حولها الاحتياجات الاجتماعية والسياسية والجنسية لتحرير المرأة، أحيانًا ما كانت تقسو في تقديرها للنساء من الخلفيات الطبقية المختلفة، ولكت تلك الآراء لم يشاركها فيها العديد من رفاقها الذكور أو الإناث. كان يُساء تفسيرها وتصويرها عن قصد لتظهر كمدافعة عن التحرر الدائم؛ اعتاد المُلّاك الصغار في الريف أن يستخدموا اسمها لتحذير الفلاحين الفقراء من أنهم لو واصلوا خطة الزراعة الجمعية سيكون عليهم أن يتقاسموا نساء عائلاتهم الشابات مع جميع الرجال الآخرين، في حين سيُلقى بالنساء العجائز.

كانت كولونتاي واعية للغاية بالطبيعة العبثية لجل مظاهر البروباجندا، وانزعجت بشكل خاص حين اتُهمت بتفضيل الجنس عن الحب. في مقالها

السيري القصير "سيرة امرأة شيوعية متحررة جنسيًا"، شرحت أن الحب لعب على الدوام دورًا كبيرًا في حياتها، ولكنه كان تجربة عابرة، والأكثر أهمية هو الحاجة "لفهم أن الحب ليس الهدف الأساسي لحياتنا، وأن نعرف كيف نضع العمل في مركزها". كان بإمكانها أن تضيف "... كما يفعل الرجال". أرادت أن ينسجم الحب مع العمل، "ولكن مرارًا وتكرارًا تسير الأمور في اتجاه مختلف، لأن الرجل حاول على الدوام فرض أناه علينا، وأن يستغلنا كلية من أجل تحقيق أغراضه". يكون الخيار بين قبول هذا الموقف أو معارضته وإنهائه. شرحت أنه "لأن الحب صار قيدًا"، فالطريق الوحيد لكسره هو "التمرد الداخلي المحتم... نشعر أننا مستعبدات، ونحاول أن نفك رباط الحب". لم تزعم بغياب التناقضات في هذا الاندفاع "نحو الحرية"، إنما على العكس: "نحن وحدنا مجددًا، تعيسات، وحيدات، ولكن أحرار – أحرار لنسعى لتحقيق عملنا المثالي المختار المحبوب". كانت هذه واحدة من المقولات الأساسية المبكرة بداخل القيم النسوية الحديثة، والتي تَراجَع عنها القرن الواحد والعشرين، على الرغم من التبجيل المستمر الذي يحتفي بـ "زواج المثليين".

كتب لينين عام ١٩١٨ أنه "من منطلق تجربة كل الحركات التحررية، يمكن الإشارة إلى أن نجاح أي ثورة يمكن أن يُقاس بقدر مشاركة النساء فيها". كل الثوريين الروس تقريبًا، بغض النظر عن فصيلهم أو حزبهم، اتفقوا مع هذا الرأي على الدوام. كما ناقشت في الفصل ١٢، بداية من الستينيات من القرن التاسع عشر، لعبت النساء الروسيات دورًا نموذجيًا، أكثر تقدمًا من شقيقاتها في بقية أنحاء أوروبا والقارات الأخرى.

كانت النقاشات عن دور الأسرة النووية في المدينة والريف، وعن وظيفة الزواج متقدمة وواقعية في روسيا عن كل الأماكن الأخرى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. أدت ثورتي عام ١٩١٧ إلى الإسراع من هذه العملية، لأن هذه القضايا لم تعد الآن أفكارًا مجردة. أصرَّ ماركس

وإنجلز وبيبل على أن الرأسمالية تنفي الاستخدامات والاحتياجات التقليدية للأسرة. في المجتمعات القروية تعمل الأسرة كوحدة إنتاج جمعية؛ يعمل الجميع، على الرغم من أن النساء تكدُّ بشكل أكبر. استخدمت كلارا زتكين، إحدى زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، أعمال المفكرين الثلاثة الكبار كنقطة انطلاق، وحللت الاختلافات بين الفلاح والعائلة البروليتارية، وذهبت إلى أن الأخيرة وحدة استهلاك لا إنتاج. استخدم المفكرون السوفييت هذا التحليل بشكل أكبر بعد الثورة؛ لدى نيكولاي بوخارين، وَضَع تطور الرأسمالية كل البذور الضرورية لتفسخ الأسرة: وحدة الإنتاج تغيرت وصارت المصنع، والعمل المأجور للنساء والرجال، وبالطبع طبيعة الحياة والعمل المدينيين التي تتطلب المشي المستمر. اتفقت كولونتاي على أن الأسرة على حافة الفناء، وما كان يهم الحكومة البلشفية هو جَعْل هذا الانتقال لأشكال جديدة يسيرًا بقدر الإمكان، بتقديم الدولة حضانات ومدارس ومرافق غذائية مجتمعية عالية المستوى، إلى جانب المساعدة في الأعمال المنزلية. ناصر لينين بقوة هذه الرؤية، انتقاداته للأسرة كانت لاذعة بشكل خاص، استنكر "فساد وتعفن وقذارة الزواج البرجوازي، وصعوبة إنهائه، وامتيازاته للزوج وتقييده للزوجة، وأخلاقياته وعلاقاته الجنسية الزائفة المقرفة".

ظل العدو على الدوام هو الشريك الذكر، الذي يتجنب تمامًا العمل المنزلي ورعاية الأطفال. قال لينين غاضبًا عام ١٩١٩: "العمل المنزلي التافه يسحقها ويخنقها ويحط منها ويقلل من شأنها؛ يُقيِّدها بالمطبخ ورعاية الأطفال، وتضيع قدرتها على العمل في أداء غير مثمر بشكل وحشي، وتافه ومثير للأعصاب ومُنحط وساحق". حلوله كانت مطابقة لحلول الزعماء الثوريين الآخرين في هذا العصر: المطابخ والمغاسل ومحلات التصليح والحضانات ودور الرعاية الجمعية، إلخ. ولكن لدى لينين لم يعن إلغاء العبودية المنزلية اختفاء المنازل المستقلة أو الأسر.

انعكست تلك الآراء في العمارة البنائية. عبَّرت مباني مويسي جيتزبرج السكنية، الكبيرة منها والصغيرة، عن العهد الجديد، وحققت المغاسل الجماعية وغرف الطعام نجاحًا كبيرًا. كانت ملاعب الأطفال ظاهرة من كل مطابخ الشقق، وكان يمكن تغيير مساحتها بتحريك البوابات الخشبية الهائلة الموضوعة على عجلات. كانت رؤية جيتزبرج، كما شرح في عمله الأبرز "العهد والأسلوب"، مستلهمة بشكل كبير من فترة السنوات الخمس التي قضاها في القرم، فعلى الرغم من الحرب الأهلية، كان لديه الوقت ليزور المساجد القديمة والمباني الأخرى حيث تعلم أكثر مما تعلم في الأكاديمية الكلاسيكية في ميلان. وَصَفَ العمارة المندفعة العفوية لدى الشعب التتاري وهو "يمضي مع المسار الطبيعي، متبعًا تشوهاته وغرائبه، واضعًا الموتيف فوق الآخر بعفوية رائعة تخفي نظامًا خلاقًا مميزًا". ساهم مبنى البرافدا في لينينجراد، الذي بُني عام ١٩٢٤، وعمل فيه مسرورًا مع معماريين اثنين آخرين، في تكريس سمعته كأحد أفضل الممثلين للثقافة الحديثة.[١٢] تم تجاوز

١٢ في عام ١٩٨٦، في واحدة من زياراتي الأخيرة إلى موسكو القديمة ما قبل الأوليجارشية، سألني المُضيفون في اتحاد الكتاب (كان مقره ساعتها منزلًا لأحد النبلاء القدامى، وكانوا أصدقاء مقربين لعائلة تولستوي، واستلهم منهم عائلة ناتاشا في روايته الحرب والسلام) عما أريد فعله في اليوم الحُر من الالتزامات. طلبت منهم أن أزور موسكو البنائية إن أمكن. وافق معماري تتاري على أن يكون مرشدي وكانت بالفعل رحلة لا تنسى. كانت المباني في مكانها، ولكنها غالبًا لا تُرى إلا حين يُشار إليها؛ قضيت وقتًا طويلًا في كل مبنى فيها، بصحبة مرشدي العليم وهو يشير إلى كل سماتها الخاصة. كانت هذه المرة الأولى التي سمعت فيها اسم جيتزبرج. كان أبرز مصدر للبهجة موجودًا على بعد أميال قليلة من مركز المدينة، فيما كان سابقًا أول منطقة صناعية جديدة بعد الثورة. اختفت المصانع منذ وقت طويل ولكن ظل هناك تجمع سكني متوسط الحجم لأسر الطبقة العاملة، كان في غاية الروعة. كانت المغسلة الجماعية تعمل، ورأيت إحدى الشقق النموذجية؛ كل المطابخ بها نوافذ ترى منها بوضوح ملاعب الأطفال. تغيِّر الجدران الخشبية الموضوعة على عجلات المساحة وفقًا للحاجة. لم أستطع منع نفسي من مقارنة "أورشليم" الموجودة أمامي بمساحاتها الخضراء، بالتجمعات السكنية الموحشة في بريطانيا ما بعد الحرب. كانت المخيلة المحدودة في بريطانيا صادمة، سواء من جهة العهد أو الأسلوب المعماري.

أعماله سريعًا من قبل انتهازيي عهد ستالين، ولكن بشكل رحيم تُرِك جيتزبرج لشأنه، وتوفى بهدوء على سريره عام ١٩٤٦.

كان البلاشفة فخورين للغاية بقراراتهم الأولى، التي صاغ لينين معظمها. في عام ١٩١٨، واحتفالًا بالذكرى السنوية الأولى لثورة أكتوبر، أقرَّت اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت بالإجماع القانون الجديد للزواج والعائلة والوصاية، صاغه القانوني الراديكالي آلكسندر جويخبارج، الذي كان في الرابعة والثلاثين من عمره في ذلك الوقت، والذي شرح أن هدفه هو التعجيل بـ "أفول" العائلة التقليدية. في زمن شاعت فيه هذه الآمال، كتب: "السلطة البروليتارية تبني قوانينها وأعرافها ديالكتيكيًا، وهكذا في كل يوم من وجودها تخلخل الحاجة لوجودها". كان الهدف وضع قانون "يجعل القانون زائدًا عن الحاجة". بنى جويخبارج، المنشفي السابق، أفكاره على الفلسفة السياسية المتضمنة في كتاب لينين "الدولة والثورة". أشار عدد من المؤرخين أنه خلال السنة الأولى من الثورة، بدا وكأن كميونة باريس تُعاد إلى الحياة.

لم يكن قانون العائلة الجديد من دون سابقة في التاريخ،[13] كان الإطار المحيط بالقوانين القيصرية للأسرة هو احتياجات الكنيسة الأرثوذوكسية والأديان الأخرى عند الضرورة. من المفيد عقد مقارنة بينها وبين أوامر السعودية والوهابية المعاصرة؛ كانت الأبوية الوحشية نافذة بتصديق من الكنيسة بنفس القدر من القسوة، احتاجت النساء لإذن الرجال من أجل كل شيء تقريبًا، ومن ضمن ذلك جواز السفر، كانت الطاعة الكاملة

---

13 لنقاش أكثر تفصيلًا عن هذا الموضوع والقضايا المتعلقة به، أرشح بقوة العمل الكلاسيكي: *The Women's Liberation Movement in Russia: Feminism, Nihilism and Bolshevism, 1860–1930*, Princeton, 1978.

والدراستين الحديثتين المفيدتين بالقدر نفسه:

Wendy Z. Goldman, *Women, the State and Revolution*, Cambridge, 1993, and Jane McDermid and Anna Hillyar, *Midwives of the Revolution*, London, 1999.

جبرية ولم تتمتع النساء بحقوق باستثناء حقوق الملكية. قوانين الأسرة الأوروبية الغربية الذي يعود أصلها إلى النظام الإقطاعي أسست للملكية "المشتركة"، التي كانت تعني في النهاية الملكية والسيطرة الذكورية. سمحت الكنيسة الروسية بحقوق ملكية منفصلة فيما يتعلق بالدوطات والميراث والهدايا والأراضي. هذا هو الوضع نفسه في السعودية، أُنكر على النساء الحقوق والمساواة السياسية، ولكنهن يستطعن التملك؛ سيدات الأعمال يعشن جيدًا جدًا.

بعد مرور عدة أشهر من أكتوبر عام ١٩١٧، ألغى أحد القرارات كل القوانين المتعلقة بالأسرة وبتجريم السدومية. لم يعد النساء تابعات قانونًا، صار لديهن حقوق متساوية مع الرجال؛ صار الزواج الديني باطلًا ولم يعترف القانون سوى بالزيجات المدنية. صار الطلاق يُمنح عند طلب أي من الشريكين، ولم يعد من الضروري النظر في أي أساس للطلب. وكذلك النفقة: أتيحت الضمانات نفسها للشريكين. ألغيت قوانين المِلكية التي تعود إلى قرون طويلة، منهية الامتيازات الذكورية ونزع لطخة البنوة غير الشرعية. حصل كل الأطفال على الحقوق نفسها، بغض النظر عن زواج الأبوين الرسمي من عدمه. شَكّل هذا إعادة بناء راديكالية للقانون الأوروبي من خلال فك القيود الأسرية من عقد أو شهادة الزواج. المثير للاهتمام، أنه لم يُسمَح بالتبني المستقل على أساس أن الدولة الجديدة ستكون أبًا أفضل من الأسر المستقلة. وبسبب أكثرية الفلاحين، تَوَلّد خوف من أن هذا سيَيسر استخدام عمالة الأطفال في الريف. ذهب تربويون يوتوبيون أن إلغاء التبني المستقل خطوة انتقالية نحو دولة توفر الرعاية لجميع الأطفال.

استنكر نقاد القانون الجديد معاييره باعتبارها إذعانًا للأعراف البرجوازية. كتب جويخبارج: "صرخوا فينا (تسجيل الزواج والزواج الرسمي، أي نوع من الاشتراكية هذه)". وكانت ن. أ. روسلافيتس، المندوبة الأوكرانية للجنة التنفيذية المركزية للسوفييت عام ١٩١٨ حيث نوقش

القانون الجديد، غاضبة من تدخل الدولة بأي طريقة في مسألة الزواج، إنه قرار فردي ولا بد أن يظل كذلك. استنكرت القانون واعتبرته "إحياء برجوازيًا": "تدخل الدولة في مسألة الزواج، حتى في شكل التسجيل الذي يقترحه القانون، أمر غير مفهوم على الإطلاق، ليس فقط في النظام الاشتراكي، ولكن في الفترة الانتقالية"، واختتمت كلامها غاضبة: "لا أفهم كيف يؤسس القانون لزواج أحادي إجباري". ردًا على ذلك طلب جويخبارج منها ومن الآخرين أن يفهموا أن السبب الرئيسي لصياغة قانون علماني هو تقديم بديل للكنيسة للناس الذين يرغبون في تسجيل الزواج، إذا لم تقم الدولة بهذا، فالعديد من الناس، خاصة في الريف، سيعقدون زيجات سرية في الكنيسة. انتصرت حجته، ولكن بعد جدال طويل.[١٤]

في هذه الأثناء، عام ١٩١٩، أنشأت الحكومة الثورية الجينوتديل (هيئة العمل وسط العاملات والفلاحات)، وكان هدفها تحرير النساء. تَكَوَّنت قياداتها من نساء كن ناشطات في هذا المجال في السنوات ما قبل الثورية الحاسمة –إينيسا أرماند ، وآلكسندرا كولونتاي، وصوفيا سميدوفيتش، وكونكورديا ساموريلوفنا، وكلافديا نيكولايفا– وفهمن الاحتياجات الخاصة بالنساء. لم يكن التحرر النسائي هدف معظم النساء. اعتبر الاشتراكيون الديمقراطيون وفيرا زاسوليتش وروزا لوكسمبورج ذلك انحرافًا في زمن تواجه فيه الإنسانية كلها مهامًا هائلة. لم تر نساء الجينوتديل أنفسهن كيوتوبيات. آمنَّ ببساطة أن تحرر النساء واحد من المهام التي تواجه الثورة، لم تعتقد أي منهن أنه بالإمكان تحقيق ذلك سريعًا أو حتى خلال حياتهن، ولكن لا بد من البدء الآن وإلا ستتلاشى القضية ببساطة وتتراجع إلى الخلفية. كان لا بد من اتخاذ فعل مباشر متعلق بانتقال الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال إلى مؤسسات الدولة؛ لم يكن يعني بذلك فالانستيرات[iii] هائلة، كما تخيلها فورييه، وتشرنشفسكي وبوخارين. أرادت النساء أن

14 Goldman, *Women, the State and Revolution*, pp. 55–6

تتيح الإدارات المدينية مؤسسات محلية، متخصصة في أشياء مثل مراكز الرعاية المجانية، وغُرَف طعام، ومغاسل عامة. خضع هذا لنقاش ساخن. ألقى لينين خطابًا في مؤتمر للنساء في سبتمبر من ذلك العام، ذهب إلى أن احتياجات الجينوتديل وعملها "لا يمكن أن تظهر منه نتائج سريعة... ولن تؤدي إلى تأثير كبير". تبنى تروتسكي الرأي نفسه في عدة مقالات صحفية، واستعان بالعديد من الأمثلة من حياة الطبقة العاملة أشارت إلى أن الحذر ضروري، في حين دافع عن فكرة أن البروباجندا المجردة ليست كافية لتغيير العلاقات الجندرية؛ لا بد من القيام ببعض الأفعال، وبعض التجارب لتحقيق مميزات ملموسة للجميع.

في الواقع كان البلاشفة القدامى (الرجال والنساء) هم اليوتوبيون للأسف. لم يكن إلغاء الملكية الخاصة كافيًا. أدى انتصار المحافظة في الاتحاد السوفييتي بعد عام ١٩٣٠ إلى "ثرميدور جنسي"[iv] وإعادة ترسيخ أدوار النساء "التقليدية" حتى من دون تغيير القوانين، باستثناء إعادة تجريم المثلية الجنسية عام ١٩٣٤. في المقابل نُفذت الأفكار العملية التي وضعتها الجينوتديل بعد نهاية الحرب الأهلية، بواسطة المعماريين الذين صمموا مبان سكنية للعمال كما شرحت سابقًا.

على المستوى الوطني، نشطت عضوات الجينوتديل بشكل كبير للتأكيد على عدم تجاهل النساء في مسألة اللجان الثورية العسكرية، وأجهزة الحزب المحلي والنقابات، والقسم السياسي بالجيش الأحمر. مجددًا صارت مشاركة الروسيات في الحروب الحزبية والإرهاب السري نموذجية. في الماضي كثيرًا ما قتلت الفلاحات الجنود الفرنسيين الذين انقطعوا عن جيش نابليون باستخدام المناجل والمذار، أو بحرقهم أحياء ببساطة.

خلال الحرب الأهلية، عملت العديد من النساء كمفوضات سياسيات وممرضات في المستشفيات الميدانية. كانت الحياة الحزبية قاسية، ولكن النساء

أحببن المساواة التي تمتعن بها مع الرجال، هذا التقليد الذي سيبرز مجددًا في الحرب العالمية الثانية. يصف ريتشارد ستايتس كيف كان "البيض يعاملون الممرضات المأسورات عادة بوحشية خاصة. شُنقت ثلاث ممرضات بالضمادات على دعائم مستشفاهم الميداني مع غرس دبابيس الكومسومول (الشيوعي الشاب) على ألسنتهن". انضمت آلاف النساء للجيش الأحمر و"قاتلن في كل الجبهات وبكل الأسلحة، حملن البنادق، وقُدن قطارات مسلحة وحملن المدافع".[15] وصرن أيضًا جاسوسات؛ أُعجب لينين كثيرًا بالتقارير القادمة من أوديسا وباكو والتي ذكرت أن النساء الأعلى تعليمًا في الجيش الأحمر واجهن بكفاءة الجنود الفرنسيين والبريطانيين الذين حاربوا إلى جانب البيض، وجادلوا الجنود بلغتهم ضد التدخل الأجنبي. أمر بإنشاء مدرسة خاصة للجاسوسية وإحداث الاضطرابات، صار مقرها في منزل كبير بموسكو تحت قيادة الثوري الجورجي الأسطوري كامو، الذي كانت مآثره هائلة بداخل العالم السفلي المضاد للقيصرية. شكّل مَن التحقوا بالمدرسة (والعديد منهم كن نساء، ومن ضمنهن الموهوبة لاريسا ريسنر) أول كتيبة مقاتلة للعمليات الخاصة.[16]

لاقت النساء البلشفيات مقاومة حقيقية في الجبهات التحررية الأخرى، صادفن مشكلات هائلة حين أقمن مقرات متواضعة في القوقاز وآسيا الوسطى، وكذلك أوكرانيا. كانت النساء المحليات خائفات وخجولات. هدد الرجال النسويات بالعنف، حتى لو اقتصر الأمر على أن تتعلم نساءهم القراءة فقط في إحدى "كبائن القراءة" التابعة للجينوتديل.

بعد رحلة إلى القوقاز عام ١٩٢٠، نقلت كلارا زتكين لمقر الجينوتديل ما أخبرته لها النساء بعدما قضت عدة أسابيع تقنعهن فيها بالحديث:

---

15 Stites, *The Women's Liberation Movement in Russia*, p. 318.
16 Cathy Porter, *Larissa Reisner: A Biography*, London, 1988.
كاثي بورتر كتبت أيضًا سيرة ذاتية فاتنة للنسوية الثورية السوفييتية آلكسندرا كولونتاي:
Alexandra Kollontai, London, 2013.

"نحن عبيدات صامتات، علينا أن نحتمي بغرفنا وخوفنا تجاه أزواجنا، إنهم أسيادنا.

باعنا أباؤنا في عمر العاشرة، كنا حتى أصغر من ذلك. سيضربنا زوجنا بالعصا ويسوطنا إذا رغب في ذلك، إذا أراد أن يجمدنا سنُجَمَّد. باع بناتنا، مصدر بهجتنا واللواتي كن يساعدننا في المنزل، باعهن مثلما باعنا آباؤنا".

الأعمال التي قامت بها الصفوف الدنيا من نساء الجينوتديل في أنحاء البلاد أتت ثمارها دون شك، وضعت الأساس لفرض نظام صارم للمساواة الجندرية حتى في أكثر المناطق الرجعية اجتماعيًا في الاتحاد السوفييتي الشاب.[١٧] تلك النساء الشجاعات والواثقات من أنفسهن واجهن الرجال مباشرة من دون أسلحة أو حراسة. قتل "بلطجية" ثلاثة نساء من كوادر الجينوتديل. وفي قلب إحدى المدن المسلمة، عُرض تصوير فيلمي لبطلة مسلمة رفضت أن تتزوج من رجل شيخ كان قد اشتراها. في باكو، هاجم رجال ومعهم كلاب مسعورة (لم يكن هناك فارق بين الاثنين) نساء خرجن من أحد نوادي الجينوتديل وشوهوهن بمياه مغلية. ذهبت امرأة مسلمة في العشرين من عمرها، فخورة لأنها حررت نفسها، للسباحة بملابس بحر، فقطعها أبوها وأخوتها إربًا لأنها "لطخت شرفهم". جرت ٣٠٠ جريمة قتل مشابهة (اعتبرتها الدولة مظاهر هجوم من الثورة المضادة) على مدار ثلاثة

17 كانت النساء المسلمات في الجمهوريات السوفييتية القديمة من ضمن الأفضل تعليمًا في العالم الإسلامي كله، واندمجوا كلية وصرن طبيبات وأستاذات ومدرسات وقائدات طائرات، إلخ. قابلت اثنتين منهن في مؤتمر عن الإسلام منذ عدة سنوات، حيث كانا يدافعان بحماسة عن الحداثة ضد بعض المؤمنين بالنسبية الأخلاقية. سألتهما عن بلادهما فقالت واحدة منهما: "نحن امرأتان من الاتحاد السوفييتي القديم".

أشهر في عام ١٩٢٩ وحده. ولكن على الرغم من الإرهاب الأبوي، انتصرت النساء في النهاية. بدأت مئات النساء المسلمات وغير المسلمات في تلك المناطق التطوع كمترجمات وموظفات في مكاتب الجينوتديل. واحتوت تقارير مؤثرة للغاية على قصص لآلاف النساء اللواتي خلعن أحجبتهن *طوعًا* وبجرأة في كل عيد عمال وكل عيد للمرأة. لم ينظرن أبدًا إلى الوراء، كان التحرر الذاتي هو النموذج الذي اقترحته الجينوتديل، ولم تفرضه الدولة، وتحقق بالفعل.

عارض عدد من البلاشفة البارزين الجينوتديل، طالب ريكوف، المنغمس بشدة في النقابات الذكورية المهيمنة، بحل الجينوتديل لأنها تثير القلاقل. عارض زينوفييف حتى عقد مؤتمر للنساء عام ١٩١٩. أراد آخرون أن يستخدموا الجينوتديل كطريقة لتهميش النساء وترك الحزب "الحقيقي" للرجال، وبشكل ما كان هذا هو الواقع. عُزلت إيلينا ستاسوفا، سكرتيرة الحزب في أكتوبر عام ١٩١٧، من منصبها حين انتقلت العاصمة إلى موسكو. شعرت بالغضب (على الرغم من أن خليفتها في المنصب، جاكوب سفردلوف، كان أكثر المنظمين الموهوبين الموجودين) ورفضت أن تُبعَد إلى الجينوتديل، وصارت واحدة من الأمناء السياسيين في مكتب لينين. لينين نفسه دافع بقوة عن الجينوتديل ضد كل أشكال الرجعية، وفي حواره الأخير تقريبًا عن الموضوع (في لقاء مع كلارا زتكين)، رد غاضبًا حين عرف منها أن "الرفاق الجيدين" عادوا أي فكرة تقتضي من الحزب أن ينشئ كيانات خاصة من أجل "العمل المنظم بين النساء"، كان رأيهم أنه لا بد من تحرير الجميع وليس النساء فحسب، وأن لينين خضع لفكرة انتهاز الفرص في هذه المسألة. كتبت زتكين:

"قال لينين: (هذا ليس أمرًا جديدًا ولا يعتبر دليلًا. لا ينبغي أن يضللك ذلك. لِم ليس لدينا عدد نساء بقدر الرجال في الحزب – لم لم يحدث هذا في أي وقت في روسيا السوفييتية؟ لِم عدد النساء المنتظمات في النقابات صغير جدًا؟ الحقائق تقدم الغذاء للفكر... هذا هو سبب أنه من الأحرى بنا أن نضع المطالب التي تعمل لصالح النساء... مطالبنا هي نتائج عملية لما استمددناه من الحاجات الملحة؛ الإهانة المذلة للنساء في المجتمع البرجوازي، النساء الضعيفات واللواتي لا يحظين بحقوق... ندرج هذه الاحتياجات وننهي إذلال النساء وامتيازات الرجال. هذا ما نكرهه، نعم، نكره كل شيء، وسوف نلغي كل شيء يعذب المرأة العاملة ويقمعها، وكذلك ربة المنزل، والفلاحة وزوجة العامل الصغير، نعم، وفي العديد من الأحيان النساء المنتميات للطبقات المالكة)".[١٨]

كانت الجنسانية معركة أخرى، ولكنها لم تمثّل جدالًا جديدًا. منذ الستينيات من القرن التاسع عشر، ظهرت خلافات حادة في الرأي بين الليبراليين والشعبويين والإرهابيين والاشتراكيين. كشف تشرنشفسكي، المعروف بكميوناته المجردة واليوتوبية المتخيلة، عن جانب أكثر عملية؛ عندما عرف وهو في السجن أن زوجته جربت الخوض في علاقات مع عدة عشاق في غيابه، دافع عنها بشدة على أساس أنه لو كان باستطاعته لفعل ذلك، فلم لا تفعل هي؟ اتجه تولستوي لتعريف الجنس غير الإنجابي على أنه "شهوة"، وبشّر بفضائل التبتل، خاصة في "سوناتا كريتسر". بداخل الاشتراكية الديمقراطية الروسية، كانت كولونتاي واحدة من الأنصار الرئيسين لتحرر النساء الاجتماعي والسياسي والجنسي، صارت رمزًا لـ "الحب الحر"، ولهذا السبب شُوهت بالداخل والخارج، تعرضت لأقسى الإهانات، وفي الأغلب كان أسوأ المهاجمين هم الأكاديميون الغربيون،

18 Clara Zetkin, *Reminiscenses of Lenin*, London, 1929, pp. 64–5.

فغيرهم كانوا متحفظين إلى حد كبير. بيتريم سوروكين، الذي راقب البلاد بعد عام ١٩١٧، اتهمها بـ "السادية الجنسية"، وكتب في يومياته أن "حماسها الثوري لا يمثل شيئًا سوى كونه إشباعًا لإفراطها الجنسي". لدى روبرت دانييلز كانت "محظية شليابنيكوف (من ضمن آخرين، لأنها كانت تمارس ما تبشر به)". إ. ه. كار وجد صعوبة في إخفاء عداوته، وذكر للقراء أنها "بشرت بالإشباع غير المتحفظ للغريزة الجنسية، يدعمها افتراض أن تحمل مسؤولية ذلك يكون من شأن الدولة".[١٩]

لم تكن الجنسانية موضوعًا محظورًا، ولكن ماركس وإنجلز وبيبل افترضوا أن التحرر الحقيقي من هذه الجهة سيتحقق مع إنشاء مجتمع شيوعي. انتصار الثورة الذي حققه الماركسيون كثّف العملية من وجهة نظر البعض وبدأ الانتقال إلى التحرر الجنسي الغيري. كتبت كولونتاي مقالات وقصصًا في عامي ١٩٢٢ـ١٩٢٣ أكدت فيها على النقلة الأخلاقية الجديدة؛ سيتم تنظيم الحميمية الجنسية فقط وفقًا للاحتياجات الفردية، هذه ليست مسألة تخص الدولة ولا تخص أي سلطة. تعرضت للانتقاد لدفاعها عن نسوية يوتوبية يستحيل الوصول إليها، وبالنسبة للبعض كانت خاطئة تمامًا. مع الوضع في الاعتبار الظروف الفوضوية في البلاد، سيذهب قادة الحزب متوسطو العمر (من بين آخرين) إلى أنه من واجب الحكومة أن تنظم أو تغيِّر مسار الطاقات الشابة لمنع استغلال النساء الشابات. بعدما فزعت من شدة الهجمات، تراجعت كولونتاي وقبلت منصب سفيرة السوفييت في النرويج، لتصير أول امرأة يُعهد لها بمنصب دبلوماسي كبير. تراجعت الجينوتديل أيضًا من ضغط الهجوم ووافقت على التركيز على الشؤون الأكثر عملية وسياسية، تاركة التنظيم جانبًا في ذلك الوقت. على الرغم من

---

١٩ نفاق كار مثير للدهشة. ليس سرًا كبيرًا أن العجوز المتصابي وجد صعوبة في التحكم في "غرائزه الجنسية"، ولأن الدولة البريطانية لم تستطع اكتشاف أي مخالفة للقانون من جانبه، لم يمر بمشكلات كبيرة متعلقة بنتائج أفعاله.

ذلك رفضن قبول آراء بوخارين عن القدرات الانتقالية لمؤسسات الدولة الجديدة المركزية. بالنسبة لهن كان النشاط الذاتي والتحرر الذاتي من خلال الجدل الديمقراطي والفعل الجمعي هو طريق التقدم. في عام ١٩٢٧، وقبل ثلاثة أعوام من حل ستالين للمنظمة، أوضح نص لصوفيا سميدوفيتش (وشاركت بنفسها في الثورة)، كُتب لإحياء الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر، أساسيات أهداف الجينوتديل في فقرة واحدة:

"إشباع كل الاحتياجات؛ إمكانية أن يطوِّر كل الناس ميولهم للمشاركة في هذا المجال أو ذاك، وأذواقهم وميولهم المصاحبة لذلك؛ التحرر الكامل من جميع أنواع القمع الذي يفرضه الإنسان على الإنسان، وفتح جديد لجميع الإمكانات الجديدة في النضال مع قوى الطبيعة، والانتصارات الجديدة عليها؛ وتطوير إمكانات متعددة في الشخصية الإنسانية – تقريبًا هذه هي الملامح الأساسية للمستقبل المشرق والحقيقي، وإن ظل مستقبلًا بعيدة... هل هذا ممكن في ظروف قمع النساء؟".[٢٠]

لم تكن هذه حقيقة الوضع؛ وفقًا لرأي البعض في البوليتبورو، فتجارب الكومسومول والطلبة في مسألة "الحب الحر" انحطت إلى زنا مهتاج ومتاح للجميع ويسيطر عليه الذكور،[٢١] على الرغم أن مدى توازن هذا الرأي يظل محل شك. شعر ثالوث الزعماء –ستالين وزينوفييف وكامينيف– بالذهول من عدد الخلايا الشيوعية في الجامعات التي مررت قرارات تتفق مع نقد تروتسكي في البرافدا بصدد البيروقراطية المتزايدة في

---

20 مقتبس من

Barbara Evans Clements, 'The Utopianism of the Zhenotdel', *Slavic Review* 51: 3, Autumn 1992, p. 493.

21 وليس الشباب فحسب. استغل العجوز أناتول لوناتشارسكي منصبه في وزارة الثقافة ليفترس ما أمكنه من راقصات الباليه، وهو تقليد قيصري قديم استمر حتى نهاية سنوات بريجنيف وربما ما زال موجودًا.

الحزب والدولة. بدأ البوليتبورو الإشارة إلى الميول البرجوازية الصغيرة، التي أخذ تروتسكي يرد عليها حتى أشاروا إلى "مقياس الشباب" الهام كمرشد ضروري للحكم على مدى تقدم الثورة. من الصعب معرفة مدى تأثير ذلك على مسألة الجنسانية أيضًا.

ما لا يمكن إنكاره هو أن نساء لسن بالقليلات لم يعجبن بالموقف المفرط في استهانته بالجنس، والذي وصل إلى الجامعات عن طريق الجنود المسرَّحِين مع نهاية الحرب الأهلية. هذا الاتجاه كان موجودًا أيضًا وسط الفاسقين البوهيميين، وأعضاء البروليتكولت[٧] وجماعة ماياكوفسكي الذين تبنوا سمت الشاعر بمعاطفه الجلدية السوداء، وهيئته المنتصبة، وعناده الشيطاني الذي جعله هو وشعره رائجين وسط الشباب. لم يحب لينين شعر ماياكوفسكي على الإطلاق، وكان يفضل بوشكين، ولكن ماياكوفسكي لم يكن يأبه لذلك. كان يتساءل علنًا، وبحق، كيف تظل الأشكال الأدبية والفنية بدون تغيير وسط الثورات. ولم يكن هذا التعبير الوحيد عن عدم الاتساق لدى لينين.

لم يُفد هذا الكثير من النساء الشابات على أي مستوى؛ كانت وسائل منع الحمل غير متاحة أو بدائية. اقترحت إحدى النساء أن يكون الشعار الذكوري هو "الحرية والمساواة والأمومة". أسيء تفسير "الإيروس المجنح" لدى كولونتاي وفقًا للأهواء. كانت قد دافعت عن العلاقات الحرة المبنية على الحب، ولكن أحد قادة الكومسومول صَوَّر في قصة قصيرة لاحقة ما بدا أنه يستعيد ذكريات هذه الحقبة بشكل أكبر: "يسقط الطغيان الرأسمالي للآباء! قبلوا وعانقوا!... الحب الحر متاح". أو هل كان هو المتاح؟

كتبت المؤرخة شيلا فيتزباتريك بشكل مقنع أنه لم يوجد نمط ثابت للجنسانية في الحياة الواقعية واليومية في العشرينيات، على الرغم من أن الناس شعروا بأنهم أكثر حرية وأقل شعورًا بالقيود. العديد من الطلاب

الذين دخلوا الجامعات، خاصة من الخلفيات البروليتارية والجيش الأحمر، كانوا في الأغلب أكبر سنًا ومتزوجين. كان الزنا هو سبب الطلاق في معظم الحالات. كشفت استبيانات جرت في موسكو وأومسك وأوديسا العديد من "مظاهر الخيانة"، وبينما اعترف الرجال بذلك أكثر من النساء، ففي بعض الأحيان تحدثت النساء بصراحة تامة. اعترفت امرأة شابة و"مخلصة عمليًا" في أوديسا بأنه "بجانب وجود زوج لي، انجذبت لرجال آخرين يروقونني". اقتصر نشاطها الجنسي على التقبيل، لأن "الفعل الجنسي لا يمثل أهمية خاصة بالنسبة لي، ولم تتأثر علاقاتي الأسرية بذلك". وماذا عن زوجها؟

"لا أضمن زوجي في هذه المسألة، لأن الجميع إيمانهم عظيم بالملكية الخاصة (أي الزوجات/ الشريكات باعتبارهن ممتلكات)، حتى الشيوعيين، ولن يفكروا أبدًا بمنطقية. لا يريدون أن يفهموا ويتفقوا. الرجال أنفسهم يمكن أن تتعدد علاقاتهم، ولكن الزوجات، معاذ الله، لا يستطعن. أنا أجيب من منطلق أنني أتصرف كما يتصرف الرجال".[٢٢]

لم يتطرق النقاش مطلقًا للحب المثلي. بطُلت القوانين القيصرية، وتُرك المثليون وحيدين، وإن استفاد من الجدل العام العديد من الناس الذي كانوا يرون في توجههم مرضًا، ومنهم جيورجي تشيشرين، مفوض الشؤون الخارجية، والمرجع في الموسيقى الكلاسيكية، والذي كان يتحدث جميع اللغات الأوروبية الرئيسية بطلاقة، وأحد أكثر أعضاء القيادة البلشفية ثقافة. قضى هذا الرجل الذكي ساعات طويلة مع الأطباء الألمان، خلال سنوات المنفى قبل الثورة، من أجل أن "يعالج" مثليته، وفي النهاية توقف

22 Sheila Fitzpatrick, 'Sex and Revolution: Soviet Students in the 1920s', *Journal of Modern History* 50, June 1978, pp. 252–78

يائسًا. ذكرت صديقته المقربة كولونتاي أنه كان يمارس إعلاء لرغباته من خلال العمل لساعات طويلة وشاقة وبلا شك مُمَزِّقة في وزارة الخارجية ثم في الكومنترن.

جَرَّم بطرس الأكبر المثلية في روسيا، إذ كان يقلد الحداثة الأوروبية على كل المستويات. قيل له إن تأديب "الثورتين العسكرية والبحرية" في بريطانيا العظمى تَطلَّب تجريم السدومية، سار على هذا الدرب. ضغطت الكنيسة على نيكولاي الأول لينفذ القانون على كل السكان الذكور ولا يقتصر الحظر على القوات المسلحة، فنفذ ما طلبته الكنيسة. بشكل طبيعي لم يكن لهذا أي تأثير حقيقي على النشاطات المثلية في البحرية أو الجيش أو الكنيسة أو المجتمع كله. وُجدت العديد من الأماكن المخصصة لتلك الملذات في معظم المدن، وكانت العربات التي تجرها أحصنة أكثر الوسائل تفضيلًا للرجال والنساء من هذه الجهة.

ماذا ستفعل الثورة حيال ذلك؟ بخلاف إيقاف التجريم (هذا الذي لم يتحقق في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية حتى الستينيات في القرن العشرين)، لم تفعل الكثير. دارت الجدالات، رأى بعض الأطباء النفسيين أنه بينما تعتبر المثلية "حالة باثولوجية"، فلا حاجة لوصمها بقسوة كما كان يحدث من قبل، إنها خطأ ولكنها ليست انحرافًا، وعلى أي حال، سيحل التقدم الطبي كل شيء، وكان هذا فحسب أحد الآراء. نَفَذ أمر التوقف عن التجريم بداية من عام ١٩١٨. ولكن بعد ثلاثة أعوام من إغلاق الجينوتديل، صارت المثلية الجنسية مجددًا انحرافًا مُجَرَّمًا. استغل الخطاب السوفييتي المعادي للمثلية حقيقة وجود المثلية في الحزب النازي الألماني، واشتمل هذا الخطاب على لآلئ مثل الإشارة إلى أن المثليين عرضة لأن يصبحوا جواسيس للأجانب، متجاهلين أن الأرجح أن التجريم سيجعل هؤلاء الناس عُرضة أكثر للابتزاز. ولكن الطوائف العليا في الحزب النازي لم تكن تضم مثليين كما زعم مروجو البروباجندا السوفييت. كتيبة العاصفة

فقط هي التي ضمت عددًا كبيرًا من المثليين في المواقع القيادية، ويرجع ذلك جزئيًا إلى الثقافة الرجولية القوية mannerbund وتعود تاريخيًا إلى الحرب وترجع جزئيًا إلى ترقية روم (مؤسس كتيبة العاصفة) لرفاقه الذين يشاركون أفكاره. في عام ١٩٣٤، غذى "الكتاب البني" المحتفى به عن المحاكمة التي تلت حريق الرايخستاج أسطورة النازيين المثليين (وُصف فان در لوبي[vi] كذبًا بأنه مثلي وهكذا ارتبط اسمه بالنازيين)، وللمفارقة الساخرة، غذته أيضًا "ليلة السكاكين الطويلة"[vii] المعادية صراحة للمثلية. على الرغم من مساهمة ذلك في تبرير الخطاب السوفييتي المعادي للمثلية، فالتأكيد الجديد لنظام ستالين على الثقافة الذكورية "الجُندية" (التي اشتملت على سبيل المثال على إلغاء التعليم المشترك)، كانت مسؤولة بالقدر نفسه عن توليد هذه التبريرات.

وصلت معاداة المثلية الرسمية إلى ذروتها الفاسدة بالتصريح التالي لمفوض العدل ن. ف كريلنكو، والذي أدلى به في مارس عام ١٩٣٦ أمام اللجنة التنفيذية المركزية:

"في بيئتنا، بيئة العمال الذين يعتنقون وجهة نظر العلاقات الطبيعية بين الجنسين، من يبنون مجتمعهم على مبادئ صحية، لا نريد سادة صغار *gospodchiki* من هذا النوع. مَن هم المنغمسون في تلك الشؤون على الأغلب؟ العمال؟ لا! إنما حثالة الناس (ابتسامات في القاعة ثم ضحك). حثالة الناس، إما من الطوائف الحقيرة في المجتمع أو من بقايا الطبقات المُستَغِلّة (تصفيق) لا يعرفون أي طريق عليهم السير فيه. (ضحك) بالتالي يسيرون في طريق... الشذوذ". (ضحك).[٢٣]

---

٢٣ مقتبس من دان هيلي، الرغبة المثلية الجنسية في روسيا الثورية
Dan Healey, *Homosexual Desire in Revolutionary Russia*, Chicago and London, 2001, p. 196.

في عام ١٩٣٦ ، حظرت الدولة السوفييتية الإجهاض من أجل الترويج لـ "المسؤولية الأسرية". قدَّمَت مكافآت تشجع على الإنجاب، وصار الطلاق أكثر صعوبة، وحسَّنت من إتاحة أذون للأمهات العاملات. بُنيت مراكز لرعاية الأطفال، وأقيمة محاكمات كمحاكمات المجرمين للرجال الذين رفضوا دفع النفقة. إحدى النكات الرائجة في موسكو في تلك الحقبة تحدثت عن قاض يصر أن يدفع المتهم نفقة إضافية:

"قال القاضي: (لا بد أن تنفق "ثلثًا" ثانيًا)
أجاب الرجل: (لا أستطيع فأنا أنفقه بالفعل)
(إذن فعليك أن تنفق "ثلثًا" ثالثًا)
(لا أستطيع فأنا أنفقه بالفعل)
سأله القاضي: (ما الذي تعنيه، أتنفق لزوجاتك السابقات كل أجرك، إذن من أين تعيش؟)
أجاب الرجل: (أعيش على النفقة التي تحصل عليها زوجتي من خمسة رجال آخرين)".

كانت نكتة ستالينية، تعكس الحقيقة التي لا يمكن إنكارها وهي تَحَوُّل الدفة تمامًا. بدت السنوات الأولى للثورة يوتوبية بالنسبة للعديد من نقادها،

وهو تاريخ شديد القيمة وموثق جيدًا وشامل عن الموضوع، وبالتأكيد عرفت منه الكثير. خلال حقبة بريجنيف في نهايات الاتحاد السوفيتي، ارتحل القانون المتسم برهاب المثلية إلى كوبا، حيث لم يتوقف تجريمها إلا مؤخرًا، شعر الجميع بالغضب حين عرفوا أن أكثر شهيد محبوب بالبلد، خوزيه مارتي، كان مثليًا. أما بالنسبة لكريلينكو، فكان مضطربًا قليلًا ومتطلبًا على الدوام، على سبيل المثال اقترح خطة خمسية ليعلم البروليتاريا السوفييتية الشطرنج حتى لا يهزمهم العدو الطبقي. على الرغم من إخلاصه الأعمى لستالين، قُبض عليه في نهاية عام ١٩٣٨، واعترف بكونه عميلًا أجنبيًا وأعدِم. في وقت أبكر، كانت شقيقته قد غادرت البلد وتزوجت من ماكس إيستمان، المقرب من تروتسكي ومترجمه للإنجليزية. هل هذا هو السبب الحقيقي لاتهام كريلينكو بالتجسس لصالح قوى أجنبية؟ لن نعرف ذلك أبدًا.

الذين بدأوا في الحنين للتشكك والجدالات، لتلك الأيام التي كان رسامو الكاريكاتير يصورون العذراء مريم وهي حبلى وتنوء بحملها وتنتظر الطابور بتلهف من أجل الحصول على إجهاض سوفييتي، تلك الأيام انتهت تمامًا.

التيار المستمر المتسم برهاب المثلية في الثقافة الروسية (سواء كان "إنكارًا" فرويديًا للممارسات المثلية المنتشرة وسط الروس أم لم يكن كذلك) موجود حتى يومنا هذا. أتاح بعث الأرثوذوكسية في العصر ما بعد السوفييتي صوتًا سياسيًا لهذا الرهاب. مرر الدوما والمجالس الإقليمية إجراءات عديدة معادية للمثلية، ولكن بوتين رفض مطالبات حظر المثلية، وصرح علنًا في العديد من المناسبات أنه ليس لديه مشكلة مع المثليين، وعلى الرغم من المضايقات، هناك حياة مثلية مزدهرة في المدن الروسية الكبرى.

١٤
ضوء الشمس وضوء القمر

في خضم الجدال العام في منتصف القرن التاسع عشر عن الحاجة لتعليم النساء وإصلاح النظام القائم، وصفت إحدى الماركسيات النسويات، ناديجدا ستاسوفا، الجيل الجديد من النساء الروسيات بأنهن من "لا يرغبن في ضوء القمر، وإنما ضوء الشمس". كانت ابنة عمها، إيلينا ستاسوفا، التي انضمت للحزب البلشفي وتولت مؤقتًا منصب الأمينة عام ١٩١٧، تراودها المشاعر نفسها، بل بقوة أكبر. ناديجدا أخرى –ناديا كروبسكايا- عملت إلى جانب إيلينا في تعليم العمال في مدارس الأحد الراديكالية في سان بطرسبرج قبل أن تنضم المرأتان إلى جماعة تحرير العمل وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي ثم التيار البلشفي. وافقت كروبسكايا على خطبة لينين ومرافقته إلى المنفى بسيبريا، ولكنها أصرَّت أن تأتي أمها معهما. بالتأكيد كانت هذه سابقة في تاريخ الثورة الروسية؛ كان المنفى أمرًا شائعًا، وكانت الزوجات الأرستقراطيات اللواتي يرافقن أزواجهن ويعشن معهم في غرفة صغيرة وسط الثلوج مصدر إلهام للقصائد والسرد والمسرحيات، خاصة فيما يتعلق بالديسمبريين. في حقبة لاحقة، شاع اختلاق "زيجات" صورية تُمَكِّن الشابات الشعبويات الراديكاليات من مغادرة منازلهن لمصاحبة "أزواجهن" في المنفى. العديد من هؤلاء الشابات ظللن عذراوات، إذ تزوجن من القضية، من الثورة، ومن مبادئ تشرنشفسكي الأخلاقية. ولكن أن تصطحب حماة

مستقبلية رفيقين ثوريين؟ هذا لم يحدث من قبل. أربك هذا لينين وعائلته. عارضت أمه الأمر برمته، ولكنها تقبلت فكرة أن ابنها يحتاج إلى رفقة، ولأنه لم يكن يوجد بديل، وافقت ممتعضة على هذا الترتيب.[1]



إينيسا وأطفالها من زوجها ألكسندر أرماند. بروكسل، ١٩٠٩.

ماذا عن لينين الشاب؟ كان يتساءل عن طبيعة المستقبل الذي ينتظره، وحَجَز غرفة إضافية للأم والابنة. من الواضح أنه كان يعرف ناديا كروبسكايا، ولكن كرفيقة. كان منجذبًا أكثر لثلاث من صديقاتها؛ لم تول نينا جيرد أي اهتمام له وتزوجت من بيتر ستروفي، وفضلت ليديا دافيدوفا مايكل توجان-باروفسكي، أما إيلينا ستاسوفا، فقد قضت، وفقًا لرأي البعض، فترة قصيرة مع لينين ولم تنجح العلاقة، ولكنهما ظلا رفيقين مقربين حتى وفاته. لم تترك كروبسكايا أي سرد عن هذه الحقبة المبكرة من الحب أو التودد أو أي شيء آخر كان عليه الأمر. المرة الأولى التي التقت

---

1 كانت أمه تعلم تمام العلم أن لينين غير مهتم بالطبخ وأن إشارته الشفوية اللاحقة عن إنشاء دولة " حتى الطباخ يقدر على إدارتها" لم تكن إشارة إلى نفسه. إصراره على المطابخ والمغاسل الجمعية وغيرها كان دليلًا آخر على القصور الذي يعاني منه في مسألة الأعمال المنزلية.

فيها بلينين كانت في اجتماع سياسي سري في سان بطرسبرج عام ١٨٩٤، لمناقشة دور الأسواق والمضمون الاقتصادي للشعبوية. لم يكن هذا موضوعًا يؤدي إلى إمساك الأيدي تحت الطاولة. نُظِّمت الفاعلية كحفل طعام؛ طلب الحضور الليبراليون من الآخرين أن يوزعوا منشورات كتبتها اللجنة عن إنهاء الأمية. كروبسكايا كانت تولستوية في هذه الشؤون وآمنت بالعمل التبشيري. شعرت بالصدمة من رد فعل لينين الساخر من طلب الليبراليين: "كان هناك شيء شرير وجاف في ضحكته – لم أره يضحك بهذه الطريقة بعد ذلك"، ولكن رآه آخرون، ولم ينسوا هذه الضحكة أيضًا. جاء ذكر سخرية لينين بشكل موسع من قبل كل من رفاقه وأعدائه. في المذكرات التي كتبتها عن لينين، كتبت كروبسكايا أنه بحلول "شتاء عامي ١٨٩٤ـ١٨٩٥، عرفت فلاديمير إيليتش عن قرب شديد". ما كانت تعنيه أن كلاهما كان يُعَلِّم العمال أنفسهم في دوائر دراسية مختلفة. تزايد اقترابها من أفكاره ومناهجه، لم تكن هناك إشارة لأي شيء آخر. إذا كان هناك شيء آخر لأخبرت واحدة من شقيقتي لينين أم كروبسكايا وعدة أصدقاء. لأسباب غير معروفة، وعلى خلاف شقيقته ماريا وشقيقه الأصغر ديمتري، لم تكن آنا أبدًا صديقة مقربة من كروبسكايا. ومن جهة المشاعر، لم يكن هناك ملمح للقرب من جانب لينين. رضوخًا لإصراره حرقت كروبسكايا كل رسائله الشخصية إليها.

كان المنفى في سيبريا ناجحًا للرفيقين الشابين. صار الزواج الصوري حقيقيًا على المستويين الجنسي والقانوني. هددت السلطات بإنهاء الترتيب لو لم يحدث زواج حقيقي، وحددت مهلة. وجدا خاتمين نحاسيين رخيصين صنعهما فلاحي حرفي، وكذلك وجدا راهبًا ليشرف على المراسم. لا شك أن الرفيقين كانا مرتبطين ببعضهما؛ أحد أسباب ذلك يرجع لكفاءتها الهائلة في المهارات التنظيمية. نادرًا ما توقف وصول الكتب التي اعتمد لينين عليها لكتابة "تطور الرأسمالية في روسيا".

بعد إطلاق سراحه، ظل هناك وقت متبق في مدة كروبسكايا في المنفى، لذلك عادا إلى مدينة أوفا مع أمها. اقترح التنظيم المنفى الخارجي للينين، هكذا يستمر عمله السياسي لمصلحة الحزب وعمله الفكري الشخصي بدون عوائق. كانت الأولوية القصوى لإصدار جريدة اشتراكية ديمقراطية. انضمت إليه كروبسكايا بعدما أنهت مدتها، وتبعتهما أمها. استمر المنفى لسبعة عشر عامًا. توجها لميونيخ وزيوريخ وبروكسل ولندن ووارسو وتامبيري، إلى جانب باريس.



إينيسا ارماند، في الوقت الذي بدأت علاقتها مع لينين

في هذا الوقت، عام ١٩٠٩، قابل إينيسا أرماند لأول مرة، حضر ضوء القمر. كانت نسوية بلشفية فقدت لتوها شريكها الذي كان على نفس القدر من الراديكالية (فلاديمير أرماند). ذهب لزيارتها في القطب الشمالي حيث كانت منفية، فأصيب بالسل ومات لاحقًا في جنوب فرنسا، على الرغم من أنه كان يأمل في أن تساعده الإقامة القصيرة هناك على التعافي. قررت إينيسا أرماند البقاء في باريس لفترة، وعادت تتواصل مع صديقتها القديمة إيلينا فلاسوفا، التي كانت تعيش هناك. كانت أرماند قد قرأت مقالات لينين وكتبه، و"ما العمل؟" على وجه الخصوص أعجبها كثيرًا. غالبًا ما استطاعت تخيل شخصية الرجل الذي كتب تلك الكلمات؛ ذهبت لتستمع إليه يتحدث في مقهى بلشفي بشارع دورليان، كان ذلك في شهر مايو، وباريس في ذروة جاذبيتها. قبل الخوض في التفاصيل من الضروري الاستطراد المختصر.

قبل عدة أعوام من هذا اللقاء الذي جرى صدفة في باريس، وبينما كانت كروبسكايا ولينين في جنيف، كان هناك بضعة بلاشفة شباب – فوروفسكي وجوزيف وفولسكي (فالنتينوف)– موجودين أيضًا بالمدينة لممارسة نشاطات سياسية، هذا الذي كان يعني في الحقيقة الإنصات إلى لينين، وحَمل الوثائق والأوراق غير القانونية وهكذا. كان لينين مسترخيًا ومنفتحًا في النقاشات؛ وعندما وصل الحديث إلى أعمال تورجنيف، اتفق الجميع على أنه كاتب جيد، على الرغم من كونه ليبراليًا. تغيب لينين في اليوم التالي. وأخبرت كروبسكايا المجتمعين أنها ولينين حسنوا لغتهم الألمانية في سيبريا من خلال ترجمة تورجنيف إلى الألمانية، تذكرت ذلك قائلة:

"بعد إصرار إيليتش، ترجمنا بحرص شديد عدة صفحات من قصة (آندري كولوسوف). كان منجذبًا بشكل خاص لهذه القصة منذ سنوات

دراسته، وكان يُقدِّرها للغاية. كان يشعر أن تورجينيف أظهر فيها بحق وفي أسطر قليلة، كيف نفهم تمامًا ما يُطلق عليه بغرور (قداسة الحب). كثيرًا ما أخبرني أن آراءه بصدد هذا السؤال هي نفسها الآراء التي عبر عنها تورجنيف".

أذهلت هذه المعلومة الشباب الحاضرين. يتذكر فولسكي أنه "حصل على قصة *آندري كولوسوف* وأعاد قراءتها". أكد حكمه عليها دقة رد فعله الأول. كانت "قصة ضعيفة ومضجرة، وأهملها الجميع بشكل عام". اندهش بالفعل من إمكانية أن يجد فيها لينين ما يؤثر فيه بعمق. كانت الحبكة مبتذلة. كولوسوف شخص "غير عادي". لماذا؟ لأنه أحب فتاة، ثم توقف عن حبها. ما بدا أنه شيء "غير عادي" هو أنه قام بهذا بجرأة وأمانة، هذا الذي كان له تأثيره على تورجينيف، الذي كانت له ضعفاته. الفقرة التالية هي التي أعجبت لينين ووصفها بوضوح على أنها "ثورية"، ومختلفة تمامًا عن الرؤية البرجوازية الفجة للعلاقات بين الرجال والنساء":

"كم منا يقدر على القطيعة مع الماضي في الوقت المناسب؟ أخبرني، من منا لا يخشى اللوم، لا أعني لوم النساء، وإنما لوم أول أحمق من بين الناس العابرين؟ من منا لم يذعن للرغبة ليبدو كريمًا، أو ليتلاعب بأنانية بقلب الآخر المخلص. وأخيرًا، كم منا لديه القوة ألا يتيح المساحة لتقدير الذات amour proper والمشاعر التافهة كالشفقة والندم؟ الشخص الذي ينفصل عن امرأة أحبها من قبل، في هذه اللحظة المريرة العظيمة حين يدرك قسرًا أن قلبه لم يعد ممتلئًا بحبها، صدقني، هذا الشخص يفهم بعمق كبير قدسية الحب، أكثر من واهن القلب الذي يستمر في اللعب على الأوتار شبه

المهترئة لقلبيهما الفاترين والحساسين من منطلق الملل أو الضعف... في زمن معين، يصير الطبيعي أمرًا غير اعتيادي".[2]

في الوقت الذي كان لينين وكروبسكايا يترجمان تلك الجمل إلى الألمانية، كانا بالفعل قد صارا عشيقين. هل كانت هذه طريقته في أن يخبرها أن حين ينتهي كل شيء لن يكون شخصًا عاديًا كما كانت شخصية كولوسوف؟ من الصعب تحديد ذلك لأنها أفنت كل الأدلة، ولكن ما تأثير هذه الجمل عليه في باريس حين أدرك أنه يحب أرماند ؟ عملية تقديس لينين جعلت معظم كاتبي السيرة الذاتية غير قادرين على الاقتراب من هذه المسألة. لم يُكتب على الإطلاق عن مغامراته في المدرسة على الرغم من أنه بعد عام ١٩١٧ بوقت قصير كان من السهل نسبيًا مقابلة أصدقائه ومعارفه، الذكور منهم والإناث، وتسجيل ذكرياتهم. لينين الذي كان يزدري بحق كل أنواع التفاهة، كان سيرغي ويزبد إذا عرف أن هناك من يحاول ذلك، ولكن كانت هناك مسائل أخرى تشغل ذهنه، وفي كل الأحوال، فمهمة كاتب السيرة الذاتية الكفء هي أن يحاول اكتشاف كل شيء. ما نُشر بالفعل يمكن أن يخضع للتقييم. نُشرت كتابات شقيقته آنا عن العائلة بالروسية ولم تُترجَم أبدًا، وفي حين أتاحت بعض المواد المثيرة للاهتمام، تكتمت تمامًا في المسائل التي عرفت أنها ستضايقه.

---

2 Nikolay Valentinov (N. V. Volsky), *Encounters with Lenin,* trs Paul Rosta and Brian Pearce, Oxford, 1968.

فولسكي الذي كان اشتراكيًا طوال حياته جاء من عائلة قديمة تملكت الأراضي. خاصم لينين بعد شجار هائل حول مسائل الفلسفة وصار ناقدًا حادًا له. هذا ما يجعل السيرة التي كتبها عن لينين أمينة وموضوعية، على الرغم من العديد من خلافاتي معها، وذلك بالمقارنة بمئات السير الأشبه بسير القديسين التي كتبت بعد وفاته والتي يمكن أن تستخدم فقط كمسند للأبواب. بالنسبة لي هو واحد من أفضل الكتب عن لينين. بالقرب من النهاية، حين كان لينين، موضوع كتابه، يحتضر، كتب فولسكي له طلبًا للقاء قصير. تلقى ردًا من شقيقة لينين، ماريا، وقالت إن أخاها يأمل أيضًا للقائه، ولكن كان الوقت متأخرًا جدًا.

أكثر الحوارات تفصيلًا معه في مسائل الجنسانية والحب الحرب والزواج الأحادي والموضوعات المرتبطة بكل ذلك، ومن ضمنها النظرية التي نوقشت كثيرًا عن الجنس وكونه بسيطًا وعابرًا كتناول كوب من الماء، نشرته كلارا زتكين بعد وفاته في كتابها الذي يتكون من ثمانية وسبعين صفحة، "ذكريات لينين"، المعتمد على لقائين مطولين معه. في مسألة الجنسانية وتغيرها في المجتمعات التالية للرأسمالية، اتخذ لينين موقف بيبل/ إنجلز التقليدي، مع قدر من ماركس. كان تحفظه المبالغ فيه متكررًا في ذلك الوقت. ذهب إلى أنه على الرغم من الاستقلال النسبي عن النضال الطبقي يظل من المهم أن نرى النضالات الجديدة لحقوق المرأة والتحرر الجنسي بداخل الإطار الكلي للتغيير الاجتماعي الشامل، بخلاف ذلك سيصبح النقاش غير متوازن. أذهلته الأخبار التي تقول بأن الرفاق الألمان في هامبورج يعدون لصحيفة خاصة بالعاهرات ودمجهن في الحركة الثورية. صاح متسائلًا إذا كان ذلك يعتبر أولوية الآن. وافقت زتكين أنه لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك، ولكنها أصرت على أن مسألة العهر لا يمكن تجاهلها ببساطة – كانت هناك مسائل مهمة خطيرة. ولكن رد لينين لم يكن خاليًا من التفكير المليّ:

"تصرفت روزا وشعرت كشيوعية عندما دافعت في أحد مقالاتها عن قضية العاهرات اللواتي يُسجن لأي انتهاك لقواعد الشرطة أثناء عملهن الكئيب. لسوء الحظ يضحي بهن المجتمع البرجوازي بشكل مزدوج. أولًا من خلال نظام المِلكية الملعون، وثانيًا بالنفاق الأخلاقي. هذا واضح؛ ولا يتناسى ذلك سوى القساة وقصار النظر. ولكن مع ذلك، هذا لا يشبه على الإطلاق اعتبار العاهرات (كيف يمكن أن أعبر عن ذلك؟) قطاع ثوري مناضل، لدرجة تنظيمهن ونشر جريدة عمالية لأجلهن. ألا توجد حقًا نساء عاملات أخريات في ألمانيا يحتجن للتنظيم؟"[٣]

3 Clara Zetkin, *Reminiscenses of Lenin*, London, 1929, pp. 50–4

في اللقاء نفسه، أشار لينين إلى أن التصرف كدون خوان أو كأحد الرهبان، أو "كشخص يقف في موقف الوسط، هذا الذي يتبناه الأفظاظ الألمان" هو تصرف غير مقبول. يمكن أن نفترض أنه يقصد بموقف الوسط أسلوب النفاق والأكاذيب الذي يقوم به زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. موقف لينين كان موقفًا مؤيدًا للزواج الأحادي المتوافق عليه بدون أي قيود قانونية. احتدم الجدال حول نظرية "كوب الماء" بعد الثورة، ولكن أحدًا لم يعترف على الإطلاق بأنه بادر بهذا التعبير؛ لا كولونتاي ولا زتكين ولا أرماند . ربما استخدمه أي شخص لفظيًا وسط النقاشات المحتدمة. بغض النظر عن أصله، استخدمه لينين بانتظام في مجادلاته مع أنصار الحب الحر. أشار مع زتكين أن النقاش المتعلق بـ "الابتكار الحقيقي للزواج والعلاقات الجنسية" بعد الثورة أمر مطلوب بشدة، ولكن لا بد من تأجيله قليلًا لأن "هناك مشكلات أخرى أكثر إلحاحًا من أشكال الزواج الماورية[viii] أو علاقات المحارم في الأزمنة القديمة. ما زالت مسألة

هناك مسألة مرتبطة بكل ذلك. لا تشكل العاهرات قطاعًا أساسيًا سواء في وسائل الإنتاج أو قوى الإنتاج، ولكنهن كنساء عاملات قادرات تمامًا على أن يتحولن إلى مسيسات أو كن كذلك بالفعل. خلال الانتفاضة الهائلة في باكستان في عامي ١٩٦٨ـ١٩٦٩، خرجت العديد من العاهرات إلى الشوارع الرئيسية وانضمت إلى المتظاهرين الذين أسقطوا الدكتاتورية.

حتى أن بعضهن تباهين بممارسة الإضراب عن العمل ضد السياسيين المؤيدين للدكتاتورية. أثناء حرب فيتنام، ساهمت العديد من فتيات الليل وزميلاتهن في المستويات الدنيا بفاعلية لتحقيق الأهداف السياسية لجبهة التحرير الوطني وأرسلن معلومات هامة عن التحركات الأمريكية لمساعدة الجبهة في الإعداد للهجوم التالي. ونُفذت نماذج مشابهة أثناء الحرب الأهلية الصينية التي سبقت الثورة. صُورت سلسلة من اللقاءات مع عاهرات في طهران قبل عدة عقود تكشف الغضب الحقيقي تجاه نفاق الملالي الذين يأتون "وينامون معنا بلحاهم التي تزن طنين بعد العودة مباشرة من إحياء أيام محرم أو الاحتفالات الدينية الأخرى". إن المناخ السياسي في المجتمع هو الذي يحدد وعي العديد من الشرائح الاجتماعية المختلفة.

السوفييتات على أجندة البروليتاريا الألمانية"، وتأثير معاهدة فرساي المفروضة على ألمانيا المهزومة كان كارثيًا على النساء العاملات.

مع انتقال حوارهما إلى الظروف السائدة في الاتحاد السوفييتي بعد الثورة، بدا لينين محبطًا قليلًا. بالطبع اتفق مع الطبيعة المنافقة الكريهة في الزواج البرجوازي، على حد تعبيره لزتكين، ولكن بعض "شبابنا الواعدين" يعيدون التفكير في "العلاقات بين الرجل والرجل، والرجل والمرأة". "يتم تثوير المشاعر والأفكار"، ولكن "ما زال الأمر في حالة هياج فوضوي". أخبرها أنه يعرف كل هذا، ولكن ما زالت تزعجه حقيقة أن الهوس الجنسي يستعبد العديد من الشباب. يعود هذا جزئيًا إلى كونه رد فعل متعلق بصراع الأجيال، ولكن هناك بعض الأسباب المثيرة للقلق (كالمذكورة سابقًا).

مجددًا تحدث لينين عن المسألة التي لا تتلاشى والتي كانت زتكين واعية بها:

"النظرية الشهيرة التي تقول إنه في المجتمع الشيوعي سيكون إرضاء الرغبات الجنسية والحب بسيطًا وتافهًا كشرب كوب ماء؛ هذه النظرية المتعلقة بكوب الماء جعلت الشباب يجن، يجن تمامًا. أثبتت أنها قاتلة للعديد من الشباب والفتيات. يصر مشايعوها على أنها نظرية ماركسية".

أثار الاعتقاد الأخير عدة مظاهر سخرية مميزة: "شكرًا لهذا النوع من الماركسية التي تنسب كل الظواهر والتغيرات في البنية الفوقية الأيدولوجية للمجتمع بشكل مباشر وفوري إلى الأساس الاقتصادي"، وبعدها يأتي التصريح: "أعتقد أن نظرية كوب الماء غير ماركسية على الإطلاق، وبالإضافة إلى ذلك معادية للمجتمع". تناوُل الماء خيار فردي، "ولكن

الحب يتعلق بحياة شخصين، وحياة شخص ثالث، تظهر له حياة جديدة، هذا هو ما يجعله شأنًا اجتماعيًا، ما يؤدي إلى وجود واجب تجاه المجتمع".

تمثّل حل لينين الجزئي في "الرياضة الصحية والسباحة والتسابق والمشي، والتدريبات البدنية من كل الأنواع، والاهتمامات الفكرية متعددة الجوانب" – كان لذلك طبيعة فكتورية، ما زالت متحققة في معظم المدارس الخاصة الإنجليزية، وكما يصفها العديد من الناس فتأثيرها قمعي؛ إنها تؤدي بالجنس إلى أن يكون سريًا، وتعامله كأنه ممارسة منحطة أو مرتبطة بالتناسل، ويقصر الجنس قبل الزواج على المواخير "الخارجة عن حدود المجتمع". من الواضح أن هذا ليس مخطط لينين، ولكنه متسق مع موقفه، انتقد شابًا تكتمت زتكين عن ذكر اسمه، وفقًا للينين كان الصبي "رائعًا، موهوبًا للغاية" ولكنه بدا أنه يمارس عملية هدم ذاتي حيث "يدور ويترنح من علاقة حب إلى أخرى". وهذا لا يناسب "النضال السياسي، ولا الثورة".[٤] ومن أجل النزاهة الجندرية قال إنه "لن يُعوِّل في النضال على تحمل تلك النساء اللواتي يخلطن بين الحب الشخصي والسياسة". عند هذه النقطة تخبرنا زتكين أنه "نهض، وطرق بيده على الطاولة، وأخذ يخطو في الغرفة لفترة من الوقت".

من الذي كان يفكر فيه؟ هل هم الشباب؟ حتى أثناء اللقاء، وهما يناقشان وظيفة النساء بداخل الحزب، اعترف لزتكين بأنه كان يتمنى أن تكون الرفيقة إينيسا حاضرة، ولكن لسوء الحظ هي تتعافى في القرم. ولم يضف: "بناء على تعليماتي".

إذن ما الذي حدث في كافيه دي مانيير، في ١١ شارع دورليان بباريس، في أحد أيام صيف عام ١٩٠٩، عندما استمعت أرماند للينين

---

٤ لو كنت محل زتكين كان من الممكن لي أن أسأل: "ماذا لو توقف أحد الشباب مؤقتًا عن ممارسة الرياضة والتدريبات لفترة وأولى وقته للجنس بدلًا من ذلك؟ هذا سيتيح له وقتًا أطول للثورة، أليس كذلك؟

لأول مرة، وتعارفا بعد ذلك؟ وفقًا لاثنين من كتاب سيرتها الذاتية، لم يحدث شيئًا، وبلا شك كانت هذه هي الحقيقة. ولكن أحد الكاتبين أصر على أنه لم يحدث شيء على الإطلاق بين أرماند ولينين، ما يطرح سؤال لِم كتب سيرتها الذاتية في المقام الأول. أما الآخر فوضع جنبًا إلى جنب كل الدلائل المتاحة وأقر بالعكس، حظى بفرصة مقابلة أبناء أرماند المباشرين واكتشف بداخل العائلة أن علاقتها بلينين لم تكن سرًا، وكذلك لم تكن سرًا في دائرة الرفاق المقربين من لينين في المنفى. في الحقيقة، فالسبب الوحيد للغموض المحيط بالأمر هو تكتم لينين في كل المسائل الشخصية، إلى جانب كُتَّاب السير الأشبه بسير القديسين والذين حولوه بعد موته إلى قديس بيزنطي، شخص مقدس ومعصوم ونقي، مخلوق فقط ليُعبَد. هذه هي مأساة طائفة لينين العالمية.

قصة أرماند جديرة بالذكر. وُلدت في باريس في شقة بشارع دي لا شابيل في مايو عام ١٨٧٤. كان هناك فناء مخصص لقطع للسكك الحديدية بالقرب منها، ونشأت على حب ضوضاء القطارات وصخب العمال. كان أبواها مغنيي أوبرا، ولكن لا يمكن أن نتخيل على الإطلاق أنهما كان نجمين. في بعض الأوقات شارك أبوها في العمل بالسيرك أيضًا. كان أبواها يتدربان كثيرًا، وكثيرًا ما كانت الموسيقى تدور في الخلفية في الشقة الصغيرة. عندما توفى أبواها، رتبت إحدى خالاتها، والتي كانت تعمل كمربية ومدبرة لدى عائلة فرنسية روسية في مدينة بوشكينو غير البعيدة عن موسكو، أن تأتي إينيسا ذات الأعوام التسعة لتعيش معها. كانت عائلة أرماند ذات ميل ديقراطي، رجال صناعة أثرياء، وأصروا على أن تكون الفتاة الصغيرة جزءًا من العائلة. كانت موهوبة في اللغات، وتعلمت الروسية سريعًا، وتلقت أفضل تعليم ممكن. وقعت في حب أكبر الشقيقين في عائلة أرماند ، ألكسندر. تزوجا وأنجبا طفلتين، إينيسا (إينّا) وفارفارا. قرأتا مع أمهما رواية تشرنشفسكي، وبدآ ينظران إلى أرماند على أنها فيرا

بافلوفنا. استعانت العائلة بطالب طب شاب ليعلم الطفلتين، وكان هذا أمرًا شائعًا في تلك الأوقات، وتكشَّف أن الطالب راديكالي. أثار حماس الطفلتين بقصص الشجاعة والظروف غير المحتملة التي يمر بها العمال. كبار عائلة أرماند كانوا يعاملون العمال لديهم معاملة طيبة، وربوا أطفالهم على ذلك، كانت البذور قد وُضعت فيهما. بعد وقت قصير أحضر المعلم مطبعة صغيرة لنشر الدعاية الاشتراكية الديمقراطية، ثم أحضر الكتب المحظورة كهدايا. داهمت الشرطة البيت، وتحمل المعلم كامل المسؤولية. دفعت عائلة أرماند كفالته وفر المعلم للخارج. بعد عدة عقود ستدعم أرماند طلب المعلم للانضمام إلى عضوية الحزب البلشفي.

في هذا الوقت كانت تسعى جاهدة لتلعب دورًا في السياسة الراديكالية. صارت ممارسة الأفعال الطيبة محليًا باسم العائلة مسألة مضجرة ومزعجة. ازدرت الأجزاء الأكثر رجعية في رواية "الحرب والسلام"، خاصة وصف تولستوي لتحول ناتاشا إلى امرأة كاملة فقط بعد الزواج.

في هذا الوقت كان ألكسندر أرماند يشرع في استكمال دوره كرأسمالي شاب؛ كان عضوًا في الدوما وفي منظمات تجارية متعددة، إلى جانب النادي الإنجليزي في موسكو. صار الشقيق الأصغر، فلاديمير (فولوديا)، بلشفيًا. تقريبًا عائلة أرماند كلها، بخلاف الأبوين، اعتبرت نفسها ماركسية بطريقة أو بأخرى. كان اثنان منهما عضوين بحزب الاشتراكيين الثوريين، والآخرين كانوا اشتراكيين ديمقراطيين. اكتشفت إينيسا نفسها بشكل أكبر بصحبة فولوديا، ونمت عاطفتها تجاهه، عاطفة مختلفة تمامًا عن المشاعر الدافئة التي احتفظت بها لزوجها. بدآ ممارسة علاقة، واكتشفت العائلة ذلك. شعرت العائلة بالصدمة، ولكن ألكسندر تقبل الموقف الجديد، وأصر على عدم مساءلة فولوديا وإينيسا، وعاشوا جميعًا حياة أشبه بحياة شخصيات رواية يوتوبية برجوازية، وذلك بعيدًا عن أفكار تشرنشفسكي

المهيمنة. أنجبت أرماند ثلاثة أطفال من ألكسندر، وحملت مجددًا بطفل من فولوديا، سافر الثلاثة إلى الخارج في عطلة. ووُلد طفل جديد وابتهج المنزل.

مثل كل الناس، كانت أرماند تحب أشياء وتكره أشياء، كانت لديها نقاط ضعفها ونقاط قواها أيضًا - لم تعرف نقاط القوى التي تملكها حتى أسرع التاريخ من خطاه. صارت تعتبر نقاط القوى التي تملكها أمرًا عاديًا، ولكنها جعلت من يحبونها متوترين، وسوف ينصحها لينين بأن تحذر من المبالغة في تقديرهم.

لا يوجد شك كبير في أن أرماند ولينين أحبا بعضهما في باريس. كانت هناك مدرسة بلشفية خارج المدينة لأعضاء الحزب والمتعاطفين معه، في ضواحي لونجيمو. في بعض الأحيان كانا يختفيان اليوم كله، يستقلان دراجتيهما ويدوران بها الريف ويقتربان من بعضهما أكثر فأكثر. في إحدى المرات قال لينين لجوركي في كابري أنه من أجل أن يصير ثوريًا كان عليه أن يتوقف عن رذائل ثلاث: الشطرنج ودراسة اللاتينية والموسيقى. ملاحظته الشهيرة التي ترتبط بعدم قدرته على الاستماع إلى سوناتا باثيتيك لبيتهوفن لأنها تجعله مرهف الحس، كثيرًا ما يشوهها الأجلاف البرجوازيين من خلال نزعها مِن سياقها، وأحيانا التعامل معها حرفيًا. في الحقيقة لم يتوقف لينين على الإطلاق عن الاستماع إلى الموسيقى، كما هو معروف وسط دائرته. أرماند نفسها التي كان عازفة بيانو موهوبة كانت كثيرًا ما تعزف له. كان بإمكان لينين أن يغني جيدًا، وأدهش فولسكي في جنيف، حين كانا يتسلقان جبلًا، ورأيا منظرًا بالغ الروعة، وتوقفا لتأمله في صمت، فانطلق لينين في الغناء فجأة، وذلك بقصيدة من مدائح الطبيعة لنكراسوف، هذا الذي فاجأ رفقته بشكل أكبر. ظلوا صامتين لبعض الوقت في حين كان المنظر والصوت يترددان في أذهانهما.

هذا الوقت المتسم بالسكينة الذي قضاه لينين مع أرماند لم يمر دون أن يلحظه أحد. كانت حماته تحدق فيه بعينين حادتين، وأوضحت له عدم تقبلها. أخبر زوجته بحقيقة الأمر، وكانت قد خمنت ذلك بالفعل. اقترحت أن ينفصلا حتى يتمكن من العيش مع أرماند . هل تعرض للإغواء؟ لا نعرف ذلك. هل فكر في تورجينيف وآندري كولوسوف؟ سيكون من الصعب ألا يفكر فيهما إذا وضعنا الظروف في الاعتبار. هل حل هذه المعضلة في أي وقت؟ عندما التقيا لأول مرة كان في التاسعة والثلاثين من عمره، وكانت هي في الخامسة والثلاثين. ما الذي كان يمكن عمله؟ أظن أن الحل الذي لجأ إليه كان محافظًا، ولكن السياسة هي ما دفعته إليه. أي تغيير في المشهد في القطاع البلشفي سيستغله المنافسون الحزبيون، سيشعر رفاقه والشبكات السرية في روسيا بعدم الارتياح. كانت كروبسكايا هي من تراسلهم، من تعتني بحاجاتهم حين كانوا يحضرون المؤتمرات السرية بالخارج. سيخاطر بكل هذا، وفي وقت صعب للغاية بالنسبة له وبالنسبة للبلاشفة. لا بد أن يوضع كل ذلك في الاعتبار.

في إحدى المرات ومن أجل أن يختبر كروبسكايا، سألها: "من تحملين له المعزَّة الأكبر. أنا أم الحزب؟" بعد صمت طويل، ردت قائلة: "أنتما الاثنان عزيزان عليَّ"، وفشلت في الاختبار. إذا طرحت عليه أرماند السؤال نفسه، لم يكن ليتردد في اختيار الحزب. كان الحزب يهمه أكثر من أي شيء آخر، لأنه الأداة الضرورية لقيام الثورة. نعم الثورة، صارت أهم شيء في حياته بعد شنق أخيه بأوامر القيصر. شَدَّت الصدمة من عزمه، انتهى صباه في اليوم الذي عرف فيه الخبر. مغازلات المدرسة، ومطاردة الفتيات، كلها انتهت كما اعترف لاحقًا لجوزيف، وهو رفيق بلشفي منفي عَلِق في سويسرا. لم يستطع أن يدع الحب، مهما كان مدى الشغف ومهما كان عميقًا، يقف في الطريق الآن ليعيقهم جميعًا. لا شك أن هذا هو ما شرحه لأرماند أثناء سيرهما الطويل في كراكوف عام ١٩١١ مصرحين

بانفصالهما. من الواضح أنها وكروبسكايا تحدثا عن هذا الأمر. كُتَّاب السيرة الذاتية الضحلين الذين كتبوا أنه لم تكن هناك علاقة، لأنها ظلت صديقة لكروبسكايا، فعلوا ذلك من أجل إضفاء قيمهم الخاصة على البلاشفة. كانت كروبسكايا وكولونتاي وزتكين وبالابانوفا وربما لوكسمبورج يعرفن "افتتان" لينين. لا بد أن أرماند وكروبسكايا خاضا نقاشًا متحررًا جدًا. الجزء الوحيد من أرشيف لينين الذي يظل محجوبًا هو رسالة منه إلى أرماند ، وعلى الأرجح أنها لو ظهرت إلى العلن سيكون من المستحيل إنكار أنهما كانا حبيبين شغوفين. طلب منها مقابلة خاصة وجهًا لوجه، حتى تستطيع أن تعيد له رسائله، لأنه لم يثق في البريد، ولا حتى في البريد المسجل في هذه الفترة. على الأرجح حرق لينين تلك الرسائل. لم تدع الأجزاء الصغيرة التي نجت مساحة للشك في عمق حبهما لبعضهما. في ١٢ يناير عام ١٩١٧ تلقت رسالة احتوت على الفقرة التالية:

"كانت رسائلك الأخيرة مفعمة بالحزن، وهذا أثار الأفكار الكئيبة وهَيَّج ضربات الضمير بداخلي، حتى أنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أود أن أقول على الأقل شيئًا ودودًا وأسألك ملحًا بألا تظلي في عزلة تامة في المدينة الصغيرة الخالية من الحياة الاجتماعية، ولكن أن تذهبي إلى مكان تجدين في الأصدقاء القدامى والجدد حتى تتخلصي من تلك المشاعر".

إذا افترضنا أن رسالة منها استطاعت أن تهز إرادته التي لا تقهر، كيف يكون من السهل لأرماند أن "تتخلص من تلك المشاعر؟" لا بد أنها كانت غاضبة، لأنها رفضت أن ترد حتى على الرسائل "العملية" التي كانت تتعلق فقط بنشاطاتها كمناضلة – على الرغم من أن إحدى تلك الرسائل، التي يعود تاريخها إلى ١٩ يناير عام ١٩١٧، احتوت على عدة جمل تتعلق بشؤون شخصية:

"حين تختارين مكانًا لسكنك، أحثك على ألا تضعي في الاعتبار إذا كنت سآتي إليه أم لا. سيكون هذا عبث بالغ، وإهمال وحمق، إذا كنت سأقيد خياراتك للمدينة بفكرة أنه (ربما) سأتمكن من الحضور إلى هناك في المستقبل!!!"

من المفهوم أنها لم ترد. سألها العديد من الأسئلة دون أن يقدّر أثرها عليها. في ٢٢ يناير عام ١٩١٧ كتب لها مجددًا:

"من الواضح أن إخفاقك في الرد على العديد من رسائلي الأخيرة يكشف من جانبك حس أو قرار مختلفين أو تَغيُّر الأمور إلى حد ما، مع الوضع في الاعتبار بعض الشؤون الأخرى. احتوت رسالتك الأخيرة على كلمة تكررت مرتين في النهاية – لقد فهمت ذلك وتعاملت معه. لا يهمك شيء. لا أعرف ما الذي يمكنني أن أفكر فيه، إذا كنتِ قد شعرت بالإهانة من شيء ما، أو كنتِ مشغولة كثيرًا بالحركة أو أي شيء آخر... أخشى أن أسألك، لأنني أعتقد أن تلك الاستفسارات غير محببة لك، وهكذا أوافق على تفسير صمتك في هذا الشأن من منطلق هذا الحس تحديدًا، وهو أن تلك الاستفسارات غير محببة لك وانتهى الأمر. بالتالي أستميحك عذرًا عن كل هذه (الاستفسارات) وبالطبع لن أكررها".

نعرف أنهما ظلا صديقين مقربين. إذا خاضا علاقة حميمية بعد الانفصال أو لما يخوضا يظل أمرًا خاضعًا للتخمينات. حدسي يقول إن هذا حدث، ونوفيلا كولونتاي "حب عظيم" المستلهمة من العلاقة (وهي كانت تعرف كل شيء) تؤكد هذا التخمين. يعقب هذا المشهد انفصالهما الرسمي:

"ناتاليا آلكسندرونا! ناتاليا آلكسندرونا!

التفتت إليه ناتاشا سريعًا.

"ها أنا هنا، أخيرًا".

وقف سيميون سيميونويتش أمامها، وكان يلهث بشدة، مع شعاع مبتهج من الانتصار في عينيه.

"إنني أمزق نفسي، في النهاية... لقد كنت قاسيًا بحق.... أنا آسف لأنيوتا... ولكن..." أخذ ذراعها بود بينما نظرت ناتاشا متعجبة من تعبير البهجة الغريب المخلص الثابت على وجهه. كانت عربة القطار مزدحمة بالفعل، ما أجبرهما على الجلوس بالقرب من بعضهما. ظل سيميون سيميونوفيتش يحدق في ناتاشا بعينين خانتا لأول مرة الرجل الذي يرتدي النظارة ذات الإطار الذهبي.

كانت ناتاشا مضطربة وما زاد من ارتباكها أن لاحظت ارتجاف يده حين لمس يدها. أثر توتره المكثف على هدوئها. أخذت أعينهما تلتقي ثم تتجنب بعضها سريعًا، وتحدثت لغة العيون من خلال تيار لطيف ينفصل ويتصل باستمرار، يقربها أكثر فأكثر من الرجل الذي يجلس بجانبها.

في أحد التوقفات الطويلة غادرا العربة ليشما الهواء. تنفسا الهواء الشتوي الصحو الحاد بتنهيدة ارتياح، لأنهما هربا من هذا الحلم الجميل رغم كونه مقلقًا. كانت المدينة المغطاة بالضباب شديدة البعد.

تحدثا في شؤون تافهة وخالية من الأهمية، تلاشى التوتر الذي كبتهما تدريجيًا. لم يرغبا في العودة إلى القطار المزدحم.

ولكن عند عودتهما إلى العربة مجددًا، بدأ الصبي المشاكس الذي كان يحمل سهمًا ممارسة لعبته مجددًا. أثار الطقس الرطب والقرب الجسدي

المجبرين عليه سحرًا لا يقاوم. أمسك سيميون سيميونويتش بيد ناتاشا ولم تسحبها".

حتى في الرسائل المنشورة لم يتلاش الود على الإطلاق، حتى وهو يحاول أن يقنعها أن تشرف على كتيب عن الحب الحر. يمكن للمرء أن يرى من رسائله أنه كان يزعجها، ولكن ردودها لم تنشر. بعد محاولة اغتيال لينين التي قامت بها الإرهابية الاشتراكية الثورية فاني كابلان عام ١٩١٨ (ما يذكرنا بتشارلوت كورداي الجيروندية ومارا الراديكالي)[ix]، وعندما استقرت رصاصة بالقرب من الترقوة وأخرى في كتفه، اعتُبرَت العملية الفورية خطيرة جدًا، وأُجبر لينين على الراحة. شرح لكروبسكايا أنه بحاجة لأن تكون أرماند قريبة منه، ليس في الكرملين ولكن أيضًا ألا تكون بعيدة جدًا عنه. خُصصت شقة مناسبة التقيا فيها بانتظام. تم تركيب خط تليفون مباشر يصل مكتب لينين بشقة أرماند.

عُينت رئيسة الجينوتديل وعملت كل الساعات بنفس الكثافة التي يعمل بها لينين. شعر بالصدمة من الإرهاق الشديد البادي عليها، وأصر أن تغادر موسكو وتذهب للراحة في القوقاز، وعلى الرغم من اعتراضها على ذلك إلا أنها رضخت. ظلا على تواصل. الرسالة الأخيرة التي أرسلها إليها، في مارس عام ١٩٢٠، تتحدث عن نفسها:

"صديقتي العزيزة،

يقول طبيبك إنك تعانين من التهاب رئوي. عليك أن تفرطي في الحرص. وعليك أن تجعلي ابنتك تهاتفني يوميًا. اكتبي *بصراحة، ما الذي تحتاجينه؟* هل لديك حطب؟ كيف تشعلين المدفأة؟ *هل لديك طعام؟* من

يعده؟ من يرتب فراشك. إنك تتجنبين الأسئلة – وهذا ليس أمر طيب. أجيبيني مباشرة في الورقة نفسها، ردي على كل النقاط، وكوني بخير!

المخلص لينين

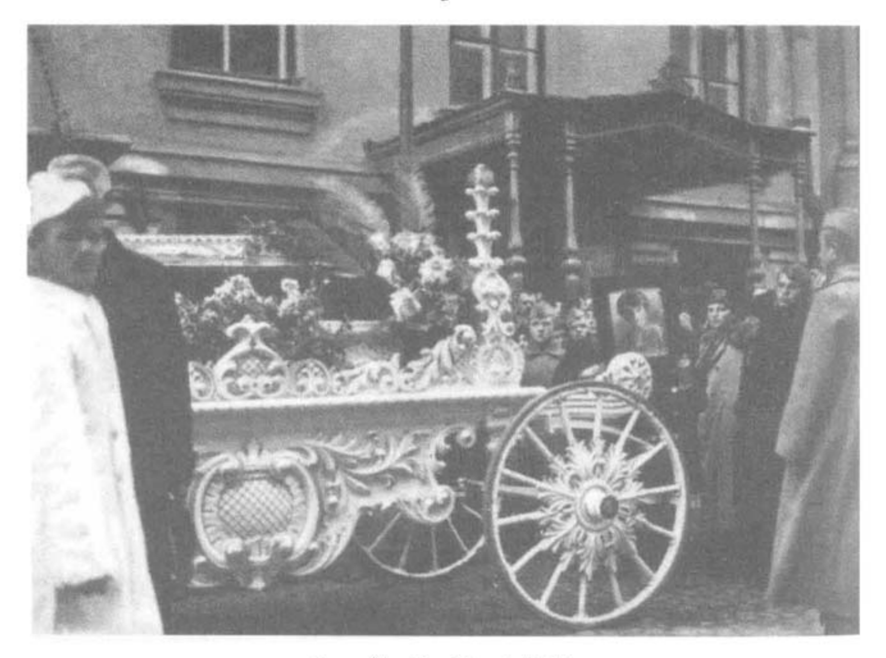
هل تم إصلاح تليفونك؟"

كتبت ردًا، وأرسلته مع ابنتها وطلبت أن توصله لأخت لينين، التي ستتأكد من وصوله إليه. عندما عرف الأطباء شعور زعيمهم بالفزع نقلوها إلى مستشفى آخر. ولكنها أصيبت هناك بالتيفود وماتت. جلبوا جثمانها إلى موسكو. وقفت النسويات البلشفيات كحرس شرف. أما لينين، الحزين والمحطم، فسار خلف الجنازة وحده. تركت آنجيليكا بالابانوفا وصفًا لا ينسى للمشهد:

"رأيت لينين في جنازة شخص عزيز جدًا عليه. لم أره أبدًا ممزقًا بهذا القدر. لم أر أبدًا إنسانًا يستغرقه الحزن إلى هذا الحد، يسعى جاهدًا للاحتفاظ به لنفسه، أن يخبئه عن أعين الآخرين وكأن إدراك الآخرين له سيجعل تركيز مشاعره يتلاشى... وجدتني قريبة منه. ليس وجهه فقط، وإنما جسده كله كان يعبر عن حزن شديد، حتى إنني لم أجرؤ على تحيته، حتى ولو بإيماءة صغيرة. كان من الواضح أنه يريد أن يكون وحيدًا لا يرافقه سوى الأسى. بدا جسمه أصغر؛ وكانت قبعته تغطي وجهه تقريبًا، كانت عيناه مغرورقة بدموع سعى جاهدًا ألا يبينها".

دونت أرماند يومياتها في الأسابيع الأخيرة من حياتها، تأملت فيها مدى الإنهاك الذي وصلت له على كل المستويات. تحتوي الرسالة التي كتبتها له على جمل مشابهة لوصف مشاعر لينين المذكورة سابقًا:

"المشاعر الدافئة الوحيدة المتبقية لديّ موجهة لأطفالي ولفلاديمير لينين. أما المسائل الأخرى فقلبي مات تجاهها، وكأنني بالتخلي عن كل قواي وكل مشاعري لفلاديمير لينين والعمل، بذلت كل مصادر الحب نحو أناس كنت منفتحة تمامًا تجاههم في الماضي. ليست لدي مشاعر بخلاف مشاعري للينين ولأطفالي... لدى الناس الرومانسيين يشغل الحب المرتبة الأولى في حياة المرء، يأتي الحب قبل أي شيء آخر. وحتى وقت قريب كنت أميل لهذه الفكرة بقدر أكبر مما أميل الآن... إلى جانب الحب كانت هناك دومًا القضية، وفي الماضي كانت هناك أوقاتًا عديدة ضحيت فيها بالسعادة والحب من أجلها... صحيح أنه في حياتي حتى الآن يشغل الحب مرتبة كبيرة... ولكني لا أتوقف للحظة عن إدراك أنه مهما سبب لي ذلك من ألم، فالحب والعلاقات الشخصية لا تساوي شيئًا بالمقارنة بما يحتاجه النضال".[٥]



جنازة إينيسا أرماند في موسكو

5 Michael Pearson, *Inessa*, London, 2001, p. 218.

سيرة ذاتية أخرى عن أرماند كتبها المؤرخ الكندي ر. ك. إلوود:

R. C. Ellwood: *Inessa Armand: Revolutionary and Feminist,* Cambridge, 1992.

i الجيروندينون فصيل سياسي أثناء الثورة الفرنسية، كانوا جمهوريين معتدلين، وعارضوا اليعاقبة وكذلك حالة العنف المتصاعد في الثورة.

ii النارودنيك Narodniks وتعني بالروسية الشعبوية، وهي حركة ثورية روسية ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

iii Phalanstère الكلمة تمزج بين كلمة الوحدة العسكرية وكلمة الدير، وهو مسمى لمبنى يوتوبي اشتراكي تخيله فورييه.

iv Thermidor الشهر الحادي عشر في التقويم الجمهوري الفرنسي. شهد الشهر الانقلاب على روبسبيير بعد الثورة الفرنسية، وهكذا تحول إلى تعبير عن الردة إلى حالة ما قبل ثورية.

v Proletkult الثقافة البروليتارية، وهو تنظيم نشأ بعد ثورة أكتوبر، وعلى الرغم من تلقيه تمويلًا من الدولة، حاول الحفاظ على استقلاله عنها.

vi مارينوس فان در لوبي Marinus van der lubbe (١٩٠٩-١٩٣٤) شيوعي هولندي، أحرق مبنى الرايخستاج عام ١٩٣٣، وحوكم وأعدم.

vii إشارة إلى المذبحة التي ارتكبها هتلر ضد روم وكتيبة العاصفة والعديد من معارضيه بداخل الحزب النازي وخارجه عام ١٩٣٤.

viii Maoris شعوب الماوري هم السكان الأصليون لنيوزيلاندا.

ix اغتالت الجيروندية تشارلوت كورداي Charlotte Corday(١٧٦٨-١٧٩٣) الزعيم اليعقوبي جان بول مارا Jean Paul Marat (١٧٤٣-١٧٩٣)، بطعنه في حمامه، وأعدمت على المقصلة.

القسم الخامس

دعنا نخوض القتال الأخير

١٥

حتى النهاية المريرة

كان تأثير وفاة أرماند على لينين مشابهًا لتأثير وفاة ساشا منذ سنوات؛ في الحالتين أخفى حزنه واستغرق في العمل. في الحالة الأولى قرر أن يقرأ على نطاق واسع، بدءًا من رواية تشرنشفسكي (التي كانت رواية ساشا المفضلة) منتقلًا إلى كل شيء وأي شيء كتبه ماركس وكان متاحًا بالروسية. وبعد ذلك تواصل مع دوائر "إرادة الشعب" السرية في قازان.

هذه المرة كانت العودة إلى العمل إجبارية. بغض النظر عن قَدْر حزنه لفقدان أرماند والذي احتفظ به لنفسه (ولا ينبغي التقليل من شأن ذلك)، كان واعيًا أنها تمثل مصابًا واحدًا من بين ٣ ملايين. تبنى هو وكروبسكايا أطفال أرماند ، وهذا جلب لنفسه بعض العزاء. أعدَّ للصبي أندريه اختبارات في الشطرنج، واستوثق من كون فارفارا تؤدي أداء طيبًا في الجامعة. تسبب في حدوث صخب حين ظهر فجأة في فصلها بالجامعة في أحد الأيام وتحدث مع الطلبة عن الأدب. حين سأل الطلبة عن شاعرهم المفضل، أجابوا جميعًا: "مایاکوفسكي". شعر بالصدمة لأنه كان يميل للكلاسيكيات وذو ذائقة أدبية وفنية محافظة. لم يكن يقدِّر شعر مایاکوفسكي على الإطلاق. ضحكوا منه عندما قال إن بوشكين هو الأفضل وأنه سيظل كذلك دائمًا. قالوا له بهدوء إن مایاکوفسكي هو شاعر البلشفية، فشخر

بازدراء. خاض الجدل نفسه مع لوناتشارسكي في مفوضية التنوير، وتلقى الرفض نفسه.

ولكن كانت هناك مناسبة واحدة شعر فيها أنه متفق كلية مع الشاعر:

"صادف بالأمس وقرأت في جريدة (إزفستيا) قصيدة سياسية كتبها ماياكوفسكي بعنوان (حاضرو الاجتماع الممتد). لست معجبًا بموهبته الشعرية، وإن كنت أعترف بأنني لست حَكَمًا قديرًا. ولكن منذ وقت طويل لم أقرأ شيئًا في السياسة والإدارة بالاستمتاع نفسه الذي قرأت به هذه القصيدة. يهزأ في القصيدة من عادة الاجتماعات، ويسخر من الشيوعيين الذي يعقدون اجتماعات ممتدة. لست متأكدًا من الشعر، ولكن من جهة السياسة، أقر بصوابها المطلق. نحن حقًا... نقف في موقف عبثي بحضور اجتماعات لا نهاية لها، نقيم المفوضيات، ونعد خططًا لا تنتهي".

وكانت القصيدة كالتالي:

"سريعًا ما حل الفجر محل الليل

حين صار عمل الجميع:

أن يذهب للشركة

للمؤسسة

للإدارة

للهيئة

يختفون جميعًا في المكاتب

يفيض العمل الورقي

كمياه السيل

في اللحظة التي تصلون فيها للمكاتب
تُلتقط من المائة الورقة
الأكثر أهمية منها
ثم يختفي الموظفون في المؤتمرات.

ثم أظهر وأسأل:
ـ إلى من أتوجه؟
لأنني هنا منذ زمن غابر.
ـ توجه الرفيق إيفان إيفانيتش
ليناقش مفوض الشعب للنبيذ غير المُسكر.
تعيقهم سلالم لا حصر لها
نادرًا ما يشع الضوء
ومجددًا:
ـ يطلب منك أن تعود في حدود ساعة أو أكثر.
هو في مؤتمر:
إعادة شراء الحبر
لكل الشركات والهيئات والإدارات.

في خلال ساعة
لا الموظف
ولا الساعي
يظهران..
لا أحد.

كل الناس حتى سن الثانية والعشرين
في مؤتمر الكومسومول بالأعلى.

يهبط الليل
وما زلت أقفز
نحو أعلى طابق
في منزلي المؤقت.
هل حضر الرفيق إيفان إيفانيتش؟
ـ ما زال في المؤتمر
بإدارة أـبـجـدـهـوـز.

في المؤتمر
اندفعت كاللافا
وكان الطريق مفروشًا بالوعيد القاسي.
لأرى:
نصف الناس فقط حاضرين
ياللسماوات العلية
أين ذهب النصف الآخر؟
ذُبحوا!
قُتلوا!
أركض هنا وهناك وأصرخ كالمجنون
من المشهد وأكاد أن أفقد عقلي.
ثم أسمع أهدأ الموظفين

يشير إلى:
- إنهم في مؤتمرين في
الوقت نفسه.
عشرون مؤتمرًا
علينا أن نحضرها
يوميًا –
وما زالت هناك مؤتمرات أخرى
لذا علينا أن نقسم أنفسنا
إلى نصفين!
هنا نصف
والنصف الآخر
هناك.

لا أستطيع النوم من الإثارة
بحل الفجر ومشاعري مهتاجة.
- أوه، أرجو تنظيم
مؤتمر واحد إضافي
يتعلق بمحو
كل المؤتمرات!"

هذا ذَكَّر لينين بالبطل الضد الخالد في رائعة جونتشاروف، أوبولوموف، الذي يعبر عن الحياة الروسية النمطية. تصوره لينين كرجل "يستلقي في سريره متكاسلًا، ويصوغ خططًا في عقله". ثم ينتقل إلى تعبيرات

أقسى، إذ أنه على الرغم من الثورات الثلاث، "نجا أمثال أوبلوموف". ربما يجري تصويرهم في الرواية على أنهم مُلاك أراضي كسالى، ولكن أمثال أوبلوموف أيضًا "موجودون بين الفلاحين... والمثقفين... وأيضًا بين العمال والشيوعيين". كان يراقبهم "في اجتماعاتنا، في عملنا في المفوضيات، بالقدر الذي يجعلنا نقول إن أوبلوموف القديم ما زال حيًا؛ ومن الضروري أن نجعله يغتسل ويستحم جيدًا، أن ندعكه ونطرح عنه الأقذار ونصنع منه رجلًا". كعادته يختتم لينين كلامه باللجوء إلى مرجعية ماركس، الذي كتب في إحدى المرات أن "العديد من الأشياء الحمقاء تحدث أثناء الثورة، ربما أكثر من أي وقت آخر. ونحن الثوريون علينا أن نتعامل إلى تلك الأفعال الحمقاء بنزاهة ودون خوف".[1]

فيما يتعلق بالشؤون الشخصية، لم يعد هناك ما يحتاج إلى الإخفاء، كانت إينيسا الصغيرة تدخل وتخرج من شقة الكرملين الصغيرة، كانت الطفلة المفضلة، أخذت من أمها الروح والموقف السياسي الجامح، واعتبرت كروبسكايا أمها البديلة. لم يتعاف لينين أبدًا من وفاة أرماند . اعتاد أن يوقع رسائله الأخيرة إليها بـ "المخلص لينين"، وهذا ما كان يشعر به، ما كان يشعر به في أعماقه. تُرى كم مرة فكر أنه لو لم يُصرّ بشدة على أن تستريح في القوقاز لربما كانت حية حتى الآن. وبخلاف حبهما لبعضهما، كانت أيضًا صديقة مقربة للغاية ورفيقة جديرة بالثقة وكان يستطيع أن يناقشها في أي شيء. معارضتها له في مسألة برست-ليتوفسك والقرار الذي أنهى سيطرة العمال لم تؤثر في أي شيء. مواقفها في هذه المسائل لم تكن مختلفة كثيرًا عن مواقف كولونتاي، ولكن أرماند لم تنضم لأي معارضة حزبية. تمتع لينين بموهبة غريبة بأن تثبت الأحداث كونه على حق، وبالتأكيد كان هذا هو الحال في مسألة برست-ليتوفسك. لاحظ العديد من

1 V. I. Lenin, *Collected Works,* vol. 33, trs David Skvirsky and George Hanna, Moscow, 1966, pp. 223–4.

خطوط التوكيد موجودة في النص الأصلي.

الناس أنه بعد جنازتها على الفور، حيث كان من الصعب التحكم في المشاعر، توجه إلى مكتبه واستكمل عمله. كان هذا شيئًا مرتبطًا بشخصيته؛ هناك الكثير من الأشياء الواجب فعلها.

لم تكن الأزمة الأوروبية قد انتهت بعد. ظل لينين مهووسًا بالموقف في ألمانيا، كيف يمكن للكومنترن أن يساهم في تعميم تمرد عام ١٩١٨ الذي شارك فيه ٢٠ ألف جندي ألماني يحتلون خاركوف، هؤلاء الذين أداروا ظهورهم إلى الضباط وساروا في المدينة حاملين الأعلام الحمراء وأعلنوا تضامنهم مع الثورة الروسية؟ لم تكن الانتفاضة في ألمانيا مجرد خيال محض، حتى بعد المحاولة الفاشلة في برلين. في الداخل كانت الحرب الأهلية موشكة على الانتهاء، كانت هناك بعض القوى الشاردة هنا وهناك، خاصة في القوقاز،ومعركة أخرى مع رنجل في القرم، ولكن دينيكين وكولتشاك هزماهم معًا بمساعدة قوى الوفاق. ماذا لو كانوا قد استولوا على بتروجراد عام ١٩١٩؟ أخطأ حين اقترح إخلاء المدينة، أقنعه تروتسكي أنه لو وقعت المدينة مهد الثورة في أيدي الثورة المضادة سيمثل ذلك ضربة هائلة. أنقذ الموقف مقاومة المواطنين والجيش الأحمر الذي أنشئ حديثًا. في هذا الوقت أمكن حتى للابتسامة أن تعلو وجهة من تصور تروتسكي وهو يمتطي حصانه ويلقي خطبه التي لا تتوقف في القوات الحمراء، ويستوثق من عدم سقوط الجبهة الدفاعية وسيطرة البيض عليها. بعد أسبوعين من وفاة أرماند ، كتب لينين مناشدة للفلاحين الأوكرانيين. لم يكن الهدف من المناشدات التي كتبت خلال الحرب الأهلية أن تكون مجرد خطب، بل وُجهت للمحرضين البلاشفة في الجيش الأحمر، لتزويدهم بموقف سياسي وبضعة جمل مفيدة.

"إلى فلاحي أوكرانيا الطيبين

أيها الرفاق، إن الجنرال القيصري رنجل يُعدّ هجومه على أوكرانيا وروسيا، بدعم من الرأسماليين الفرنسيين، إنه يتقدم، ويهدد حوض دونتس وإيكاتيرينوسلاف، إن الوضع جد خطير. يحاول ملاك الأراضي استعادة سلطتهم مجددًا، واسترجاع ممتلكاتهم، والعودة لاستعباد الفلاحين.

أيها الرفاق، لقد تحمل الريف الأوكراني معاناة لا تضاهى تحت نير مُلاك الأراضي. استطاع الملاك الإطاحة بالسوفييتات أكثر من مرة وكذلك بسلطة العمال والفلاحين؛ فعلوا ذلك لأكثر من مرة بمساعدة الكولاك، الفلاحين الأغنياء، الذين إما انضموا صراحة إلى جانبهم أو عرقلوا جهود الفلاحين الفقراء والعاملين لبدء نظام جديد، وأسلوب حياة جديد، وتنظيم جديد في القرى. كل محاولة من هذا النوع لاستعادة حكم ملاك الأراضي انتهت بانتصار جديد للعمال والفلاحين. واليوم، في كل أنحاء أوكرانيا، بدأ القرويون الفقراء في إقامة لجانهم من أجل سحق مقاومة ثلة الأغنياء، وأخيرًا إنشاء حكم الشعب العامل. يُزيد رنجل، جنرال المُلاك، من ضغطه بغرض تخريب تنظيمات الشعب العامل.

أيها الرفاق، قفوا جميعًا وقفة رجل واحد لدفع رنجل إلى الخلف. دعوا جميع لجان الفلاحين الفقراء تبذل أقصى الجهود لمساعدة الجيش الأحمر على سحق رنجل. لا ينبغي أن ينتحي أي عامل جانبًا في النضال من أجل العمال والفلاحين، أو يظل جامدًا أو لا مبالي. أيها الرفاق، تذكروا أن هذا الشأن متعلق بالحفاظ على حياة عائلاتكم، للدفاع عن أرض الفلاحين وحكمهم.

اندفعوا لمساعدة الجيش الأحمر! الموت للمُلاك القامعين!"

٢-١٠-١٩٢٠

لينين[2]

2 V. I. Lenin, 'To the Poor Peasants of the Ukraine', *Kommunist*(Kiev) 199, October 13, 1920, in *Collected Works*, 4th ed., vol. 31, tr.Julius Katzer, Moscow, 1965, pp. 314–15

كانت الدولة الجديدة في أمان نسبي. أدرك لينين جيدًا أن انحسار المد يرجع إلى رفض الفلاحين الفقراء دعم البيض، لم يتعلق الأمر بكونهم راضين عن مصادرات الجيش الأحمر المستمرة، ولكن في التحليل الأخير كانوا يعرفون أن عودة البيض ستؤدي إلى موجة جديدة من الوحشية والاستغلال وعودة مُلّاك الأراضي. صورة العائلة مالكة الأراضي ذات الثياب الفاخرة، المدثرة بالحرير ناصع البياض والتي يرتدي أفرادها القبعات المغزولة من القش، والذين يسيرون في مروج ممتلكاتهم، ودائمًا ما يجلسون على جانبي مائدة طويلة مغطاة بالمفارش والمناديل النظيفة، ويساعدهم حشد من الخدم، كل ذلك لم يكن شيئًا يريد الأقنان القدامى والفلاحين الفقراء أن يروه مجددًا. هُزم رنجل في خريف عام ١٩٢٠.

في عام ١٩٢١، انتصر البلاشفة في الحرب الأهلية. مات ثلاثة ملايين شخص، من ضمنهم نخبة الطبقة العاملة الروسية، فنى أكثر الأعضاء الذين يملكون وعيًا سياسيًا. انتصار تروتسكي العسكري كان ناتجًا عن مهارة عسكرية رائعة، نفذها جيش تشكّل حديثًا. كان الثمن السياسي المدفوع باهظًا. كتب لينين أنه بينما استطاعوا تحقيق الانتصار على الرأسماليين في روسيا، فأصدقاء الرأسماليين بالخارج عاقبوهم دون رحمة عن طريق الاقتصاد والحرب الأهلية. حقيقة أنهم حافظوا على سلطة الدولة "ترجع إلى انقسام الإمبريالية العالمية إلى جماعتين تتسمان برغبتهما في النهب"، كانا يقاتلان بعضهما حتى النهاية. نتيجة ذلك "لم تستطع أي من الجماعتين أن تجمع قوى كبيرة ضدنا، وكانوا سيفعلون ذلك إذا سمح الموقف بذلك". أظهرت الحرب الأهلية كُلًّا من ضعف الوفاق وتنامي حركة التضامن مع روسيا في بريطانيا وفرنسا وألمانيا، هذا الذي صعَّب المهمة على الإمبرياليين. في واشنطن، واجه وودرو ولسون معارضة قوية لأي حرب جديدة في أوروبا، تصدرتها عائلات الجنود وأعضاء الكونجرس المعارضين.

رحب الأثرياء وقطاع من الإنتلجنسيا بالحملة الصغيرة التي أُرسلت إلى أرخانجلسك، ولكنهما شعرا بالإحباط لأنه لم يُرسل جيش ملائم لهزيمة العدو البلشفي، وأرسل القنصل الأمريكي فيليكس كول إلى وزارة الخاجية قائلًا "إن غياب الطبقة العاملة ملحوظ" في حفل الترحيب. أرسل الوفاق جنودًا إضافيين لدعم الثورة المضادة. كان الزعماء السوفييت قد حاولوا الوقيعة بين الإمبريالية الأوروبية والحليف الأمريكي والمنافس المستقبلي، ولكن مع الإنزال الجديد، نفد صبر لينين وكتب في ٢٠ أغسطس عام ١٩١٨ "رسالة إلى العمال الأمريكان"، والتي اعتبر فيها ولسون "رئيس المليونيرات الأمريكان وخادم حيتان الرأسمالية". في أكتوبر من العام نفسه، ومع وصول المزيد من القوات الأمريكية، اقترح لينين بضعة جمل على وزير الخارجية تشيشيرين لإرسالها إلى ولسون، يشكره فيها على الإسهام في إحياء "الثورة المضادة الروسية التي كانت قد تحولت بالفعل إلى جثة"، لأن ذلك "فتح أعين العمال والفلاحين في روسيا على أهداف الثورة المضادة الروسية وعلى معاونيها الأجانب"، وكنتيجة ذلك عادوا إلى القتال بتصميم أعظم.

صار الرأي العام الأمريكي متوترًا. في ١٢ ديسمبر عام ١٩١٨، قدم السناتور الجمهوري هيرام جونسون عن كاليفورنيا قرارًا للمجلس يطلب فيه من وزارة الخارجية تفسيرًا لتوجه الجنود الأمريكيين للقتال في روسيا، على الرغم من أنها أصدرت بيانًا صحفيًا رفضت فيه التدخل العسكري. كان خطاب جونسون في مجلس الشيوخ حادًا، وسخر صراحة من ولسون بسبب نفاقه، والتناقض بين أقواله وأفعاله. طلب السفير الأمريكي بروسيا بخمسين ألف جندي أمريكي والعدد نفسه من احتياطي الحلفاء "من أجل استعادة النظام من أجل مصلحة الإنسانية ولتضييق الخناق على البلشفية". ولكن المد كان ينحسر، ورفض السفير الأمريكي في باريس لقاء كرينسكي، الذي كان موجودًا هناك أيضًا ليطلب المزيد من القوات،

رُفضت تأشيرة دخوله إلى الولايات المتحدة. كان ولسون قلقًا من تنامي الزخم المناهض للتدخل في بلاده، وأخبر سفيره في موسكو أنه على الرغم من أنه يشاركه الرأي، فإرسال الجنود سيؤدي إلى "أن يفقد شعبيته تمامًا في أمريكا".[3] لم يحدث تدخل عسكري أمريكي واسع النطاق، ولكن تشكل خط إمداد لإرسال أسلحة أمريكية ومن دول الوفاق ومؤن غذائية للجيش الأبيض في معظم أوقات الحرب الأهلية، إلى جانب مواصلة الحصار المؤثر على البلاشفة.

كانت الملامح الثلاثة الرئيسية في الحرب الأهلية الروسية هي: المصادرات الإجبارية من الريف، والنظام والقيادة الحديدية لتجاوز الفوضى التي تؤدي إليها كل الحروب الأهلية، والأهم من كل ذلك، البروليتاريا المسيسة المستعدة للتضحية بحياتها من أجل الثورة ـ صُورت بوضوح مبهر في قصص إيزاك بابِل القصيرة، وكان ملتحقًا بالجيش الأحمر. النظام الذي هيمن على هذه الحقبة -"شيوعية الحرب"- كان قاسيًا ولكنه حافظ على المساواة الصارمة. وساعد ذلك أيضًا على إخفاء واقع الأزمة الاقتصادية. كانت المصانع تُغلق بينما يحارب العمال في الحرب الأهلية أو يعودون إلى قراهم حتى يستطيعوا تناول وجبة واحدة في اليوم على الأقل. حتى قبل أن تبدأ الحرب الأهلية بالفعل، كان لينين واعيًا بـ "الموقف شديد الصعوبة والمعقد والخطير" القائم في الخارج والداخل. بعد الحرب الأهلية كان يدرك بوضوح تام أن الدولة الشيوعية التي أرادوا تحقيقها في اللحظة التي حصلوا فيها على السلطة صارت الآن مستحيلة. العمال الذين لم يموتوا صاروا متناثرين في الحزب وبيروقراطيات الدولة. كان لا بد من عودة التصنيع في أقرب وقت، ليس فقط من أجل احتياجات البلد ولكن لخلق بروليتاريا جديدة، إذ ستحل النهاية من دون ذلك. صيغت السياسة الاقتصادية

3 David S. Foglesong, *America's Secret War Against Bolshevism,* North Carolina and London, 1995, pp. 224–30.

الجديدة (NEP) للتخفيف من سيطرة الدولة والسماح بقدر من الرأسمالية لتنشيط الاقتصاد. لم تكن هناك طريقة أخرى يُعتمد عليها. ولكن من أجل التأكيد على أن الدولة لم تتأثر، لم يكن هذا هو الوقت المناسب لتنفيذ أفكار الدولة الشيوعية المجسدة في كتاب "الدولة والثورة". للإشراف على هذا الانتقال الجديد، كان على الدكتاتورية الثورية أن تكون قاسية وواثقة من عدم انهيار الثورة. لا بد من التخلي عن سيطرة العمال على المصانع، ولا بد من استدعاء الخبراء بغض النظر عن خلفيتهم الطبقية أو السياسية، بذلك يمكن للاقتصاد أن ينمو "وتبدأ إعادة البناء السلمية". هذا هو ما فكر فيه لينين.

كانت هذه مخاطرة هائلة، ونوقشت تلك المشكلات صراحة في المؤتمر التاسع للحزب عام ١٩٢٠، واتحد لينين وتروتسكي في مواجهة نقد الأعضاء القوي. بعض من هذا النقد تم التعبير عنه بهدوء، ولكن كان كل المتحدثين صريحين في معارضتهم للنقلة الجديدة والنظام الذي تم اقتراحه للمصانع. سأل أحد المناديب لينين أين ستنتهي قيادة الرجل الواحد، وألا سينتقل ذلك النمط سريعًا من المصانع إلى الحزب؟ "من سينتخب اللجنة المركزية"؟ تنبأ المندوب نفسه بأن كل ذلك سيؤدي إلى "دكتاتورية بيروقراطية الحزب". كان على لينين أن يقاتل بقوة لإقناعهم إنها مرحلة مؤقتة، وأن التوقيت خاطئ للإغراق في التنظير. وأن هناك "مهامًا عملية" ملحة بانتظارهم، وأنهم بحاجة للقدر نفسه من الطاقة التي هزموا بها البيض لإعادة بناء البلد.

نجحت السياسة الاقتصادية الجديدة، ولكن حتى القدر الضئيل من الرأسمالية جلب معه قدرًا متزايدًا من انعدام المساواة. وبالإضافة إلى ذلك، وكمكسب خاص، جلبت معها "الهدايا" الخفية أو الرشاوي إلى مسؤولي الحزب. أغضب الفساد أعضاء الحزب على وجه الخصوص وساهم في اشتعال معارضة العمال، وذلك في جماعات صغيرة بداخل الحزب وانتفاضة

كرونشتاد[i] خارجه. حتى المشاركين في الحرب الأهلية انزعجوا من هذا الجانب في السياسة الاقتصادية.

هناك حدثان يرمزان لهذه الحقبة. كانت هناك شحنة مكتوب عليها "مؤن عسكرية" مرسلة إلى آبل إينوكيدزه، أحد أعضاء اللجنة المركزية، فُتحت وفُحصت في محطة قطار قازان. كانت المؤن العسكرية تحتوي على النبيذ والكونياك والطحين والسكر والتبغ، وغيرها من الأشياء غير المتاحة للمواطنين العاديين. إحدى زعيمات الحزب (إحدى الأبارتشيك[ii] الوفيات حتى نهاية حياتها) عبرت عن غضبها وسجلت اعتراضها الشديد. جادلت روزاليا زملياتشكا أنه بالإضافة إلى كل المسائل الأخرى، يسيء هذا الفعل لسمعة الحزب في أعين العمال غير الحزبيين. أنقذ المكتب التنظيمي (الأورجوبورو) باللجنة المركزية إينوكيدزه بإخبارها أن الكحوليات مرسلة لفائدة مفوضية الصحة في المستشفيات. كشفت فضيحة أخرى عن وجود منزل ملحق بأرض واسعة وأعيد تخصيصه ليكون مركزًا للأطفال صادره أحد الجنرالات ليحوّله إلى استراحته الريفية؛ كان يحتاج إلى الاسترخاء بعد الحرب الأهلية. نشرت الجريدة البلشفية اليومية "برافدا" عددًا من مظاهر الفساد الصريحة، وأعدت مفوضية التحقيق تقريرًا احتوى على نقد حاد ليُعرض في مؤتمر الحزب المقبل. لم يجد منظمو المؤتمر وقتًا لمناقشة التقرير، وشغلتهم دومًا القضايا الأكثر أهمية، وإحدى هذه القضايا هو تضييق الخناق، أي الحظر الرسمي لكل فصائل الحزب، وكان هناك مقترح متطرف من لينين يطلب طرد زعماء "معارضة العمال".

رفض المؤتمر قبول الطلب الأخير. لم يكن من الممكن التفكير في الحزب بدون كولونتاي وشليابنيكوف (اثنان من القادة البلاشفة القلائل الذين ناصروا "أطروحات أبريل" عام ١٩١٧). ولكن قَبِل حظر فصائل المعارضة. كانت هذه النتيجة المنطقية للمسار الذي اتخذه البلاشفة بعد الثورة؛ في اللحظة التي أسسوا فيها احتكارًا صارمًا للتمثيل السياسي في

السوفييتات لم يتم منع الجماعات المناصرة للثورة والوفية (وإن لم تكن مؤيدة للبلاشفة)، كالمناشفة اليساريين الذين قادهم جوليوس مارتوف فقط، إنما كان عدم السماح بالمعارضة بداخل الحزب البلشفي نفسه مسألة وقت فحسب. كان هذا منطقيًا بالتأكيد، ولكنه كان بمثابة مأساة رغم ذلك، وبعض من أكثر أعضاء الحزب الواعين سياسيًا تم عزلهم. سيستوعب لينين هذا الخطأ بعد فترة قصيرة للغاية، ولكن كان الوقت متأخرًا جدًا، كان يحتضر، وكذلك كان الحزب.

في ٢٦ مايو عام ١٩٢٢، وفي عمر الثانية والخمسين، تعرض لينين للجلطة الأولى، وتعافى منها سريعًا، ولكن أُوصي بالراحة التامة. كان عقله يعمل بالطريقة المعتادة، ولكن في هذا الوقت كان يسيطر عليه حس الإلحاح. كان يعلم أنه لن يحيا طويلًا؛ توفى والده من جراء نزيف في المخ في نفس هذا العمر تقريبًا، وكانت لديه البنية الجسدية نفسها. وأضيف إلى ضغوط ومشاغل الثورة والحرب العالمية موت أرماند غير المتوقع والسابق لأوانه. عندما وصل إلى سن الخمسين، أصر رفاقه في الحزب بموسكو على الاحتفال. تملص لينين من هذا، وظل خارج الغرفة أثناء إلقاء لوناتشارسكي وجوركي وستالين والآخرين لكلماتهم، ولم يدخل الغرفة إلا حينما انتهوا.[4] لم يتحدث كثيرًا في هذه المناسبة، اقتبس من نص مستصبر لكاوتسكي، نُشر في "إسكرا"، كتب فيه الاشتراكي الألماني أن السلاف يمكن أن يكونوا أيضًا حاملي لواء الثورة الاشتراكية في أوروبا:

---

4 هناك سرد ممتاز عن حفل عيد الميلاد في نص فالنتينو جيراتانا النموذجي عن كيف اختُرعت اللينينية وصارت أشبه بالكرة التي تسعى الأطراف الاستحواذ عليها في الجدالات الداخلية بالحزب بعد وفاة لينين:
'Stalin,Lenin and "Leninism" ', *New Left Review* 1: 103, May–June 1977, pp.59–71.



لينين عام ١٩٢٢ بعد الجلطة الأولى.

"في الوقت الحالي (وبالمقارنة بعام ١٨٤٨) لا يبدو أن السلاف دخلوا صفوف الأمم الثورية فحسب، ولكن مركز الفكر الثوري والفعل الثوري ينتقل أكثر فأكثر إلى السلاف. ينتقل المركز الثوري من الغرب إلى الشرق؛

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان موجودًا في فرنسا، وفي بعض الأوقات في إنجلترا. في عام ١٨٤٨ انضمت ألمانيا أيضًا إلى صفوف الأمم الثورية... بدأ القرن الجديد بأحداث تشير إلى فكرة أننا نقترب من تغيير آخر في المركز الثوري، أي أن ينتقل إلى روسيا... روسيا التي استعانت بالكثير من المبادرات الثورية من الغرب، ربما هي مستعدة الآن لتساعد الغرب كمصدر للطاقة الثورية. الحركة الثورية الروسية المشتعلة الآن ربما ستثبت كونها أهم وسيلة ممكنة لطرد روح الجلافة العرجاء وحسابات السياسة الباردة التي بدأت تنتشر وسطنا، والتي يمكن أن تتسبب في اشتعال الروح المقاتلة والإخلاص الشغوف لمثلنا العليا مجددًا. لم تعد أوروبا الغربية تنظر لروسيا على أنها معقل الرجعية والاستبداد، وإنما العكس هو الصحيح اليوم، أوروبا الغربية هي التي صارت معقل الرجعية والاستبداد بالنسبة لروسيا. لربما تعامل الثوريون الروس مع القيصر من مدة طويلة إذا لم يكونوا مجبرين على قتال حليفه في الوقت نفسه، أي الرأسمال الأوروبي. دعونا نأمل هذه المرة في أن ننجح في التعامل مع كلا العدوين، وسوف يسقط (التحالف المقدس) الجديد بشكل أسرع من سابقيه. بغض النظر عن كيف سينتهي النضال القائم في روسيا، لن تكون دماء ومعاناة الشهداء، الذين سيكون عددهم، لسوء الحظ، كبيرًا جدًا، خالية من الجدوى. إنها ستغذي براعم الثورة الاشتراكية في أنحاء العالم المتحضر، وسوف تجعلها تنمو بشكل أبهى وأسرع. في عام ١٨٤٨ كان السلاف هم الصقيع القاتل الذي أباد زهور ربيع الشعوب، وربما مصيرهم الآن أن يكونوا العاصفة التي ستحطم جليد الرجعية وتجلب معها حتمًا ربيعًا جديدًا وسعيدًا للأمم".[5]

استخرج لينين الاقتباس لكتيب كان يكتبه بعنوان "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية"، ولكنه على الأرجح استخرجه بسبب انزعاجه من

5 Karl Kautsky, 'The Slavs and Revolution', *Iskra* 18, March 10,1902.

حس الاحتفاء الذاتي بين قادة الحزب في مؤتمره الخمسين، تلا الكتيب كاملًا. لا شك أنهم ابتسموا وأومأوا موافقين حين كان يفعل ذلك. حتى حانت لحظة الذروة:

"تقودني هذه الكلمات إلى أن أفكر أن حزبنا يمر بموقف شديد الخطورة، موقف رجل ذي عقل مغرور، وهو موقف شديد الغباء ومثير للعار والسخرية. نعرف أن إخفاق الأحزاب السياسية وانهيارها عادة ما تسبقه فترة يكون فيها غرور العقل ممكنًا. والحقيقة أن ما توقعه الرجل الذي اقتبست منه عن الثورة الروسية، والذي صار الآن ألد أعدائنا، كان شيئًا عظيمًا يفوق مستوى أي تصور".

بالطبع كانت هناك نجاحات رائعة، ولكن تلك كانت ضد الأعداء التقليديين للاشتراكية الروسية.

"المهام التي تُعتبر جوهر الثورة الاشتراكية لا بد من تأجيلها من أجل الاشتباك مع مهمة تنظيم النضال ضد التجليات الشائعة واليومية لغرائز البرجوازية الصغيرة والانقسام والتفرق، أي ضد كل شيء يمكن أن يعيدنا إلى الرأسمالية. تأجلت تلك المهام في المجالين الاقتصادي والسياسي؛ لم نكن قادرين على التعامل معها جيدًا... دعنا نختم آملين أننا لن نسمح لحزبنا أن يضم عقلًا مغرورًا في أي ظرف".[٦]

بينما كان يتعافى ببطء من الجلطة، سنح له الوقت لتأمل الثورة، الأهم من كل شيء والتي جعلها ممكنة. كان واثقًا في الماضي من أن معرفة الماركسية ستكون كافية لحل أي شيء وكل شيء، ولكن المشكلات التي أثيرت أثبتت أن العكس هو الصحيح. كانت الماركسية مجرد نظرية تقريبية، كيف يمكن أن تكون شيئًا آخر؟ اختلف في ثلاثة موضوعات هامة مع الأمين العام الذي وافق على توليه المنصب: ستالين. شعر بالغضب عندما

6 Lenin, *Collected Works*, vol. 30, p. 528.

عرف أن ستالين وزرجينسكي (رئيس التشيكا-مفوضية الطوارئ) وأورجونيكيدزه (عضو اللجنة المركزية) زاروا جورجيا، وتعدوا جسديًا على القادة البلاشفة المحليين، طالب بشجب فوري لهذا النوع من السلوكيات، مستنكرًا الشوفينية الروسية، واستعاد الطريقة التي كان يُعامَل بها التتار والجورجيين أثناء الحقبة القيصرية. اقترح جبهة مشتركة مع تروتسكي، وأرسل له رسالة ودودة للغاية وأصر أن تُقرأ على تروتسكي عن طريق الهاتف:

"أطلب منك بجدية أن تتولى الدفاع عن الشأن الجورجي في اللجنة المركزية بالحزب. يتعرض هذا الشأن الآن (للاضطهاد)؛ على أيدي ستالين وزرجينسكي، ولا أستطيع الاعتماد على نزاهتهما، في الحقيقة العكس هو الصحيح! إذا قبلت أن تتولى الدفاع عنها، سأقوم أنا بالمتبقي، إذا لم تقبل لأي سبب، أرسل لي كل الأوراق، سأعتبر ذلك إشارة على عدم موافقتك. مع أطيب التحيات يا رفيق. لينين".[7]

أُرسل كامينيف إلى جورجيا للاعتذار، ومعه رسالة شخصية من لينين يدعو فيها الجورجيين ليرفعوا شكواهم للحزب ويخبرهم أنه يُعِدُّ من أجلهم رسائل وخطاب. كان يعلم أن حياته في نهايتها، ولكنه ظل يقاتل في هذه المعركة الأخيرة ضد ستالين ورفقته. في رسائله المتعلقة بالمشكلة الوطنية، اعتذر للعمال "لعدم تدخله بقوة وحسم كافيين في مسألة الحكم الذاتي سيئة السمعة". أرجع هذا الخطأ إلى تدهور صحته وذكر أن التقرير الذي جاء من زرجينسكي أيقظه وصدمه. طالب بإيقاف أورجونيكيدزه من الحزب لضربه رفيقًا آخر، وعبَّر عن كراهيته "لهذا الرجل الروسي الحقيقي، الشوفيني الروسي العظيم، الذي لا يوجد بداخله سوى وغد وطاغية، كالبيروقراطي

---

7 Moshe Lewin, *Lenin's Last Struggle*, London, 1969.
هذا العمل الذي كتبه مؤرخ بولندي يظل أكثر دراسة مستبصرة عن العامين الأخيرين في حياة لينين.

الروسي النمطي"، أصاب هذا المرض الصفوف العليا في الحزب البلشفي، والقادة الكبار تصرفوا "بطريقة إمبريالية تمامًا". اتهم ستالين وأورجونيكيدزه بأنهما تصرفا كمتنمرين روسيين عظيمين نمطيين، على الرغم من أصولهما القوقازية. كتب أنه لا بد من الحفاظ على الاتحاد السوفييتي، ولكن اتحاده لا بد أن يتحقق في مجالات السياسة الخارجية والدفاع، بخلاف ذلك لا بد أن يحظى غير الروس بالحكم الذاتي لإدارة بلادهم. في المؤتمر التالي، طالب لينين بعزل ستالين من منصبه كأمين عام، وأن يستبدل الحزب بستالين شخصًا أكثر قدرة. كان "يضع العديد من السلطات بين يديه".

في فبراير عام ١٩٢٣، كتب لينين رسالته لمؤتمر الحزب المقبل، وما سيكون نصه الأخير في "برافدا". عطّل البوليتبورو نشره واقترح الأباراتشيك الصاعد بقوة كويبيشيف نشر عدد مزيف من الجريدة لخداع لينين. رفض البوليتبورو هذا الحل ونشر المقال أخيرًا بالعنوان الذي وضعه لينين: "من الأفضل أقل شرط أن يكون أحسن". لم كانوا قلقين إلى هذا الحد؟ لم تكن الـ ٥٠٠٠ كلمة شخصية ولكنها كانت ناقمة. كان لينين والآخرون يفترضون أن الماركسية تقدم أساسًا كافيًا لحل كل المشكلات القادمة، ولكن لم تعد هذه حقيقة الأمر.

على الرغم من براعة أفكار ماركس وإنجلز، فهي لم تقدم سوى نظريات تقريبية فيما يتعلق بما ينبغي فعله. لم يُمفهم لينين بنى الدولة الاشتراكية. ما ميز ماركس وإنجلز عن السابقين أو المعاصرين هو نظرية الثورة البروليتارية. انبنت نظرية مكيافيللي السياسية على تلاعبات سياسات النخبة، أما نظرية روسو عن الإرادة العامة بينما شجبت عدم المساواة، أنكرت أي تمثيل سياسي؛ لم يؤمن باكونين بالدولة على الإطلاق. لم تظهر السياسات الماركسية مكتملة كلية من ذهني ماركس وإنجلز، كانت بحاجة إلى مشاركة طويلة وصبورة من الحركة العمالية، كانت بحاجة إلى التجريب في تكتيكات شديدة التنوع قبل اندلاع الثورة. وعند حدوثها ستُواجه سريعًا

بعدو قوي مجسد في شكل النظام الرأسمالي العالمي. التجربة وحدها ستحدد كيف يمكن تأسيس الديمقراطية البروليتارية. لم يفهما السياسة كما وضعا المفاهيم في الفلسفة والتاريخ، ولكن يمكن أن نطلع على وضوح وقوة مداخلاتهما السياسية في العديد من المقالات التي نشرت في مجلدات ثلاثة.[8]

لينين هو مَن طَوَّر أفكار ماركس وسَيَّسها، وأكد على استقلال السياسة وكيف أنه في أزمنة الأزمات الاقتصادية "تكون السياسة اقتصادًا مكثفًا". ينطبق هذا على الثورات البرجوازية حتى إذا لم يكن قادتها واعين بها، وكان هذا هو الوضع نفسه في الثورات البروليتارية. وَصْفَها بهذه الطريقة هو في ذاته تأكيد على حقيقة أنها ثورات واعية. كانت أكتوبر ١٩١٧ أول انتفاضة من هذا النوع، وتلتها ثورة أكتوبر عام ١٩٤٩ في بكين.

"من الأفضل أقل شرط أن يكون أحسن"، هو المختصر المفيد للتجربة الروسية بعد ست سنوات من الثورة والحرب الأهلية. كانت وثيقة كئيبة ترجع أهميتها إلى أنه أثناء تعافيه كان لينين يفهم تمامًا حجم المشكلة؛ العفن موجود بالداخل. أسباب ذلك موضوعية وذاتية؛ كل شيء مرتبط بالآخر ويجعل الأمور أصعب. كثيرًا ما كان يتم التقليل من أول نقطة رئيسية في المقال، وأحيانًا ما كان يتم تجاهلها، كانت متعلقة بالكلمة التي استخدمها لينين مرارًا وتكرارًا بعد الحرب الأهلية: الثقافة. اشتكى من أنه على الرغم من الثورة، فالثوريين ليسوا "معاصرين لزمنهم"، وأن ثقافتهم "متدنية للغاية" بالمقارنة بأفضل المعايير الأوروبية الغربية، وإنه من الصعب تحقيق تغيير حقيقي على كل المستويات إذا لم يتخطوا الغرب. استخدام كلمة *ثقافة* كان تنويعة على ما سيطلق عليه المفكر الإيطالي أنطونيو

---

8 Karl Marx, *The Revolutions of 1848, Surveys from Exile* and *TheFirst International and After*, ed. David Fernbach, London and NewYork, 2010.
يمكن طلب المجلدات مباشرة من موقع الناشر (Verso Books)

جرامشي بعد ذلك بـ *"الهيمنة"*. كتب لينين أن الشيوعيين حصلوا على السلطة السياسية، ولكن هذا لم يكن كافيًا لا بالداخل ولا بالخارج:

"بالنسبة للجمهورية الاشتراكية فهذا الشرط متواضع جدًا بالطبع. ولكن تجربتنا في السنوات الخمس الأولى جعلت رؤوسنا مكتظة كثيرًا بالتشكك وعدم الثقة. تلك المشاعر تعبر عن نفسها تلقائيًا حين نسمع الناس، على سبيل المثال، يسهبون طويلًا ويثرثرون عن الثقافة (البروليتارية): كبداية، علينا أن نكون راضين عن الثقافة البرجوازية الواقعية؛ كبداية علينا أن نكون سعداء بالتخلص من الأنماط الفظة للثقافة ما قبل البرجوازية، أي الثقافة البيروقراطية أو ثقافة الأقنان إلخ. في شؤون الثقافة، فالمعايير المتسرعة والعابرة هي الأكثر إيذاء. العديد من كتابنا وشيوعيينا الشباب عليهم أن يستوعبوا ذلك جيدًا".

من هذا المنطلق، ينتقل إلى لب المسألة بجملة مذهلة سواء من جهة محتواها أو طولها:

"جهاز دولتنا سيء للغاية، ولن نقول بائس، لذا علينا أولًا أن نفكر بحرص شديد كيف نواجه نقائصه، واضعين في أذهاننا أن جذور تلك النقائص تعود إلى الماضي، الذي لم نتجاوزه بعد رغم الإطاحة به، ولم نصل بعد إلى مرتبة الثقافة المنفصلة عن الماضي البعيد".

ثم يشرح لِم هذا هو ما عليه الأمر، ولِم يستخدم كلمة *ثقافة* عن قصد ووعي:

"لأنه في تلك الشؤون لا نستطيع أن نقر بالأشياء المتحققة إلا التي صارت جزءًا من ثقافتنا وجانب منها، ومن حياتنا الاجتماعية وعاداتنا. يمكن القول إن الخير في نظامنا الاجتماعي لم يُدرس أو يُفهم أو يُحفظ جيدًا، لقد تم إيجاده سريعًا، لم يُختبر أو تعززه التجربة، ولم نجعله قابلًا

للاستمرار، إلخ. بالطبع لا يمكن أن يكون هناك حل آخر في العصر الثوري، عندما يحدث التطور بسرعة رهيبة حتى أنه في خمس سنوات انتقلنا من القيصرية إلى النظام السوفييتي".

كان لا بد من عمل شيء حيال كل هذا، كانت هناك حاجة إلى الارتياب والتشكك من وجهة نظر لينين، ليحلا محل التباهي الذي كان شائعًا للغاية. ما زعم الحزب أنه حققه تبيَّن بعد الفحص الدقيق أنه "هش ومتخيل وأسيء فهمه"، هكذا "علينا أن نسترد مشاعرنا في الوقت المناسب". كتب لينين عدة جمل حادة عن الحزب ذي العقل المغرور على وجه الخصوص، الذي يحاول البيروقراطيون إرضائه على الدوام:

"سيكون التسرع هو الشيء الأسوأ. الشيء الأسوأ سيكون الركون إلى الافتراض القائل بأننا نعرف أي شيء، أو أننا نملك جيدًا العناصر الضرورية لبناء جهاز دولة جديد بحق، جهاز يحق أن نطلق عليه اشتراكي أو سوفييتي، إلخ".

هكذا لا محل للخلاف في أن ذلك يعتبر تحولًا عن موقفه المبكر؛ لم يكتف بنقد الآخرين ولكنه كان يُبَكِّت نفسه أيضًا. ألم يقل في عام ١٩١٨ أن الريف كله يسير في طريق الاشتراكية؟ ألم يقد مَن حوله نحو الدولة الشيوعية؟ ما الذي حدث؟ هل احترق جناحاه بينما كان يحلق نحو الفردوس؟ استوجبت الهزائم في ألمانيا والمجر وهولندا الاستعانة بالمكابح قبل أن تنحرف العربة عن القضبان تمامًا، ومات العديد من الداعمين المخلصين للثورة في الحرب الأهلية. ستحيا الثورة الأوروبية، وإذا لم تحيا، ربما تتوجه الثورة نحو الشرق كنتيجة لتأثير الإمبريالية على الهند والصين؛ سيكونان بديلًا طيبًا عن أوروبا، ولكن الرفاق السوفييت الشهداء مثلوا خسارة كبيرة. استبدال مجندين جدد من الريف بهم لن يكون كافيًا، سيفتقد هؤلاء المجندين خبرات عامي ١٩٠٥ و١٩١٧، وهي خبرات لا يمكن تعويضها. الجدية والتيقظ والتعلم، كانت هي الفضائل التي يبشر بها لينين في خطبته

الأخيرة في الحزب البلشفي، وهو يرى أن الجهاز القائم "قاصر بشكل سخيف". كان لا بد من إعادة بنائه كلية. هنا أيضًا كانت هناك مشكلات لم يتردد عن ذكرها:

"ما العناصر التي نملكها لبناء هذا الجهاز؟ هناك عنصران فقط: أولًا، العمال المستغرقون في النضال من أجل الاشتراكية. لم يُناقش هذا العنصر بشكل كاف؛ يريدون بناء جهاز أفضل لنا، ولكنهم لا يعرفون كيف، لا يستطيعون بناء هذا الجهاز، لم يطوروا الثقافة المطلوبة لتحقيق ذلك؛ والمطلوب هو الثقافة. لا يمكن تحقيق ذلك بتعجل الأمور، بالهجوم أو بالنشاط أو الحماس، أو في العموم، بأي من السمات الإنسانية الفضلى. ثانيًا، نملك عناصر المعرفة والتعليم والتدريب، ولكنها بالمقارنة بجميع البلاد الأخرى تفتقد بشكل سخيف إلى الكفاءة...

من أجل أن نجدد جهاز دولتنا، علينا أولًا وقبل كل شيء أن نتعلم، وثانيًا أن نتعلم، وثالثًا أن نتعلم، ثم علينا أن نحرص على أن لا يظل هذا التعلم مجرد أفكار نظرية، أو جمل عصرية طنانة (وعلينا أن نعترف بصراحة كاملة أن كثيرًا ما يحدث هذا عندنا)، وأن التعليم لا بد أن يصير بحق جزءًا من وجودنا، وأنه لا بد أن يكون في الواقع وبشكل كامل عنصرًا مكونًا من حياتنا الاجتماعية... من أجل أن يحظى بالمستوى العالي المرغوب، علينا أن نتبع هذه القاعدة: (قس قماشتك سبع مرات قبل أن تقصها)".

كل المحاولات، و"الصخب" الدائر لتحسين جهاز الدولة، أثبت عدم جدواه في تلك السنوات الخمس، "حتى أنه تافه، أو حتى أنه مؤذ. أدى هذا الصخب إلى أن يراودنا انطباع أننا نفعل شيئًا، ولكنه في الحقيقة أعاق مؤسساتنا وعقولنا".

نادرًا ما كان اعتراف زعيم سياسي ثوري بالإخفاق كاملًا إلى هذا الحد، نادرًا ما ندم زعيم بهذا العمق في نهاية أيامه حين لم يعد يستطيع

اعتلاء المنصة، ويقول كل ذلك إلى المناديب المجتمعين ويحظى بدعمهم. لا شك أنهم سيشعرون بالصدمة ولكن من الضروري أن يشعروا بذلك. ولأن حضوره لم يعد ممكنًا، كان يكتب لهم مثلما كتب "رسائل من بعيد" وهو في المنفى قبل الثورة. في هذا الوقت كان يكتب من الكرملين، ولكنه كان يشعر بالوحدة، كان يعلم أن تروتسكي وبوخارين وبعضًا من الآخرين لن يختلفوا مع ما كتبه، أما ستالين والجهاز الذي يقوده فيمثلون مشكلة مختلفة تمامًا. تشكك في قدرتهم على استيعاب أهمية كل هذا، وضرورة الدفع بإجراءات جديدة من أجل سلامة الثورة. كان قد استطاع أن يتجاوز جل المآزق التي واجهها في حياته؛ الحزب وبيروقراطية الدولة التي أراد الآن أن يقيدهما، ويقلص من حجمهما، ويعاقبهما لخرق الأعراف، وأن يضعهما تحت رقابة هيئة تفتيش العمال والفلاحين الدائمة، المُشَكَّلة من مخضرمين مختبرين ومجربين ومعروفين بشجاعتهم ونزاهتهم – سترد البيروقراطية الضربات، وتحاول التملص مما تم اقتراحه. كتب الكثير عن هذا، ومناشدته الأخيرة كانت عن اتباع أسلوب البلاشفة:

"ينبغي أن نتبع القاعدة التي تقول: من الأفضل أقل شرط أن يكون أحسن. علينا أن نتبع القاعدة التي تقول: من الأفضل أن نحظى بمورد بشري جيد في عامين أو حتى ثلاثة بدلًا من العمل بتسرع بدون أمل في أن نحظى بذلك على الإطلاق. أعرف أنه من الصعب اتباع هذه القاعدة وتطبيقها في ظروفنا. أعلم أن القاعدة المضادة ستفرض نفسها من خلال آلاف الثغرات. أعلم أنه ستواجه ذلك مقاومة عظيمة، ولا بد من وجود إصرار شيطاني، لأنه في السنوات القليلة الأولى على الأقل، سيكون العمل في الميدان صعبًا بشكل رهيب. ومع ذلك، أنا مقتنع أنه عن طريق هذا الجهد وحده نستطيع أن نحقق هدفنا؛ وأن من خلال تحقيق هذا الهدف وحده يمكن أن نخلف جمهورية تستحق حقًا اسم الجمهورية السوفييتية أو الاشتراكية، وهكذا".

لم يُبذل هذا الجهد على الإطلاق، ومن حاولوا القتال من أجل ذلك تم تحييدهم تدريجيًا أو عُزلوا، أو قتلوا ببساطة. ولكن كان هناك أيضًا ضعف في مناشدة لينين؛ كان حجم المشكلة التي أوجزها هائلًا، ولكن هذا لم يكن شيئًا يمكن أن يحله أنقى الرفاق الذي يعملون في تنظيم التفتيش العمالي والفلاحي. من يمكن أن يكتب تلك التقارير النقدية؟ البوليتبورو؟ من سينتخبه؟ مناديب تختارهم بيروقراطية الحزب المحلي في ذلك الوقت، الذي يملكون سلطة الإحياء والقتل -أو بشكل أقل درامية، الموظفون الذين يحظون بتأثير كبير- الذين يشرفون على الوظائف والغذاء ومناصب المصانع وهكذا. طالب لينين بإعادة بناء كاملة للدولة، بدون تحديد الأداة المناسبة لبدء العملية. في محاضراته عام ١٩١٩ بعنوان "عن الدولة" في جامعة سفردلوف، أكد مرارًا وتكرارًا على أن السؤال الرئيسي في السياسة في الأزمنة الثورية وقبل الثورية والسلمية هو الدولة؛ طبيعتها و"الموقف من حزبنا" كانا ذوا أهمية أساسية، لأنه إذا لم يدرس المرء هذا السؤال "عدة مرات، وأن يرجع إليه مرارًا وتكرارًا، ويفكر فيه من زوايا متعددة من أجل الحصول على فهم واضح له"، لن يفهم أبدًا سؤال السلطة السياسية. كان ينظر من كل الزوايا، وهذا هو السبب الذي أدى إلى أن يكون الحل الذي اقترحه ضعيفًا جدًا ومثيرًا للشفقة إلى حد ما. ربما كان يفكر أن هذا سيؤدي غرضه كبداية وبعد ذلك سيحدث المتبقي، أو ربما كان يفهم جيدًا جدًا أن الحزب وبنيته يطرحان أيضًا مشكلة هائلة. ألمح كثيرًا لذلك في عدد من نصوصه. حل محل حلم الدولة الشيوعية واقع دولة الحزب، وعانى الاثنان من التشوهات البيروقراطية لأن آلة الدولة القيصرية القديمة لم تُدمر، ما زالت أسسها قائمة. كل ما فعلوه هو أنهم أعادوا بناء الغرفة العجيبة وتغيير الأثاث في كل الغرف الأخرى.

كان الحل أن يتحمل الحزب مسؤولية السوفييتات، ولكنها كانت مؤسسات ميتة، وإعادتها إلى الحياة كان يحتاج إلى انتخابات حرة، وأيضًا

يحتاج إلى حق الأحزاب السوفييتية الأخرى في الوجود. كانت هذه ذروة الجدال بين لينين والزعيم المنشفي اليساري جوليوس مارتوف. لم يقتنع لينين بأن هذا هو الحل، بسبب مستوى ثقافة البلاشفة والمجتمع كله. ونتيجة ذلك لم يتغير شيئًا.

كانت هذه مأساة، لأن تعزيز ثقافة السكان يطرح العديد من المشكلات.[9] كانت الجدالات المفتوحة بين القادة البلاشفة ومحتوى عدد من الرسائل التي كتبها قراء عاديون للصحافة من البلد كلها إشارة قوية عن هذه الحقيقة. يفضل العديد من الناس التعبير عن الآراء المتناقضة ويتعلمون بالفعل منها أكثر من التكرارات الذكية أو المثقفة للأيدولوجيا المهيمنة، بغض النظر عن طبيعتها. النقاش المحتدم والوقح الذي يجري على حافة الجدل الساخن يُعَلِّم أكثر من الاتفاق المهذب على الاختلاف. الجدالات الحية تَقوِّي الذهن، عادة ما يخفي الاتفاق عدم القدرة على تحدي الآراء التي يعرف المرء أنها خاطئة. هذا هو السبب أنه على المستوى الشخصي، فمن واجب الأصدقاء المقربين أن يصرحوا لبعضهم بالحقائق، مهما كان الثمن، لأن الصمت يخرب الصداقة من الداخل. وقصة لينين ومارتوف مفيدة في هذا الجانب.

---

9 في عام ١٩٣٨ أخبر رئيس قسم البروباجندا في جوركي ستالين أنه واجه مشكلة هائلة: "كثيرًا ما يستشير العاملون بالبروباجندا شبه الأميين ذوي التعليم المحدود أو غير المتعلمين على الإطلاق مهندسًا ذا تعليم عال، قرأ كثيرًا ويفهم بشكل أكبر النظرية الماركسية اللينينية، يطرح المهندس أسئلة لا يستطيع المربون الإجابة عليها". مستوى الثقافة المنخفض لـ "الكوادر" في أقسام البروباجندا ودور النشر والصحف الإقليمية سجل انخفاضًا ملحوظًا في العشرينيات من القرن العشرين. أحد الأسباب التي ذكرها ستالين نفسه هو "فقدان الكوادر"، أي الناس الذين سجنهم أو قتلهم.

١٦

أصدقاء وأعداء

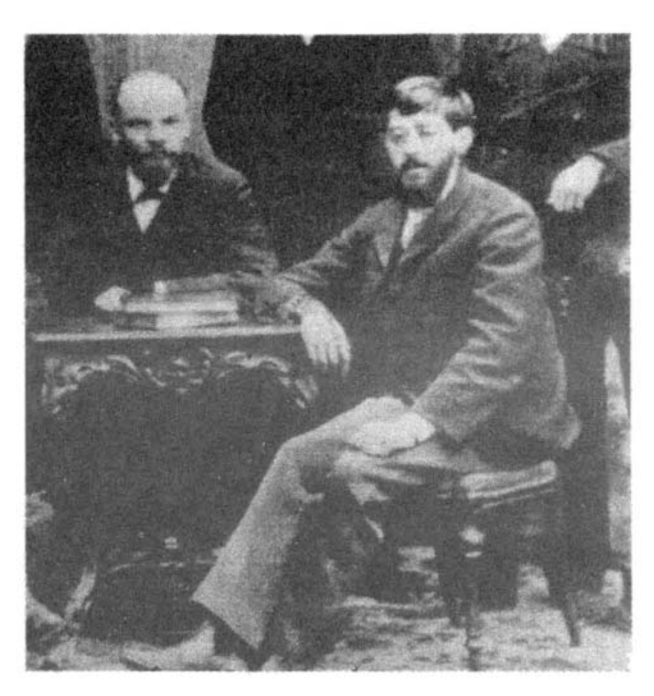
يلخص أحد أبيات جلال الدين الرومي ببراعة النظرة الباطنية للصداقة: "هناك فيما وراء أفكار فعل الشر والخير يوجد حقل، سألتقيك فيه، حين تستلقي الروح على ذلك العشب يكون العالم مكتملًا للحديث عنه". ماذا لو كانت الروح مفعمة بالمسائل السياسية؟ لا تجد الباطنية إجابة على هذا السؤال؛ ولكن الصداقة الحميمة بين أشخاص ذوي آراء سياسية شديدة التعارض ليست بالغة الشيوع، وفي بعض الأحيان ما يعتبره صديقان آراء متعارضة لا يكون بهذا القدر من الاختلاف. هذا هو الوضع في الأزمنة الحالية على وجه الخصوص، حين يتظاهر الليبراليون والمحافظون والاشتراكيون الديمقراطيون أنهم أعداء، ولكن بدون تدريب مسرحي مناسب، ينتهي الأمر بظهورهم كممثلين سيئين. يمكن للشقاق السياسي الحق أن يحطم الصداقة الممتدة، على الرغم من تشارك الذوق الأدبي أو السينمائي.

لدى جيل لينين، أفسدت المواقف الخلافية حيال الحرب العالمية الأولى العديد من الصداقات الحميمة في القارة، سواء على المستوى الشخصي أو السياسي. العديد من الناس الذين كانوا يميلون إلى اليسار بحس لاهوتي ظهر أنهم بطبعهم يمينيون. وتقريبًا كل الاشتراكيين الذين ناصروا إمبرياليتهم

أثناء الحرب انتقلوا بعد ذلك للمساهمة في دعم الرأسمالية، والدفاع عن الحروب الإمبريالية الكبيرة والصغيرة، وفي بعض الأحيان صاروا مدافعين أيدولوجيين صريحين عن أعدائهم السابقين. هذه العملية مستمرة حتى اليوم.

كل هذا يعتبر مفهومًا، ولكن هناك نمط آخر ينطبق على السياسة؛ أي معارك الفصائل بداخل الحزب نفسه، هنا أيضًا يمكن أن تَفسَد الصداقات القديمة في لحظة اندفاع أو تشكك. لم يسلم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي من هذه العملية، ولأن الحزب كان إما في المنفى أو يعمل بسرية في روسيا، اتسمت الانقسامات بأهمية مبالغ فيها. خضعت الجدالات الدائرة داخل الماركسية الروسية للعديد من أشكال السخرية والتعليقات السلبية في قاعات اجتماع الأممية الثانية، ولكن من عبروا عن انزعاجهم الأعظم -الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني- انتهوا أنفسهم إلى خوض حرب أهلية مقيتة مع جريدة "فوروارتس"، حين احتفت باغتيال روزا لوكسمبورج وكارل ليبكنشت، الذي ساهم فيه بعض من زعمائه.

كان لينين ومارتوف من الأعضاء المؤسسين لجماعة تحرير العمال، التي أُطلقَت في سان بطرسبرج عام ١٨٩٩، والتي لعبت دورًا هامًا في وضع أسس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي. كانا في نفس العمر تقريبًا، على الرغم من أن لينين كان أكبر بثلاث سنوات (ويبدو هذا الاختلاف أكبر حين يكون المرء في عشرينياته). سيظلان رفيقين وصديقين مقربين في السنوات الخمس التالية. مارتوف هو الصديق الذكر الوحيد الذي سيخاطبه لينين بود، والعكس صحيح. كانا مختلفين كثيرًا بطبعهما. ناقشت لينين ببعض التفصيل، وعومل منافسه المهزوم بالأسلوب الذي أطلق عليه المؤرخ الإنجليزي إدوارد تومسون ذات مرة وفي سياق آخر: "الاستعلاء الهائل للخلَف".



لينين ومارتوف: زمن الصداقة كمؤسسين لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

جاء لينين ومارتوف من خلفيتين مختلفتين. وُلد جوليوس مارتوف سيدرباوم في عائلة يهودية مستنيرة بالقرب من أوديسا. كانت هناك أربعة أجيال من آل سيدرباوم منتمين للهسكالاه، وهو تيار اندماجي داخل اليهودية، أكد على الدور الحيوي للتعليم لإخراج اليهود من الجيتو على الرغم من كل القيود. مِثْل كل اليهود في الإمبراطورية القيصرية، لم تراود مارتوف أوهامًا متعلقة بوضعه، واعتاد على معاداة السامية المتواصلة التي تهيمن على الحياة اليومية في روسيا. المثير للاهتمام أنه لم توجد مذابح بوجروم على الإطلاق في جورجيا، حيث استقر اليهود البابليون لأكثر من ألفين عام. كانت الجلافة، وهي التنويعة الروسية على التعسف، هي ما واجهه اليهود، بغض النظر عن طبقتهم، في المدرسة والجامعة. شعر

مارتوف بالصدمة بسبب عنصرية مدير مدرسته، التي كانت تعتبر أفضل جيمانزيوم (مدرسة ثانوية) في أوديسا.[١]

القمع المستمر لليهود في الأزمنة القيصرية دفع العديد من المثقفين والعمال نحو الاشتراكية الديمقراطية. مارتوف نفسه كتب أنه يتعجب ما الذي ستكون عليه سيرته لو لم يكن يهوديًا. تذكر كيف تعودت أمه أن تضع قدورًا كبيرة من الماء لتغليه عندما تسمع عن انتشار مذابح البوجروم. كانت ترسل الخدم إلى منازلهم استعدادًا لسكب الماء من النوافذ على العصابات المعادية للسامية المحتشدة بالأسفل. الأوصاف الفظيعة والقوية التي كتبها مارتوف وتروتسكي عن تلك المذابح تتسم بطبيعتها الخاصة. أثناء عودته إلى روسيا في أكتوبر عام ١٩٠٥، رأى مارتوف لاجئين يهودًا من آخر مذابح بوجروم في المدن الروسية، وهم محتشدين على أرصفة محطة فيلنو. أعاد ذلك لذهنه ذكريات بوجروم أوديسا عام ١٨٨١، واليهودي الشيخ الذي التقاه في قطار متجه إلى سان بطرسبرج من المدينة الغارقة في الدماء: "نفس العينين المنطفئتين، نفس الخضوع للقدر، ونفس القصة... عاصفة من البشر تخرج على النائمين بسلام وتلقيهم إلى هاوية الوسخ والدماء".[٢] لم تبارح ذهنه تلك الصور أبدًا. بعد عدة سنوات، وأثناء الحرب الأهلية، صرخ غاضبًا في جريجوري آرونسون، زعيم العصبة اليهودية، عندما أشار إلى أنه ربما على أعضاء العصبة البقاء على الحياد لأن الجيوش البيضاء تحظى بدعم

1 السيرة الوحيدة المتبقية عن مارتوف كتبها إسرائيل جتسلر "مارتوف: سيرة سياسية لاشتراكي ديمقراطي روسي"

Israel Getzler, *Martov: A Political Biography of a Russian Social Democrat*, Cambridge, UK, 1967.

بالطبع يحتوي عمل جتسلر على نقد لموضوع كتابه، ولكنه يستنتج أن إيمان مارتوف بالماركسية والبروليتاريا هو ما أبقاه في مجال الشخصيات المؤثرة على لينين، وإن لم يعد رفيقًا مقربًا. يحتوي الكتاب على قدر كبير من المعلومات القيمة إلى جانب بورتريه للرجل الذي أطلق عليه تروتسكي "هاملت الاشتراكية الديمقراطية".

2 Getzler, *Martov*, p. 110.

قطاعات كبيرة من الفلاحين الذين يقاومون القمع البلشفي، على الرغم مِن أن مَن يقودها هم الجنرالات القيصريون، ذَكّره مارتوف بمذابح البوجروم التي ارتكبها البيض في كل مكان وصاح قائلًا:

"ألا تتذكر الماضي، عندما كان علينا أن نقرر إذا كان هذا التوجه السياسي تقدمي أو رجعي، فنجد أن اضطهاد اليهود هو أفضل معيار للحكم؟ هل عليّ أن أذكرك بهذا المعيار الدقيق وأنت عضو بالعصبة؟"[٣]

كان التعاون المبكر بين لينين الشاب ومارتوف الشاب نموذجيًا. عملا معًا في "إسكرا"، وأعجب لينين والعديد من الآخرين باللهجة الأخلاقية القوية في مقالات مارتوف التي تستنكر العديد من جوانب الأوتوقراطية. كثيرًا ما كان يشار إليه على أنه "دوبريولوف عصرنا". تنامت الخلافات بين الرجلين، على الرغم من أنه ينبغي القول إن من بدأ بالهجوم ليس لينين، ولبعض الوقت سيقنع مارتوف نفسه أن شخصية لينين وأسلوبه المتسلط ورفضه للتنازل، وقناعته الكبيرة بأنه على حق، وليس أي موضوع سياسي رئيسي، هو المسؤول عن هذا الانشقاق. كان لينين واثقًا من العكس، كان توجه مارتوف المنحرف المستمر في السياسة هو ما فرق بينهما، على الرغم من أن لا أحد منهما اعتبر الثاني عدوًا تمامًا. جوزيف وفولسكي، وهما شابان بلشفيان كانا في المنفى في جنيف مع لينين، وجداه هادئ الطبع ومتسع الصدر في الشؤون غير السياسية. يستعيد فولكوف (في مذكراته عن لينين والتي كتبها بالاسم المستعار، فالنتينوف)، كيف كان لينين يصف حياته في لندن قائلًا:

"من المستحيل أن تعيش في منزل لا تُغلق فيه النوافذ والأبواب على الإطلاق، حيث تكون مفتوحة على الدوام وكل عابر يرى أنه من الضروري أن يلقي نظرة ويرى ما تفعله. سأصاب بالجنون إذا كان عليّ أن

---

3 Ibid, p. 191.

أعيش في كميونة مشابهة للكميونة التي أنشأها مارتوف وزاسوليتش وآليكسييف في لندن عام ١٩٠٢. المسألة لم تقتصر على منزل بنوافذ مشرعة، كانت أشبه بطريق عام. يستطيع مارتوف أن يكون مع الناس طوال اليوم، أنا لا أستطيع ذلك. مارتوف يعتبر ظاهرة بحق؛ يستطيع في الوقت نفسه أن يكتب ويدخن ويأكل ويتناقش باستمرار مع حوالي دستة أشخاص. كان تشرنشفسكي على حق عندما قال إنه ينبغي لكل شخص أن يكون لديه ركن في حياته لا يخترقه أي أحد، وأن كل شخص لا بد أن يحظى بغرفة تخصه وحده فقط".[٤]

كان للانشقاق بين البلاشفة والمناشفة طابعه الخاص، لا يرجع ذلك لفرادة اختلافاتهما السياسية –وُجدت التيارات الإصلاحية وشبه الثورية في كل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية تقريبًا باستثناء البريطانية منها- ولكن لأنه في روسيا لم تستطع الأغلبية المنشفية بسهولة أن تناصر الليبرالية. *إصلاح* الأوتوقراطية كان يُنظر إليه كممارسة تعاونية بداخل المعسكر القيصري أو على هامشه. نتيجة ذلك، تركز الجدال بين تياري الاشتراكية الديمقراطية الروسية على نمط الثورة الضرورية -ديمقراطية برجوازية أم اشتراكية– وما الأداة الأرجح لتحقيقها –الفلاحون أم العمال أم مزيج بين الاثنين. كانت المواقف فضفاضة بشكل أكثر أو أقل حتى أبريل عام ١٩١٧، ولكن الاتجاه الذي كان يتحرك نحوه التياران صار واضحًا في وقت أبكر بعد الانشقاق الشهير عام ١٩٠٣ على السؤال التنظيمي المتعلق بمهام عضو الحزب. كتب لينين لاحقًا أن التنازل في هذه السؤال كان ممكنًا جدًا ولكن المناشفة وحلفاءهم أصرّوا على عزله من مجلس تحرير "إسكرا" لأنه أزعج العديد من الناس. رأى أن هذا كان ضروريًا، لأن مجلس التحرير المكون من الأشخاص الثلاثة الذين اقترحهم كان الطريق السليم الوحيد لإصدار الجريدة. كان مبعث قلقه هو أن مارتوف لن يكون قادرًا على إدارتها بنفسه

4 Nikolay Valentinov, *Encounters with Lenin,* Oxford, 1968, p. 43.

وأن الجريدة ستنهار، وفي الحقيقة هذا هو ما حدث بعد ذلك. بغض النظر عن الدافع الحقيقي، السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو إذا لم تكن هناك خلافات سياسية جوهرية، لم تطور الانشقاق وتحول إلى أزمة دائمة؟

وهنا لا توجد سوى إجابة واحدة. في أعماق المناشفة كان هناك انقسام غير معبر عنه، ولم يطف إلى السطح إلا بعد ثورة ١٩٠٥، عندما أقام العمال المناصرون للبلاشفة المتاريس وقاتلوا القوات القيصرية. أصر لينين على إجراء مؤتمر فوري لمناقشة أحداث عام ١٩٠٥، والتخطيط لما يستوجب عمله. مارتوف أيضًا كان في صف الوحدة وكان مستعدًا لقبول المادة التنظيمية التي يفترض أنها كانت نقطة التنازع الرئيسية عام ١٩٠٣، ولكنه لم يكن في صف الاستنتاجات التي توصل إليها لينين بعد "البروفة". أقيم مؤتمر مشترك في لندن في أبريل عام ١٩٠٧، كان النقاش مثمرًا في العديد من المستويات. أصر المناشفة على الحاجة للعمل في الدوما القائم (شبه البرلمان القيصري) ولأنهم كان يؤمنون بأن الثورة لا بد تكون برجوازية ديمقراطية، كانوا متسقين حين ذهبوا إلى أن التحالف مع الكاديت الليبراليين المحافظين ضروري. لم يعارض لينين فقط هذه الفكرة، بل عارضها تروتسكي وروزا لوكسمبورج، أعلنوا أن البرجوازية الروسية مضادة للثورة، وأن الوضع تغير منذ الثورتين الإنجليزية والفرنسية. أصر البلاشفة على ضرورة إضافة مسألة العصيان المسلح على الأجندة، قاوم مارتوف بقوة وسعى لإفشال هذا الاقتراح، واستخدم نوعًا من التشويه المارتوفي الذي عادة ما كان يُغضب رفاقه ومنافسيه: "ربما يشترك الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الانتفاضة المسلحة، وربما يدعو الجماهير للثورة... ولكنه لا يمكنه أن يعد لانتفاضة إذا ظل مخلصًا لبرنامجه الذي يرفض أن يكون حزبًا لـ (الانقلابيين)". بخلاف مسألة "العصيان المسلح"، انتصرت حجج البلاشفة في كل الموضوعات. بعد ستة أسابيع من المؤتمر، وجَّه الأمير ستوليبين ضربة قاتلة للمناشفة داخل الدوما وخارجه،

وللصحافة الاشتراكية الديمقراطية الشرعية، وعاود اللجوء للقمع والبوجروم كما تنبأ لينين وغيره. غضب مارتوف، ولكن كان لا بد من مواجهة الحقائق. يعترف بيانه في عيد العمال عام ١٩٠٨ بالواقع:

"من الخلف تهدد البروليتاريا الاشتراكية عصابات المئات السود ومرتكبو البوجروم الذين أطلقتهم الحكومة؛ ومن الأعلى —من دائرة الإنتلجنسيا الروسية التي قدمت لها (الإطراء)— تأتي الضحكة الساخرة النابعة من الانتشاء الذاتي للبرجوازية الصغيرة؛ وفي الخلفية البعيدة للمشهد يلوح ظل المشانق الخمسة آلاف لنيكولاي الثاني".

مع اندلاع الحرب، أصرت غالبية قيادات المناشفة والاشتراكيين الثوريين على ضرورة الدفاع عن روسيا القيصرية، ناصروا المجهود الحربي، أدى ذلك لانقسام بين صفوفهم: أدرك المناشفة اليساريون الذين كان يقودهم مارتوف أنهم اتخذوا مواقف قريبة من مواقف البلاشفة، أكثر من قربها من مواقف رفاقهم، رغم أنهم ارتعدوا حين قرأوا لأول مرة نداء لينين لتحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية؛ أي ثورة قارية على الرأسمال والإمبراطورية. ذهب مارتوف إلى أنه لا ينبغي عليهم أن يخرِّبوا الحرب، وأن يكتفوا بالتصويت ضد ديون الحرب، شعر أن الرمزية ستكون كافية لتنبيه الجماهير بأن الاشتراكية الديمقراطية مناهضة للحرب. مجددًا صار موقف لينين مُبَرَّرًا باندلاع ثورة جديدة في روسيا.

عاد لينين من المنفى في أبريل، وعاد مارتوف في يونيو. ووجه الرجلان بأحزاب سياسية مشغولة كثيرًا بالحاضر، وتخفق في النظر إلى المستقبل. كان هذا أمرًا مبررًا جزئيًا في هذه الحالة، إذ كانت الأحزاب الداخلية تعاني من ضيقات الثورة، وكانت تزدري المنفيين الذين وصلوا مؤخرًا والذين كانوا يظنون أنهم يعرفون كل شيء. استعاد لينين حزبه منهم وأعدهم لثورة أكتوبر. أما مناشفة مارتوف اليساريين فأخفقوا في السيطرة على الحزب حتى

ديسمبر عام ١٩١٧. تعرض مارتوف للانتقادات من حلفائه بالحزب، إذ أرادوا منه أن يكون أكثر قسوة مع المناشفة اليمينيين، وأن يقاطعهم إذا استلزم الأمر ذلك. سوخانوف، عضو جناح مارتوف، عبر عن غضبه من التردد الذي تبدى حين اتبع المناشفة اليساريون الجناح اليميني، والأحزاب المضادة للثورة وغادروا سمولني، بدلًا من البقاء في مؤتمر السوفييتات. كتب المؤرخ:

"بمغادرة المؤتمر... قدمنا بأيدينا للبلاشفة فرصة احتكار السوفييت، والجماهير، والثورة... أكدنا على انتصار لينين الكامل... أعتبر أن جريمتي الراسخة الأعظم هي حقيقة أنني أخفقت في ترك جماعة مارتوف على الفور، بعدما صوَّت الفصيل لمغادرة المؤتمر. حتى اليوم لم أتوقف عن الندم على هذه الجريمة التي ارتكبتها في ٢٥ أكتوبر".

بغض النظر عن المبالغة، كان هذا النقد الموجه لمارتوف مبررًا كلية. في لحظة محورية، أخفق في مناصرة الثورة، وانتقص ذلك من شأنه، والأهم، أنهى كل الفرص الممكنة لتشكيل حكومة موحدة مع البلاشفة. ناصر الاشتراكيون الثوريون اليساريون الثورة؛ وإذا كان مارتوف قد سار على هذا النهج لربما صار تأثيره أعظم بكثير.

معزولًا ومريضًا ومنهكًا، تأمل الزعيم المنشفي في كيف استطاع لينين أن يتفوق ذهنيًا وتصويتيًا على فصيله، كان يعرف أن حجته لم تنتصر حين فاز البلاشفة بالأغلبية في سوفييتي بتروجراد وموسكو عام ١٩١٧، تحول عندها المناشفة إلى فصيل زائد عن الحاجة. عرف بعد انتخابات الجمعية التأسيسية أن لا مكان لفصيله. سيطر الاشتراكيون الثوريون على الريف وحظوا بالأغلبية؛ وحظت الثورة بالمدن وبالطبقة العاملة. صوَّت عشرة ملايين للحزب البلشفي. حل البلاشفة الجمعية واتخذوا طريق الدكتاتورية الثورية، وأعلنوا ذلك ولم يتظاهروا بعكسه. هكذا كانوا أكثر بديهة من

القيادة العليا الألمانية في النهاية وانتصروا في الحرب الأهلية التي يدعمها الوفاق. على عكس الطلب البلشفي الرئيسي بأن تنهي معاهدة برست ليتوفسك الحرب، ناصر مارتوف البلاشفة المعارضين للمعاهدة وطالب الميليشيات بقتال الألمان في كل مكان على التراب الروسي. ناشد لينين الجنود والبحارة الألمان بإسقاط القيصر (هذا الذي فعلوه)، وإقامة سوفييتات (هذا الذي فعلوه) والقيام بثورة، هذا الذي رفضوه.

في مارس عام ١٩١٩، كتب تروتسكي، الذي تعاون مع مارتوف في السنوات التي كان فيها منشفيًا، مقالًا وصفيًا عن رفيقه السابق، ورغم أنه كان دقيقًا، إلا أنه افتقد الكرم:

"لا شك أن مارتوف يمثل إحدى الشخصيات التراجيدية في الحركة الثورية. كاتب موهوب، وسياسي قدير، وعقل ثاقب، وخريج المدرسة الماركسية، ومع ذلك سيدخل مارتوف تاريخ ثورة العمال كصفر كبير. كان فكره يفتقد إلى الشجاعة، وتردده يفتقد إلى الإرادة. لم يكن عناده بديلًا، لقد دمره. الماركسية هي منهج للتحليل الموضوعي وفي الوقت نفسه شرط *للفعل* الثوري؛ إنها تفترض مسبقًا التوازن بين الفكر والإرادة هذا الذي يمكنه أن يوصل القوة الجسدية للفكر نفسه ويمكنه أن يضبط الإرادة بالتعاون الديالكتيكي بين الذاتي والموضوعي. مجردًا من الدافع الإرادي، وجَّه عقل مارتوف على الدوام كل قواه التحليلية نحو التبرير نظريًا لفكرة المقاومة الأقل. من النادر في أي وقت أن يتمكن سياسي اشتراكي من استغلال الماركسية بهذا القدر من الموهبة ليبرر الانحرافات عنها وخيانتها المباشرة. من هذه الجهة يمكن أن ندعو مارتوف مهاريًا، بدون أي رغبة في التهكم. هيلفردينج وباور ورينار وكاوتسكي نفسه على الرغم أنهم كانوا على دراية أكبر بمجالاتهم من مارتوف، إلا أنهم مبتدئين خُرْق في مسألة التزييف *السياسي* للماركسية، أي التمثيل النظري للسلبية والتكيف والخضوع للأشكال العليا للنضال الطبقي غير القابل للتصالح.

لا شك أن مارتوف كان يملك غريزة ثورية؛ رد فعله الأولى على الأحداث العظمى كشف على الدوام عن طموح ثوري. ولكن كلما بذل جهدًا من هذا القبيل، انحلَّ فكره وتراجع، لأنه لا يحظى بدعم قوة الإرادة. يمكن أن نلحظ ذلك في الملامح الأولى من موجات الثورة (إسكرا)، ثم في عام ١٩٠٥، ثم في بداية الحرب الإمبريالية، وجزئيًا حدث ذلك مجددًا في بداية ثورة عام ١٩١٧. ولكن كل ذلك كان بلا جدوى. اتسعت قدراته ومرونة فكره كلية في تجنب الأسئلة الأساسية والساعية نحو الوصول لمبررات لأمور لا يمكن الدفاع عنها، صار الديالكتيك على يديه أكثر أنواع التضليل تهذيبًا. العناد الذي لا يضاهى والأشبه بعناد القط، وإرادة التردد والتشبث بعدم اتخاذ القرار سمح له لشهور وسنوات في النهاية أن يتمسك بأكثر المواقف تناقضًا وغير القابلة للحل. على الرغم من كون ذلك كاشفًا أمام القلاقل التاريخية الحاسمة، والرغبة في اتخاذ موقف ثوري وتغذية الآمال، في كل مرة شعر بالإحباط: لم تُغفر خطاياه، ونتيجة ذلك غرق أكثر واتجه نحو القاع. في النهاية صار مارتوف واحدًا من أكثر السياسيين المثقفين والمهذبين والمخادعين والمترددين بين الإنتلجنسيا البرجوازية الصغيرة الغبية والتافهة والجبانة. وحقيقة أنه نفسه لم ير أو يفهم هذا يشير إلى أن تردده الموسوي كان يتهكم منه بلا رحمة. في أيامنا، في حقبة المهام والإمكانات الكبرى، التي ينفتح فيها التاريخ ويتمثل أكثر من أي وقت، كان مارتوف في منزلة بين لانجويه وتشرنوف.[iii] ويكفي هذين الاسمين من أجل أن نقدر عمق السقوط الأيدولوجي والسياسي لهذا الرجل الذي كان أكثر موهبة من العديد من الآخرين".[5]

أقلق مرض مارتوف لينين، وتأكد من أن القيادة البلشفية أرسلت له أفضل الأطباء المتاحين لعلاجه. تعافى بما يكفي ليتمكن من السفر، وقَبِل دعوة ليتحدث في مؤتمر هاله للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني

---

5 Leon Trotsky, *World Revolution*, vol. 1, 18 March 1919/24 April 1922.

المستقل، الذي كان يناقش إذا كان سينضم للأممية الشيوعية أم لا. عارض مارتوف ذلك. ورغم وجود رفض بداخل القيادة البلشفية، أصرَّ لينين على أن يحصل على جواز سفر سوفييتي وأن يُسمح له بالحضور. عاود المرض مارتوف ولم يتمكن من الرجوع. أصر لينين أن يُرسَل له المال من أجل أن يحصل على الطعام والدواء، ورد ديفيد ريازانوف على ذلك قائلًا: "لن يقبل به إذا عرف أنه منك".

ولكن رغم ذلك أرسل الطعام والمال. كان مارتوف يحتضر ببطء حين أصيب لينين بأول جلطة. تمتم بحزن لكروبسكايا: "يقولون إن مارتوف يحتضر أيضًا". كان مارتوف قد مات بالفعل عندما أصيب لينين بالجلطة الثانية، ولكن لم يخبروه بذلك خوفًا على صحته. عندما أخبرته كروبسكايا، خرق لينين قواعد الأطباء وطلب أن يُجر كرسيه إلى مكتب الكرملين، حيث قرأ أفضل المراثي عن مارتوف في الصحافة السوفييتية. أ. ي. سفيديرسكي، أحد الأصدقاء القدامى لعائلة أوليانوف ومفوض الزراعة، والذي زار لينين في شهوره الأخيرة، ذكر أن لينين كان مصرًا على الذهاب لرؤية مارتوف، ولأنه مشلول وغير قادر على الحديث، كان يشير إلى كتب مارتوف ويومئ للسائق أن يصحبه لرؤية مؤلفها على الفور. بلطف أخبرته كروبسكايا مجددًا أن مارتوف توفى. هل كان يفكر في مناشدة مارتوف اليائسة للبلاشفة في أن يتركوا المناشفة اليساريين يمارسون نشاطهم ك "معارضة وفية" في السوفييت؟ أصر مارتوف بأن هذا سيكون مفيدًا للثورة والبلاشفة، ولكن صاحوا فيه حتى صمت.

مع وضع النقد السياسي المتضمن في مقالات لينين الأخيرة في الاعتبار –"لا نعرف أي شيء"– من الأرجح أنه كان يفكر فيما قاله مارتوف في بعض المسائل.

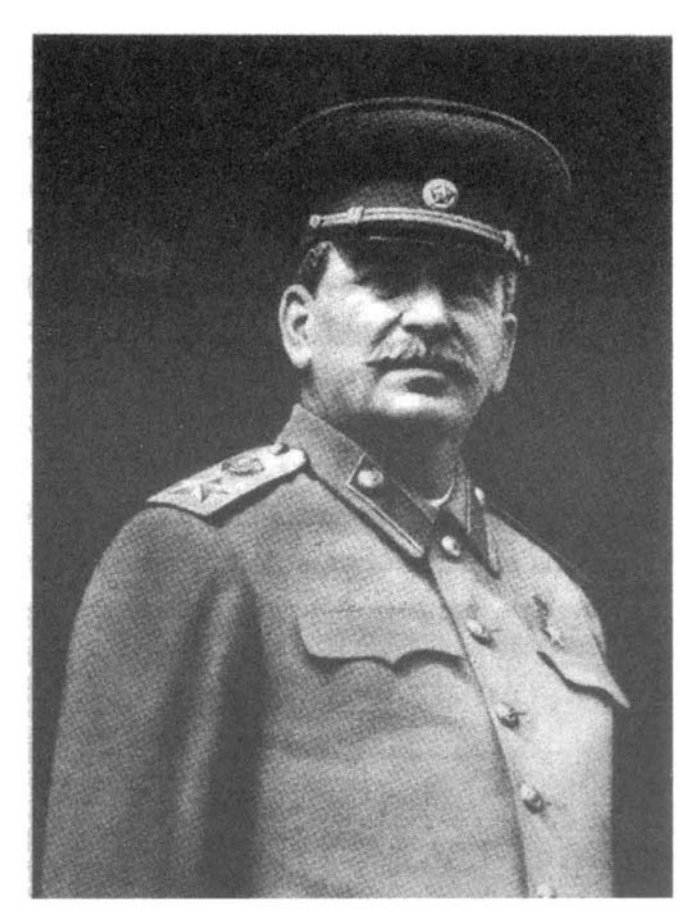
توفي لينين في ٢١ يناير عام ١٩٢٤ ، بعد ثمانية أشهر من وفاة مارتوف. نشرت الجريدة المنشفية الصادرة من المنفى "الرسول الاشتراكي"، مرثية قالت فيها إنه "رمز بارز في الحركة العمالية" و"رفيق مارتوف"... المناهضون الآخرون، ومن ضمنهم كاتبي سيرة ذاتية غربيين رئيسيين مناهضين للشيوعية، ريتشارد بايبس وروبرت سرفيس، سيكتبون نصوصًا طويلة بشكل مشابه بعد وفاته. بينما لم يستطيعوا أبدًا الثناء على أي عنصر في سياسة لينين "الوحشية"، وفقًا لسرفيس كان لا بد من الاعتراف أن لينين:

"كان سيشعر بالعار كما شعرت كروبسكايا من الاستغلال السخيف لاسمه وأفكاره ونشاطاته. تتمثل المفارقة في أن الرجل الذي أشرف أكثر من الآخرين على التجميل والمبالغة من دوره في الحركات الاشتراكية في العالم ليس سوى الرجل الذي سعى لينين لإزاحته من موقع السلطة في الحزب البلشفي. هكذا تعرض لينين لإذلال بعد وفاته على يدي عدوه في آخر أيامه".

ينهي سرفيس كلامه قائلًا:

"على فراش الموت لم يتصور لينين إستراتيجية تسمح بسفك دماء ملايين الفلاحين الأبرياء الذين يعملون بكد. ولم يسع إلى التخلص من أعدائه الحقيقيين والمتخيلين في الحزب... كانت رؤيته لمستقبل بشرية يتلاشى منها الاستغلال والمعارضة رؤية مخلصة، كانت هذه هي النقطة المركزية في حياته".[٦]

6 Robert Service, *The Iron Ring*, vol. 3 of *Lenin: A Political Life*,London, 1995, pp. 322–3.



ستالين في ذروة سلطته: كان يخشى منه ويزدريه جل زملائه المقربين، هو شخصية مفضلة لبوتين في يومنا هذا.

أولى ريتشارد بايبس أهمية كبيرة لمراسلات لينين التي نُشرت بعد سقوط الشيوعية. جل النصوص التي يشير لها كدليل على قسوة لينين المتأصلة كُتبت أثناء الحرب الأهلية، حين كانت الجمهورية السوفييتية الوليدة تقاتل للحفاظ على حياتها. ينبغي أن يعلم الأكاديميون الأمريكيون أن الحروب الأهلية ليست شؤونًا بسيطة، بغض النظر عن الجانب الذي تناصره، وكذلك لا يصح أن تتبنى لهجة أخلاقية عالية مع لينين، ولا تتبناها مع مظاهر النفاق لدى لنكولن. لم يكن هذا هو الحال على الدوام مع بايبس؛ في كتاب أبكر كان أكثر اتزانًا، كتب أن لينين مات قبل أوانه،

"والهيكل النهائي للاتحاد السوفييتي كان سيختلف تمامًا عن الهيكل الذي شكله ستالين في النهاية".[7] وهذا أمر واضح.

كل شيء كان لينين يخشى حدوثه حدث بالفعل، بداية مما فعله ستالين والبوليتبورو بالجسد الميت. ظلّت عائلة أوليانوف كلها، وخاصة أرملته، معارضة بقوة لتحنيط لينين. ألقى بخطاب الجناز الرسمي تلميذه السابق جوزيف ستالين، بلهجة مستلهمة بشدة من الكنيسة الأرثوذوكسية. تحوّل الثوري إلى قديس بيزنطي. ولكن بأسلوبها الهادئ ألقت ناديا كروبسكايا في اليوم نفسه خطابًا أقوى، وقفت إلى جانب نعش زوجها في الجناز وقالت:

"أيها الرفاق، العاملون والعاملات، والرجال والنساء الحاضرون! لدي طلب عظيم منكم: لا تنصبوا تماثيل له، أو تسموا قصورًا باسمه، أو تنظموا احتفاليات وقورة وفخمة لذكراه -لم تكن لهذه الأشياء قيمة كبيرة في حياته، بل حتى كانت عبئًا عليه. تذكروا عدد الفقراء والمشردين في بلادنا. إذا كنتم تريدون تكريم اسم فلاديمير إيليتش، انشئوا بيوتًا للأطفال ورياضًا لهم ومنازل ومدارس ومكتبات ومرافق إسعاف ومستشفيات ومنازل للمصابين، وقبل كل شيء كونوا شهادات حية على مُثُله".

سيتم تجاهل ذلك أيضًا، وبعد تحويل لينين إلى مومياء بعدة سنوات سيحوّل رجال الحزب وزعيمهم أفكاره أيضًا إلى مومياوات. بأسلوبه الغريب، تنبأ لينين بهذا الاحتمال. وكل ما يتمناه المرء، في الوقت الذي سيُدفن فيه جسده في النهاية، أن تحيا بعض أفكاره، خاصة المتعلقة بأهمية السياسة والإمبريالية وتقرير المصير والدولة الشيوعية. وسواء حدث ذلك أم لا، فالتحذير التالي يمكن أن يقوم بدور النقش الحقيقي على شاهد القبر:

---

7 Richard Pipes, *Formation of the Soviet Union,* Cambridge, MA,1964, p. 276.
النسخة البشعة كانت في كتابه "لينين المجهول"
The Unknown Lenin, NewHaven, 1998.

"بعد موتهم، كانت هناك محاولات لتحويل الثوريين إلى أيقونات بلا حول ولا قوة، محاولات لتقديسهم، وبالتالي تبجيل أسماءهم إلى حد معين من أجل (تعزية) الطبقات المقهورة وبهدف خداع تلك الطبقات، بينما في الوقت نفسه تُسرق النظرية الثورية من جوهرها ويُشَذّب طابعها الثوري، ويتم ابتذالها".

---

i Kronstadt Rebellio الانتفاضة التي جرت ضد البلاشفة في مارس عام ١٩٢١ وقادها ستيبان بيترتشنكو.

ii Apparatchik إشارة إلى أعضاء الحزب الشيوعي الروسي.

iii (Charles Longuet 1839-1903) صحفي فرنسي شارك في كمونة باريس وانضم للأممية الأولى، Viktor Chernov (١٨٧٣-١٩٥٢) أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي الثوري وكان وزيرًا بالحكومة المؤقتة.

خاتمة

عن صعود جبل شاهق
ف. إ. لينين



لينين يقرا الصحافة: كان يكره كثيراً الطائفة المهووسة بشخصيته

دعونا نتخيل رجلاً يتسلق جبلاً لم يصعده أحد من قبل، وهو جبل شاهق وشديد الانحدار.[1] دعونا نفترض أنه تجاوز صعوبات ومخاطر غير مسبوقة ونجح في الوصول إلى أعلى نقطة بالمقارنة بسابقيه، ولكنه لم يصل بعد إلى القمة. يجد نفسه في موقف لا يكون فيه فقط من الصعب والخطير

---

1 هذه هو القسم الأول الذي حمل اسم "على سبيل المثال" من كتيب لينين "ملاحظات صحفي"، والذي كُتب في نهاية فبراير عام ١٩٢٢، ونشر لأول مرة في "برافدا" في ١٦ أبريل عام ١٩٢٤. هذه النسخة من النص متخذة من "الأعمال الكاملة للينين".

V. I. Lenin, *Collected Works*, vol. 33, trs David Skvirsky and George Hanna, Moscow, 1965, pp. 204–11

متاح في أرشيف لينين على الإنترنت www.marx.org .

وهو نص لينين المفضل لدى بريخت، وهذا لسبب جيد.

أن يكمل في مساره على الطريق الذي اختاره، ولكن هذا يكون بالفعل مستحيلًا. يجد نفسه مجبرًا على التقهقر والهبوط، والبحث عن طريق آخر، ربما كان أطول، ولكنه طريق سيُمَكّنه من الوصول إلى القمة. ربما يتثبت من أن الهبوط من النقطة التي لم يصل إليها أحد من قبل أكثر خطورة وصعوبة على الرحالة المتخيل من الصعود – من السهل أن ينزلق؛ وليس من السهل أن يجد موطئًا آمنًا لقدمه؛ ولا يعود يشعر بالنشوة التي يشعر بها بأعلى، وهو يتجه نحو هدفه مباشرة، إلخ. عليه أن يربط حبلًا حوله، ويقضي ساعات حاملًا عصاه المدببة ليدق موطئًا لقدمه أو يبحث عن نتوء يستطيع أن يربط به الحبل جيدًا، على المرء أن يخطو ببطء الحلزون، وينزل، يهبط بعيدًا عن هدفه، ولا يعرف المرء أين سينتهي هذا الهبوط المؤلم شديد الخطورة، أو إذا كان هناك انعطاف آمن يمكن للمرء به أن يصعد بصورة أكثر جرأة وسرعة ويتجه مباشرة نحو القمة.

نادرًا ما كان من الطبيعي أن نفترض رجلًا يتسلق حتى هذا الارتفاع غير المسبوق، ويجد نفسه في هذا الموقف، ولا يشعر باهتزاز ثقته. على الأغلب ستتزايد تلك اللحظات وتتكرر ويكون من الصعب احتمالها إذا استمع لأصوات من هم بالأسفل، الذين يراقبون، من خلال تلسكوب ومن مسافة آمنة، تقهقره الخطير، والذي لا يمكن حتى أن يوصف بما يطلق عليه "السيمنوفيخيين"[i]: "النزول على المكابح"؛ تحتاج المكابح إلى عربة مصممة جيدًا ومجربة، وطريق ممهد جيدًا وأدوات مختبرة من قبل. ولكن في تلك الحالة لا توجد وسيلة ولا طريق، ولا شيء مختبر من قبل على الإطلاق.

يتردد صدى الأصوات المسموعة من أسفل والتي تتسم ببهجة خبيثة. لا يخفونها، يقهقهون مسرورين ويصيحون: "سيسقط خلال دقيقة، هذا ما يستحقه ذلك المجنون!" يحاول الآخرون إخفاء سرورهم الخبيث، ويسلكون سلوك يهوذا جولوفيوف.[ii]

يتأوهون ويرفعون أعينهم إلى السماء في حزن، كأنهم يقولون: "يؤسينًا كثيرًا أن نرى مخاوفنا تتحقق! ولكن ألم نطالب نحن، الذين قضينا أعمارنا في الإعداد لخطة ناجعة لتسلق الجبل، أن يتأجل الصعود حتى تكتمل الخطة؟ وإذا كنا اعترضنا بشدة على اتخاذ ذلك الطريق، الذي يتخلى عنه هذا المجنون (انظر انظروا، لقد تراجع! إنه يهبط! خطوة واحدة تحتاج منه لساعات من الإعداد! إلا أننا نشعر بالإهانة الشديدة في ذلك الوقت، ونطالب مجددًا بالاعتدال والحذر!)، إذا منعنا باهتياج هذا المجنون وحذرنا الجميع من تقليده ومساعدته، فنحن فعلنا ذلك فقط من أجل إخلاصنا للخطة العظيمة التي تسعى لتسلق هذا الجبل، من أجل منع استوحاش تلك الخطة العظيمة بوجه عام!" المثير للسرور في الموقف الذي وصفناه، أنه لا يمكن للرحالة المتخيل أن يستمع لأصوات الناس الذين يمثلون "الرفاق الحقيقيين" لفكرة الصعود. وإذا استمع لهم، فعلى الأرجح كانوا سيصيبونه بالغثيان، ومن المعروف أن الغثيان لا يسهم في إبقاء الذهن صافيًا والخطوة ثابتة، خاصة في تلك المرتفعات العالية.

ثَبَت أسماء الأعلام

إينيسا أرماند (١٨٧٤ـ١٩٢٠): نسوية بلشفية لوقت طويل. قابلت أرماند لينين في باريس عام ١٩١٠. صارا سريعًا عشيقين وظلا صديقين ورفيقين مقربين حتى وفاتها عام ١٩٢٠.

القيصر ألكسندر الثالث (١٨٤٥ـ١٨٩٤): مناهض للإصلاح و"شخص مضجر شبه متعلم"، اتجه لممارسة القمع وتجنب مصير أبيه.

القيصر ألكسندر الثاني (١٨١٨ـ١٨٨١): حرر الأقنان عام ١٨٦١. وبعد عشرين عامًا اغتاله تنظيم إرادة الشعب الأناركي الإرهابي.

فريدريش إنجلز (١٨٢٠ـ١٨٩٥): ابن رجل صناعة ثري، ألف كتاب "حالة الطبقة العاملة في إنجلترا" الذي لفت انتباه كارل ماركس. كوّن الاثنان شراكة فكرية طويلة.

جورج أودجر (١٨١٣ـ١٨٧٧): صانع أحذية ومؤسس مجلس الحرف بلندن. انتُخب أول رئيس للمجلس العام لجمعية العمال الدولية.

فريدريش إيبرت (١٨٧١ـ١٩٢٥): زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان، وافق على اغتيال الثوريين كارل ليبكنشت وروزا لوكسمبورج في ١٩١٩.

آبي إيسو (١٨٦٥ـ١٩٤٩): اشتراكي. عاد إلى اليابان بعدما درس في مدرسة لاهوتية بنيو إنجلاند وعاد بناتجين من العالم الغربي: الاشتراكية الفابية والبيسبول، ولا شيء منهما خلخل أسس الرأسمالية.

ميخائيل باكونين (١٨١٤ـ١٨٧٦): مُنَظِّر أناركي وغريم ماركس السياسي الرئيسي في الأممية الأولى.

إيميلين بانكهورست (١٨٥٨ـ١٩٢٨) وسيلفيا بانكهورست (١٨٨٢ـ١٩٦٠): من حركة السفراجيت. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، عطَّلت إيميلين الحركة الجماهيرية المطالبة بحق التصويت للنساء وأمرت النساء أن يحيكوا الجوارب للجنود. ظلت ابنتها سيلفيا معارضة للحرب، وصارت شيوعية في النهاية.

أوتو باور (١٨٨١ـ١٩٣٨): زعيم سياسي ومُنَظِّر ماركسي نمساوي. ساهم مع رفاقه في خلخلة الوضع في النمسا بعد الثورة البلشفية. أخفق الاشتراكيون النمساويون في مواجهة الفاشية وهزيمتها، مثلما أخفق في ذلك أقرانهم الألمان.

جيورجي بليخانوف (١٨٥٦ـ١٩١٨): مؤسس جماعة تحرير العمال، ومُنظِّر ماركسي روسي بارز في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. في البداية اتخذ صف لينين في الانشقاق مع المناشفة عام ١٩٠٣، ولكن سريعًا ما تحول إلى اليمين، وصار داعمًا صريحًا لمشاركة روسيا في الحرب العالمية الأولى.

نيكولاي بوخارين (١٨٨٨ـ١٩٣٨): قال عنه لينين بأنه "المفضل في الحزب"، كان اقتصاديًا وسياسيًا ذكيًا (ورسامًا جيدًا جدًا)، ولكن ستالين تلاعب به بسهولة وفي النهاية أمر بإعدامه بعد محاكمة صورية.

أماديو بورديجا (١٨٨٩-١٩٧٠): زعيم بالغ الموهبة في الفصيل اليساري المتشدد من الحزب الشيوعي الإيطالي.

نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١): تجسيد للطبقة البرجوازية المستقرة والمتخمة بعد اضطرابات حقبة اليعاقبة في فرنسا. أعاد الكنيسة والأرستقراطية ونصب نفسه إمبراطوراً. انتهى حلمه بالسيطرة الفرنسية على أوروبا في معارك روسيا القيصرية.

أوجوست بيبل (١٨٤٠-١٩١٣): عضو مؤسس بالحزب الاشتراكي الديمقراطي ومُنَظِّر ماركسي. للعديد من السنوات لم يكن الكتاب الأكثر قراءة في الوسط الاشتراكي هو كتاب ماركس وإنجلز "البيان الشيوعي"، بل كتاب بيبل "النساء والاشتراكية".

صوفيا بيروفسكايا (١٨٥٣-١٨٨١): ثورية روسية وعضوة في "إرادة الشعب". نظمت عملية الاغتيال الناجحة لألكسندر الثاني وكانت أول ناشطة امرأة تتعرض للشنق.

نيكولاي تشرنشفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩): مؤلف كتاب "ما العمل؟"، رواية لها تأثير كبير في الوسط الثوري الروسي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. حوّل هذا الكتاب لينين إلى الراديكالية وجعله يبحث عن أعمال ماركس.

جيورجي تشيشيرين (١٨٧٢-١٩٣٦): مفوض الشؤون الخارجية، ومرجع في الموسيقى الكلاسيكية، كان يتحدث كل اللغات الأوروبية الرئيسية بطلاقة، وأحد أكثر الأعضاء المثقفين في القيادة البلشفية. كان يمزقه ميله المثلي الجنسي.

ميخائيل توخاتشفسكي (١٨٩٣ـ١٩٣٧): أسر في الحرب، وشارك الزنزانة مع شارل ديجول، الذي لم يتسامح مع عدميته. بعدما أطلق سراحه عاد إلى الوطن، وانضم للحزب البلشفي، وصار أكثر القادة العسكريين موهبة في الجيش الأحمر أثناء الحرب الأهلية. أعدم بأمر ستالين.

أنطونيو جرامشي (١٨٩١ـ١٩٣٧): ماركسي ثوري وزعيم في الحزب الشيوعي الإيطالي. سجنه موسوليني، كتب بعضًا من أفضل نصوصه في السجن، بأسلوب غامض لخداع الرقيب.

أوليمب دو جوج (١٧٤٨ـ١٧٩٣): كاتبة مسرحية وشاعرة ومجادلة. ألفَّت "إعلان حقوق النساء والمواطنات الإناث"، الذي طرح بقوة أسئلة الانعتاق الكلي وتحرر المرأة. أعدمت على كتاباتها السياسية كجيروندية، وكانت واحدة من ثلاث نساء أعدموا أثناء عهد الإرهاب. بعد مرور قرن، ألهم ميراثها النساء في الجينوتديل، مكتب النساء بالاتحاد السوفييتي.

إرنست جونز (١٨١٩ـ١٨٦٩): شخصية بارزة في الحركة الميثاقية، التي وهب لها حياته. نشأ في عائلة أرستقراطية، وأنفق قدراً كبيراً من ثروته لدعم جريدة ميثاقية.

يوجين ف. ديبس (١٨٨٥ـ١٩٢٦): عضو مؤسس في تنظيم عمال العالم الأممي، وترشح لرئاسة الولايات المتحدة خمس مرات عن الحزب الاشتراكي، حصل على نسبة تصويت ٦ في المائة عام ١٩١٢. كان تأثيره بيِّنًا للغاية، حتى أن أحد أكثر التحركات العمالية حدة (إضرابات بولمان) تُعرف الآن بأنها "ثورة ديبس".

كارل راديك (١٨٨٥ـ١٩٣٩): صحفي بلشفي، كان مقربًا من لينين وتروتسكي، ومعروفًا ببديهته الحاضرة وسخريته. لا يفاجئنا أنه توفى في سجن ستاليني.

فيودور راسكولنيكوف (١٨٩٢ـ١٩٣٩): "بلشفي قديم" كان من صفوف البحارة وصار راديكاليًا خلال الحرب العالمية الأولى. قاد الأسطول الأحمر في بحري قزوين والبلطيق أثناء الحرب الأهلية.

فيرا زاسوليتش (١٨٤٩ـ١٩١٩): أول امرأة تطلق النار من مسدس في روسيا، صارت عضوة في مجلس تحرير جريدة "إسكرا"، وبعدها ظلت منشفية بارزة.

كلارا زتكين (١٨٥٧ـ١٩٣٣): كانت بمثابة الضوء الهادي في الماركسية الأوروبية، كانت مُنَظِّمة ماهرة مع الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان قبل تأسيس الحزب الشيوعي بالبلاد عام ١٩١٨. ومثل العديد من أقرانها، صاحب حسها القيادة السياسي فطنة نظرية، هي مفكرة لا غنى عنها في "مسألة النساء".

آرثر زيمرمان (١٨٦٤ـ١٩٤٠): موظف حكومي كبير في وزارة الخارجية الألمانية. اشتهر بفعلين مخادعين أثناء "الحرب العظمى": إرسال البرقية التي حثت الحكومة المكسيكية على غزو الولايات المتحدة، وتهريب لينين والمنفيين الآخرين إلى روسيا الثورية.

جريجوري زينوفييف (١٨٨٣ـ١٩٣٦): عضو مؤسس للحزب البلشفي وشخصية بارزة في الأممية الشيوعية. كانت محاكمته الصورية عام ١٩٣٦ –

بعد تسع سنوات من طرده من القيادة السياسيةـ إشارة للرعب التالي. أُعدم بأوامر ستالين.

إيلينا ستاسوفا (١٨٧٣ـ١٩٦٦): أمينة الحزب البلشفي عام ١٩١٧، وعضوة في اللجنة المركزية. كانت صديقة مقربة من لينين.

ميخائيل فرونزه (١٨٨٥ـ١٩٢٥): شخصية بارزة في ثورة عام ١٩٠٥، وقائد عسكري قدير ومخطط إستراتيجي في الحرب الأهلية التي تلت الثورة الروسية. بينما ذهب تروتسكي وشدد على أن حدود المادية التاريخية لا تستوعب الإستراتيجية العسكرية، أكد فرونزه على الأهمية الكبيرة لـ "الطبيعة الطبقية" للجيش، ودافع عن دمقرطة القوات المسلحة. في الأغلب تعرض للتسميم بعد أوامر من ستالين.

فيرا فيجنر (١٨٥٢ـ١٩٤٢): زعيمة التنظيم السري "إرادة الشعب". كانت واحدة من المنظمين الرئيسيين للاغتيال الناجح للقيصر ألكسندر الثاني.

كاتبتان على الآلة الكاتبة، مجهولتان، من قطاع تركستان في وزارة الزراعة بسان بطرسبرج: حينما سمع ن. ن. سوخانوف، أحد المنظمين المناشفة، المرأتين يتناقشان عن الثورة الحتمية، ضحك ساخراً. اتضح أن بصيرتهما كانت أدق، وبدا أن تحليلهما للوضع السياسي أفضل من مختلس السمع الموقر.

ليف كامينيف (١٨٨٣ـ١٩٣٦): "بلشفي قديم" وشريك لينين لفترة طويلة. عارض عصيان ١٩١٧، وعارض ستالين لفترة قصيرة في منتصف العشرينيات، أُعدم بأمر ستالين بعد محاكمة صورية.

ناديا كروبسكايا (١٨٦٩ـ١٩٣٩): ناشطة بلشفية وحزبية قديمة، تزوجت لينين عام ١٨٩٨. عملت نائبة لوزير التعليم منذ عام ١٩٢٩ وحتى وفاتها. خلفيتها التربوية المتأثرة بتولستوي كثيراً ما أزعجت زوجها.

بيتر كروبوتكين (١٨٤٢ـ١٩٢١): مُنَظِّر أناركي من عائلة أرستقراطية وكاتب تأريخ ذي تأثير واسع للثورة الفرنسية، عاد إلى روسيا بعد الثورة. حضر جنازته الرسمية آلاف الناس، ومن بينهم ممثل رسمي عن البلاشفة.

ألكسندر كرينسكي (١٨٨١ـ١٩٧٠): زعيم الاشتراكيين الثوريين. عُين رئيس للوزراء بالدوما في يوليو عام ١٩١٧، وأقيل في أكتوبر من العام نفسه. درَّس أبوه للينين، وعمل ابنه في الفينانشال تايمز.

كارل فون كلاوسفيتز (١٧٨٠ـ١٨٣١): جنرال بروسي ومُنَظِّر عسكري، كان لأعماله تأثير كبير على أفكار ماركس وتروتسكي وماو، بالإضافة إلى كارل شميت.

جوستاف كوربيه (١٨١٩ـ١٨٧٧): رسام وراديكالي. انتُخب كمندوب في كميونة باريس، وقاد سلسلة من المبادرات الفنية في المدينة. من ضمن أعماله دمقرطة الإدارة المتحفية، وحجز مساحة في الجاليريهات للاتجاهات الفنية لمن هم في الأقلية، وهدم النصب العامة التي كانت من تقاليد الغزوات الاستعمارية.

لافر كورنيلوف (١٨٧٠ـ١٩١٨): جنرال في جيش القيصر ثم في الجيوش البيضاء الروسية، عمل لوقت قصير كقائد عسكري في يوليو عام ١٩١٧ قبل

"قضية كورنيلوف" في أغسطس، حين قُبض عليه لمحاولته القيام بانقلاب. أصابته قذيفة في إحدى معارك الحرب الأهلية وأدت إلى مقتله.

آلكسندرا كولونتاي (١٨٧٢-١٩٥٢): عضوة في اللجنة المركزية البلشفية منذ وقت مبكر، والوحيدة من بين الأعضاء التي ساندت أطروحات لينين في إستراتيجية العصيان التالية للانتفاضة الجماهيرية في يوليو عام ١٩١٧. كانت مُنظِّرة رائدة عن النساء والجنسانية والعائلة والاشتراكية ومُنَظِّمة رائدة في الجينوتديل.

روزا لوكسمبورج (١٨٧١-١٩١٩): ثورية ومُنَظِّرة بولندية، كانت واحدة من أكثر الماركسيين المبدعين في بلدها، قتلها الفيلق الحر بدعم من إيبرت ونوسكه.

كارل ليبكنشت (١٨٧١-١٩١٩): حزبي طوال حياته، وساعد في إطلاق الأممية الاشتراكية الشابة وعصبة سبارتاكوس. كان أبوه عضواً مؤسسًا بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. رغم تشككه منذ البداية في الإضراب العام والعصيان المسلح الذي قام به العمال في يوليو عام ١٩١٧. شارك ليبكنشت وروزا لوكسمبورج متأخرين في الانتفاضة. ولأنه لم تكن هناك إستراتيجية مناسبة، سُحق العصيان في خلال أسبوع وأُغتيل زعماؤه.

بروسبيه أوليفييه ليساجاراي (١٨٣٨-١٩٠١): مؤرخ شهير، ومشارك من الصفوف الدنيا في كميونة باريس. ظل مدافعًا متحمسًا عن هذه التجربة الثورية، وتحدى صحفيين من الصحافة البرجوازية في لخوض مناظرة إذا لطخوا اسمها وذِكراها. منع ماركس ابنته بحمق من الزواج من الفرنسي.

يوجين ليفين (١٨٨٣-١٩١٩): زعيم شيوعي ألماني، شارك بشجاعة في الجمهورية السوفيتة البافارية رغم تحفظه عليها. صاح أثناء محاكمته: "نحن الشيوعيون جميعًا متهربون من حكم الموت"، وأُعدِم سريعًا بعدها.

جوليوس مارتوف (١٨٧٣-١٩٢٣): زعيم محبوب لفصيل المناشفة بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، وصديق مقرب من لينين. في حين كان معارضًا للجناح اليميني المسيطر على الحزب بعد ثورة فبراير، رفض أيضًا التحالف مع البلاشفة. التأرجح المتكرر رسَّخ من سمعة مارتوف كـ "هاملت الاشتراكية الديمقراطية".

سيرجي نيتشايف (١٨٤٧-١٨٨٢): إرهابي، وأستاذ لاهوت بمدرسة إيبرشية نهاراً، وملتهم لنصوص الثورة الفرنسية ليلًا. صار متعاونًا مقربًا من باكونين، كتبا معًا "التعاليم الثورية"، وهو كتيب إرشادي للأناركيين الراديكاليين.

القيصر نيكولاي الثاني (١٨٦٨-١٩١٨): آخر قيصر في روسيا. تنازل عن العرش في مارس عام ١٩١٧ واعتُقل وظل رهن منزله مع عائلته. أعدمه البلاشفة في يوليو عام ١٩١٨ في ذروة الحرب الأهلية.

جون أ. هوبسون (١٨٥٨-١٩٤٠): مُنَظِّر ليبرالي للإمبريالية. كان له تأثير هائل على النصوص الماركسية الكلاسيكية التي كتبتها لوكسمبورج إلى جانب لينين وبوخارين وهلفردينج.

هو تشي منه (١٨٩٠ـ١٩٦٩): ثوري شيوعي وزعيم سياسي لفيتنام، قاد بلده لنيل الاستقلال. أقصاه الرئيس ولسون في فرساي. ساهم في تشكيل الحزب الشيوعي الفرنسي قبل أن يقود القوات الثورية الفيتنامية إلى سلسلة من الانتصارات على الإمبراطوريات اليابانية والفرنسية والأمريكية.

وودرو ولسون (١٨٥٦ـ١٩٢٤): رئيس أمريكي من الفترة التي يُطلق عليها العهد "التقدمي"، أعاد الفصل العنصري في الخدمة الأهلية الفدرالية وشد من بأس الكو كلوكس كلان. كان هذا شديد الاتساق مع سياسته الدولية، التي اشتملت على إرسال جنود أمريكيين إلى المكسيك وكوبا وهايتي ونيكارجوا. كتب فرويد عنه بورتريه احتوى على نقد لاذع.

فارفارا ياكوفليفا (١٨٨٤ـ١٩٤١): عضوة بارزة في الحزب البلشفي، والمرأة الثالثة التي تنضم إلى لجنتها المركزية الحاكمة، عملت كوزيرة للتعليم والمالية في الاتحاد السوفييتي. ناصرت تروتسكي بعد وفاة لينين وأُعدمت في السجن بعد إدانتها بتهمة "التآمر الإرهابي".

FURTHER READING المزيد من القراءات

Anderson, B. (2007). *Under Three Flags: Anarchism and the Anti-Colonial Imagination.* London: Verso Books.

Anderson, P. (1976). *Considerations on Western Marxism.* London: Verso
Books.

Anderson, P. (2014). *American Foreign Policy and Its Thinkers.* London:
Verso Books.

Bolsinger, E. (2001). *The Autonomy of the Political: Carl Schmitt's and
Lenin's Political Realism.* California: Praeger Publishers.

Broido, V. (1987). *Lenin and the Mensheviks: The Persecution of Socialists
Under Bolshevism.* Colorado: Westview Press.

Clements, B. E. (1997). *Bolshevik Women.* Cambridge, UK: Cambridge
University Press.

Deuschter, I. (1970). *Lenin's Childhood.* Oxford: Oxford University Press.

Deuschter, I. (2003). *The Prophet Armed.* London: Verso Books.

Dostoevsky, F. (1959). *The Possessed.* New York: Heritage Press.

Dostoevsky, F. (2015). *Notes From Underground and Other Stories.*
London: Wordsworth Classics.

Erickson, J. (2006). *The Soviet Command: A Military-Political History,
1918–1941.* London: Routledge.

Fitzpatrick, S. (2002). *The Commissariat of Enlightenment: The Soviet Organization of Education and the Arts under Lunacharsky, October 1917–1921.* Cambridge: Cambridge University Press.

Fitzpatrick, S. (2008). *The Russian Revolution.* Oxford: Oxford
University Press.

Fitzpatrick, S., and K. Slezkine, eds (2000). *In the Shadow of Revolution:
Life Stories of Russian Women from 1917 to the Second World War.*
Princeton: Princeton University Press.

Ferguson, N. (2000). *The Pity of War: Explaining World War One.* New
York: Basic Books.
9781786631107 The Dilemmas of Lenin (779i) - new 2nd pass.indd 351 27/01/2017 15:02:52

Geras, N. (1986). *Literature of Revolution: Essays on Marxism.* London:
Verso Books.
Getzler, I. (1967). *Martov: A Political Biography of a Russian Social Democrat.* Cambridge: Cambridge University Press, and Port
Melbourne: Melbourne University Press.
Ginzberg, M. (1982). *Style and Epoch.* Cambridge, MA: MIT Press.
Goldmann, W. Z. (2008). *Women, the State and Revolution: Soviet Family
Policy and Social Life, 1917–36.* Cambridge: Cambridge University
Press.
Gregory, P. R, and N. Naimark, eds (2014). *The Lost Politburo Transcripts:
From Collective Rule to Stalin's Transcripts.* New Haven: Yale
University Press.
Harding, N. (2010). *Lenin's Political Thought: Theory and Practice in the
Democratic and Socialist Revolutions.* New York: Haymarket Books.
Hirsch, S., and L. van der Walt, eds (2010). *Anarchism and Syndicalism
in the Colonial and Postcolonial World, 1870–1940.* Leiden: Brill.
Kollontai, A. (1978). *Love of Worker Bees,* tr. Cathy Porter. London:
Virago Press.
Kollontai, A. (2011). *The Autobiography of a Sexually Emancipated
Communist Woman.* London: CreateSpace Independent Publishing
Platform.
Krupskaya, N. (2004). *Reminiscences of Lenin.* Honolulu: University
Press of the Paci[c.
Lansbury, G. (2016). *What I Saw in Russia.* South Yarra, Australia:
Leopold Classic Library.

Lieven, D. (2015). *Towards the Flame: Empire, War and the End of Tsarist Russia.* London: Allen Lane.
Lenin, V. I. (1899). 'Development of Capitalism in Russia'. Available at
the Marxists Internet Archive, marxists.org/archive/lenin/works.
Lenin, V. I. (1901). 'What Is to Be Done?'. Available at the Marxists Internet Archive, marxists.org/archive/lenin/works (etc.).
Lenin, V. I. (1905). 'Two Tactics of Social-Democracy in the Democratic
Revolution'. Available at the Marxists Internet Archive, marxists.org/ archive/lenin/works.
Lenin, V. I. (1914–1915). *Collected Works*, vol. 21. Available at the Marxists Internet Archive, marxists.org/archive/lenin/works.
Lenin, V. I. (1917). 'The Tasks of the Proletariat in the Present Revolution
[A.K.A. The April Theses]'. Available at the Marxists Internet Archive,
marxists.org/archive/lenin/works.
Lenin, V. I. (1918). 'The State and Revolution'. Available at the Marxists
Internet Archive, marxists.org/archive/lenin/works.

Lenin, V. I. (1923). 'Better Fewer but Better'. Available at the Marxists
Internet Archive, marxists.org/archive/lenin/works.
Lewin, M. (1975). *Lenin's Last Struggle.* London: Pluto Press.
Liebman, M. (1975). *Leninism under Lenin.* London: Cape.
Lissagaray, P. (2014). *History of the Paris Commune of 1871.* London:
CreateSpace Independent Publishing Platform.
Losurdo, D. (2014). *Liberalism: A Counter-History.* London: Verso.
Mantel, H. (2006). *A Place of Greater Safety.* New York: Picador.
Mayakovsky, V. (2013). *Selected Poems.* Evanston: Northwestern University Press.

McNeal, R. H. (1973). *Bride of the Revolution: Lenin and Krupskaya.* Ann Arbor: University of Michigan Press.

Mirsky, D. S. (1964). *A History of Russian Literature.* New York: Knopf.

Nabokov, V. (1981). *The Gift.* London: Penguin.

Pearson, M. (2002). *Lenin's Mistress: The Life of Inessa Armand.* London: Random House.

Pearson, M. (1974). *The Sealed Train.* London: Putnam.

Pipes, R. (1999). *The Unknown Lenin.* New Haven: Yale University Press.

Porter, C. (1976). *Fathers and Daughters: Russian Women in Revolution.* London: Virago.

Porter, C. (2014). *Alexandra Kollontai: A Biography.* London: Merlin Press.

Pushkin, A. (2014). *Collected Poems, 1813–1820.* Milton Keynes: JiaHu Books.

Rabinowitch, A. (2009). *The Bolsheviks Came to Power.* New York: Haymarket Books.

Robespierre, M. (2007). *Virtue and Terror.* London: Verso.

Rowbotham, S. (2014). *Women, Resistance and Revolution.* London: Verso Books.

Serge, V. (2015). *Year One of the Russian Revolution.* New York: Haymarket Books.

Service, R. (1994). *Lenin: A Political Life.* London: Palgrave Macmillan.

Solzhenitsyn, A. (1976). *Lenin in Zurich.* New York: Farrar, Straus and Giroux.

Steinberg, J. (2013). *Bismarck: A Life.* Oxford: Oxford University Press.

Stites, R. (1978). *The Women's Liberation Movement in Russia: Feminism, Nihilism and Bolshevism, 1860–1930.* Princeton: Princeton University Press.

Stites, R. (1989). *Revolutionary Dreams: Utopian Vision and Experimental*
Life in the Russian Revolution. Oxford: Oxford University Press.
Trotsky, L. D. (1925). 'Lenin'. Available at the Marxists Internet Archive,
marxists.org/archive/trotsky.
Trotsky, L. D. (1930). 'The History of the Russian Revolution'. Available
at the Marxists Internet Archive, marxists.org/archive/trotsky.
Trotsky, L. D. (1972). *The Young Lenin*. New York: Doubleday.
Tukhachevsky, M. (1969). 'Revolution from Without'. *New Left Review*
55, May–June 1969.
Venturi, F. (2001). *Roots of Revolution: A History of the Populist and*
Socialist Movements in 19th Century Russia. London: Phoenix.
Weiss, P. (2005). *The Aesthetics of Resistance*. Durham: Duke University
Press.
Williams, A. R. (1969). *Journey into Revolution: Petrograd, 1917–1918*.
Chicago: Chicago Quadrangle Books.
Woodcock, G. (1970). *Anarchism*. London: Penguin.
Zetkin, C. (1924). 'Reminiscences of Lenin'. Available at the Marxists
Internet Archive, marxists.org/archive/zetkin.
Žižek, S. (2011). *Revolution at the Gates: Žižek on Lenin and the 1917*
Writings. London: Verso Books.

---

i هم تيار سياسي نشأ بين المهاجرين الروس والاسم متخذ من اسم مجلة "سمينا فيخ" (تغيير اللافتات).

ii Judas Golovlyov شخصية في رواية "آل جولوفليف" للكاتب الروسي الساخر سالتيكوف شدرين، وعرفت الشخصية بنفاقها ولذلك شُبهت بيهوذا.

الفهـرس

الصفحة

القسم الرابع

القسم الخامس

"يطمح "مآزق لينين" إلى إنقاذ لينين من التشويه الليبرالي والتقديس السوفييتي، عبر استعادة واقعية وحيوية فكره السياسي."
ديفيد سيشنز، صحيفة "نيو ريببليك"

"يحثُ طارق علي قارئه على إلقاء نظرة جديدة على اختيارات لينين في سياق حكم استبدادي قمعي، وبؤس معظم السكان في ظل حكم القيصر والقتل المنهجي للحرب العالمية الأولى. إن ما يرتكز عليه كتابه هو أن (ثورة) أكتوبر كانت "ولادة بريئة ويوتوبية"، تحولت لاحقًا، وبصورة ملتوية، إلى الستالينية، عبر ثلاث سنوات مدمرة من الحرب الأهلية."
دانيل بيير، صحيفة "الجارديان"

ديكتاتور؟ ثائر؟ زعيم خالد؟ لعل التاريخ لم يرتبك في توصيف شخصية تاريخية كما فعل مع لينين. يراه البعض ديكتاتورًا قاسيًا، ويراه البعض زعيماً ومُخلِصًا. وبين "الديكتاتورية" و"الزعامة"، تبقى ملامحه الحقيقية ضبابية وغائمة. ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب.

يُدرك "مآزق لينين" تعقيد لحظة لينين وصعوبة فهم دوره في التاريخ. وينظر له كشخصية درامية بكل تقلباتها وتناقضاتها، فيقدمه في تجلياته المختلفة: لينين الثوري والسياسي، قارىء الأدب وعاشق الموسيقى الكلاسيكية، رب الأسرة ورجل الدولة. يقدمه زعيمًا في أوج قوته، ومنفيًا في تشتته وغضبه، ومريضًا في فراش احتضاره الأخير. وعبر مئات الكتابات والوثائق، يتتبع طارق علي صورة لينين، نافضًا الغبار عن سيرته ونصوصه، لكي يستنقذها من "التحنيط"، ومن استغلال الأصدقاء والأعداء، ويعيد وضعها في سياقها التاريخي المُلائم.

*

طارق علي، كاتب بريطاني من أصول باكستانية. ولد في لاهور عام ١٩٤٣. له اسهاماته المتنوعة في كتابة الرواية والتأريخ والصحافة وصناعة الأفلام. عضو اللجنة التحريرية لجريدة "نيو ليفت ريڤيو"، كما يكتب لصحيفة "الجارديان". يعتبر واحدًا من أهم المُعلقين، بمرجعية يسارية، على الشأن السياسي العالمي. من أعماله: "صراع الأصوليات"، "أوباما سيندروم"، و"سنوات حرب الشوارع". صدر له عن الكتب خان: "إدوارد سعيد: حوار مع طارق علي"، والأجزاء الثلاثة الأولى من ملحمته الروائية "خماسية الإسلام".

أمير زكي، قاص وصحفي ومترجم مصري. حصل على ليسانس الآداب في الفلسفة من جامعة القاهرة عام ٢٠٠٩. عمل بعدة صحف مصرية مثل: "الشروق" و"المصري اليوم". قدم عدة ترجمات منها: "سنة الأحلام الخطيرة" سلافوي جيجيك، "عن الطبيعة الإنسانية" نعوم تشومسكي وميشيل فوكو. صدر له عن الكتب خان: "أنطونيو وديفيد" رواية چيمال كارتشهازده، ومجموعة قصصية بعنوان "خط انتحار". حصل على جائزة أفضل مترجم شاب عام ٢٠١٤، وجائزة ساويرس الثقافية في القصة فرع شباب الكتّاب عام ٢٠١٨.




ISBN 978-977-803-073-0